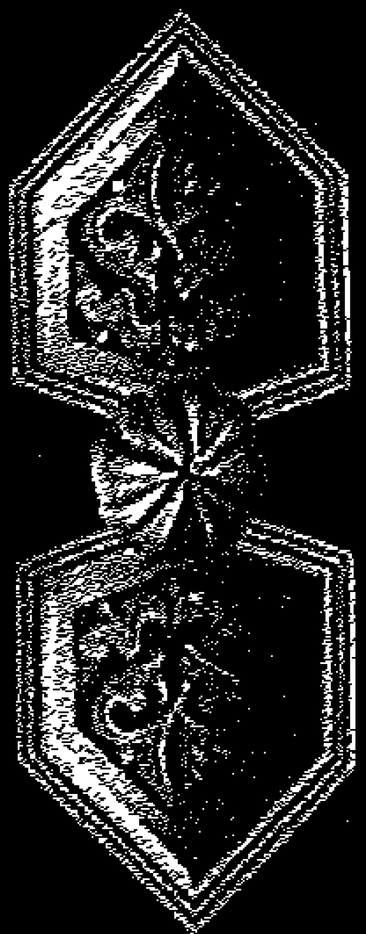
كليلة ودمنة

عبد الله بن المقفع

اعتنى به
محمد راجي كناس





دار المعرفة
بيروت - لبنان

كليلة ودمنة

عبد الله بن المقفع

عبد الله بن المقفع

كليلة ودمنة

اعتنى به
محمد راجي كناس

دار المعرفة
بيروت - لبنان

ISBN 9953-429-98-7

الطبعة الثانية

1427 هـ 2006 م



DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

جسر المطار - شارع البرجاوي - ص.ب: ٧٨٧٦ - هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٥٨٨٣٠ - فاكس: ٨٣٥٦١٤ بيروت - لبنان
Airport Bridge, P.O.Box: 7876, Tel: 834301, 858930, Fax: 835614, Beirut-Lebanon
http//:www. marefah.com
E.mail: info@marefah.com

كليلة ودمنة

اسم لكتاب شهير، ترجمه (عبد الله بن المقفع) عن اللغة الفارسية، بأسلوبه الشيق وبيانه العذب، وضمنه الكثير من الحكم والأمثال، والعبر التي تدور حول إصلاح الأخلاق وتهذيب العقول، وكان يميل إلى إبراز عيوب المجتمع بالصراحة تارة وبالرمز تارة أخرى، وقد حظي هذا الكتاب كسائر كتبه بشهرة واسعة بسبب بيانه الذي يأخذ بألباب القراء، ويستحوذ على اهتماماتهم، ومن تناول أحد كتبه فإنه لا يكاد يطيق تركه حتى يفرغ من قراءته كله، وتلك صفة لم تتأت إلا لقليل من الأدباء والكتاب من عرب وعجم. وقد أخذ (ابن المقفع) في (كليلة ودمنة) بالمنهج الرمزي، ولم يعمد إلى التصريح إلا لماماً، فلجأ إلى إقامة حوارات على ألسنة الحيوان، فيها الأمثال والحكم والعبر بأعذب لسان، وأجمل بيان، فكان موفقاً إلى حد بعيد، في إيصال الفكرة التي يريد.

عبد الله ابن المقفع

ناثر كبير وأديب خطير، أصله من بلاد الفرس، ولد بمدينة جور سنة (٧٢٤م/ ١٠٦هـ) وكانت وفاته سنة (٧٥٩م/ ١٤٢هـ)، واسمه الأصلي (روزبه) ووالده يدعى (داذويه)، ولما اعتنق الإسلام سمي (عبد الله) وكني بأبي محمد. أما لقب (المقفع) فيرجع إلى أن أباه كان قد ولاه (الحجاج بن يوسف) خراج فارس فاختلس بعض المال، فأمر به (الحجاج) فضرب على يديه فتقفعتا، فلقب بعدها بالمقفع.

كان (عبد الله بن علي) والياً على الشام لابن أخيه (أبي جعفر المنصور) فلما غضب عليه (المنصور)، عمد إلى مطاردته، فقصد البصرة، وكان فيها أخواه سليمان وعيسى، فطلبه (المنصور) منهما، فرفضا تسليمه إلا بشروط تكفل له الأمان. ولم يجد (المنصور) بداً من القبول، وكلفا (ابن المقفع) بكتابة الشروط، فتشدد فيها، مما أسخط (المنصور) عليه.

وحين تولى (سفيان بن معاوية) البصرة لأبي جعفر المنصور، كان (ابن المقفع) يسخر من كبر أنفه، فنقم منه ذلك، وأوغر عليه صدر (المنصور) فأمره بقتله، وذكر في أسباب ذلك اتهامه بالزندقة، وهو منها براء، لأن آثاره ليس فيها على ذلك دليل.

تعلَّم (ابن المقفع) العربية، حتى بزَّ أهلها، وكان يتمتع بأسلوب رصين رائع، لا سبيل إلى محاكاته، مما جعل الأدباء يطلقون عليه (السهل الممتنع).

وكان يعتز كثيراً بأدب قومه الفرس، وقد أمكن له نقل الحكمة الفارسية والهندية إلى العربية، وكذلك فعل بكتب المنطق وعلم الاجتماع والأخلاق اليونانية، فارتفع النثر العربي بقلمه إلى أرقى مراتبه.

أشهر آثار ابن المقفع التي وقعت في أيدينا (الأدب الصغير) و (الأدب الكبير) و (كليلة ودمنة) وقد كتبه على ألسنة الحيوان، وضمنه الكثير من الحكم والأمثال، والمواعظ والعبر، بأسلوب فذ ممتع جذاب.

وقد خسرت اللغة العربية بمصرعه أديباً فصيحاً، منقطع القرين.

مقدمة الكتاب

قَدَّمها بهنودُ بنُ سَحوانَ ويُعرفُ بعليٍّ بن الشاهِ الفارسيِّ، ذكرَ فيها السببَ الذي مِنْ أجلهِ عمِلَ بيدبا الفيلسوفُ الهنديُّ رأسُ البراهمةِ[1] لِدَبْشَليمَ ملكِ الهندِ كتابَهُ الذي سماه «كليلةَ ودِمنةَ» وجعله على ألسُنِ البهائم والطيرِ صيانةً لغرضِهِ فيه من العوامِّ، وَضِنًّا بما ضمَّنه عن الطغام[2]، وتنزيهاً للحكمة وفنونها، ومحاسنها وعيونها[3]، إذ هي للفيلسوفِ مندوحةٌ[4] ولخاطره مفتوحةٌ، ولِمُحبيها تثقيفٌ[5]، ولطالبيها تشريفٌ، وذكَرَ السببَ الذي من أجلهِ أنفذ[6] كسرى أنو شِرْوانُ بنُ قُباذَ ابنِ فيْرُوزَ ملكُ الفُرْسِ بَرْزَوَيْهِ رأسَ أطِبَّاءِ فارسَ إلى بلادِ الهندِ لأجل كتابِ «كليلةَ ودِمْنَةَ»

وما كان من تلطُّفِ بَرْزَوَيْهِ عند دخولِهِ إلى الهندِ حتى حضر إليه الرجُلُ الذي استنسخهُ له سرًّا من خزانةِ الملكِ ليلاً مع ما وجد من كُتبِ علماءِ الهندِ، وقد ذكَرَ الذي كان من بَعْثَةِ بَرْزَوَيْهِ إلى مملكةِ الهند لأجل نَقْلِ هذا الكتابِ.

وذكرَ فيها ما يلزمُ مُطالِعَهُ منْ إتْقانِ قراءَتِهِ والقيامِ بدراسته والنظرِ إلى

---

(1) البراهمة: قوم من الهند. لا يجوزون على الله تعالى إرسال الرسل (انظر القاموس للفيروزابادي).
(2) الضَّنُّ: البخل. والطغام: السَّفِلة.
(3) عيونها: خيارها.
(4) مندوحة: فسحة.
(5) ثَقَّف: قَوَّم.
(6) أنفذ: بعثَ.

باطنِ كلامهِ وأنَّهُ إن لم يكُنْ كذلك لم يُحْصَلْ على الغاية منه. وذكَرَ فيها حضورَ بَرْزَوَيْهِ وقراءَة الكتاب جهراً وقد ذكرَ السببَ الذي من أجله وضَعَ بُزُرْجُمَهْرَ[١] باباً مفرداً يُسَمَّى بابَ بَرْزَوَيْهِ الطبيبِ وذكَرَ فيه شأنَ بَرْزَوَيَهْ من أوَّل أمرِهِ وآنِ[٢] مولده، إلى أن بلغَ التأديبَ وأحبَّ الحكمةَ واعتبر[٣] في أقسامها. وجعله قبَل بابِ الأسدِ والثورِ الذي هو أوَّلُ الكتابِ.

[الباعث على تأليف الكتاب]

قال عليُّ بنُ الشاهِ الفارسيُّ: كان السببُ الذي من أجله وضعَ بيدبا الفيلسوفُ لدَبشليمَ ملكِ الهندِ كتابَ «كليلةَ ودمنةَ»:

أنَّ الاسكندرَ ذَا القرنين الرُّومِيَّ لما فرغَ مِنْ أمْرِ الملوكِ الذينَ كانوا بِناحِيَةِ المَغْرِبِ سارَ يريدُ مُلوكَ المشرقِ مِنَ الفُرْسِ وغيْرِهِمْ.

فَلَمْ يَزَلْ يُحارِبُ مَنْ نَازَعَهُ، ويُواقعُ مَنْ واقَعَهُ، ويسالمُ مَنْ وادَعَهُ مِنْ مُلُوكِ الفُرْسِ وهُمُ الطبقة الأولى حتى ظَهرَ عليهمْ وقَهَرَ مَنْ نَاوَأَهُ[٤] وتَغَلَّبَ على مَنْ حارَبَهُ فتفرَّقُوا طَرَائقَ[٥]، وتمزَّقُوا حَزَائِقَ[٦]، فتوجَّهَ بالجنُودِ نحوَ بلادِ الصين فبدأ في طريقهِ بملكِ الهندِ لِيَدْعُوَهُ إلى طاعتِهِ والدُّخولِ في ملَّتِهِ وولايَتِهِ.

وكان على الهندِ في ذلكَ الزَّمانِ ملكٌ ذُو سطوةٍ وبأسٍ، وقوَّةٍ ومِراسٍ[٧]، يُقالُ لهُ فَوْرُ فَلَمَّا بَلَغَهُ إقبالُ ذي القرنين نحوهُ تأهَّبَ لمحارَبته،

---

(١) وزير كسرى عمر كثيراً.

(٢) آن: حين.

(٣) اعتبر: نَظَرَ.

(٤) ناوأه: ناصبه العداوة.

(٥) طرائق: فرق.

(٦) حزائق: مفردها حزيقة وهي القطعة من كل شيء.

(٧) مراس: بأس.

واستعدَّ لمجاذبته[١]، وضمَّ إليه أطرافهُ[٢]، وجَدَّ في التألُّبِ[٣] عليه وجَمَعَ له العُدَّةَ في أسرعِ مُدَّةٍ، الفِيلَةَ المُعَدَّةَ للحُرُوبِ، والسباعَ المُضَرَّاةَ بالوثوبِ[٤]، مع الخيولِ المُسْرَجَةِ والسُّيوفِ القواطِعِ والحِرابِ اللَّوَامِعِ.

فلما قرُبَ ذو القرنيْنِ من فَوْرِ الهِنديِّ وبلَغهُ ما قد أعدَّ له من الخيْلِ، التي كأنها قِطَعُ الليْلِ، مما لم يلقَهُ بمثلِهِ أحدٌ من الملوكِ الذين كانوا في الأقاليم. تَخَوَّفَ ذو القرنيْن من تقصيرٍ يقعُ به إن عجَّلَ المبارزةَ، وكان ذو القرنيْنِ رجلاً ذا حيَلٍ ومَكايدَ مَعَ حُسْنِ تدبيرٍ وتجْربةٍ.

فرأى إعمالَ الحيلةِ والتمهُّلَ واحتفرَ خَندَقاً على عسكره وأقام بمكانهِ لاستنباطِ الحيلةِ والتدبير لأمرهِ وكيف ينبغي له أن يُقْدِمَ على الإيقاعِ[٥] به، فاستدعى المنَجِّمين وأمرهم بالاختيار ليومٍ موافِقٍ تكونُ له فيه سعادةٌ لمحاربة مَلِكِ الهندِ والنُّصرةِ عليه، فاشتغلوا بذلك، وكان ذو القرنينِ لا يمرُّ بمدينةٍ إلا أخذَ الصُّنَّاعَ المشهورينَ من صُنَّاعِها بالحِذْقِ من كلّ صِنْفٍ، فنتجتْ له همتُهُ ودلَّتْهُ فِطنتُه أن يتقدَّمَ إلى الصُّنَّاعِ الذين معه أن يصنَعوا خيْلاً من نُحاسٍ مجوَّفةً عليها تماثيلُ من الرجال على بكَرٍ تجري إذا دُفِعَتْ مرَّتْ سِرَاعاً، وأمرَ إذا فرَغوا منها أن تُحشَى أجوافُها بالنِّفْطِ والكِبريتِ وتُلَبَّسَ وتُقَدَّمَ أمامَ الصفِّ في القلبِ، ووقتَ ما يلتقي الجمعانِ تُضرَمُ فيها النيرانُ فإن الفيَلَةَ إذا لَفَّتْ خراطيمَها على الفرسانِ وهي حاميةٌ ولَّتْ هاربةً، وأوعزَ إلى الصُّناعِ بالتشمير[٦] والانكماش[٧] والفراغ منها، فجدُّوا في ذلك وعجَّلوا، وقرُبَ

(١) المجاذبة: المنازعة.
(٢) أي جمع قواه.
(٣) التألب: التجمع.
(٤) ضراه: أغراه. بالوثوب: القفز.
(٥) الإيقاع: البطش.
(٦) التشمير: الجد.
(٧) انكمش: أسرع.

أيضاً وقت اختيارِ المنجّمين فأعادَ ذو القرنين رُسلَهُ إلى فَوْرٍ بما يدعوهُ إليه من طاعتهِ، والإذعانِ لدوْلتهِ فأجابَ جوابَ مُصِرٍّ على مخالفته، مُقيمٍ على محاربتهِ.

فلما رأى ذو القرنين عزيمتَهُ سارَ إليه بأُهْبَتِهِ[١] وقدَّمَ فَوْرٌ الفِيلَةَ أمامَه ودَفَعَتِ الرّجالُ تلكَ الخَيْلَ وتماثيلَ الفُرْسانِ فأقبلتِ الفِيَلَةُ نحوَها ولفَّتْ خراطيمَها عليها فلما أحسَّتْ بالحرارةِ ألقتْ مَنْ كان عليها وداسَتْهم تحت أرجُلِها ومضت مهزُومةً هاربةً لا تَلوى على شيءٍ[٢] ولا تمرُّ بأحدٍ إلا وطِئَتْهُ وتَقَطَّعَ[٣] فَوْرٌ وجَمْعُه وتَبِعهم أصحابُ الاسكندَرِ وأثْخَنُوا فيهم الجِراحَ[٤] وصاح الاسكندَرُ: يا مَلِكَ الهندِ ابْرُزْ إلينا وأبْقِ على عُدَّتِكَ وعيالِكَ ولا تحملْهم إلى الفَناءِ فإنه ليسَ مِنَ المُروءةِ أن يرمِي المَلكُ بِعُدَّتِهِ في المهالكِ المتلفةِ والمواضع المجحفةِ[٥] بل يَقيهمْ بماله ويدفعُ عنهم بنفسهِ، فابْرُزْ إليَّ ودَعِ الجُنْدَ فأيُّنا قهرَ صاحبَهُ فهو الأسعدُ. فلما سمعَ فَوْرٌ من ذي القرنين ذلكَ الكلامَ دعتْهُ نفسُهُ إلى مُلاقاتهِ طمعاً فيه وظنَّ ذلك فُرصةً، فبرزَ إليه الاسكندر فتجاوَلا على ظَهْرِي فَرَسَيْهما ساعاتٍ من النهار ليس يَلْقَى أحدُهما من صاحبه فُرصةً ولم يزالا يتعاركانِ فلمَّا أعيا[٦] الاسكندرَ أمرُهُ ولم يجدْ فرصةً ولا حيلةً أَوْقَعَ ذو القرنيْن في عسكرهِ صيْحةً عظيمةً ارتَجَّتْ لها الأرضُ والعساكرُ، فالتفتَ فَوْرٌ عندما سمعَ الزعقةَ وظنَّها مكيدةً في عسكره، فعاجله ذو القرنين بضربْةٍ أمالَتْهُ عن سَرْجِهِ وأتبعَها بأُخرَى فوقعَ إلى الأرضِ، فلما رأتِ الهنودُ ما نزَلَ بهم وما صارَ إليه مَلِكُهم حَملوا على

(١) أهبته: استعداده.
(٢) لا تنتظر.
(٣) تقطع: تفرق.
(٤) أكثروا الجرحى في عدوهم.
(٥) المجحفة: التي لا تطاق.
(٦) أعيا: أنهك.

الاسكندَرِ فقاتلوهُ قتالاً أحَبُّوا معه الموْتَ، فوعدهم من نفسهِ الإحسانَ ومنحهُ الله أكتافَهُمْ[١] فاستولى على بلادهمْ ومَلَّكَ عليهم رجُلاً من ثِقاته وأقامَ بالهندِ حتى استوسق[٢] لهُ ما أراد من أمرهم واتفاقِ كلمتهم ثم انصرَفَ عن الهنْدِ وخلف ذلك الرَّجُلَ عليهم ومضى مُتَوَجهاً نحوَ ما قصدَ لهُ.

فلمَّا بَعُدَ ذو القرنين عن الهند بجيوشهِ تغيَّرَتِ الهنودُ عما كانوا عليه من طاعَةِ الرجُلِ الذي خلَّفَهُ عليهم وقالوا: ليسَ يَصلُحُ لِلسِّياسةِ ولا تَرضَى الخاصةُ والعامَّةُ أن يُملِّكوا عليهم رجلاً ليسَ هو منهم ولا من أهلِ بُيوتهم فإنه لا يزالُ يَستذِلهم ويستقلُّهم، واجتمعوا يُملِّكون عليهم رجلاً من أولاد ملوكِهم فملَّكوا عليهم ملِكاً يقالُ له دَبشليمُ، وخلعوا الرجلَ الذي كان خلَّفَهُ عليهم الاسكندرُ. فلما اسْتَوْسَقَ له الأمرُ واستقرَّ له المُلكُ طَغَى وبَغَى وتجبَّرَ وتكبَّر وجعل يَغْزو مَنْ حولَهُ من الملوكِ وكان مع ذلك مؤيَّداً مظفَّراً منصوراً فهابتهُ الرعيةُ. فلما رأى ما هو عليهِ من المُلْك والسَّطْوَةِ عبث بالرعيَّةِ واستصغرَ أمرَهُمْ وأساءَ السيرَةَ فيهمْ وكان لا يرتقي حالُهُ إلاَّ ازدادَ عُتُوًّا[٣] فمكث على ذلك بُرْهَةً مِنْ دهره.

[مشاورة الفيلسوف بيدبا لتلاميذه:]

وكانَ في زمانه رجلٌ فيلسوفٌ مِنَ البراهمة فاضلٌ حكيمٌ يُعرفُ بفضله ويُرْجَعُ في الأمور إلى قوله يقال له بيدبا. فلما رأى الملكَ وما هو عليه من الظُّلمِ للرَّعِيَّةِ فكرَ في وجْهِ الحيلةِ في صرفهِ عمَّا هو عليه وردَّه إلى العدلِ والإنصافِ.

فجمعَ لذلك تلاميذَهُ وقال: أتعلمونَ ما أريدُ أن أشاورَكم فيه؟ اعلموا

(١) أي مكّنه منهم.
(٢) استوسق: تهيأ.
(٣) عتواً: كبراً.

أني أطلْتُ الفكرةَ في دَبشليمَ وما هو عليه مِنَ الخروجِ عن العدل ولُزومِ الشَّرِّ ورَداءَةِ السيرةِ وسوء العِشْرَةِ معَ الرَّعيةِ؛ ونحنُ ما نروضُ أنفسنا[1] لمثلِ هذه الأمورِ إذا ظهرت مِنَ الملوكِ إلا لِنَرُدَّهُمْ إلى فعلِ الخيرِ ولُزُومِ العدلِ. ومتى أغفلنا[2] ذلكَ وأهملناهُ لزمَنا من وقوعِ المكروه بنا وبُلوغِ المحذوراتِ إلينا إذ كنَّا في أنْفُسِ الجهَّالَ أجهل منهم، وفي العُيونِ عندهم أقلَّ منهم. وليس الرأيُ عندِيَ الجَلاَءَ عنِ الوطنِ، ولا يَسعُنا في حكْمَتِنا إبقاؤُه على ما هو عليه من سوءِ السيرة وقُبحِ الطَّريقَة، ولا يُمكنُنا مجاهدتُهُ[3] بِغيرِ ألسنتِنا. ولو ذهبْنا إلى أن نستعينَ بغيرنا لم تتهيَّأ لنا معاندتُهُ وإن أَحَسَّ منَّا بمخالفتِه وإنكارنا سوءَ سيرتَه لكانَ في ذلك بوارُنا[4]. وقد تعلمون أنَّ مجاورة السَّبُعِ والكلبِ والحيَّةِ والثَّوْرِ على طِيبِ الوطن ونضارةِ العَيْشِ[5] غَدْرٌ بالنَّفْسِ.

وإنَّ الفيلسوفَ لحقيقٌ أن تكون همتُهُ مصروفةً إلى ما يُحَصِّنُ به نفْسَه مِنْ نوازلِ المكروهِ ولواحقِ المحذورِ. ويدفعُ المخوفَ لاستجلابِ المحبوب. ولقد كنتُ أسمعُ أنَّ فيلسوفاً كتبَ إلى تلْمِيذه يقول: إنَّ مُجاورَ رجالِ السُّوءِ ومصاحِبهم كراكِبِ البَحْرِ إنْ هو سَلِمَ منَ الغرقِ لم يسْلَمْ مِنَ المخاوف، فإذا هو أوردَ نفْسَهُ مورِدَ الهلكاتِ ومصادرَ المخوفاتِ عُدَّ منَ الحميرِ التي لا نَفْسَ لها، لِأَنَّ الحيواناتِ البهيميَّةِ قد خُصَّتْ في طبائِعها بمعرِفَة ما تكتسِبُ به النَّفْعَ وتتَوقَّى المكروهَ وذلكَ أَنَّنا لم نرها تُورِدُ أنفُسَها مَوْرِداً فيه هَلَكتُها، وأَنَّها متَى أَشْرَفَتْ على موْرِدٍ مُهلِكٍ لها مالت بطبائعِها التي رُكِّبتْ فيها شُحًّا بأنفُسها وصيانةً لها إلى النُّفور والتباعُدِ عنه، وقد

(١) نوطن أنفسنا.

(٢) أغفلنا: تركنا.

(٣) المجاهدة: المقارعة.

(٤) بوارنا: فناؤنا.

(٥) رغده.

جمعْتكم لهذا الأمر لأنكم أُسرتي ومكانُ سرّي وموضعُ معرفتي وبكم أعتضدُ[١] وعليكم أعتمدُ فإنّ الوحيدَ في نفسه والمُنْفردَ برأيه حيث كان فهو ضائعٌ ولا ناصرَ له، على أن العاقلَ قد يبلغُ بحيلتِه ما لا يَبلُغ بالخَيْل والجُنود.

[حكاية القُبَّرة والفيل]

والمَثلُ في ذلك أنَّ قُبَّرَةً[٢] اتَّخَذَتْ أُدْحيَّةً[٣] وباضت فيها على طريق الفيل، وكان للفيلِ مشرَبٌ يتَردَّدُ إليه، فمرَّ ذاتَ يومٍ على عادته لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ فوَطِىءَ عُشَّ الْقُبَّرةِ وهشَمَ بيضَها وقتَلَ فِراخَها، فلما نَظَرتْ ما ساءها علمتْ أنَّ الذي نالها منَ الفيلِ لا من غيرِهِ، فطارتْ فوقعتْ على رأسِهِ باكيةً ثم قالتْ: أيها الملكُ! لِمَ هَشَمْتَ بيضي وقتلْتَ فِراخِي وأنا في جِوارِكَ؟ أَفَعَلْتَ هذا اسْتصغاراً منكَ لأمري واحتقاراً لشأني؟ قال: هوَ الذي حملَني على ذلكَ. فترَكَتْهُ وانصرفتْ إلى جَمَاعةِ الطَّيْر فشكتْ إليها ما نالها من الفيل، فقلْنَ لها: وما عسى أن نبْلُغَ منهُ ونحنُ طيورٌ؟ فقالت لِلعقاعِيقِ والغِرْبانِ: أُحِبُّ منكُنَّ أن تصِرْنَ مَعي إليه فتَفْقأنَ عينيْه فإني أَحْتالُ له بعد ذلك بحيلةٍ أخرى.

فأجَبْنَها إلى ذلك وذَهَبْنَ إلى الفيل فلم يزَلْنَ يَنْقُرْنَ عينيه حتى ذَهَبْنَ بهما وبقيَ لا يهتدي إلى طريق مَطْعمِه ومشْرَبه إلا ما يَقُمُّهُ[٤] من موْضعه، فلما علمتْ القُبَّرَة ذلك منهُ جاءَتْ إلى غَدِيرٍ فيه ضَفادعُ كثيرةٌ فشكتْ إليها ما نَالها من الفيل، قالت الضَّفادعُ: ما حيلَتُنا نحنُ في عِظَمِ الفيل، وأَيْنَ نَبلغُ

(١) أتقوّى.
(٢) القبرة: طائر كالعصفور.
(٣) موضع بيض النعام في الرمل.
(٤) تقمم: تتبع الكناسات.

منهُ؟ قالتْ: أَحِبُّ منكنَّ أن تصِرْنَ معي إلى وَهْدَةٍ[١] قريبةٍ منه فَتَنْقِقْنَ[٢] فيها وتَضجِجْنَ فإنه إذا سَمعَ أَصواتَكنَّ لم يشُكَّ في الماء فيهوي فيها. فأجبنَها إلى ذلكَ واجتَمَعْنَ في الهاوية فَسمعَ الفيلُ نَقِيقَ الضَّفادعِ وقدْ جهَدَهُ العطش فأقبلَ حتى وقعَ في الوَهْدَةِ فانْحَطَمَ[٣] فيها وجاءتِ القُبَّرَة تُرفرفُ على رأسِهِ وقالتْ: أيُّها الطاغي المغترُّ بقُوَّتِهِ المحتقِرُ لأمري كيفَ رأيتَ عِظَمَ حِيلتي مع صِغَرِ جُثَّتي عند عِظَمِ جُثَّتكَ وصِغَرِ هِمَّتِكَ!؟.

[رأي تلاميذ بيدبا:]

فليُشِرْ كلٌّ واحدٍ منكم بما يسنحُ[٤] له من الرأي.

قالوا بأجمعهم: أيها الفيلسُوفُ الفاضلُ والحكيمُ العادلُ أنتَ المقدَّمُ فينا والفاضل علينا، وما عسى أن يكونَ مبلغُ رأينا عندَ رأيكَ، وفَهْمِنا عندَ فَهْمِكَ، غير أننا نعلمُ أن السِّباحَةَ في الماء معَ التمساح تغرير[٥]، والذنبُ فيه لمنْ دخلَ عليه في موْضعه. والذي يستخْرجُ السُّمَّ من نابِ الحيَّةِ فيبتلعُه ليجرِّبَهُ على نفسِه فليسَ الذنْبُ للحيَّةِ، ومن دخلَ على الأسدِ في غابتهِ لم يأمَنْ وثْبَتَهُ، وهذا الملِكُ لم تُفْزِعْهُ النوائبُ ولم تُؤَدِّبْهُ التجارِب، ولَسْنا نأمنُ عليكَ من سَوْرَتِه[٦] ومُبادرتهِ بسُوءٍ إذا لَقِيتَهُ بغير ما يحبُّ. فقال الحكيمُ بَيْدَبَا: لَعَمْرِي لقد قُلتم فأحسنتم، لكنَّ ذا الرَّأْيِ الحازمَ لا يدَعُ أن يُشَاورَ مَنْ هوَ دونَهُ أو فوْقَهُ في المنزلةِ، والرأيُ الفرْدُ لا يُكتَفى به في الخاصَّةِ ولا يُنتفَعُ به في العامَّةِ، وقد صحَّتْ عزيمتي على لقاءِ دَبْشَلِيمَ، وقد سمعتُ

(١) الوهدة: المنخفض من الأرض.
(٢) النقنقة: صوت الضفادع.
(٣) انحطم: تكسر.
(٤) يسنح: يخطر.
(٥) تغرير: تعريض النفس للهلاك.
(٦) الحدة.

مقالتَكم وتبيَّنَ لي نصيحتكم والإشفاقُ عليَّ وعليكم، غَيْرَ أني قد رأيتُ رأياً وعزَمْتُ عزماً وستعرفونَ حديثي عندَ الملِكِ ومُجاوَبتي إيَّاهُ فإذا اتَّصلَ بكم خروجي من عنْدِه فاجتَمِعُوا إليَّ. . . وصرَفَهمْ وهم يدعونَ لهُ بالسلامةِ.

[الملك دبشليم والفيلسوف بيدبا:]

ثُمَّ إنَّ بَيْدَبَا اخْتارَ يوماً للدُّخولِ على الملكِ، حتى إذا كان ذلكَ الوَقْتُ ألقَى عليه مُسُوحَهُ[1] وهي لِباسُ البراهمَةِ وقصدَ بابَ الملكِ، وسأل عن صاحب إذنه فأُرْشِدَ إليه وسلَّمَ عليه وأَعلمَهُ وقالَ لهُ: إني رجُلٌ قصدْتُ الملِكَ في نصيحةٍ، فدخلَ الآذِنُ على الملك في وقته، وقال: بالباب رجُلٌ من البراهمة يُقالُ له بيدَبا ذكرَ أنَّ معهُ لِلملِك نصيحةً.

فأذنَ له فدخلَ ووَقَفَ بين يديه وكَفَّرَ[2] وسجدَ لهُ واستوَى قائماً وسكتَ وفكَّرَ دَبشَليمُ في سُكوته وقالَ: إنَّ هذا لم يَقْصِدْنا إلاَّ لأمْرَيْنِ. إمَّا أن يلتمسَ منّا شيئاً يُصلحُ به حالَه، أو لأَمْرٍ لحِقَهُ فلم يكن لهُ به طاقةٌ.

ثم قال: إن كان للملوك فضلٌ في مَمْلكتها فإنَّ للحكماءِ فضلاً في حِكْمتها أعظَمَ، لأن الحُكماءَ أغنياءُ عن الملوكِ بالعِلْم وليسَ الملوكُ بأغنياءَ عن الحكماء بالمال، وقدْ وجدْتُ العلمَ والحياءَ إلْفيْنِ مُتآلفَيْنِ لا يَفترقانِ متى فُقِدَ أحدُهما لم يوجد الآخرُ، كالمتصافِيَيْنِ[3] إن عدِمَ منهما أحدٌ لم يَطِبْ صاحبُه نفساً بالبقاءِ بعده تأسفاً عليه، ومَنْ لم يستحْيِ من الحكماء ويُكَرِّمْهم ويعرِفْ فضلَهم على غيرهم ويَصُنْهم عن المواقف الواهنةِ[4]

(١) مسوحه: جمع مِسْح وهو: ثوب من الشعر.

(٢) أن يومئ بالرأس من غير سجود.

(٣) المتصافيين: المتوادين.

(٤) الواهنة: الضعيفة.

ويُنزِّهْهُمْ عن المواطن الرَّذْلَةِ[١] كان ممَّنْ حُرِمَ عقلَهُ وخسِرَ دُنْياهُ وظَلَم الحكماء حقوقَهم وعُدَّ من الجُهَّال.

ثم رفع رأسَه إلى بَيدبا وقال له: نظرتُ إليك يا بيدبا ساكتاً لا تَعْرِضُ حاجتَكَ ولا تذْكرُ بُغْيَتَكَ فقلتُ إنَّ الذي أسكَتهُ هَيْبَةٌ ساورَتْه[٢] أو حَيْرَةٌ أدركَتْهُ، وتأمَّلْتُ عند ذلك في طولِ وُقوفِكَ وقلتَ لم يكن لبيدبا أن يطرُقَنا[٣] على غير عادةٍ إلا لأمرٍ حرّكهُ إلى ذلك، فإنه من أفضل أهلِ زمانهِ فهلا نسأله عن سببِ دخوله، فإن يكنْ من ضَيْمٍ نالَه كنتُ أوْلى مَنْ أخذَ بيدِه وسارعَ في تشريفِه وتقدَّمَ في البلوغِ إلى مراده وإعزازِه، وإن كانت بُغيتُه عَرَضاً من أعَراض الدُّنيا أمَرْتُ بإرضائه من ذلك فيما أحَبَّ، وإن يكن من أمرِ المُلْكِ ومما لا ينبغي للملوكِ أن يبذلوهُ من أنفسِهم ولا ينقادُوا إليه نظرْتُ في قَدْرِ عُقوبتِه، على أن مثلَهُ لم يكن ليجترىء على إدخال نفسهِ في بابِ مَسألة الملوك، وإن كان شيئاً من أمور الرّعيةِ يقصِدُ فيه أن أَصرفَ عِنايتي إليهمْ نظرتُ ما هوَ، فإن الحُكماء لا يُشيرونَ إلا بالخير والجهَّالَ يُشيرُونَ بضدِّهِ، وأنا قدْ فَسحْتُ[٤] لك في الكلامِ. فلما سمعَ بيدبا ذلك من الملكِ أَفْرَخَ عنه رَوْعُه[٥] وسُرِّيَ[٦] ما كان وقعَ في نفسِه من خوفهِ وكفَّرَ له وسجدَ ثم قامَ بين يديه وقال:

أَولُ ما أَقولُ أَني أَسألُ الله تعالى بقاءَ الملكِ على الأبد ودوامَ مُلكه على الأَمَدِ، لأن الملكَ قد منَحني في مَقامي هذا مَحلاً جَعلهُ شرفاً لي على

---

(١) الرذلة: الرديئة.
(٢) ساورته: غالبته.
(٣) يطرقنا: يأتينا.
(٤) فسحت: سمحت.
(٥) ذهب خوفه.
(٦) سُرِّيَ: زال.

جميعِ مَنْ بَعْدي من العُلماء، وذِكْراً باقياً على الدَّهْرِ عند الحُكماء. ثم أقبل على الملكِ بوجهه مُستبشِراً به فَرِحاً بما بدَا له منه وقال: قد عطفَ عليَّ الملكُ بكرَمه وإحسانه، والأمرُ الذي دعاني إلى الدخول على الملكِ وحملني على المخاطرَة في كلامَه والإقدام عليه نصيحةً اختصصتُهُ بها دون غيره، وسيعلمُ مَنْ يتَّصلُ به ذلك أني لم أُقصِّرُ عن غايةٍ فيما يجبُ للمولى على الحكماء، فإن فَسَحَ في كلامي وَوَعاهُ عني فهو حقيقٌ بذلك وما يَراهُ، وإنْ هُوَ أَلْقاهُ فقد بلَغتُ ما يلزَمُني وخرَجْتُ من لَوْمٍ يَلْحقُني. قال الملكُ: يا بيدَبا تكلَّمَ مهما شئتَ فإني مُصغٍ إليكَ ومُقْبِلٌ عليك وسامعٌ منكَ حتى أستفرغَ ما عندكَ إلى آخره وَأُجازِيَكَ على ذلك بما أَنتَ أَهلهُ.

قال بيدَبا: إني وجدْتُ الأُمورَ التي اختصَّ بها الإنسانُ من بينِ سائرِ الحيوانِ أَربعةَ أَشياء وهي جُمَّاعُ[1] ما في العالمِ.

وهي الحكمةُ والعفّة والعقلُ والعدلُ. فالعِلْمُ والأدبُ والرَّوِية[2] داخلةٌ في باب الحكمةِ، والحلمُ والصّبر والوَقار داخلةٌ في باب العقْلِ، والحَياء والكرَم والصِّيانةُ والأنَفَة[3] داخلةٌ في باب العفَّة، والصّدْقُ والإحسانُ والمراقبةُ[4] وحُسْنُ الخلقِ داخلةٌ في باب العدل.

وهذه هيَ المحاسنُ، وأضدادُها هيَ المساوىءُ، فمتى كَمُلَتْ هذه في واحدٍ لم يُخْرِجْهُ النقصُ في نعمته إلى سوءِ الحظِّ من دُنْياهُ ولا إلى نقْصٍ من عُقباهُ ولم يتأسفْ على ما لم يُغْنِ التوفيقُ ببقائه ولم يُحْزِنه ما تجري به المقاديرُ في مُلكه ولم يُدْهَشْ عندَ مكروهٍ، فالحكمةُ كَنْزٌ لا يَفْنى على

(١) جماع: أخلاط الناس.
(٢) الروية والتروي: إعمال الفكر.
(٣) الأنفة: الترفع عن الدنايا.
(٤) المراقبة: الخوف من الله.

الإنفاقِ، وذخيرَةٌ لا يُضرَبُ لها بالإملاق، وحُلةٌ لا تَخْلَقُ جدَّتها، ولَذَّةٌ لا تُصْرَمُ مدَّتها، ولئن كنتُ عندَ مُقامي بينَ يدَي الملكِ أمسكتُ عن ابتدائه بالكلام فإنَّ ذلك لم يكن مني إلا لهيْبته والإجلالِ له، ولَعَمْري إنَّ الملوك لأهْلٌ أن يُهابوا ولاسيما مَنْ هو في المنزلة التي جلَّ فيها الملكُ عن منازلِ الملوكِ قبله، وقد قالت العلماءُ: الزَمِ السكوتَ فإن فيه السلامةَ، وتجنَّب الكلامَ الفارغَ فإنَّ عاقبتَه الندامةُ، وحكيَ أنَّ أربعةً من العلماءِ ضمَّهمْ مجلسُ مَلكٍ فقال لهم: ليَتكلَّمْ كلٌّ منكم بكلامٍ يكونُ أصلاً للأدب.

فقال أحدُهم: أفضلُ خَلةِ[١] العلماءِ السكوتُ.

وقال الثاني: إن من أنفعِ الأشياء للإنسانِ أن يعرفَ قدَرَ منزلتِه من عقله.

وقال الثالثُ: أنفعُ الأشياء للإنسانِ ألَّا يتكلَم بما لا يَعْنيهِ.

وقال الرابع: أرْوَحُ الأمورِ للإنسان التَّسْلِيمُ للمقادير.

واجتمعَ في بعض الأزمانِ مُلوكُ الأقاليم من الصِّينِ والهنْدِ وفارس والرُّومِ وقالوا: ينبغي أن يتكلَّمَ كلٌّ منَّا بكلمةٍ تُدَوَّن عنه على غابرِ[٢] الدَّهرِ. قال ملكُ الصِّين: أنا على ما لم أقلْ أَقْدَرُ مني على ردِّ ما قلتُ. قال ملكُ الهندِ: عَجِبْتُ لمَنْ يتكلمُ بالكلمةِ فإنْ كانتْ له لمْ تَنْفَعْه وإن كانتْ عليه أَوْبَقَتْهُ[٣]. قال ملكُ فارسَ: أنا إذا تكلَّمْتُ بالكلمةِ ملَكَتني وإذا لم أَتكلَّمْ بها مَلكْتُها. قال ملكُ الرُّومِ: ما ندِمْتُ على ما لم أتكلَّمْ به قَطُّ ولقد نَدمتُ على ما تكلَّمتُ بهِ كثيراً. والسكوتُ عند الملوكِ أحسنُ من الهذَرِ[٤] الذي

(١) الخَلة: الخصلة.
(٢) غابر: ماضي.
(٣) أوبقته: أهلكته.
(٤) الهذر: الهذيان.

لا يُرْجَعُ منه إلى نَفْعٍ، وأفضلُ ما استظَلّ بهِ الإنسانُ لِسانُهُ، غير أنّ الملك أطالَ الله مُدّته لمَّا فَسَحَ لي في الكلامِ وأوسَعَ لي فيهِ كانَ أوْلَى ما أبْدَأ به من الأُمور التي هيَ غَرَضي أن تكون ثَمَرَةُ ذلكَ لهُ دوني وأنْ أختصَّهُ بالفائدَةِ قَبلي، على أنَّ العُقَبى هي ما أقصِدُ في كلامي لهُ، وإنما نَفْعُهُ وشرَفُهُ راجعٌ إليهِ وأكونُ أنا قد قضيْتُ فرضاً وجبَ عليَّ فأقولُ:

«أيها الملكُ إنَّكَ في مَنازلِ آبائكَ وأجدَادِكَ من الجَبابرةِ الذين أسَّسوا المُلْكَ قبلَكَ وشيَّدوه دونكَ وبنَوْا القِلاعَ والحصونَ ومهَّدُوا البلادَ وقادُوا الجيوشَ واستجاشُوا[1] العُدَّةَ وطالتْ لهمُ المدَّةَ، واسكثروا من السلاحِ والكُرَاعِ[2]، وعاشوا الدُّهورَ، في الغِبطةِ والسرور، فلم يمنَعْهُمْ ذلك من اكتسابِ جميلِ الذكرِ، ولا قَطَعَهم عن اغْتنامِ الشُّكرِ، واستعمالِ الإحْسان إلى من خُوِّلوهُ والرِّفْقِ بِمَن وُلُّوهُ وحُسْنِ السيرَةِ فيما تقلَّدوه، مع عِظَمِ ما كانوا فيه من غِرَّةِ المُلْك، وسكْرَةِ الاقتدارِ، وإنك أيُّها الملكُ السعيدُ جَدُّهُ الطالعُ كوكبُ سعدِه قد ورِثْتَ أرْضَهم وديارَهم وأموالَهم ومنازلَهمْ التي كانتْ عُدَّتَهم فأقَمحتَ فيما خُوّلْتَ من المُلْكِ ووَرِثتَ من الأموالِ والجنودِ فلم تَقُمْ في ذلكَ بحقّ ما يجبُ عليكَ بلْ طَغَيتَ وبَغَيتَ وعتَوْتَ وعلوْت على الرَّعِيَّةِ أسأتَ السيرَةَ وعظُمَتْ منكَ البليَّةُ وكانَ الأوْلَى والأشبَهَ[3] بكَ أنْ تسلُكَ سبيلَ أسلافِكَ وتتَّبعَ آثارَ الملوكِ قبْلَك وتَقفُوَ[4] محاسنَ ما أبْقَوْهُ لكَ وتُقْلعَ ما عارُهُ لازمٌ لك وشَيْنُه واقعٌ بك، وتُحْسِنَ النظرَ برَعِيَّتِكَ وتَسُنَّ لهم سُنَنَ الخيرِ الذي يبقى بعدَكَ ذكرهُ ويُعْقِبُكَ[5] الجميلَ فخرهُ، ويكونُ ذلكَ

(١) استجاشوا: طلبوا.

(٢) الكُرَاع اسم يجمع الخيل.

(٣) أشبه الولد أباه: شاركه في إحدى صفاته.

(٤) تقفو: تتبع.

(٥) يعقبك: يورثك.

أبقى على السلامةِ، وأدْوَم على الاستقامةِ، فإن الجاهلَ المغترَّ مَنِ استعملَ في أمورِهِ البطَرَ والأُمْنيَّةَ، والحازمَ اللَّبيبَ مَنْ ساسَ المُلْكَ بالمدَارَاةِ والرِّفْق، فانظرْ أيها الملِكُ فيما ألْقَيْتُ إليكَ، ولا يَثْقُلَنّ ذلك عليكَ، فلم أتكلمْ بهذا ابْتغاء غرَضٍ تجازيني به ولا الْتماسَ معروفٍ تسوقُه إليّ ولكنْ أتيتُكَ ناصحاً مُشْفِقاً عليك».

[الملك دبشليم يسخط على الفيلسوف بيدبا ويسجنه]

فلما فرَغَ بيدبا من مقالته وقضى مُناصحتَه أوْغَرَ صدْرَ[١] الملكِ فأغلظَ لَهُ في الجَوَاب استِصْغاراً لأمرِهِ، وقال: لقد تكَلَّمْتَ بكلامٍ ما كِنتُ أظُنُّ أنّ أحداً من أهلِ مملكتي يستقبلُني بمثله ولا يُقدمُ على ما أُقدمتَ عليه، فكيفَ بكَ معَ صِغرِ شأنِكَ وضُعْفِ مُنَّتِكَ[٢] وعجْزِ قُوَّتكَ، ولقد زادَ عجبي من إقدامِكَ عليّ وتَسلُّطكَ بلسانِكَ فيما جاوزْتَ فيه حدَّكَ، وما أجدُ شيئاً في تأديبِ غيركَ أبلغَ من التنكيل بك فذلكَ عبرةٌ وموعظةٌ لِمَنْ عساهُ أن يبلُغَ ويرومَ ما رُمتَ أنتَ من الملوكِ إذا أوسَعَوا لهم في مجالِسهمْ.

ثمّ أمرَ به أن يُقْتَلَ ويُصلَبَ، فلما مضَوْا به فكَر فيما أمرَ بِهِ فأحجمَ[٣] عنه ثم أمر بحبسه وتقْييده، فلما حُبِسَ أنفذَ الملكُ في طلبِ تلاميذه ومن كان يجتمعُ إليه فهرَبوا في البلاد واعتصَمُوا بجزائرِ البِحارِ، فمكثَ بيدبا في محبِسهِ أيّاماً لا يَسألُ الملكُ عنه ولا يَلتفتُ إليْه ولا يجسُر أحدٌ أن يذكرَه عندَه حتى إذا كان ليلةٌ من اللَّيالي سَهِدَ[٤] الملك سُهْداً شديداً وطالَ سُهْدُه فمَدَّ إلى الفَلَك بصرَهُ وتفكَّرَ في تَفَلُّكِ[٥] الفَلَكِ وحركاتِ الكواكبِ فأغرقَ

(١) أوغر صدره: ملأه غيظاً.
(٢) المُنَّة: القُوَّة.
(٣) أحجم: تأخر.
(٤) سهد: أرِقَ.
(٥) تفلُّك: استدارة.

الفِكرَ فيه[١] فسلَكَ به إلى استنباط شيءٍ عرَض له منْ أمورِ الفلك والمسألةِ عنه، فذكرَ عند ذلك بيدبا وتفكَّرَ فيما كلّمَه فيه فأرْعَوَى[٢] لذلك وقال في نفسه: لقد أسأتُ فيما صنعْتُ بهذا الفيلسوفِ وضيَّعْتُ واجبَ حقهِ وحملني على ذلكَ سُرعةُ الغضبِ، وقد قالتِ العلماءُ أربعةٌ لا ينبغي أنْ تكونَ في الملوكِ: الغضبُ فإنه أجدرُ الأشياءِ بصاحبهِ مقتاً[٣]، والبُخلُ فإنّ صاحبَهُ ليس بمعذورٍ مع ذاتِ يدِه[٤]، والكذبُ فإنه ليسَ لأحدٍ أن يُجاورَه، والعُنْفُ في المجاورةِ، فإنّ السَّفَهَ ليس من شأنها. وقد أتَى إليَّ رجلٌ نصِحٌ لي ولم يكن مُبلّغاً[٥] فَعاملْتُهُ بضدِّ ما يستحقُّ وكافأتُه بخلافِ ما يستوْجبُ، وما كانَ هذا جزاءَه مني بل كانَ الواجبُ أنْ أسمعَ كلامَه وأنْقادَ لِما يُشيرُ به.

ثمّ أنفذَ في ساعتِه من يأتيه به.

فلما مَثَلَ بين يديهِ قال له: يا بيدبا ألستَ الذي قصَدْتَ إلى تقصيرِ همتي وعجَّزْتَ رأيي في سيرتي بما تكلمتَ به آنفاً؟ قال بيدبا: أيها الملكُ الناصحُ الشفيقُ الصادقُ الرفيقُ إنما نَبَّأْتُكَ بما فيه صلاحٌ لك ولرعيّتَك ودوامُ مُلككَ لك. قال له الملكُ: يا بيدبا أعِدْ عليَّ كلامَكَ كله ولا تَدَعْ منه حرفاً إلاَّ جئْتَ به. فجعلَ بيدبا يَنثُرُ كلامَهُ والملكُ مُصْغٍ إليه وجعلَ دَبْشَليمُ كلما سمِعَ شيئاً يَنكتُ الأرْضَ[٦] بشيءٍ كانَ في يده، ثم رفع طرْفَهُ[٧] إلى بيدَبا وأمرَهَ بالجلوسِ وقال له: يا بيدبا إني قد أستعذَبْتُ كلامَكَ وحَسُنَ موْقِعُه في قلبي وأنا ناظرٌ في الذي أشَرْتَ به وعاملٌ بما أمرْتَ. ثم أمرَ بقيودِه فَحُلَّتْ

---

(١) أغرق الفكر: بالغ.
(٢) ارعوى: ارتدع.
(٣) مقتاً: بغضاً.
(٤) يعني أنه غني.
(٥) واشياً.
(٦) النكت: أن تضرب الأرض بقضيب فتؤثر فيها.
(٧) طرفه: نظره.

وألقَى عليه من لباسهِ وتلقَّاهُ بالقَبولِ، فقال بيدبا: أيُّها الملكُ إنَّ في دونِ ما كلَّمْتُكَ به نُهْيةً لمثلكَ. قال: صدَقْتَ أيها الحكيمُ الفاضلُ وقد ولَّيْتُكَ من مجلسي هذا إلى جميعِ أقاصي مملكتي. فقال له: أيها الملكُ أعفِني من هذا الأمرِ فإني غيرُ مُضطلِعٍ بتقويمهِ إلاَّ بِكَ. فأعفاهُ من ذلك فلما ٱنصرَفَ عَلِم أنَّ الذي فعَلهُ ليسَ برأيٍ فَبَعَثَ فردَّه وقال: إني فكَّرْتُ في إعفائكَ ممّا عَرَضْتُه عليك فوجدتُه لا يقوم إلاَّ بك ولا ينهَضُ به غيرُك ولا يَضْطلعُ به سواكَ فلا تخالفْني فيه. فأجابه بيدبا إلى ذلك..

وكان عادةُ الملوك في ذلِكَ الزّمانِ إذا ٱستوْزَروا وزيراً أن يعقِدوا على رأْسِهِ تاجاً ويُرْكبَ في أهلِ المملكةِ ويُطافَ به في المدينةِ فأمرَ الملكُ أنْ يُفعَلَ ببيدبا ذلك فوُضعَ التاجُ على رأسهِ ورَكِبَ في المدينةِ ورجَعَ فجلسَ بمجلسِ العدْل والإنصافِ يأْخذُ للدَّنيِّ من الشريفِ، ويساوي بينَ القويِّ والضعيفِ، وردَّ المظالِمَ ووضَع سُننَ العدْلِ، وأكثرَ منَ العطايا والبذْلِ، واتَّصلَ الخبرُ بتلاميذِه فجاؤوا من كلّ مكانٍ فرِحينَ بما جدَّدَ الله له من جديدِ رأْيِ الملكِ فيه وشكرُوا الله تعالى على توْفيق بيدبا في إزالةِ دَبْشَليمَ عمَّا كان عليه من سوءِ السيرةِ، واتخَذُوا ذلك اليوم عيداً يُعَيّدُونَ فيه فهو إلى اليومِ عيدٌ عندَهم في بلادِ الهند.

[بيدبا يجتمع بتلاميذه]

ثم إنَّ بيدبا لما أنْ أخْلَى فكرَهُ من اشْتِغاله بدَبْشَليمَ تفرَّغَ لوضعِ كتُبِ السياسةِ ونَشِطَ[1] لها فعمِلَ كُتباً كثيرَةً فيها دقائِقِ الحِيَلِ، ومضَى الملكُ على ما رسمَ له بيدبا منْ حُسْنِ السيرةِ والعدل في الرَّعيَّة فرَغِبَتْ إليه الملوكُ الذينَ كانوا في نواحيه وانْقادَتْ له الأمورُ على استوائها وفرِحتْ به رعيَّتُه وأهلُ مملكته، ثم إن بيدبا جمع تلاميذَه فأحسنَ صلتَهمْ ووعدهم وعْداً

(١) نشط: أسرع.

جميلاً، وقال لهمْ: لسْتُ أشُك أنه وقع في نفوسِكم وقتَ دُخولي على الملكِ أن قلتم إنَّ بيدبا قَدْ ضَاعَتْ حِكمتُه وبَطَلَتْ فِكرته إذْ عزَمَ على الدُّخولِ على هذا الجبَّارِ الطّاغي، فقد علمتم نتيجةَ رأْيِي وصِحَّةَ فكري وأَني لم آتِهِ جهلاً به لأني كنتُ أسمع منَ الحُكَماءِ قَبْلي تقول إنّ الملوكَ لها سكْرَةٌ كسكرَةِ الشَّراب فالملوكُ لا تَفيقُ من السكرةِ إلاَّ بمواعظِ العِلماء وآدابِ الحُكماء، والواجبُ على الملوكِ أنْ يتَّعظوا بمواعظِ العلماءِ والواجبُ على العلماء تقويمُ الملوكِ بألْسنتِها وتأديبُهُم بحكمتِها وإظهارُ الحجّةِ البيّنةِ اللأَّزمةِ لهمْ ليرْتَدِعُوا عما همْ عليهِ من الإعوِجاجِ والخروج عن العدْلِ، فوجدْتُ ما قالت العلماءُ فرضاً واجباً على الحُكماءِ لملوكِهمْ ليُوقِظوهمْ من سِنَةِ سكرَتهمْ كالطَّبيبِ الذي يجبُ عليه في صِناعتِه حِفظُ الأجساد على صِحَّتِها أو ردُّها إلى الصِّحَّةِ.

فكرهْتُ أن يموتَ أو أنْ أموتَ وما يبقى على الأرضِ إلاَّ مَنْ يقولُ إنه كان بيدبا الفيلسوفُ في زمانِ دَبْشَليمَ الطَّاغي فلم يرُدَّه عما كان عليه، فإن قال قائلٌ إنه لم يُمكنْهُ كلامُه خوْفاً على نفسهِ قالوا كان الهربُ منه ومنْ جِوارِهِ أولَى به، والانزعاجُ عن الوطنِ شديدٌ، فرأيتُ أنْ أجودَ بحياتي فأكونَ قدْ أتيتُ فيما بيني وبينَ الحكماءَ بَعْدِي عُذْراً، فحملْتُها على التَّغْريرِ أو الظَّفَر بما أُريدهُ وكان على ذلك ما أنتمْ معايِنوهُ، فإنه يُقال في بعض الأمثالِ إنه لمْ يبلُغْ أحدٌ مرتبةً إلاَّ بإحدَى ثلاثٍ: إمّا بمشَقَّةٍ تناله في نفسِه، وإمَّا بوضِيعَةٍ[١] في مالهِ أوْ وَكْس[٢] في دينِه، ومَنْ لم يركب الأَهْوالَ لم ينَلِ الرَّغائبَ. وإنَّ الملكَ دَبْشليمَ قد بَسَطَ[٣] لساني في أنْ أضعَ كتاباً فيه ضروبُ الحكمةِ فلْيضَعَ كلُّ واحدٍ منكم شيئاً في أيِّ فنّ شاءَ ولْيَعْرضْهُ عليَّ

(١) الوضيعة. الخسارة.
(٢) الوكس. النقصان.
(٣) بسط لساني. أي أطلقه.

لأنظُرَ مقدارَ عقلِهِ وأين بلغَ منَ الحكمةِ فهمُه. قالوا: «أيها الحكيمُ الفاضلُ، واللبيبُ العاقلُ، والذي[1] وهبَ لك ما منَحَكَ من الحكمةِ والعقلِ والأدبِ والفضيلةِ ما خطَرَ هذا بقلوبِنا ساعةً قطُّ وأنتَ رئيسُنا وفاضِلُنا وبِك شرَفُنا وعلى يدِكَ انْتَعشنا ولكنْ سنُجْهِدُ أنفسنا فيما أمرْتَ.

ومكثَ الملكُ على ذلك منْ حُسْنِ السيرةِ زماناً يتولَّى له ذلك بيدبا ويقومُ به.

[تكليف بيديا بوضع كتاب في الحكمة]

ثم إن الملكَ دبْشَليمَ لما استقرَّ له المُلْكُ وسقطَ عنه النظرُ في أُمورِ الأعْداء بما قد كفاهُ ذلك بيدبا صرَفَ همتَه إلى النظَرِ في الكتُبِ التي وضعَتْها فلاسفةُ الهندِ لآبائهِ وأجدَاده فوقعَ في نفْسهِ أن يكونَ له أيضاً كتابٌ مشروحٌ يُنسَبُ إليه وتُذْكرُ فيه أيَّامُه كما ذُكِرَ آباؤهُ وأجْدادُهُ من قبله، فلما عزَم على ذلك علمَ أنه لا يقومُ ذلك إلاَّ بيدبا فدَعاهُ وخلاَ به، وقال له: يا بيدبا إنك حكيمُ الهند وفيلسوفُها، وإني فكَّرْتُ ونظرْتُ في خزائنِ الحكمةِ التي كانتْ للملوك قبْلي فلم أرَ فيهمْ أحداً إلاَّ وضعَ كتاباً تُذْكَرُ فيه أيَّامُه وسيرتُه ويُنبىءُ عنْ أدبهِ وأهل مملكته، فمنهُ ما وضعتْه الملوكُ لأنفسها وذلك لفضلِ حكمةٍ فيها، ومنه ما وضعتهُ حكماؤُها. وأخافُ أنْ يَلْحَقَني ما لحِقَ أولئك مما لا حيلةَ لي فيه ولا يوجَدُ في خزائني كتابٌ أُذْكَرُ به بَعْدِي ويُنسَبُ إليَّ كما ذُكِرَ مَنْ كانَ قبلي بكتبهمْ وقدْ أحببتُ أن تضعَ لي كتاباً بليغاً تستفرِغُ فيه عقلَكَ يكونُ ظاهرهُ سياسةً للعامَّةِ وتدْريبَها على طاعةِ الملوك، وباطنُه أخلاقَ الملوكِ وسياستَها للرَّعيَّةِ فيسقطُ بذلك عني وعنهمْ كثيرٌ مما نحتاجُ إليه في مُعاناةِ المُلْك وأريدُ أن يبقى لي هذا الكتابُ بعدي ذكْراً على غابرِ الدُّهورِ.

---

(١) الواو هنا للقسم.

فلما سمع بيدبا كلامَه خرَّ له ساجداً ورفع رأسَه وقال: أيها الملكُ السَّعيدُ جَدُّهُ، علاَ نَجْمُكَ وغابَ نحسُك ودامتْ أيَّامُك إن الذي قدْ طُبعَ عليه الملكُ من جَوْدَةِ القريحةِ ووُفورِ الْعقلِ حرَّكَه إلى عالي الأمورِ، وسمَتْ به نفْسُه وهمَّتُه إلى أشرفِ المراتبِ منزلةً وأبعدِها غايةً، وأدامَ الله سعادةَ الملك وأعانه على ما عزمَ من ذلك وأعانني على بلوغِ مرادِه، فلْيأمُرِ الملكُ بما شاءَ منْ ذلك فإني صائرٌ إلى غرضِه مجتهدٌ فيه برأيي. قال له الملكُ: يا بيدبا لم تزَلْ مؤصوفاً بحسْنِ الرَّأي وطاعةِ الملوكِ في أمورهِمْ، وقد اختبرْتُ منك ذلك واخترْتُ أن تضعَ هذا الكتابَ وتُعمِلَ فيه فكرَكَ وتُجْهِدَ فيه نفْسَك بغاية ما تجدُ إليْه السَّبيلَ، وليكنْ مشتملاً على الجَدِّ والهزْلِ واللَّهْوِ والحكمةِ والفلسفةِ. فكفَّرَ[1] له بيدبا وسجد وقال: قدْ أجبتُ الملكَ أدامَ الله أيَّامَه إلى ما أمرني به وجعلْتُ بيني وبينه أجلاً. قال: وكمِ الأجلُ؟ قال: سنَةٌ. قال: قدْ أجَّلْتُكَ. وأمرَ له بجائزةٍ سنيَّةٍ تُعينُه على عمَلِ الكتاب فبقيَ بيدبا مفكّراً في الأخذِ فيه وفي أيِّ صورةٍ يَبْتَدِىءُ بها فيه وفي وضْعه.

[استشارة بيدبا لتلاميذه بشأن كتاب الحكمة]

ثمّ إنَّ بيدبا جمع تلاميذهُ وقال لهمْ: إنَّ الملكَ قد ندبنَي إلى أمرٍ فيه فخري وفخرُكم وفخرُ بلادِكم وقدْ جمعتُكم لهذا الأمرِ. ثمّ وصفَ لهم ما سألَ الملكُ منْ أمرِ الكتاب والغرضِ الذي قصدَ فيه فلمْ يقعْ لهم الفكرُ فيه. فلَّما لمْ يجدْ عندَهم ما يرُيدُه فكَّر بفضل حكمته أنَّ ذلك أمْرٌ إنما يَتمُّ بِاْسْتِفْراغِ العقل وإعمالِ الفكر، وقال: أرى السَّفينةَ لا تجري في البحرِ إلاَّ بالملاَّحينَ لأنهمْ يُعدِّلونها، وإنما تُسْلَكُ اللجَّةُ بمُدَبِّرِها الذي تفرَّدَ بإمْرَتِها، ومتى شُحنَتْ بالرُّكابِ الكثيرينَ وكثرَ ملاَّحوها لم يُؤْمَنْ عليها من الغرقِ.

(١) كفَّرَ: خضع بأن يضع يده على صدره ويطأطىء رأسه ويتطامن تعظيماً له.

ولمْ يزَلْ يفكّر فيما يعْمله في بابِ الكتابِ حتى وضعه على الانفرادِ بنفسه معَ رجلٍ منْ تلاميذهِ كان يثق به فخلاً به منْفرِداً معه بعد أنْ أعدَّ شيئاً من الورقِ الذي كانتْ تكتب فيه الهند، ومن القوت ما يقومُ به وبتلميذِهِ تلكَ المدَّةَ وجلسا في مقْصورةٍ[1] وردَّا عليهما البَابَ، ثمْ بدأ في نظمِ الكتابِ وتصنيفِه ولم يزلْ هو يُمْلي وتلميذُه يكتبُ ويَرْجع هو فيه حتى استقرَّ الكتابُ على غاية الإِتْقان والإِحكام، ورتَّبَ فيهِ خمسةَ عشر باباً كلُّ بابٍ منها قائمٌ بنفسهِ وفي كلّ بابٍ مسألةٌ والجوابُ عَنها ليكونَ لمنْ نظر فيهِ حظٌّ من التَّبصِرَةِ والهِدايةِ، وضمَّنَ تلك الأبوابَ كتاباً واحداً سمَّاه كتابَ «كليلةَ ودمْنةَ»، ثمّ جعَل كلامَه على ألْسُن البهائم والسّباعِ والطَّيْر ليكونَ ظاهرهُ لهواً للْخواصّ والْعوامّ وباطِنهُ رياضةً[2] لعقولِ الخاصَّة، وضَمَّنَه أيضاً ما يحْتاجُ إليهِ الإنْسانُ منْ سياسةِ نفْسهِ وأهلِهِ وخاصَّتِه وجَميعِ ما يحتاجُ إليهِ منْ أمْر دِينهِ ودنْياه، وآخرتهِ، وأُوْلاهُ، ويَحُضُّهُ على حسْن طاعتهِ للملوكِ ويجنِّبهُ ما تكونُ مجانبته خيراً له، ثمّ جعله باطناً وظاهراً كرسْم سَائر الكتبِ التي برسْمِ الحكمةِ فصارَ الحيوانُ فيهِ لهواً ومَا ينْطِقُ به حِكماً وأدباً، فلما ابتدَأ بيدبا بذلِكَ جعل أوَّلَ الكتابِ وصْفَ الصَّديقِ وكيف يكونُ الصَّدِيقانِ وكيْف تُقْطع المودّةُ الثَّابتةُ بينهما بحيلةِ ذِي النميمةِ وأمرَ تلميذَهُ أنْ يكتبَ على لِسان بيدبا مثلَ ما كان الملِكُ شَرَطهُ في أنْ يجْعله لهْواً وحكمةً. فذكر بيدبا أنَّ الحكمة مَتى دَخلها كلامُ النَّقَلةِ أفْسدَها وَاسْتُجْهِلَتْ حكمتَها.

فلمْ يَزلْ هو وتِلميذه يُعملانِ الفِكْرَ فيما سألهُ الملكُ حتى فتق[3] لهما العقْلُ أن يكونَ كلامهما على لِسانِ بَهيمتَيْن، فوقع لهما موْضعُ اللَّهْو والهزْل بكلام البهائم وكانت الحكمةُ ما نطقا به، فأصْغتِ الحكماءُ إلى حكمهِ

(١) المقصورة: الحجرة.

(٢) رياضة: تمريناً.

(٣) فتق: شق.

وتركوا البهائمَ واللَّهْوَ وعلِموا أنها السّببَ في الذي وضع لهمْ ومالتْ إليهِ الجهَّالَ عجَباً منْ محاورَةِ بَهيمَتَيْنِ ولم يشكُّوا في ذلك واتخذوه لهواً وتركوا معنى الكلامِ أنْ يَفْهَمُوهُ ولم يَعلموا الغرضَ الذي وُضِعَ له، لأنَّ الفيلسوفَ إنما كان غرَضُه في البابِ الأوَّلِ أنْ يُخْبِرَ عنْ تَوَاصُلِ الإخوانِ كيْفَ تَتأكّدُ المودَّةُ بينهمْ على التَّحَفُّظِ من أهلِ السّعَايَةِ[1] والتَّحَرُّزِ ممَّنْ يُوقِعُ العَداوةَ بينَ المتحابَّيْنَ لِيَجُرَّ بذلكَ نَفْعاً إلى نفْسِه، فلمْ يَزَل بَيْدَبا وتِلميذُه في المقصورةَ حتى اسْتتمَّ عملَ الكتابِ في مدّةِ سَنَةٍ.

فلما تَمَّ الحوْلُ أنفذَ إليهِ المَلِكُ أنْ قد جاءَ الوعْدُ فماذَا صنَعْتَ، فأنْفذَ إليه بيدبا إني على ما وَعَدْتُ الملِكَ فلْيأمُرْني بحمْلهِ بعدَ أن يجمع أهلَ المملكةِ لتكونَ قراءتي هذا الكتاب بحضرتهمْ. فلما رجعَ الرّسولُ إلى الملكِ سُرَّ بذلكَ ووعده يوماً يجمعُ فيه أهلَ المملكةِ، ثمّ نادَى في أقاصي بلادِ الهندِ لِيحْضرُوا قراءة الكتابِ، فلما كانَ ذلكَ اليوْمُ أمرَ الملكُ أن يُنْصَبَ لبيدبا سَريرٌ مثلَ سريرهِ وكراسِيُّ لأبناءِ الملوكِ والعلماء وأنفذَ فأحضرَه، فلما جاءه الرَّسولُ قامَ فلبِسَ الثّيابَ التي كان يلْبَسُها إذا دخلَ على الملوكِ وهي المُسوحُ السُّودُ وحَمَّلَ الكتابَ تلميذُهُ، فلما دَخَلَ على الملكِ وثَبَ الخلائقُ بأجمعهمْ وقامَ الملِكُ شاكراً، فلما قرُبَ من الملكِ كفَّرَ له وسجَد ولم يرفعْ رأسَه، فقال له الملكُ: يا بيدبا ارفَعْ رأسَكَ فإنَّ هذا يومُ هناءٍ وفرَحٍ وسرورٍ... وأمَرَه الملكُ أنْ يجلِسَ فحين جلس لِقراءةِ الكتابِ سأله الملكُ عنْ معنى كلّ بابٍ من أبوابِ الكتابِ وإلى أيِّ شيءٍ قصدَ فيه فأخبره بغرضهِ فيه وفي كلّ بابٍ، فازدادَ الملكُ منه تعجُّباً وسروراً فقال له: يا بيدبا ما عدَوْتَ[2] الذي في نفسي وهذا الذي كنتُ أطلُبُ فاطلُبْ ما شئتَ وتَحَكَّمْ... فدعا له بيدبا بالسَّعادةِ وطوله الجَدِّ[3] وقال: أيها الملكُ أمَّا

(١) السعاية: الوشاية.
(٢) عدوت: تجاوزت الحَدّ.
(٣) الجَدُّ: الحظ.

المالُ فلا حاجةَ لي فيه وأمّا الكُسْوَةُ فلا أختارُ على لِباسِي هذا شيئاً ولستُ أُخْلي الملكَ من حاجةٍ[١] قال الملكُ: يا بيدبا ما حاجتُكَ؟ فكلُّ حاجةٍ لك مَقْضيةٌ.

قال: يأمر الملكُ أنْ يُدَوِّن كتابي هذا كما دَوَّنَ آباؤهُ وأجدادُه كتبَهمْ ويأمرُ بالمحافظةِ عليه فإني أخافُ أنْ يخرُجَ منْ بلادِ الهنْدِ فيتناولَهُ أهلُ فارسَ إذا عَلِموا بهِ، فالملكُ يأمرُ ألاَّ يخرُجَ من بيتِ الحكمةِ. ثمّ دعا الملكُ بتلاميذِهِ وأحسنَ لهمُ الجوائزَ.

ثمّ إنه لمَّا مَلَكَ كِسْرَى أنُو شِرْوانَ وكان مستأثراً بالكتبِ والْعلم والأدبِ والنظَرِ في أخْبارِ الأوائلِ وقعَ إليه[٢] خبرُ الكتابِ فلمْ يَقَرَّ قرارهُ حتى بعث بَرْزَوَيْهِ الطبيبَ وتلطَّفَ حتى أخرجهُ من بلادِ الهندِ فأقرَّه في خزائنِ فارس.

قرار إرسال برزويه إلى الهند للحصول على الكتاب

الحمدُ لله الذي بيدِه مفاتيحُ غَيْبِهِ، وإليه مُنتَهى كلّ علمٍ وغايةٍ، الدالِّ على الخيْرِ المسبِّبِ كلَّ فضيلةٍ، ألْهَمَ عبادَه كلَّ ما يُقرّبُهمْ إليه من نوافلِ[٣] الخيراتِ، ونَوامِي البركاتِ، لما أمرَ الله تعالى عبادَه منَ العلمِ والحكمةِ إذْ أمرَهمْ بالشُّكْرِ له ليستوجِبوا بذلك المَزيدَ منه ويُسارِعُوا فيما يُرْضيهِ عنهم تبارك الله ربُّ العالمينَ.

وقد جعلَ الله لكلّ مُسَبَّبٍ عِلَّةً ولكلِّ عِلَّةٍ مُجْرىً يُجريها الله تعالى به على يدِ عبدٍ من عبيدِهِ ويُقدِّرُها له على أيّامِ دولته وأيّام عُمرهِ، وذلك أنّ ما

(١) اخلى: أعفى.
(٢) وقع إليه: أي بلغه.
(٣) النافلة: : عطية التطوع. ونوامي: جمع نامية.

كانَ من علم انْتِساخِ هذا الكتاب ونقْلهِ من أرضِ الهندِ إلى مملكةِ فارسَ إلهامٌ ألهمَهُ الله كِسرى أنوشِرْوانَ للبَحْث في نقلهِ ونَسخه، لأنه كان أكبرَ ملوكِ الفُرْس، وأكثرَهمْ حكمةً وأسدَّهم رأياً وأرشدَهمْ تدبيراً، وأحبَّهمْ للعلومِ وأبحثَهمْ عن مَكامِنِ[١] العلمِ والأدَب، وأحرصَهم على الخيرِ وتَقَرُّبهِ إلى الله تعالى وإلى اقتناءِ ما يَزينُه بزينةِ الحكمةِ من طالبي الأدبِ والعلمِ في معرفةِ الخير والشرِّ والنفْعِ والضَّرِّ والصَّديقِ والعدوِّ، ولم يكنْ يعرفُ ذلكَ إلاَّ بنورِ الله تعالى في سياستهِ عبيدَه وبلادَه لإقامةِ رعيتِه وأُمورِه، وهو المَلِكُ المعظَّمَ في قومهِ، كسرَى المتزيّنُ بزينةِ البَهاءِ، الفاضلُ الماجدُ الرّشيدُ السعيدُ، الذي لم يَعْدِلْهُ أحدٌ ممنْ مضَى قبلهُ من مُلوك الفُرْسِ، الناقدُ البصيرُ الكاملُ الأدَبِ المُعينَةُ له نفسُه على التماسِ فروعِ الحكَمِ، المستعينُ بنورِ العقلِ وجَوْدَةِ[٢] الفِكْرِ، الذي اختصَّهُ الله تعالى بهذهِ الخصالِ المحمودَةِ، وزيَّنَهُ بزينةِ الكرامةِ وتوَّجَهُ بهذه النِّعمةِ السابغةِ[٣]، حتى أذْعنَتْ له الرعيَّةُ، وخضَعَتْ لِسُلطانِهِ البريَّةُ، وصفَتْ له الدُّنْيا ودَانَتْ له البلادُ وانْقادتْ له الملوكُ وركَنتْ إلى طاعتهِ وخِدْمتِه ومُناصَحتِه، وذلك مِنْحةٌ من الخالقِ جلَّ وعلاَ قَسَمَها لهُ في دَوْلتِه، وجَمَّلهُ بها في أقطاره مملكتَه.

فبينما هو ذاتَ يومٍ في عُنْفُوَانِ دوْلتِه وشُمُوخِها[٤] وعزَّةِ مملكتهِ وقَعَسِها[٥] إذْ أخبرَهْ بعض جلسائهِ أنَّ عندَ بعضِ مُلوكِ الهندِ في خزائنه كتاباً من تأليفِ الحكماء وتصانيفِ العلماءِ واستنباطِ الفُضلاءِ، وقدْ فُصِّلَتْ له غرائِبُ من عجائبه الموضوعةِ على أفواهِ البهائِمِ والطَّيْرِ والوحشِ والهوامِّ[٦]

(١) المكامن جمع مكمن: المخابئ.
(٢) جَوْدَة من جاد الشيء: صار جيداً.
(٣) السابغة: المتسعة الشاملة.
(٤) عنفوان الشيء: أوله. والشموخ: السمو.
(٥) القعس: العزة.
(٦) الهوام: الحشرات.

وخَشَاشِ[١] الأرْضِ مما تحتاجُ إليهِ فُضلاءُ الملوك لسياسةِ رعيَّتِها ونظامِ أمورِ ممالِكِها وتدْبيرِها، فدَعتْه الحاجةُ إلى اقْتنائه ونسخه.

فلما تمّ عزْمُه وانتظمَ سألَ وُزَرَاءَهُ أن يتقدّموا ويجتهدوا في تَطَلُّب رجُلٍ كاملٍ عالمٍ أديبٍ، قد جمعَ الفضائلَ بحذافيرِها ونُسبَ إلى الكمالِ من أهلِ الصِنْفَيْنِ المذكورَيْنَ، إمَّا كاتباً نحريراً[٢] أو طبيباً فيلسوفاً ماهراً قد أدَّبَتْهُ التَّجاربُ عارِفاً بلسان الفارسيَّةِ خُبيراً باللغةِ الهِنْديَّةِ يكتُبُ بهما جميعاً حريصاً على العلمِ مجتهداً في الأدبِ مواظِباً على الطِّبِّ أو الفلسفةِ فيأتوهُ به.

فخرجَ أهلُ مشورَتِهِ ووُزَراؤهُ مُسْرِعينَ فبحثُوا عمَّنْ هذهِ صفتُه فوجدُوهُ وظَفَرُوا به فإذا هو شابٌّ جميلُ الوجْهِ كاملُ العقلِ والأدبِ ذو حَسَبٍ وصِنَاعَةٍ شَريفَةٍ يُعْرَفُ بها وهي الطِّبُّ، وكانَ ماهراً بالفارسيَّةِ والهندية وهو بَرْزَوَيْهِ بنُ أزْهَرَ الفيلسوفُ، وكان من فُضلاءِ أطِبَّاءِ فارسَ، فأُحْضِرَ بين يَدَيِ الملكِ كسرَى فخرَّ ساجداً وعَفَّرَ[٣] وجهَهُ طائعاً للملكِ.

فقال له الملكُ: إني قد اخترتُكَ لِمَا بلَغني من فضلكَ وعلمِكَ وعقلكَ وحِرصِكَ على طلبِ العلمِ حيثُ كان. وقد بلَغني عن كتابٍ بالهند مخزونٍ في خزائنهمْ، وقصَّ عليه قصتَهُ وما بلَغهُ عنهُ، وقالَ لَهُ: تجهَّزْ فإني مُرَحِّلُكَ إلى أرض الهند، فتَلطَّفْ في ذلكَ بعَقْلِكَ وحُسْنِ أدبِكَ ونافذِ رأيِكَ لاستخراجِ هذا الكتابِ من خزائنهم ومن قِبلِ[٤] علمائهم وحكمائِهِمْ تامًّا كاملاً مكتوباً بالفارسيَّةِ فتَسْتفيدُه أنتَ وتُفيدُنا إيَّاهُ، وما قَدَرْت عليه من كُتبِ الهند ممَّا ليسَ في خزائننا منهُ شيءٌ فاحْملْهُ معكَ وقد أمرْنا أن يُطْلَقَ لكَ من

(١) خَشاش الأرض: الواحدة خشاشة وهي الحشرة.
(٢) النِحرير: العالم الحاذق.
(٣) عفر وجهه: مرغه.
(٤) قِبَلَ: جهة.

أموالِنا ما تختارُ وتحتاجُ إليه، فإذا نَفِدَ ما تَسْتَصْحِبُه فاكتُبْ إلينا نُمِدَّكَ بالمال وإن كَثُرَتْ فيه النَّفقةُ فإنَّ جميعَ ما في خزائننا مبذولٌ لكَ في طلب العلومِ وهذا الكتابِ، فطِبْ نَفْساً وقَرَّ عَيْناً وعجِّلْ في ذلك ولا تُقَصِّرْ في طلَبِ العلومِ واعمَلْ على مَسيرِكَ إنْ شاءَ الله تعالى.

قال بَرْزَوَيْهِ: أيُّها الملكُ عِشتَ دَهْراً طويلاً سعيداً ومُلِّكْتَ الأقاليمَ السبعةَ في خَفْضٍ وَدَعَةٍ[1] مُوءَيَّداً منصوراً، إنما أنا عبْدٌ مِنْ عبيدِكَ وسَهْمٌ من سِهامِكَ فَلْيَرْمِ بيَ الملكُ حيثُ شاءَ من الأرضِ، من بعدِ أنْ يأذَنَ الملكُ أدامَ أيامَهُ في غِبطةٍ وسرورٍ أن يعقِدَ لي مجلساً قبلَ سفري يحضرُه الخواصُّ ليعلمَ أهلُ الطاعةِ والمَمْلكةِ ما اسْتخصَّني به الملكُ ورآني أهلاً له ونوَّهَ باسمي[2] فليفعلْ ذلكَ مُنْعماً على العبدِ الطائعِ. فقال الملكُ: يا بَرْزَوَيْهِ قد رأيتُكَ لذلك أهلاً وأجبتُكَ إلى ما طلبتَ، وأذِنْتُ لكَ فيما سألْتَ، فافعَلْ من ذلكَ حسَبَ ما تراهُ موافِقاً لكَ مُنوِّهاً باسمِكَ.

ثمَّ خرجَ برزويْهِ من بين يدَيِ الملكِ فرحاً مسروراً وأعدَّ له الملكُ يوماً أمرَ أنْ يُجْمَعَ له فيه أهلُ مملكتِهِ وخواصُّ أمراءِ دَوْلتِهِ، ثم أمرَ أن يُنْصَبَ له مِنبرٌ فنُصِبَ ورَقِيَ عليه بَرْزَوَيْهِ ثمَّ قالَ:

«أمَّا بعدُ فإنَّ الله تباركَ وتعالى خلقَ الخلْقَ برَحْمَتِهِ، ومَنَّ على عبادِهِ بفَضْلِهِ وكرمِهِ، ورزقَهمْ من العقلِ ما يَقْدِرُونَ به على إصلاحِ مَعايشِهِمْ في الدُّنْيا ويُدْرِكونَ به اسْتنقاذَ أرواحِهِمْ منَ العذابِ في الآخرَةِ، وأفضلُ ما رزَقهمُ الله تعالى ومَنَّ به عليهم العقلُ الذي هوَ الدِّعامةُ لجميعِ الأشياءِ، والذي لا يَقْدِرُ أحدٌ في الدُّنيا على إصلاحِ معيشتِهِ ولا إحرَازِ نَفْعٍ ولا دَفْعِ ضرَرٍ إلاَّ بفيْضِهِ من الخالقِ المُبدِعِ الواحدِ الأحَدِ، وكذلكَ طالبُ الآخرَةِ

(١) الدَّعَةُ: سعة العيش.

(٢) نوه باسمي: أي رفع ذكري.

الزَّاهدُ المجتهدُ في العملِ المُنْجي به نفْسَه من عَمَايةِ[١] الضلالة لا يقدِرُ على إتمام عملِهِ وإكمالِه، ولا يَتِمُّ ذلكَ إلاَّ بالعقْلِ الذي هوَ السَّببُ الموَصِّلُ إلى كلِّ خَيْرٍ والمِفْتاحُ لكلِّ سعادةٍ والمُبلِّغُ إلى دارِ الخلودِ، فليسَ لأحدٍ عنهُ غِنًى ولا بغيرِهِ اكْتفاءٌ، والعقلُ غَريزيٌّ[٢] مَطْبوعٌ ويتزايَدُ بالتَّجَارِبِ والآداب، وغريزَتُه مكنونَةٌ في الإِنْسانِ كامنةٌ فيه كُمُونَ النَّار في الحجرِ فإن النارَ طبيعتُها فيه كامنةٌ لا تَظْهَرُ ولا يُرَى ضوْؤُها حتى يقدَحها قادحٌ من غيرها، فإذا قدَحَها ظهرَتْ طبيعتها بضوْئِها وحريقِها.

وكذلك العقْلُ كامنٌ في الإِنْسانِ لا يَظْهَرُ حتى يُظْهِرَه الأدبُ وتَعْضُدَهُ التجاربُ[٣] فإذا اسْتحكَم كانَ أوْلَى بالتَّجارِبِ لأَنَّه هو المقَوّي لكلِّ فضيلةٍ والمُعينُ على دفْعِ كلِّ رذيلةٍ فلا شيءَ أفضلُ من العقْلِ إذا مَنَّ الله تعالى على عبْدِه به وأعانَه على نفسِه بالمواظبةِ على طُرُقِ الأدَبِ والعلمِ والحِرْصِ على ذلك، ومَنْ رُزِقَ العَقْلَ ومُنَّ به عليْه وأُعينَ على صِدْقه قريحتِه بالأدَبِ حَرَصَ على طلَبِ سَعْد جَدّه[٤] وأدرَكَ في الدُّنْيا أملَهُ وحازَ في الآخرَةِ ثوابَ الصَّالحينَ، فالعقْلُ هو المقوِّي لِلمَلِكِ على مُلكِه فإنَّ السُّوقةَ[٥] والعوَامَّ لا يَصلُحونَ إلاَّ بإضافة يَنبوعِ العدلِ الفائض عنِ العقلِ لأنهُ سِياجُ الدولةِ.

وقد رزقَ الله ملِكَنا السعيدَ كسرى أنوشرْوانَ مِنَ العقلِ أفضلَ الحظِّ وأجزلَهُ، ومن العلمِ أجملَهُ وأكملَهُ، ومن المعرفَةِ بالأمورِ أصوبها، وسدَّدهُ من الأفعالِ إلى أسدِّها، ومن البحثِ عن الأصولِ والفُروعِ إلى أنفعِها، وبلَّغهُ منْ فُنونِ اختلافِ العلمِ وبُلوغِ منزلةِ الفلسَفَةِ ما لم يبلُغْهُ مَلِكٌ قطُّ من

(١) العَمَاية: الغَوَاية.
(٢) الغريزة: الطبيعة.
(٣) تعضده: تشد أزره.
(٤) الجد: الحظ.
(٥) السُّوقَةُ: الرعية وعند العرب خلاف الملك.

الملوكِ قبلَهُ، وكان هو القابلَ لذلك بجَوْدَةِ المادَّة القابلةِ لانطباعِ الصُّوَرِ، فبلغَ بذلك الرُّتبةَ القُصوى[1] في الفضلِ على مَنْ مضى منَ الملوكِ قبلَهُ، حتى كان فيما طلبَ وبحثَ عنه وسمَتْ إليه نفسَهُ من العلمِ أن بلغَهُ عن كتابٍ بالهندِ من كُتبِ فلاسفتِها وعُلمائها مخزونٍ عندَ مُلوكِهم عَلِمَ أنَّهُ أصلُ كلِّ أدَبٍ، ورأسُ كلِّ عِلْمٍ والدليلُ على كلِّ منفعةٍ ومِفْتاحُ عمَلِ الآخرةِ وعِلْمِها ومعرفةِ النَّجاةِ من أهوالِها والمُقَوّي على جميعِ الأمورِ والمعينُ على ما يَحْتاجُ إليهِ الملوكُ في تدبيرِهم لأمورِ ممالكِهِمْ وآدابِ السُّوقَةِ فيما يُرْضُونَ به مُلوكَهمْ ويُصْلِحُونَ به معايِشَهمْ وهو كتابُ «كليلةَ ودِمْنَةَ»، فلمَّا تيقَّنَ ما بلغَهُ عنْ ذلك الكتابِ وكشَفَ عمَّا فيه منَ المنافعِ منْ تقْويةِ العقلِ والأدَبِ رآني أهلاً لذلكَ وندَبني إلى اسْتخراجِهِ والله الموفِّقُ والسلامُ».

[تحديد موعد سَفَر برزويه إلى الهند]

فعندَ ذلكَ ظَهرَ للملِكِ علمُه ونجابتُه وشَهامتُه[2] فَسُرَّ بذلكَ سرُوراً شديداً، ثمَّ أمرَ الملكُ عندَ ذلكَ بإحضارِ المُنَجِّمينَ وأنْ يتَخيَّرُوا له يوْماً سعيداً وطالعاً صالحاً وساعةً مُباركةً ليتوَجَّهَ فيها فاخْتارُوا له يوْماً يَسيرُ فيهِ وساعةً صالحةً يخرُجُ فيها، فَسارَ بَرْزَوَيْهِ بطالعِ سَعْدٍ وحمَلَ معهُ منَ المَالِ عِشرينَ جِراباً كلُّ جِرَابٍ فيه عشَرةُ آلافِ دينَارٍ، وتوَجَّهَ جادًّا في طلبِ حاجَتِه نهاراً وليْلاً حتى قَدِمَ بلادَ الهنْدِ، فجعلَ يطُوفُ بِبابِ الملكِ ومجالِسِ السُّوقةِ، ويُجالسُ الحكماءِ ويَسألُ عنْ خواصِّ المَلِكِ والأشرافِ منْ جُلسائهِ والعلماءِ والفلاسَفةِ، وجعلَ يَغْشَاهمْ[3] في مَجالسِهِمْ وَيتلقَّاهمْ بالتَّحيةِ والسلامِ، ويُخبرهُمْ أنهُ رجُلٌ غريبٌ قَدِمَ بلادَهم لطلَبِ العلمِ والأدبِ

---

(١) القصوى: العليا.
(٢) الشهامة: اسم والشهم الذكي الفؤاد.
(٣) يغشاهم: يطرقهم.

والبحْثِ عنهُ ورياضتهِ به[١] وأنهُ مُحتاجٌ إلى معُونتهمْ فيما يَطْلُبُ من ذلكَ ويسألُهمْ بَذْلَ الدعاءِ لهُ ببُلوغِ آمالهِ مع شَدَّةِ كِتمانِه لِمَا قَدِمَ بسببِه ودفْنه لِسرّه، فلم يزَلْ كذلك زَماناً طويلاً يتأدَّبُ على عُلماءِ الهنْدِ بما هوَ عالمٌ بجميعِه وكأنهُ لا يَعلُم منهُ شيئاً، وهوَ فيما بين ذلكَ يَستُرُ بُغْيتَهُ[٢] وحاجتَهُ، في أثْناءِ ذلكَ يبحثُ في مطْلوبه بِحُنْكةٍ[٣] وسيَاسَةٍ وعِفَّةٍ ونزَاهَةٍ واتَّخذَ في تلْكَ الحالةِ لِطُولِ مُقامِه أصدقاءَ أصْفياءَ كثيرينَ كلُّهمْ منْ أهلِ الهنْدِ من الأشرَافِ والعلماءِ والفلاسفةِ والسُّوقةِ ومِنْ أهْلِ كلِّ طَبقةٍ وصِناعةٍ.

[اتخاذ برزويه صديقاً هندياً]

وكان قد اتَّخذَ منْ بين أصْدقائه وأصْفيائه رجُلاً واحداً اصْطَفاهُ لسِرّهِ واختَصهُ لمَشُورتِه لِمَا ظهرَ لهُ منْ فضْلهِ وأدَبه وحِكمتهِ وفَهْمه وكتمانِه لسرّ نفْسه، ولما اسْتبانَ لهُ منْ صِحَّة إخائه، وكان يُشاورُهُ في الأُمُورِ ويرْتاحُ إليه في جميع ما أهمَّهُ، إلاّ أنه كانَ يكتُمُ عنه الأمْرَ الذي قَدِمَ منْ أجِله حتى يبلُوَهُ ويَختبرَهُ وينْظُرَ هلْ هو أهْلٌ أنْ يُطْلِعَهُ على سِرّه ولم يزَلْ يبحثُ عنه ويجتهدُ في أمْرهِ حتى وثِقَ به وُثوقَ الأكْفاءِ[٤] بالأكْفاءِ، وعلِمَ أنهُ محَلٌّ لكشْفَ الأسرَارَ الجَليلَةِ الخطيرة وأنهُ مأمونٌ على ما يُستودع من ذلك غيرُ خائنٍ صديقٌ صَدْقٌ ثم زادَ لهُ إلْطافاً[٥] وبه احْتفاءً وعليه حُنُوًّا إلى أنْ حضرَ اليومُ الذي رَجا فيه بُلوغَ أُمْنِيتِهِ والظَّفَرَ بحاجتهِ معَ طُولِ الغَيْبةِ وعِظَمِ النفقةِ في استلْطافِ الإخوانِ ومجالستهمْ على الطَّعامِ والشَّراب.

وأنهُ لـمَّا وثِقَ بصديقهِ الهنديِّ الذي تقدَّمَ ذكرُه وأنِسَ به وسَبَرَ عقلَهُ

---

(١) رياضته به: أي تهذيبه.
(٢) بغيته: مرامه.
(٣) الحُنكة: إحكام التجارب.
(٤) الأكفاء: جمع كفؤ وهو المثيل.
(٥) إلطافاً: براً وإحساناً.

واطْمأنَّ إليه في سرِّه، قال لهُ يوماً وهما خاليانِ: يا أخي ما أريدُ أن أكتُمَكَ من أمري فوْقَ الذي كتَمتُكَ لأنك أهلٌ لذلك، فاعْلَمْ أني لأمر قدِمْتُ بلادَكم وهو غيرُ الذي يظهرُ مني، والعاقلُ يكتفي منَ الرَّجلِ بالعلاماتِ منْ نظرِه وإشارتهِ فيعلمُ بذلك سِرَّ نفسهِ وما يُضمِرُه قلْبُه.

فقال لهُ صديقهُ الهنديُّ: إني وإن لم أكنْ بدَأْتُكَ وأخبرتُكَ بما لهُ جئْتَ وإيَّاهُ تُريدُ وإليْهِ قصدْتَ وأنكَ تكتمُ ما تطلُبُه وتُظْهرُ غيرَه فما خفيَ عليَّ ذلكَ منْكَ ولا ذَهبَ عني ما كتمتَهُ، ولكنّي لرَغْبتي فيكَ وفي إخائكَ كرِهْتُ أنْ أُواجهَكَ بذلكَ وأُفاجئكَ به لأني قد ظهرَ لي ما تكتمُ وبانَ لي ما أنْتَ لهُ مُخْفٍ، فأمَّا إذْ قدْ أظْهرْتَ ذلكَ وأفصَحْتَ به من نَفسكَ فإنّي مُخبرْكَ عنْ نفسكَ ومُظهِرٌ لكَ سريرةَ أمركَ ومُعلِمكَ عن سِرِّ حاجتكَ التي قدِمْتَ بسببها وأطلْتَ مُقامَكَ في طلبها.

وذلك أنَّك إنما وطِئتَ أرضَنا وقدمْتَ إلى بلادِنا لتسْلُبَنا كنُوزَنا النَّفيسةَ فتذْهبَ بها إلى بلادِكَ وتسُرَّ بها ملِكَكَ، وكان قُدومكَ إلينا بالمكْرِ ومُصادقتُكَ لنا بالخديعةِ، ولكني لمَّا رأيتُ صبركَ ومُواظبتكَ على طلبِ حاجتكِ والتَّحفُّظِ منْ أنْ تسْقُطَ في الكلام معَ طُول مُكثكَ عنْدَنا على كتم أمْركَ بشيءٍ يُستدلُّ به على سريرتَكَ وأُموركَ، ازددْتُ رَغْبةً في إخائِكَ وثقةً بعقْلكَ وأحْببتُ مودَّتَكَ، فإني لمْ أر في الرّجال رجُلاً هو أرْصنُ[١] منْكَ عقْلاً ولا أحسنُ أدباً ولا أصْبَرُ على طلب العلمِ ولا أكتَمُ لسرِّهِ، ولاسيَّما في بلادِ غُرْبةٍ ومملكةٍ غيرِ ممْلكتكَ وعندَ قوم لا تعرِفُ سُنَنهمْ ولا شيَمَهمْ[٢] وإنَّ عقْلَ الرَّجُل ليَبينُ في خِصالٍ ثمانٍ: الأُولى منها الرِّفْقُ، والثَّانيةُ أنْ يَعْرفَ الرَّجُلُ نفْسَهُ فيحْفظها، والثَّالثةُ طاعةُ الملوكِ والتَّحرّي لِمَا يُرْضِيهمْ،

(١) أرصن: أحكم.

(٢) السنن: الطرق. والشيم ج شيمة: أي الغريزة.

والرَّابعةُ مَعرفةُ الرَّجُلِ مَوْضعَ سرّهِ وكيْفَ ينبغي أنْ يُطْلِعَ عليْهِ صديقَهُ، والخامِسةُ أنْ يكونَ على أبواب الملوكِ مَلِقَ[١] اللّسَانِ، والسَّادِسةُ أن يكونَ لِسِرّهِ ولسرِّ غيرهِ حافِظاً، والسَّابعةُ أنْ يكُونَ على لسانهِ قادِراً فَلاَ يَتكلمُ إلاَّ بما يأمنُ تَبِعَتَه ولا يُطْلِعُ على سرّه إلاَّ الثّقاتِ، والثَّامنةُ ألّا يتكلَّمَ في المحافِلِ بما لا يُسألُ عنهُ.

فَمنِ اجتمعَتْ فيهِ هذهِ الخصالُ كانَ هوَ الداعيَ الخيْر إلى نَفسهِ. وهذهِ الخِصالُ كلُّهَا قدِ اجتمعَتْ فيكَ وبانَتْ لي مِنْكَ فالله تعالى يَحْفظُكَ ويُعينُكَ على ما قدِمْتَ لهُ ويُظْفرُكَ بحاجتِكَ لأنكَ إنما صادَقْتَني لِتَسْلُبَنِي عِلْمي وفَخْرِي وإنك أهْلٌ لأن تُسعَفَ بحاجتكَ وتُشفَعَ[٢] بِطَلِبتِكَ وتُعْطَى سُؤلَك. ولكنْ حاجتُكَ التي تطلُبُ قدْ أرهبَتْ نفْسِي وأدخلَتْ علي الفرَقَ[٣] والخشْيةَ. فلَّما عرَفَ بَرزَوَيْهِ أنَّ الهنديَّ قد عرفَ أنَّ مُصادقتَهُ إنما كانتْ مكْراً وخديعةً وطلبَ حاجتَه فلمْ يزجُرْهُ ولمْ ينتهرْهُ بلْ رَدَّ عليهِ رَدًّا ليِّناً كردِّ الأخِ على أخيهِ بالتعطّفِ والرِّفْقِ وثِقَ بقضاءِ حاجَتِه منهُ فقال لهُ: إني قدْ كنتُ هيَّأتُ كلاماً كثيراً وشعَّبْتُ لهُ شعُوباً وأنشأتُ لهُ أُصُولاً وطُرُقاً فلَمَّا انتهيْتُ فيهِ إلى ما بادهْتَني بهِ من اطّلاعِكَ على أمْري والذي قدمْتَ لهُ وألقيْتَهُ إليَّ من ذاتِ نفْسكَ ورَغْبتكَ فيما ألْقيتُ من القولِ اكْتفيتُ باليسيرِ من الخطاب معكَ عمَّا كنْتُ اختلفُ فيه. إذْ عرَفْتَ الكثيرَ منْ أمُوري بالْقليل منَ الكلاَم لما قسَمَ الله لكَ من الْعقْل والأدَب. فكفَيتَنِي مؤونَة الكلام فاقتصَرْتُ به معكَ على الإيجاز. ورأيْتُ من إسْعافكَ إيَّاي بحاجتي ما دَلّني على كرمك وحُسن وفائكَ. فإنَّ الكلامَ إذا أُلقي إلى الفيْلَسُوف والسِّرَّ إذا استُودعَ اللّبيبَ الحافِظَ فقدْ حُسّنَ وبُلغَ

(١) المَلَقُ: التودد والتلطف.

(٢) شفعت الشيء بكذا: ضممته إليه.

(٣) الفرق: الخوف.

به نهايةُ أملِ صاحبِهِ كما يُحَصَّنُ الشَّيءُ النَّفيسُ في القلاعِ الحَصِينَةِ. فقالَ لهُ الهِنْدِيُّ: لا شيء أفْضلُ من المودَّةِ، ومَنْ خَلصَتْ مَوَدَّتُهُ كانَ أهْلاً أنْ يَخْلِطهُ الرَّجُلُ بنفسهِ ولا يذْخرَ[١] عنهُ شيْئاً ولا يكْتُمَهُ سِرًّا ولا يمنَعهُ حَاجَتهُ ومُرادَهُ إنْ قدرَ على ذلِك. ورأسُ الأدبِ حِفْظُ السرّ. فإذا كان السرُّ عِنْد الأمينِ الْكتُومِ فقدِ احْتَرَزَ مِن التَّضْييعِ لأنهُ خَليقٌ ألّا يتكلَّمَ بِهِ، ولا يُكْتَمُ سرٌّ بين اثْنَيْن قدْ عَلِماهُ وتفاوَضا[٢] فيهِ ولا يكُونُ سِرًّا لأنَّ اللّسانيْنِ قد تكلما به، فإذا تكلمَ بالسّرّ اثْنان فلا بُدَّ مِنْ ثالثٍ من جهةِ الواحِدِ أوْ منْ جهةِ الآخرِ، فإذا صارَ إلى الثَّلاثةِ فقدْ شاعَ وَذاعَ حتى لا يَستطيعُ صاحبُهُ أنْ يجْحدَهُ ويكابرَ فيهِ، كالْغيْمِ إذا كانَ متقطّعاً في السَّماءِ فقال قائلٌ إن هذا الغيْمَ متقطعٌ لا يقْدِرُ أحدٌ على تكذيبهِ.

[الهندي يخشى الفضيحة]

وأنا قدْ يداخِلُني منْ مَودَّتِكَ ومُخالطتِكَ مع أُنسي بقُرْبك سُرُورٌ لاَ يَعْدِلهُ[٣] شيءٌ، وهذا الأمْرُ الذِي تطْلُبهُ مني أعلمُ أنهُ من الأسْرار التي لا تُكتمُ فلا بُدَّ أنْ يَفْشُوَ[٤] ويظْهَر حتى يتحدَّثَ به النَّاسُ، فإذا فشا فقدْ سَعَيتُ في هَلاكِي هَلاكاً لا أَقْدِرُ على الفِداءِ منهُ بالمالِ وإنْ كثُرَ، لأن مَلِكَنا فظٌّ[٥] غليظٌ يُعاقِبُ على الذّنْبِ الصَّغيرِ أشدَّ العِقابِ فكيف مِثلُ هذا الذَّنبِ العظيم وإذا حَمَلَتْني المودَّةُ التي بَيني وبيْنكَ فأَسْعَفْتُكَ بحاجتِكَ لم يَرُدَّ عقابَهُ عني شيءٌ.

(١) الذخر: ما يدخر لوقت الحاجة إليه.
(٢) تفاوضا في الحديث: أخذا فيه.
(٣) لا يعدله شيء: لا يساويه.
(٤) يفشو: ينتشر.
(٥) الفظ: الغيظ القلب.

[التعاهد على كتمان الاتفاق بين بيدبا والهندي]

قال بَرزويهِ: إنَّ العُلماءَ قدْ مَدحتِ الصَّدِيقَ إذا كتمَ سِرَّ صدِيقه وأعانهُ على الفوْز، وهذا الأمرُ الذي قدِمتُ لهُ لِمثلِكَ ذخرْتُه وبك أرْجُو بُلوغَهُ وأنا واثقٌ بكرم طباعِكَ ووُفُورُ عقْلِكَ فيهِ، وإن كنتَ قدْ وصلَ إليكَ مني ما وصلَ من المشقةِ فأنعِمْ بتحمُّل ذلك، واعلمْ أنَّكَ لا تخشى مني ولا تخافُ أنْ أبْديَهُ بلْ تخشى أهلَ بَلدِكَ المُطيفين بك وبالملكِ أن يَسْعَوْا بك إليهِ[1] ويُبلّغوهُ ذلك عنك، وأنا أرجُو ألّا يَشيعَ شيءٌ منْ هذا الأمْرِ لأني أنا ظاعنٌ[2] وأنتَ مُقيمٌ وما أقمتُ فلا ثالِثَ بَيننا. فتعاهدا على هذا جميعاً.

وكان الهندِيُّ خازنَ الملكِ وبيدِه مَفاتيحُ خزائنهِ فأجابهُ إلى ذلك الكتابِ وإلى غيرِه من الكُتُبِ وسلَّمَها إليهِ، فأكبَّ[3] على تفسيرهِ ونقلهِ من اللسان الهنديِّ إلى اللسانه الفارسيِّ، وأتعب نفسَهُ وأنصبَ بدنَهُ نهاراً وليلاً وهو مع ذلك وَجِلٌ[4] فزعٌ من مَلِكِ الهندِ خائفٌ على نفسهِ مِنْ أنْ يَذْكُرَ الملكُ الكتابَ في وقْتٍ ولاَ يُصادِفَهُ في خِزانتِه، فلما فرَغَ من انتِساخِ الكتابِ وغيرِهِ ممَّا أرادَ منْ سائرِ الكُتُبِ كتَبَ إلى أنوشِرْوانَ يُعْلِمُهُ بذلكَ، فلمَّا وصَلَ إليْهِ الكتابُ سُرَّ سُروراً شدِيداً ثمّ تَخوَّفَ مُعاجلةَ المقاديرِ أن تُنَغِّصَ عليهِ فرحَه وتنْقُضَ سرورَه فكتبَ إلى بَرْزَوَيْهِ يأمرُه بتَعجيلِ القُدومِ فسار برزويْهِ مُتوجِّهاً نحوَ كِسْرَى، فلما رأى الملكُ ما قدْ مَسَّهُ من الشُّحُوبِ والإعياءِ قال لهُ: أيُّها العبْدُ النَّاصحُ الذي يأكلُ ثمرةَ ما قدْ غَرَسَ أبشرْ وقِرَّ عَيْناً فإني مُشرِّفُكَ وبالغٌ بكَ أفضلَ دَرَجةٍ. وأمرَهُ أن يُريحَ بدَنَه سَبْعَةَ أيَّامٍ.

فلما كانَ اليومُ الثَّامنُ أمرَ الملكُ بإحضارِ أشرافِ مملكتهِ وجميعِ

(١) سعى بالرجل: وشى به.
(٢) ظاعن: راحل.
(٣) أكب على الشيء: لازمه.
(٤) وجل: خائف.

عَلماءِ مِصْرِهِ وشُعرائِهِ وخُطبائهِ، فلما اجتَمعوا أُحضِرَ برزَويْهِ فدخلَ عليهِ وسجدَ بينَ يَدَيِ الملكِ وجلَسَ على مَرْتبةٍ أُعِدَّتْ لهُ، ثمَّ وقَّعَ[١] الكلامَ فيما شاهدَه ورآهُ وشرحَ قِصتَهُ وحالَهُ منْ أوَّلِها إلى آخِرِها، فلمْ يبقَ أحدٌ منْ رجالِ الدَّولة وقوَّادِها وأهْلِ عُلومِها على طبَقاتِهِمْ إلاَّ تَعَجَّبَ منهُ ومنْ طُولِ طَريقهِ وحُسنِ سيرتِهِ مع صدِيقهِ وما وَفى لهُ بهِ بلا عهْدٍ[٢] منهُ لهُ ولا مُقَدِّمَةٍ تقدَّمَتْ بينهما منْ إفْشاءِ سرِّهِ له معَ ما بينهُما مِن افتراقِ الأديان، وتَبايُنِ الأشكالِ ومُنافَرة المذهبِ، واسْتعظَموا ما أنفقَ على تحصيلِ ذلكَ وعظُمَ برْزوَيْهِ في أعيُنِ الحاضرينَ وكَبُرَ قدرهُ عند مَلكهِ، ثمّ إن الملكَ صرفَ مَنْ حضَرَ، وانصرَفَ برزويْهِ وعمَد الخطباءُ[٣] يصنعون مقدّماتٍ تصلُحُ لحضورِ المجلسِ وتأهَّبوا لذلكَ، وعقدَ لهمُ الملكُ مجلساً وحضرَ بَرْزَويْهِ وخطباءُ الدَّولةِ والوزراءُ وفُصَحاءُ المملكةِ وأُحضِرَ الكتابُ وسائرُ الكتب، فلما قُرئَتِ الكتُب وسمِعوا مَا فيها منَ العلوم والحكَم وسائر الطَّرَائِفِ وغرَائب الآدابِ واسْتبشَرَ منْ حضَرَ وبلَغَ الملك أُمْنيَّتَهُ ومدحُوا بَرزويْهِ وأثنُوا عليهِ وشكرُوه على ما نالَهُ من التعَبِ، فأمرَ الملك عند ذلكَ بالدُّرِّ والجوْهرِ والذَّهَبِ والفِضَّةِ وفُتِحَتْ خَزائنُ الكُسْوَةِ وخُلِعَ عليهِ وحُمّلَ بين يديه جميعُ ذلكَ، ثم إنَّ الملِكَ ألْبَسهُ التَّاجَ وأجلسَهُ على سَريرهِ تشريفاً لهُ وزيادَةً في إجلالهِ، ولما تمَّ لبرْزَويْه ذلك خرَّ ساجداً للملكِ وقال:

«أكْرَمَ الله الملكَ بأفضلِ الكراماتِ بزيادَتهِ في دُنْياهُ وأُخراهُ، وخَلَّدَ مُلكهُ وثَبَّتَ وطَأتَهُ[٤] وشيَّدَ مَبانيَ مجْدِه إنّ الله وَلِيَّ الحمدِ قد أغناني عن المالِ بما بَلَغتُ من الرتْبَةِ العليَّةِ السَّنيَّةِ والبُغْيَةِ والأُمْنِيَّةِ بما رزَقَني منْ

(١) وقع الكلام: أي أجراه.
(٢) عهد: معرفة.
(٣) عمد: استعد.
(٤) ثبت وطأته: أي مكن سلطته.

تشريفِ مَلكَ الملوكِ للعَبدِ الذَّليلِ، لكنْ إذا كلَّفَنِي الملكُ ذلكَ وعَلِمتُ أنه يسرُّهُ فأنا آخِذٌ ممَّا أمرَ لي به امْتثالاً لأَمْرِه وطلباً لمَرْضاتِه.. وقامَ فأخذَ منها تخْتاً[١] منْ طَرَائِفِ خُرَاسانَ منْ ملابس الملوكِ. ثمّ قال للملِكِ: إنّ الإنْسانَ إذا مَنحهُ الله تعالى عقلاً وافراً وعِلماً راجحاً وخُلُقاً رحْباً وديناً صُلْباً ونيةً سالِمةً من العاهَاتِ فلْيشكُرِ الصّانعَ الأزَليّ سرْمَداً[٢] على ما وهبَهُ من ذَلك منْ غير اسْتحقَاقٍ يستَحقُّهُ ولا مُقَدّمَةٍ سبَقتْ له، وإنَّ الإنسانَ إذا أُكْرِمَ وجبَ عليه الشُّكْرُ وإنْ كانَ قدِ استَوْجَبَهُ تَعَباً ومشَقَّةً، وأمَّا أنا فمهْمَا لِقيتُهُ منْ عَناءٍ وتَعَبٍ لِمَا أعلمُ أنَّ لكُم فيه الشَّرَفَ يا أهلَ هذا البيتِ فإني لا أزال إلى هذا اليوْم تابعاً رِضاكُمْ أرَى الْعسيرَ فيهَ يَسيراً والشّاقَّ هيِّناً والنَّصَبَ والأذَى سُروراً ولَذّةً، لِما أعلمُ أنَّ لكُم فيه رِضاً وعندَكُم قُرْبةً.

[برزويه يسأل كسرى أن يُخصِّص له أول أبواب الكتاب]

ولكنّي أسألُكَ أيُّها الملكُ حاجةً تُسْعِفُني بها وتعْطيني فيها سُؤلي فإنَّ حاجتي يَسيرَةٌ وفي قضائِها فائدَةٌ كثيرَةٌ.

قال أنوشِرْوان: قُلْ فكلُّ حاجةٍ لكَ قِبَلَنا مَقضيَّةٌ فإنّكَ عنْدنَا عظيمٌ ولوْ طلَبتَ مُشارَكَتنا في مُلْكِنا لَفعَلْنا ولمْ نَرْدُدْ طَلِبَتَكَ فكيْفَ ما سِوى ذلكَ فقُلْ ولا تحتشِمْ[٣] فإنّ الأُمُورَ كلها مبْذُولَةٌ لكَ. قال برزويَه: أيها الملكُ لا تنْظُرْ إلى عَنائي في رِضاكَ وانكماشِي[٤] في طاعتِكَ فإنما أنا عبْدُكَ يلزمُني بذْلُ مُهْجتي في رضاكَ، ولوْ لمْ تجْزني لم يكنْ ذلك عندي عظيماً ولا واجباً على الملكِ، ولكنْ لكرَمهِ وشرَفِ مَنْصبهِ عمَدَ إلى مُجازاتي وخصَّني وأهلَ

(١) التخت: مخزن الثياب.
(٢) سرمداً: دائماً.
(٣) تحتشم: تخجل.
(٤) انكماشي: جدي وإسراعي.

بيتي بعلُوّ المرْتَبةِ ورفْعِ الدّرجةِ حتى لوْ قَدَرَ أنْ يجْمَع لنا بين شرفِ الدُّنْيا والآخرةِ لَفعَلَ فجزاهُ الله عنّا أفضلَ الجزاءِ. قال أنُوشِرْوانُ: اذْكُرْ حاجتَكَ فعليَّ ما يَسُرُّكَ. فقال برْزَوَيْهِ: حاجتي أنْ يخرُجَ أمرُ الملكِ أنْفذَهُ الله تعالى إلى الحكيمِ الفاضلِ الرَّفيعِ المَقامِ وزيرِهِ بُزُرْجُمَهْرَ بْنِ البَخْتَكانِ أن يَنْظِمَ أمْري في نُسخةٍ ويُبوِّبَ الكتابَ[1] ويجْعلَ تلكَ النُّسْخة باباً يذْكُرُ فيهِ أمْري ويَصفُ حالي ولا يَدَعُ من المُبالَغةِ في ذلك أقصَى ما يَقْدِرُ عليهِ، ويأمُرَهُ إذا فَرَغَ منهُ أنْ يجعلَهُ أوَّلَ الأبوابِ التي تُقرأُ قبْلَ بابِ الأسَدِ والثَّوْرِ، فإن الملكَ إذا فعَلَ ذلك فقدْ بَلغَ بيَ وبأهْلِي غايةَ الشّرَفِ وأعْلى المراتبِ، وأبقَى لنا ما لا يَزالُ ذِكرُهُ باقياً على الأبَدِ حيْثُمَا قُرِىءَ هذا الكتابُ.

فلما سمِعَ كِسْرَى أنُوشِرْوانُ والعُظماءُ مقالتَه وما سَمَتْ إليه نفسُه منْ محبَّةِ إبقاءِ الذكْرِ عَجِبُوا منْ أدبَهِ وحُسْنِ عقلهِ وكِبَرِ نفسهِ واَستَحْسَنوا طَلِبَتَهُ واختيارَه، فقالَ كسرى: حُبًّا وكرامةً يا بروزيْهِ إنك لأهْلٌ أنْ تُسْعَفَ بحاجتِكَ فما أقلَّ ما قَنِعْتَ به وأيسرَهُ عندَنا وإن كان خطرُه[2] عندَكَ عظيماً. ثم أقْبلَ أنُوشِرْوانُ على وزيره بُزُرْجُمَهْرَ فقال له: قدْ عرَفْتَ مُناصحةَ برْزويْهِ لنا وتجشُّمَهُ[3] المخاوِفَ والمهالِكَ فيما يُقرِّبُهُ منَّا وإتْعابَه بدنَهُ فيما يَسُرُّنا وما أتي إليْنا من المعروف وما أفادَنا الله على يدِه من الحكمةِ والأدبِ الْباقي لنا فخرُه، وما عرَضْنا عليهِ منْ خزائِننا لنُجْزيَهُ على ما كانَ منهُ فلمْ تَمِلْ نفسُه إلى شيءٍ منْ ذلك، وكانتْ بُغيتُهُ وطَلِبَتُهُ منَّا أمراً يسيراً رآهُ هو الثَّوابَ منَّا لهُ والكرامةَ الجليلةَ عندهُ، فإنّي أُحِبُّ أنْ تتكلَّمَ في ذلكَ وتُسْعِفَهُ بحاجتهِ وطلِبتِهِ واعلمْ أنَّ ذلك ممَّا يَسُرُّني، ولا تدَعْ شيئاً من الاجْتهاد والمُبالَغةِ إلاّ بَلغتَهُ وإنْ نالتْكَ فيهِ مَشَقَّةٌ وهو أنْ تكتُبَ باباً مُضارعاً[4] لتلْكَ الأبْوابِ التي في

---

(١) بوَّبه: قسمه أبواباً.
(٢) خطره: شرفه.
(٣) تجشم: الأمر إذا تكلفه على مشقة.
(٤) مضارعاً: مشابهاً.

الكتابِ وتَذْكُرَ فيه فضْلَ برْزويهِ ونَسبهُ وحسَبهُ وصِناعتَهُ وأدبَهُ وكيْفَ كان ابتِداءُ أمْرِهِ وشأنه، وتَنْسُبَهُ إليهِ، وتذْكُرَ فيه بَعْثَتَهُ إلى بلادِ الهندِ في حاجتِنا وما أُفِدْنا منَ الحِكَم على يدِه منْ هُنالكَ وشَرُفْنا به وفُضِّلْنا على غيرِنا، وكيف كانَ حالُه بعدَ قدُومه وما عرَضْنا عليهِ من الأموالِ فلمْ يَقْبلْهُ، فقلْ ما تقْدِرُ عليه منَ التقْرِيظِ والإِطْنابِ في مدْحه وبالغْ في ذلكَ أفضلَ المُبالغَةِ واجتهد في ذلكَ اجتهاداً يَسُرُّ برْزوَيْه وأهل المملكةِ وإِنَّهُ لأهْلٌ لذلكَ منْ قِبَلي ومنْ قِبَلِ جميعِ أهلِ الملكةِ ومنْ قِبَلِكَ أيضاً لمحبَّتك للْعلومِ، واجْهَدْ أنْ يكونَ غرَضُ هذا الكِتابِ الذي يُنْسَبُ إليه أفضلَ منْ أغْراضِ تلكَ الأبوابِ عنْدَ الخاصِّ والعامِّ وأشدَّ مُشاكلةً[1] لحالِ هذا العلمِ، فإنكَ أسْعدُ النّاسِ كلهِمْ بذلكَ لانْفرادِكَ به واجْعلهُ أوَّلَ الأبْوابِ، فإِذا أنتَ عَمِلْتَهُ ووضَعْتَهُ بحيثُ رسَمتُ لكَ فأعْلِمْني لأجْمَعَ أهلَ الممْلكةِ وتقْرَأَهُ عليهمْ فيَظْهَرَ فَضلُكَ واجتهادُكَ في محَبَّتِنا فيكونَ لكَ بذلكَ فخرٌ.

فلما سمِعَ بُزُرْجُمَهْرُ مقالة الملكِ خَرَّ له ساجداً وقال: أدامَ الله لكَ أيُّها الملكُ البقاءَ وبلَّغكَ أفضل مَنازِلِ الصَّالحينَ في الآخرَةِ والأُولَى لقدْ شرَّفْتني بذلكَ شرَفاً باقياً إلى الأبَد.

ثمَّ خرجَ بُزُرْجَمْهَرُ منْ عندِ الملكِ فوَصفَ برْزويه منْ أوَّلِ يوْمِ دفعهُ أبَواهُ إلى المُؤدّبِ ومُضيَّهُ إلى بلادِ الهنْد في طلبِ الْعقاقِيرِ والأدويَةِ، وكيفَ تعلَّمَ خطوطَهم ولُغتَهمْ إلى أنْ بعثَهُ أنُوشِرْوانُ إلى الهند في طلبِ الكتابِ، ولمْ يدَعْ منْ فضائلِ برزويهِ وحكمتهِ وخلائقهِ ومذْهَبِهِ أمْراً إلاَّ نَسَّقَهُ[2] وأتى به بأجْودِ ما يكونُ من الشَّرْحِ، ثمَّ أعْلمَ الملكَ بِفَراغهِ منهُ فجمعَ أنوشِرْوانُ أشرافَ قوْمهِ وأهْلَ مملكتهِ وأدْخلَهم إليه وأمرَ بُزُرْجُمَهْرَ بقراءَة الكتابِ

---

(١) مشاكلة: مشابهة.

(٢) النسق: إيراد الكلام على نظام واحد.

وبرْزويه قائمٌ إلى جانبِ بُزُرْجُمَهْرَ، وابتدأ بوصفِ برزويه حتى انتهى إلى آخرِهِ ففرحَ الملكُ بما أتى فيه بُزُرجُمْهَرُ من الحكمة والعلْمِ ثمَّ أثْنى الملكُ وجميعُ منْ حضر على بُزُرْجُمَهْرَ وشكرُوهُ ومدحُوهُ وأمر لهُ الملكُ بمالٍ جزيلٍ وكسْوَةٍ وحُلِيٍّ وأوَانٍ فلمْ يَقْبَلْ منْ ذلكَ شيئاً غيرَ كُسْوَةٍ كانتْ منْ ثيابِ المُلوك، ثمَّ شكَر لهُ ذلك بَرْزوَيْه وقبَّلَ رأسَه ويدَهُ وأقْبلَ على الملك وقال: أدام الله لك المُلْكَ والسَّعادة فقدْ بَلغْتَ بي وبأهْلي غايةَ الشرَفِ بما أمرْتَ بهِ بُزُرْجُمَهْرَ منْ صَنْعة الكتابِ في أمْري وإبْقَاءِ ذِكْرِي، ثمَّ انصرَفَ الجمعُ مسرُورينَ مُبْتهجينَ وكانَ يوْماً لا مِثالَ لهُ.

[غرض الكتاب
كما حدَّده عبد الله ابن المقفع]

هذا كتابُ كليلةَ ودِمْنَةَ، وهو ممّا وضعَتْهُ عُلماءُ الهندِ من الأمثالِ والأحاديثِ التي أُلْهِمُوا أنْ يُدْخلوا فيها أبْلغَ ما وجدُوا من القوْلِ في النَّحْوِ[1] الذي أرادُوا، ولم تَزَلْ العُلماءُ منْ أهْلِ كلِّ ملَّةٍ يلْتمسُونَ أنْ يُعْقَلَ عنهم، ويحتالُون في ذلك بصُنُوفِ الحيَلِ، ويبتغُونَ إخْراجَ ما عندَهمْ منَ العِلَلِ[2] حتى كانَ منْ تلْكَ العِلَلِ وضْعُ هذا الكتابِ على أفواهِ الْبهائمِ والطَّيْر فاْجتَمعَ لهمْ بذلك خِلالٌ[3]، أمَّا هم فوَجَدُوا متصرَّفاً في القوْلِ وشِعاباً يأخذُونَ فيها وأمَّا هوَ[4] فجمعَ حكمةً ولهواً فاخْتارَهُ الحُكماءُ لحكمته والسُّفهاءُ[5] للْهوِهِ، والمتَعلِّمُ من الأحْداثِ ناشِطٌ في حفظِ ما صارَ إليْهِ منْ أمْرٍ في صدْرِه ولا يَدْري ما هوَ بلْ عرَفَ أنهُ قد ظَفِرَ منْ ذلكَ بمكْتُوبٍ مَرْقُوم[6]، وكانَ كالرَّجُلِ الذي لمَّا استكملَ الرُّجوليَّةَ وجدَ أبوَيْه قدْ كَنَزا لهُ كُنوزاً واعتَقدَا له عُقَداً استغْنَى بها عن الكَدْحِ فيما يعلمهُ منْ أمرِ معيشتِهِ فأغناهُ ما أشْرَفَ[7] عليهِ منَ الحكمة عن الحاجةِ إلى غيرِها منْ وُجُوهِ الأدبِ.

---

(١) النحو: القصد.

(٢) أي يطلبون الأسباب.

(٣) جمع خَلة: الخصلة.

(٤) أي الكتاب.

(٥) السفهاء: جمع سفيه وهو الناقص العقل.

(٦) مرقوم: موشى مزين.

(٧) أشرف على الشيء. اطلع عليه.

وينبغي لمنْ قرَأ هذا الكتابَ أنْ يعرِفَ الوُجُوهَ التي وُضِعَتْ لهُ وإلى أيِّ غايةٍ جرَى مُؤَلِّفُهُ فيهِ عندَ ما نَسبَهُ إلى البهائم وأضافَهُ إلى غير مُفْصحٍ وغيرِ ذلكَ منَ الأوْضاعِ التي جعَلَها أمثالاً، فإنَّ قَارِئَهُ متَى لمْ يفعَلْ ذلكَ لم يدْرِ ما أريدَ بتلْكَ المعاني ولا أيَّ ثمرَة يجتَني منها ولا أيَّ نتيجةٍ تحصُلُ لهُ منْ مُقدِّماتِ ما تضمَّنَهُ هذا الكتابُ، وإنهُ وإنْ كان غايتَهُ اسْتتمامُ قراءَتهِ إلى آخرِه دُونَ معرفةِ ما يقْرَأ منهُ لمْ يَعُدْ عليه شيءٌ يرْجعُ إلَيْهِ نَفْعُهُ.

[صاحب الكنز الذي لم ينعم به]

ومَنِ استكْثَرَ منْ جَمْعِ العلومِ وقراءَةِ الكتُبِ منْ غيرِ إعمالِ الرَّوِيَّةِ[١] فيما يقْرَؤهُ كانَ خليقاً أنْ يُصيبَهُ ما أصابَ الرَّجُل الذي زعمَتِ العُلماءُ أنّهُ اجْتازَ بعْضَ المَفاوِزِ[٢] فظهرَ لهُ موْضعُ آثارِ الكُنوزِ، فجعلَ يَحْفِرُ ويطْلُبُ فوقعَ على شيءٍ منْ عينٍ[٣] ووَرِقٍ[٤] فقالَ في نفسهِ: إنْ أنا أخذْتُ في نَقْل هذا المال قليلاً طالَ عليَّ وقطَعني[٥] الاشْتِغالُ بنقْله وإحْرازهِ عنِ اللّذَّةِ بما أصبْتُ منْهُ، ولكنْ سأسْتأجِرُ أقواماً يحملُونَهُ إلى مَنزلِي وأكُونُ أنا آخرَهمْ ولا يكُونُ بقِيَ ورائي شيءٌ يَشْغَل فِكْري بفِعْلهِ وأكُونُ قدِ اسْتظهَرْتُ[٦] لِنفسي في إراحةِ بدَني عنِ الكَدِّ بيَسيرِ أُجْرةٍ أُعْطيها لهمْ ثمَّ جاءَ بالحمَّالينَ، فجعلَ يُحمِّلُ كلَّ واحدٍ منهمْ ما يَطيقُ فيَنْطلقُ به إلى منزلهِ فيفُوزُ بهِ حتى إذا لمْ يبْقَ منَ الكَنْزِ شيءٌ انْطلقَ خلْفَهمْ إلى منزلهِ فلمْ يجدْ فيه من المَالِ شيئاً لا قليلاً

(١) الروية: الفكر والتدبر.
(٢) المفازة: الفلاة التي لا ماء فيها.
(٣) العين: الدينار من الذهب.
(٤) الوَرِق: الدراهم المضروبة من الفضة.
(٥) قطعني: منعني.
(٦) استظهرت: استعنت، ومنه الظهير: المعين.

ولا كثيراً، وإذا كلٌّ واحدٍ منَ الحمَّالينَ قدْ فازَ بما حَملهُ لنفْسهِ ولم يكُنْ لهُ منْ ذلكَ إلاَّ الْعناءَ والتَّعب لأنهُ لم يُفكِّرْ في آخرِ أمْرهِ.

[الجوز والصحيفة]

وكذلِكَ منْ قرَأَ هذا الكتابَ ولم يَفْهَمْ ما فيهِ ولم يَعلمْ غرَضهُ ظاهراً وباطِناً لمْ يَنْتفعْ بما بَدَا لهُ منْ خَطّهِ ونقْشهِ كما لوْ أنَّ رُجلاً قُدِّمَ لهُ جَوْزٌ صحيحٌ لمْ ينتفعْ بهِ إلاَّ أنْ يكسِرَهُ ويستخرج ما فيه، وكانَ أيضاً كالرَّجُلِ الذي طلَبَ علمَ الفصيحِ منْ كلامِ النَّاس فأتى صدِيقاً لهُ من العُلماءِ لهُ علْمٌ بالفَصاحةِ فأعْلمَهُ حاجتَهُ إلى علمِ الفَصيحِ، فرسَمَ لهُ صدِيقُهُ في صَحِيفةٍ صفْرَاءَ فصيحَ الكلامَ وتَصاريفَهُ ووُجُوهَه، فانصرَفَ إلى منزِلهِ فجعلَ يُكثِرُ قرَاءَتَها ولا يقِفُ على معانيها، ولا يهتمْ بتأويل ما فيها حتى استظهرها عليها فاعتقد أنه قد أحاط بعلم ما فيها ثم إنهُ جلسَ ذاتَ يوْم في محْفِلٍ منْ أهلِ الْعلمِ والأدَبِ، فأخَذَ في مُحاورَتِهمْ فجرتْ لهُ كلمةٌ أخطَأَ فيها فقال لهُ بعْضُ الجماعةِ: إنَّكَ قدْ أخطأتَ والوجْهُ غيرُ ما تكلَّمْتَ بهِ. فقال: كيْفَ أُخطىءُ وقدْ قرأتُ الصَّحيفةَ الصَّفْراءَ وهي في مَنزِلي. فكانت مقالتُهُ لهمْ أوْجبَ للحُجَّةِ عليهِ وزادَهُ ذلك قُرْباً منَ الجهْلِ وبُعْداً منَ الأدبِ.

[الرجل الصابر على اللص]

ثمَّ إنَّ العاقلَ إذا فَهِمَ هذا الكتابَ وبلغَ نِهايةَ عِلمهِ فيهِ ينبغي لهُ أنْ يَعمَلَ بما علمَ منهُ لينتفِعَ بهِ ويجعلَهُ مثالاً لا يَحيدُ عنهُ، فإذا لم يَفعَلْ ذلكَ كانَ مثلُهُ كالرَّجُلِ الذِي زَعَموا أنَّ سارِقاً تَسَوَّرَ عليهِ[1] وهو نائمٌ في مَنزلهِ فعلِمَ بهِ فقال: واللهِ لأسكُتَنَّ حتى أنظُرَ ماذا يَصنَعُ ولا أذْعَرُهُ[2] ولا أُعلِمُه

---

(١) تسور: تسلّق.

(٢) أذعره: أفزعه.

أني قدْ عَلمْتُ بهِ، فإذا بلَغَ مُرادَهُ قمتُ إليهِ فنَغَّصْتُ ذلكَ عليهِ، ثمَّ إنهُ أمْسَكَ عنهُ وجعلَ السَّارقُ يتردَّدُ وطال ترَدُّدُه في جَمعهِ ما يجدُهُ فغلَبَ الرَّجُلَ النعاسُ فَنامَ وفرَغَ اللّصُّ ممَّا أرادَ وأمكنَهُ الذَّهابُ واسْتيقظَ الرَّجُلُ فوجدَ اللّصَّ قدْ أخذَ المَتاعَ وفازَ بهِ، فأقْبلَ على نفسهِ يلُومُها وعرَفَ أنه لمْ يَنتفعْ بعلْمهِ باللّص إذْ لمْ يَستعمِلْ في أمرِه ما يجِبُ.

وقد يُقالُ إنَّ العلمَ لا يَتمُّ إلا بالْعَملِ وإنَّ العلمَ كالشَّجَرةِ والعمَلَ بهِ كالثَّمَرةِ، وإنما صاحبُ العلم يقُومُ بالعَمل لِينتفعَ بهِ وإنْ لمْ يَستعمِلْ ما يَعْلمُ لا يُسَمَّى عالماً، ولوْ أنَّ رجُلاً كانَ عالماً بطرِيقٍ مَخُوفٍ ثمّ سلَكهُ على عِلم بهِ سُمّيَ جاهلاً، ولَعلهُ إنْ حاسَبَ نفْسَه وجدَها قدْ رَكِبتْ أهواءً هجَمَتْ بها فيما هوَ أعرَفُ بضرَرِها فيهِ وأذَاهَا منْ ذلكَ السَّالِكِ في الطَّريقِ المَخُوفِ الذي قدْ عَرَفَه، ومنْ ركِبَ هوَاهُ ورفَضَ ما ينبغي أنْ يعْمَلَ بما جرَّبَه هوَ أوْ أعلمَهُ بهِ غيرُهُ كانَ كالمَريضِ الْعالِمِ برَدِيءِ الطَّعامِ والشَّرابِ وجيِّدِهِ وخَفيفِه وثَقيله ثمَّ يحْملهُ الشَّرَهُ على أكْلِ ردِيئهِ وترْكِ ما هوَ أقْرَبُ إلى النَّجاةِ والتَّخلُّصِ منْ عِلتهِ.

[مَثَلُ البصير والأعمى]

وأقلُّ النَّاسِ عُذْراً في اجتِنابِ محْمُودِ الأفعالِ وارْتِكابِ مذْمُومِها منْ أبصَرَ ذلكَ وميَّزَهُ وعرَفَ فضْلَ بعضهِ على بعْضٍ، كما أنهُ لو أنَّ رجُليْنِ أحدُهُما بَصيرٌ والآخَرُ أعْمَى ساقَهُما الأجَلُ إلى حُفْرَةٍ فوَقَعا فيها كانَا إذَا صارَا جَميعاً في قَعْرِها بمنزِلةٍ واحدَةٍ غيرَ أنَّ البَصيرَ أقلُّ عُذْراً عندَ النَّاسِ منَ الضَّريرِ إذْ كانتْ لهُ عَيْنانِ يُبْصِرُ بهما وذاكَ بما صارَ إليه جاهِلٌ غيرُ عارفٍ، وعلى العالِمِ أنْ يبْدَأَ بنفسهِ فيؤَدِّبَها بعلْمهِ ولا تكُونَ غايتَهُ اقتِناؤُهُ العلمَ لمُعاونَةِ غيرِهِ ونفعه به وحرمان نفسه منه ويكُونَ كالعَيْنِ الَّتي يشرَبُ النَّاسُ ماءَهَا وليسَ لها في ذلكَ شيءٌ منَ المنْفعَةِ، وكَدُودَةِ القَزِّ التي تُحْكِمُ صُنْعَهُ

ولا تَنتفعُ بهِ، فينبغي لمنْ طلَبَ العِلمَ أنْ يَبدأ بعِظَةِ نفسهِ ثمَّ عليهِ بعدَ ذلكَ أنْ يَقْبِسَهُ[١] فإنَّ خِلاَلاً[٢] ينْبغي لصاحِبِ الدُّنْيا أنْ يَقْتَنِيَها ويَقتبسَها، منها العلمُ والمالُ، ومنها اتّخاذُ المعرُوفِ وليسَ للعالِمِ أنْ يَعيبَ امْرَأً بشيءٍ فيهِ مثلهُ ويكونَ كالأعمَى الذِي يُعَيِّرُ الأعمى بعَماهُ، وينبغي لِمَنْ طلَبَ أمراً أن يكونَ لهُ فيهِ غايَةٌ ونهايَةٌ يَعملُ بها ويَقِفَ عندَها ولا يَتمادَى في الطَّلَبِ فإنهُ يُقالُ مَنْ سارَ إلى غيرِ غايَةٍ يُوشِكُ أنْ تنقَطعَ بهِ مَطِيَّتُهُ[٣] وأنهُ كانَ حَقيقاً ألاَّ يُعَنِّيَ نفسَهُ في طلَبِ ما لاَ حَدَّ لهُ وما لَمْ يَنلْهُ أحدٌ قبلَهُ، ولا يَتأسَّفَ عليهِ ولا يكُونَ لدُنْياهُ مُؤثِراً[٤] على آخرَتهِ فإنَّ مَنْ لمْ يَعْلَقْ قلبُهُ بالغاياتِ قَلَّتْ حسْرَتُهُ عندَ مُفارقتِها وقدْ يُقالُ في أمرَيْنِ إنَّهما يَجمُلانِ[٥] بكلِّ أحدٍ: أحدهما النُّسْكُ والآخَرُ المَالُ، وقد يُقالُ في أمريْنِ إنَّهما لا يَجْمُلاَنِ بأحدٍ: المَلِكُ أنْ يُشارَكَ في مُلكهِ، والرَّجُلُ أنْ يُشارَكَ في زَوْجه. فالخَلتَانِ الأُولَيانِ مثَلُهما مثَلُ النَّارُ التي تُحْرِقُ كلَّ حطَبٍ يُقْذفُ فيها، والخَلَّتَانِ الأُخريَانِ كالمَاءِ والبخارِ اللَّذَيْن لا يُمكنُ اجتماعُهمَا وليْسَ ينبغي لِلعاقِلِ أنْ يغْبِطَ أحداً ساقَ الله إليهِ صُنعاً وقد كانَ راجِياً منهُ غيرَ ذَلك.

[حكاية اللص والفقير]

ومنْ أمثَالِ هذا أنَّ رجُلاً كانَ بهِ فاقَةٌ وجُوعٌ وعُرْيٌ فألجأهُ ذلكَ إلى أنْ سألَ من أقاربِهِ وأصدِقائهِ فلمْ يكُنْ عند أحدٍ منهمْ فَضلٌ يعُودُ بهِ عليهِ، فَبينما هُو ذاتَ لَيْلة في منزلهِ إذْ بَصُرَ بِسارِقٍ فيه فقال والله ما في مَنزِلِي شيءٌ أخافُ عليه فلْيَجهَدِ السَّارِقُ جَهْدَهُ. فبينما السَّارِقُ يجولُ إذْ وقعتْ يدُهُ على

(١) يقبسه: يتعلمه.
(٢) خِلالاً: جمع خَلَّة مثل الخَصْلَة.
(٣) المَطية: الدابة.
(٤) مُؤْثِراً: مفضلاً.
(٥) يجملان: يحسنان.

خابِيَةٍ فيها حِنطَةٌ فقال السَّارقُ: واللهِ ما أُحِبُّ أنْ يكُونَ عَنائي اللَّيْلةَ باطلاً ولَعلّي لا أصِلُ إلى موْضعٍ آخَرَ ولكنْ سأحْمِلُ هذِه الحِنْطةَ خيرٌ من الرجوع بغير شيء. ثم بسط رداءَه، ليصُبَّ الحنطة، فقالَ الرَّجلُ: يَذْهَبُ هذا بالحِنْطةِ وليسَ وَرائِي سِوَاها فيَجتمعُ عليَّ معَ العُرَيِ ذَهابُ ما كُنْتُ أقْتاتُ بهِ وما تجْتمِعُ واللهِ هاتَانِ الخَلّتانِ على أحدٍ إلاَّ أهلَكَتاهُ. ثمّ صاحَ بالسَّارِقِ وأخذَ هِرَاوَةً[1] كانَتْ عندَ رأسهِ فلمْ يكُنْ لِلسَّارِقِ حِيلةٌ إلاّ الهرَبُ منهُ وترَكَ رداءَه ونجَا بنفسهِ وغَدَا الرَّجُلُ بهِ كاسِياً.

ولا ينبغي للْعاقِلِ أنْ يَرْكَنَ إلى مثْلِ هذا ويَدَعَ ما يجبُ عليهِ منَ الحذَرِ والعَمَلِ لصلاحِ مَعاشِه، ولا ينظُرُ إلى مَنْ تُوَاتِيهِ[2] المقادِيرُ وتُساعدُهُ على غيرِ التماسه منهُ فإنَّ أُولئكَ في النَّاسِ قلِيلٌ، والجُمهورُ منهمْ مَنْ أتْعَبَ نفسَهُ في الكَد والسَّعْيِ فِيما يُصْلحُ أمرَهُ ويَنالُ به ما أرادَ وينبغي أنْ يكُونَ حِرْصُه على ما طَابَ كَسْبُه وحَسُنَ نَفْعُه ولا يتَعَرَّضُ لِمَا يَجلُبُ عليهِ العَناءَ فيكُونَ كالحَمامةِ التي تُفْرِخُ الفِراخَ فتُؤْخذُ وتُذْبَحُ ثمّ لا يمنَعُها ذلكَ مِنَ أنْ تَعُودَ فتُفْرِخَ موضعها وتُقيمَ بمكانِها فتُؤخَذُ الثّانيةُ من فِراخِها فتُذْبَحُ حتى تُؤخَذ هيَ أيضاً فتُذْبَحَ.

وقد يقالُ إن الله تعالى قد جَعلَ لكلِّ شيءٍ حدًّا يُوقَفُ عليهِ، ومَنْ تجاوَزَ في الأشياءِ حدَّها أوشَكَ أنْ يَلحَقَهُ التَّقصيرُ عن بُلوغِها، ويُقالُ مَنْ كانَ سعيُهُ لآخرَتهِ ودُنْياهُ فحيَاتُهُ لهُ وعليهِ، ومن كانَ سعيُهُ لدُنياهُ خاصَّةً فَحياتُهُ عليه ومن كان سعيه لآخرته فحياته له. ويُقالُ في ثلاثةِ أشياءَ يجِبُ على صاحِبِ الدنْيا إصلاَحُها وبَذلُ جَهدِهِ فيها، مِنها أمرُ مَعيشته، ومنها ما بَينَهُ وبينَ الناسِ، ومنها ما يُكْسِبُهُ الذِّكْرَ الجميلَ بعدَهُ، وقدْ قيلَ في أُمورٍ مَنْ

(١) الهِرَاوة: العصا الضخمة.

(٢) تؤاتيه: توافقه.

كُنَّ فيهِ لم يَسْتقِمْ لهُ عَمَلٌ، منها التَّواني[١]، ومنها تضْييعُ الفُرَصِ، ومنها التَّصدِيقُ لكلِّ مُخبِرٍ، ومنها التكذيب لكل عارف. ورُبَّ مُخبْرٍ بشيءٍ عَقَلَهُ ولا يعرِفُ استقامتَهُ فَيُصدِّقُهُ، والذي يَفْعَلُ ذلكَ منَ النَّاسِ ثلاثةٌ: رجُلٌ يُصدِّقُ بما جرَّبَهُ غيرُه وصدَّقَهُ فيُصدِّقُهُ هُوَ ويَتمادَى في التصْدِيقِ حتى كأنما جرَّبَهُ بنَفسِهِ، ورجُلٌ يُصدّقُ بالأمورِ التي جَرَّبها ولكن عن غير علم بحقيقتها، ورجل تلتبس عليه الأمور فيصدِّقُ بها، وينبَغي للعاقِلِ أنْ يكُونَ لهوَاهُ مُتَّهِماً ولا يَقْبَلُ منْ كلِّ أحدٍ حدِيثاً ولا يَتمادَى في الخطَإ إذا التَبَسَ عليهِ أمرُهُ حتى يتَبيَّنَ لهُ الصَّوابُ وتَتَّضحَ لهُ الحقيقةُ ولا يكونَ كالرَّجُلِ الذِي يجُورُ عن الطَّرِيقِ فيَستمِرُّ على الضلالِ فلاَ يَزْدادُ في السَّيْرِ إلاّ جَهْداً، وعنِ القصدِ إلاَّ بعْداً، وكالرَّجلِ الذي تَقْذَى عَيْنُه[٢] فلا يزالُ يَحُكُّها حتى رُبما كانَ ذلكَ الحَكُّ سبَباً لذَهابِها، ويجبُ على الْعاقلِ أنْ يُصدِّقَ بالقَضاءِ والقدَرِ ويأْخُذَ بالحزَمِ في أموره ويُحبَّ للنَّاسِ ما يُحِبُّ لنفسهِ ولا يَلتَمِسَ صَلاحَ نفسهِ بفسادِ غيرِه، فإنّ مَنْ فَعَلَ ذلكَ كانَ خَليقاً أن يُصيبَهُ ما أَصابَ التّاجِرَ منْ رفيقهِ.

[قصة الشريك الخائن]

فإنهُ يُقالُ: إنهُ كانَ رجُلٌ تاجرٌ وكانَ لهُ شَريكٌ فاسْتأجَرا حانُوتاً وجعَلاَ متَاعَهُما فيهِ، وكانَ أحدُهُما قرِيبَ المنزِلِ من الحانُوتِ فأضْمر في نفسهِ أنْ يسْرِقَ عدْلاً من أعْدالِ رَفيقهِ ومكَرَ الحيلةَ في ذلك، وقال: إنْ أتيْتُ ليلاً لمْ آمَنْ أن أحمِلَ عِدْلاً منْ أعدالِي أو رِزْمَةً من رِزَمي ولا أعرِفَها فيَذْهَبَ عَنائي وتَعبي باطلاً، فأخذَ رِداءَهُ وألقاهُ على العِدْلِ الذي أضمَرَ أخذَهُ ثم انصرَفَ إلى مَنزِلِهِ، وجاءَ رفيقهُ بعدَ ذلك ليُصْلحَ أعدالَهُ فوجدَ رداءَ شَريكهِ على بعضِ

(١) التواني: الفتور.

(٢) تقذى عينه: أي أصابها قذى وهو الوسخ.

أعدَالهِ، فقالَ: واللهِ هذا رِداءُ شَرِيكي ولا أحسَبُهُ إلاَّ قدْ نَسِيَهُ. وما الرَّأيُ أنْ أدَعَهُ هٰهنا، ولكنْ أجعلُهُ على رِزَمِهِ فَلعلهُ يَسبقُني إلى الحانُوتِ فيَجِدُهُ حيثُ يُحِبُّ. ثم أخذَ الرِّدَاءَ فألْقاهُ على عِدْلٍ منْ أعدالِ رَفيقِهِ وأقْفَلَ الحانُوتَ ومَضى إلى منزِلِه. فلما جاءَ الليلُ أتَى رَفيقُهُ ومعهُ رُجلٌ قدْ واطَأهُ[1] على ما عزمَ عليٍ وضَمِنَ لهُ جُعلاً[2] على حَملهِ فصارَ إلى الحانُوتِ في الظُّلمةِ فالتمَسَ الإزَارَ فوجدَهُ على الْعِدْلِ فاحتَمَلَ ذلكَ العِدْلَ وأخرجَهُ هو والرَّجُلُ وجعَلاَ يَتراوَحانِ[3] على حَمْلهِ حتى أتَى مَنزِلَهُ ورَمَى نفسَهُ تعباً، فلما أصْبَحَ افتقَدَهُ فإذا هوَ بعضُ أعدَالهِ فنَدمَ أشدَّ النَّدَامَةِ ثمَّ انْطلَقَ نحوَ الحانُوتِ فوجدَ شَريكه قدْ سبقَهُ إليهِ ففتَحَ الحانُوتَ وفَقَدَ العِدْلَ فاغْتَمَّ لذلكَ غمًّا شدِيداً وقال: وَاسَوْأتاهُ[4] منْ رَفيقٍ صالحٍ قدِ ائْتَمَنَني على مَالهِ وخلَّفَني فيهِ ماذَا يكُونُ حالِي عنْدَهُ، ولسْتُ أشُكُّ في تُهمتِه إيَّايَ ولكنْ قد وَطَّنْتُ[5] نفسِي على غَرامتِه. فلمَّا أتاهُ صاحبُهُ وجدَهُ مُغْتَمًّا فسألَهُ عنْ حالهِ فقالَ: إنِي قدِ افتَقَدْتُ الأعْدَالَ وفقَدْتُ عِدْلاً منْ أعدالِكَ ولا أعلمَ بسَببِهِ، وإني لا أشُكُّ في تُهمتِكَ إيَّايَ وإني قدْ وطَّنْتُ نفْسِي على غَرامتِه. فقالَ لهُ: يا أخِي لا تغتمَّ فإنَّ الخِيانَةَ شرُّ ما عمِلهُ الإنْسَانُ، والمَكرُ والخديعةُ لا يُؤَدِّيانِ إلى خَيْرٍ وصاحبُهُما مغْرُورٌ أبداً وما عَادَ وبَالُ الْبَغْي إلاَّ على صاحبِهِ، وأنا أحَدُ مَنْ مكَرَ وخَدَعَ واحتَالَ. فقال لهُ صاحِبُهُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟ فأخبرَهُ خبرَهُ وقَصَّ عليهِ قصَّتَهُ، فقال لهُ رفيقُهُ: ما مَثَلُكَ إلاَّ مثَلُ اللّصِّ والتَّاجرِ. فقال لهُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

(١) واطأه: وافقه.
(٢) الجُعْل: الأجرة.
(٣) يتراوحان: يتناوبان.
(٤) واسوأتاه: من السوء أي الأمر القبيح يريد واخجلتاه.
(٥) وطنت: صممت.

[حكاية اللص والتاجر]

قالَ: زَعَمُوا أنَّ تاجِراً كانَ لهُ في مَنزِلِهِ خابِيتانِ إحدَاهُما مملُوءَةٌ حِنْطةٌ والأُخرَى مملُوءَةٌ ذَهَباً، فترَقَّبَهُ بَعضُ اللُّصُوص زَماناً حتى إذا كانَ بعْضُ الأيَّام تَشاغَلَ التَّاجرُ عنِ المنزلِ فتغفَّلَهُ[1] اللّصُّ ودخلَ المَنْزِلَ وكَمَنَ في بعْضِ نوَاحِيهِ، فلمَّا هَمَّ بأخْذِ الخابِيَةِ التي فيهَا الدَّنانيرُ أخذَ الَّتي فِيها الحِنْطَةُ وظَنَّها التي فِيها الذَّهَبُ، ولَمْ يزلْ في كَدٍّ وتَعَبٍ حتى أتى بها مَنزلَهُ فلمَّا فتَحَها وعَلمَ ما فِيها نَدِمَ.

قال لهُ الخائنُ: ما أبْعَدْتَ المثَلَ ولا تجَاوَزْتَ القِيَاسَ وقدِ اعتَرَفْتُ بذَنْبي وخَطَئِي عَليْكَ، وعَزِيزٌ[2] عليَّ أنْ يكُونَ هذا كَهذَا، غيرَ أنَّ النَّفْسَ الرَّدِيئَةَ تأمُرُ بالْفَحْشاءِ... فقَبِلَ الرَّجُلُ معْذِرَتَهُ وأضْرَبَ عنْ تَوْبِيخِه وعنِ الثِّقَةِ بِهِ، ونَدِمَ هوَ عنْدَ ما عَايَنَ منْ سُوءِ فِعلِهِ وتقْدِيم جَهلِهِ.

[ميراث الإخوة الثلاثة]

وقدْ يَنبغي للنَّاظرِ في كِتابِنا هذا ألاَ تكُونَ غايتُهُ التَّصَفُّحَ لِتزاويقِهِ[3] بَلْ يُشْرِفُ على ما يَتَضَمَّنُ منَ الأمثَالِ حتى يأتيَ على آخرِهِ، وَيقِفَ عندَ كلِّ مثَلٍ وكلمَةٍ فيُعمِلَ فيها رَوِيَّتَهُ ويكُونَ مثْلَ الإخْوَةِ الثلاثَةِ الَّذِين خَلَّفَ لهمْ أبُوهمْ المالَ الكثيرَ فتنازَعُوهُ بينهمْ فأمَّا الابْنانِ الكَبِيرانِ فإنهما أسْرعا في إتْلافِهِ وإنْفاقِهِ في غيرِ وَجْهِهِ، وأمَّا الصَّغيرُ فإنهُ عندَ ما نظرَ ما صارَ إلَيْهِ أخَوَاهُ منْ إسْرَافِهِما وتَخلّيهِما منَ المالِ أقْبَلَ على نفسِهِ يُشاورُها وقال: يا نفْسي إنما المَالُ يَطْلبُهُ صاحبُهُ ويَجمعُهُ في كلّ وجهٍ لبَقاءِ حالهِ وصلاَحِ مَعاشِهِ ودُنْياهُ وشرَفِ مَنزلتهِ في أعيُنِ النّاسِ واسْتِغنائهِ عمَّا في أيْدِيهمْ وصَرْفِهِ في وجْهِهِ منْ

(١) تغفله: ترقب غفلته.

(٢) عزيز علي: شديد علي.

(٣) التزاويق: النقوش المزينة.

صِلةِ الرَّحِمِ والإنْفاقِ على الوَلَدِ والإفْضَالِ على الإخْوانِ، فَمنْ كانَ لهُ مالٌ ولا يُنْفقُهُ في حُقوقِهِ كانَ كالذِي يُعَدُّ فَقيراً وإنْ كانَ مُوسِراً وإنْ هوَ أحْسَنَ إمْسَاكَه(١) والقيامَ عليهِ لمْ يَعْدَمْ أمْرَيْنِ: منْ دنْيا تَبقَى عليهِ، وحَمْدٍ يُضافُ إليهِ، ومتَى قَصدَ إنفَاقَهُ من غيرِ الوُجُوهِ التي حُدَّتْ(٢) لم يَلْبَثْ أن يُتلفَهُ ويبقَى على حَسْرَةٍ ونَدامَةٍ، ولكنَّ الرَّأيَ أن أُمْسِكَ هذا المالَ فإني أرجُو أن يَنفعَني الله بهِ ويُغْنيَ إخْوتيَ على يَدِي فإنما هُوَ مالُ أبي ومالُ أبِيهِما، وإنَّ أولَى المناهج الإنْفاقُ على صلةِ الرَّحمِ وإنْ بَعُدَتْ فكيفَ بأخوَيَّ. فأنفذَ فأحضَرَهما وشَاطَرَهما مالَهُ.

[الصياد والصَّدَفة]

وكذلِكَ يجبُ على قَارِىءِ هذا الكتَابِ أن يُديمَ النَّظَرِ فيهِ من غيرِ ضجَرٍ ويَلتمِسَ جواهرَ مَعانيهِ ولاَ يظُنَّ أنَّ نَتيجتَهُ الإخبارُ عن حيلةِ بهيمتيْنِ أوْ مُحاوَرَةِ سَبُعٍ لثَوْر فينْصَرِفَ بذلك عن الغَرَضِ المقْصودِ، ويكُونَ مثَلُهُ مثَلَ الصَّيَّادِ الذي كانَ في بعْضِ الخُلْجانِ يَصِيدُ فيهِ السَّمك فرَأى ذَاتَ يوْم في الماءِ صدَفةً تَتلألأُ حُسْناً فتَوَهَّمَها جوْهراً لهُ قيمةٌ، وكانَ قدْ ألْقَى شبكَتَهُ في البحْرِ فاشْتمَلَتْ على سمَكةٍ كانَتْ قُوتَ يومْهِ فَخلاَّها وقذَفَ نَفْسَهُ في الماءِ ليأخُذَ الصَّدَفَةَ، فلما أخْرَجَها وجدَها فارِغةً لا شَيءَ فِيها ممَّا ظَنَّ، فنَدِمَ على ترْك ما في يدِهِ لِلطَّمَعِ وتأسَّفَ على ما فاتَهُ، فلَّما كانَ اليوْمُ الثَّاني تَنحَّى عنْ ذلكَ المكانِ وألْقَى شبكَتَهُ فأصابَ حُوتاً صَغيراً ورَأى أيضاً صدَفة سَنِيَّةً فلمْ يَلتفِتْ إلَيْها وساءَ ظَنُّه بها فترَكَها، فاجْتازَ بها بعْضُ الصَّيَّادينَ فأخَذَها فوَجدَ فيها دُرَّةً تُساوِي أموَالاً. وكذلكَ الجُهَّالُ إذا أغفلوا أمْر التَّفكُّرِ في هذا الكتابِ وتَركوا الوُقُوفَ على أسْرارِ مَعانيهِ والأخذِ بِظاهرِهِ دُونَ الأخْذِ

(١) إمساكه: ضبطه.

(٢) حدت: رسمت.

بِباطنهِ، ومَنْ صرَفَ هِمَّتَهُ إلى النَّظَرِ في أبْوابِ الهزْلِ فهُوَ كرَجُلٍ أصَابَ أرْضاً طَيِّبةً حُرَّةً وحَبًّا صَحيحاً فزَرَعَها وسقَاهَا حتى إذا قَرُبَ خيْرُها وأيْنَعَتْ تَشاغلَ عنهَا بجَمْعِ ما فيها منَ الزَّهْرِ وقَطْعِ الشَّوْكِ فأهْلَكَ بتَشاغلِهِ ما كانَ أحْسَنَ فائِدَةً وأجمَلَ عائِدَةً[1].

(١) عائدة: منفعة.

[أغراض الكتاب وأبوابه:]

ويَنبغي للنَّاظرِ في هذا الكتابِ أنْ يَعلَمَ أنهُ يَنقسِمُ إلى أرْبعةِ أعرَاضٍ: **أحدُها**: ما قُصدَ فيهِ إلى وَضْعِه على ألْسِنةِ البهائِم غير النَّاطقَةِ ليُسارِعَ لقرَاءَته أهْلُ الهَزْلِ منَ الشُّبَّانِ فتُسْتَمالَ بهِ قُلوبُهمْ لهُ لأنهُ الغَرَضُ الوارِدُ منْ حِيَلِ الحيوَاناتِ، **والثَّاني**: إظْهارُ خَيالاَت الحيوَاناتِ بِصُنُوفِ الأصْباغِ والألْوانِ لِيكُونَ أُنْساً لقُلوبِ المُلوكِ ويكُونَ حرْصُهمْ عليهِ أشَدَّ للنزْهَةِ في تلكَ الصُّوَرِ، **والثَّالثُ**: أنْ يكُونَ على هذهِ الصَفةِ فيتَّخِذَهُ الملُوكُ والسوقةُ فيكثُرَ بذلكَ انْتِساخُهُ ولا يَبْطلَ فيَخلَقَ على مُرُور الأيَّام، ولينْتفِعَ بذلكَ المُصَوِّرُ والناسخُ أبداً، **والغرَضُ الرّابعُ**، وهوَ الأقصى: مخصُوصٌ بالفيْلسُوفِ خاصَّةً، أَعْني الوقُوفُ على أسْرارِ مَعَاني الكتابِ الباطِنَةِ.

قالَ عبدُ الله بنُ المُقفَّع: لمّا رأيْتُ أهلَ فارِسَ قدْ فَسَّرُوا هذا الكِتابَ منَ الهِنْدِيّةِ إلى الفارسيّةِ وألحَقُوا بهِ باباً وهوَ بابُ بَرْزوَيْهِ الطَّبيب، ولم يذكُرُوا فيهِ ما ذَكَرْنا في هذا البابِ لمَنْ أرادَ قراءَتَهُ واقْتِباسَ عُلومهِ وفوائدِهِ وضعنَا له هذا الْبابِ فَتأمَّلْ ذلكَ تُرْشَدْ، إنْ شاءَ الله تعالى.

الباب الأول

بَرْزَوَيْهِ
ترجمة بُزُرْجَمهْرَ بنِ البَخْتَكانِ

قالَ بَرْزَوَيْه بن أزْهَرَ رأسُ أطبَّاءِ فارِسَ وهوَ الذي توَلَّى آنْتِساخَ هذا الكتابِ وترْجَمَهُ منْ كتُبِ الهندِ، وقد مضَى ذِكْرُ ذلكَ منْ قبْلُ: إن أبي كان منَ المُقاتِلَةِ وكانتْ أُمّي منْ عُظماءِ بُيُوتِ الزَّمازِمةِ[1] وكانَ مَنْشئي في نِعمةٍ كاملةٍ وكنتُ أكْرَمَ ولَدِ أبَوَيَّ عليهما وكانَا بي أشَدَّ احْتِفَالاً منْ دُونِ إخوَتي، حتى إذَا بلَغْتُ سَبْعَ سِنين أسلَماني إلى المؤَدِّبِ فلمّا حَذَقْتُ الكتابَةَ شكَرْتُ أبَوَيَّ ونظَرْتُ في العلَمِ فكانَ أوّلَ ما ابْتدَأْتُ بهِ وحَرَصْتُ عليهِ علمُ الطّبِّ لأني كنتُ عرَفْتُ فَضلَهُ، فأقَمْتُ في تَعلُّمِهِ سبْعَ سِنينَ وكلَّما ازْدَدْتُ منه عِلماً ازْدَدْتُ فيهِ حِرْصاً ولهُ اتّباعاً.

فلمّا همَّتْ نَفسي بمدَاواةِ المَرْضَى وعزَمْتُ على ذلكَ، آمَرْتُ[2] نفسِي ثمَّ خيَّرْتُها بينَ الأُمُورِ الأربعة التي يَطلُبُها النّاسُ وفيها يَرْغَبُونَ ولها يسعَوْنَ فقلْتُ: أيَّ هذهِ الخلالِ أبْتغِي في عِلْمِي وأيُّها أحْرَى بي فأُدركَ منهُ حاجتِي، ألَمالُ أمِ الذِّكْرُ أمِ اللذَّاتُ أمِ الآخرَةُ.

وكنتُ وجدْتُ في كتُبِ الطُّبِّ أنَّ أفضلَ الأطبَّاءِ مَنْ واظَبَ على طبِّهِ لا يَبْتغي إلاَّ أجرَ الآخرَةِ، فرأيْتُ أنْ أطلُبَ الاشْتِغالَ بالطّبِّ ابْتغاءَ الآخرةِ لئلاَّ أكُونَ كالتَّاجرِ الذي باعَ ياقُوتةً ثمينةً كانَ يُصِيبُ بثمَنِها غِنَى الدَّهْرِ بخَرَزَةٍ

(١) الزمازمة: عظماء المجوس.
(٢) آمرت نفسي: شاورتها.

لا تُساوِي شيئاً، معَ أني قدْ وجَدْتُ في كتُبِ الأوَّلينَ أنَّ الطَّبيبَ الذي يَبْتَغي بطِبِّهِ أجْرَ الآخرَةِ لا يمنَعُهُ ذلكَ حظَّهُ منَ الدُّنْيا وأنَّ مَثلَهُ مثَلُ المزارعِ الذي يبذُرُ حَبَّهُ في الأرضِ ويَعْمُرُها ابْتغاءَ الزَّرْعِ لا ابْتغاءَ العُشْبِ ثُم هيَ لاَ محالةَ نابِتٌ فيها ألْوانُ العُشْبِ معَ يانِعِ الزَّرْعِ فأقْبلتُ على مُداواةِ المَرْضَى ابْتغاءَ أجْرِ الآخرةِ، فلمْ أدَعْ مريضاً أرْجُو له البُرْءِ وآخَرَ لا أرْجُو لهُ ذلكَ إلا أني أطمَع أنْ يَخِفَّ عنهُ بعضُ المرَضِ إلا بالَغْتُ في مُداواتِه ما أمكَنني بالقيامِ عليهِ بنفْسي، ومَنْ لمْ أقْدِرْ على القيامِ عليهِ وصَفْتُ لهُ ما يَصْلُحُ وأعطَيتُهُ منَ الدَّواءِ ما يَتعالَجُ به، ولم أُرِدْ ممنْ فَعلْتُ معهُ ذلك جزاءً ولا مُكافأةً، ولم أغْبِطْ أحداً من نُظَرائي الذينَ همْ دُوني في العلمِ وفَوْقِي في الجاهِ والمَالِ وغيرهما ممَّا لا يعُود بصلاحٍ ولا حُسْنِ سيرَةٍ قولاً ولا عمَلاً.

ولمَّا تَاقَتْ نفْسي إلى غِشْيانِهِم[1] وتمنَّتْ مَنازلَهمْ أثْبَتُّ لَها الخُصومة وقلتُ لها: يا نَفْسُ! أمَا تَعرِفينَ نَفْعَكِ منْ ضَرَرِكِ؟ ألا تَنتهينَ عنْ طلَبِ مالاً ينالهُ أحَدٌ إلاَّ قَلَّ انتِفاعُهُ به وكَثُرَ عَناؤُهُ فيهِ واشتَدَّتِ المؤونَةُ[2] عليهِ وعظُمَتِ المَشَقَّةُ لدَيْهِ بعدَ فِراقِه؟ يا نَفْس! أمَا تَذْكُرينَ ما بعد هذهِ الدَّارِ فيُنْسيَكِ ما تَشْرَهينَ إليهِ[3] منها! ألاَ تَستحِينَ منْ مُشارَكةِ الفُجَّارِ في حُبِّ هذهِ العاجلةِ الفانِيَةِ التي مَنْ كانَ في يدِه منها شيءٌ فليسَ لهُ وليسَ بِباقٍ عليهِ فلا يألَفُها إلاَّ المغرُورُونَ الجاهلونَ؟ يا نَفْسُ! انْظري في أمرِكِ وانْصَرِفي عنْ هذا السَّفَهِ[4] وأقْبِلِي بقُوَّتِكِ وسَعيكِ على تقدِيم الخير وإيَّاكِ والشَّرَّ واذْكُري أنَّ هذا الجَسَدَ موجودٌ لآفاتٍ وأنهُ ممْلُوءٌ أخلاَطاً فاسِدَةً قذِرَةً مُتَعادِيةٍ مُتغالبَةً تَعقدها الحياةُ والحياةُ إلى نَفادٍ كالصنم المُفصَّلةِ أعضاؤُهُ إذا رُكِّبَتْ ووُضِعَتْ يَجمعُها مسْمارٌ واحدٌ يشد بعضه بعضاً فإذا أُخِذَ ذلكَ المِسْمارُ تساقَطَت تلكَ

(١) غِشيانهم: إتيانهم.

(٢) المؤونة: الثقل والشدة.

(٣) تشرهين: تحرصين.

(٤) السفه: نقص العقل.

الأوْصالُ. يا نفْسُ! لا تَغترّي بصُحبة أحِبَّائِكِ وأصحابك ولا تَحرصِي على ذلكَ كلَّ الحِرصِ فإنَّ صُحبتَهمْ على ما فيها منَ السُّرُورِ كثيرَةُ المَؤونةِ وعاقبةُ ذلكَ الفِراقُ، ومَثَلُها مثَلُ المِغْرَفةِ التي تُستعمَلُ في جِدَّتِها لِسُخونةِ المَرَقِ، فإذا انكسَرَتْ صارت وَقُوداً. يا نفس! لا يَحمِلَنَّكِ أهلُكِ وأقاربُكِ على جَمْعِ ما تَهْلِكينَ فيهِ إرادةَ صِلَتِهِمْ فإذا أنْتَ كالدُّخْنَةِ الأرجِةِ[١] التي تحترقُ ويذْهَبُ آخرُونَ بريحِها، يا نفْس! لا تَرْكَني إلى هذهِ الدَّارِ الفانيةِ ولا تَغترّي بها طَمَعاً في البقاءِ والمنزِلة التي ينظُرُ إليْها أهلُها، فكأيٍّ[٢] ممنْ لا يُبْصِرُ صِغَرَ ما يَستعْظِمُ وحقارتَه حتى يُفارِقَهُ كشَعْرِ الرَّأسِ الذي يَخْدُمُهُ صاحبُهُ ويُكرِمُهُ ما دامَ على رأسِهِ فإذا فارقَ رأسَهُ اسْتقذرَهُ ورفَضَهُ. يا نفْسُ! لا تَمَلي منْ عِيادَةِ المْرَضى ومُدَاواتِهِمْ واعْتبرِي كيفَ يَجْهَدُ الرَّجُلُ أنْ يُفرِّجَ عنْ مَضِيمٍ واحدٍ كُرْبَةً واحدةً، ويَستنقِذَهُ منها رَجاءَ الأجْرِ، فكيْفَ بالطَّبيبِ الذي يَفْعَلُ كثيراً منْ ذلكَ معَ كثيرينَ، إن هذا لَخليقٌ أنْ يَعْظُمَ رَجاؤهُ ويُوثَقُ لهُ بحُسْنِ الثَّوابِ. يا نفسُ! لا يَبْعُدْ عنكِ أمْرُ الآخرَةِ فتَمِيلي إلى العاجلةِ في اسْتِعْجالِ القليلِ وبَيْعِ الكثيرِ باليَسير... كالتَّاجِرِ الذي كانَ لهُ مِلءُ بيْتٍ منْ الصَّنْدَلِ[٣] فقالَ: إنْ بعْتُهُ وزْناً طالَ عليَّ فَباعَهُ جُزَافاً[٤] بأبْخَسِ الثَّمَنِ، وقدْ وجدْت آراءَ النّاسِ مختلفة وأهْواءَهُمْ مُتبايِنةً[٥] وكلٌّ على كلٍّ رَادٌّ... ولهُ عدُوٌّ ومُعْتابٌ ولقوْلهِ مُخالفٌ.

[حكاية المصدقُ المخدوع]

فلمَّا رأيتُ ذلكَ لم أجِدْ إلى مُتابعةِ أحدٍ منهمْ سبيلاً وعرَفْت أني إنْ

---

(١) الدخنة: الذريرة. والأرجة: الرائحة الطيبة.

(٢) فكأي: أي فكم.

(٣) الصندل: حب طيب الرائحة.

(٤) الجزاف: بيع الشيء لا يعلم كيله ولا وزنه.

(٥) متباينة: متباعدة.

صَدَّقْتُ أحداً منهمْ لا عِلَم لي بحالهِ كنتُ في ذلكَ كالمُصَدِّقِ المخدوع الذي زَعَمُوا في شأنهِ أنَّ سارِقاً علاَ ظهْرَ بيتِ رجُلٍ منَ الأغنياءِ وكان معهُ جماعةٌ منْ أصْحابهِ فاسْتيقَظَ صاحِبُ المنزِلِ منْ حرَكةِ أقدَامِهمْ فأيْقظَ امْرَأتَهُ فأعلَمَها بذلكَ وقال لها: روَيْداً[١] إني لأحْسَبُ اللُّصوصَ علُوا البيت، فأيْقِظِيني بصوْتٍ يَسمعُهُ اللُّصوصُ وقُولِي ألاَ تُخبِرُني أيُّها الرَّجُلُ عنْ أموالِكَ هذهِ الكثيرَةِ وكنوزِكَ العظيمةِ؛ فإذا نَهيتُكِ فألِحّي عليَّ في السُّؤَالِ واستَحْلِفِيني حتى أقولَ لكِ. ففعَلَتِ المرأةُ ذلكَ وسألتْهُ كما أمرَها وأنْصتَتِ اللُّصُوصُ إلى سَماعِ قوْلِهما، فقالَ لها الرَّجُلُ: أيتُها المرأةُ قدْ ساقَكِ القَدَرُ إلى رِزْقٍ واسِعٍ ومالٍ كثيرٍ فكلُي واسكتي ولا تَسألِي عنْ أمْرٍ إنْ أخبَرْتُكِ بهِ لمْ آمَنْ أنْ يَسمَعَهُ أحدٌ فيكونَ في ذلِكَ ما أكْرَهُ وتكْرَهينَ. فقالتِ المرأةُ: أخبِرْني أيُّها الرَّجلُ فلَعَمْري[٢] ما بِقُرْبِنا أحدٌ يَسْمَعُ كلاَمَنا.

فقالَ لها: فإني مُخبِرُكَ أني لم أجمَعْ هذِهِ الأموالَ إلاَّ منَ السَّرِقَةِ. قالتْ: وكيفَ كانَ ذلكَ وما كنتَ تصْنَعُ. قال: ذلكَ لِعِلمٍ أصَبتُهُ في السَّرِقَةِ، وكانَ الأمْرُ عليَّ يَسيراً وأنَا آمِنٌ من أنْ يتَّهِمَني أحدٌ أو يَرتَابَ بي. قالتْ: فاذْكُرْ لي ذلكَ قال: كنتُ أذْهَبُ في اللَّيْلةِ المُقمِرَةِ أنا وأصْحابي حتى أعْلُوَ دارَ بعضِ الأغْنياءِ مِثلنا فأنتهِي إلى الكُوَّةِ[٣] التي يَدْخُلُ منها الضَّوْءُ، فأرْقِي بهذهِ الرُّقْيَةِ وهيَ شَوْلَمْ سبْعَ مرَّاتٍ وأعْتنِقُ الضوْءَ فلا يُحسُّ بوُقُوعي أحدٌ فلا أدَعُ مالاً ولا مَتاعاً إلاَّ أخذْتُهُ، ثم أرْقِي بتلكَ الرُّقيَةَ سبْعَ مرَّاتٍ وأعتنِقُ الضَّوْءَ فيَجذبُني فأصعَدُ إلى أصْحابي فنَمْضِي سالمينَ آمنينَ.

فلمّا سمِعَ اللُّصُوصُ ذلكَ قالوا: قدْ ظَفِرْنا اللّيلةَ بما نُريدُ منَ المالِ. ثمّ إنهمْ أطالُوا المُكْثَ حتى ظَنُّوا أنَّ صاحِبَ الدَّارِ وزوجتَهُ قدْ هَجَعا فقام

(١) رويداً: مهلاً.
(٢) لعمري: قسماً بعمري.
(٣) الكُوَّة: الخرق في الحائط.

قائدُهُمْ إلى مَدْخَلِ الضّوْءِ وقال: شَوْلَمْ شَوْلَمْ سبْعَ مَرَّاتٍ ثمَّ اعْتَنقَ الضّوْءَ لِيَنزِل إلى أرْضِ المنزِلِ فوقَعَ على أُمِّ رأسِهِ مُنَكَّساً[1] فوثَبَ إليهِ الرّجُلُ بِهِراوَتِهِ، وقالَ لهُ: مَنْ أنْتَ؟ قال: أنا السَّارقُ المُصَدِّقُ المَخْدُوعُ المُغترُّ بما لا يكُونُ أبداً، وهذهِ ثَمَرَةُ التَّصْدِيقِ.

فلمَّا تحرَّزْتُ مِنْ تصدِيقِ ما لاَ يكُونُ ولم آمَنْ إنْ صدَّقْتُهُ أن يُوقعني في تَهْلُكَةٍ إلى البَحْثِ عنِ الأدْيَانِ والتماسِ العدْلِ منها فلَمْ أجدْ عندَ أحدٍ مِمَّنْ كلَّمتُهُ جواباً فيما سألتُهُ عنه فيها، ولم أرَ فيما كلَّمُوني بهِ شيْئاً يَحِقُّ لِي في عَقْلي أن أُصَدِّقَ بهِ ولا أنْ أتَّبِعَهُ، فقلتُ لمَّا لَمْ أجد ثِقَةً آخُذُ منهُ فالرَّأيُ أن ألزَمَ دِينَ آبائي وأجْدَادِي الذي وجَدْتُهمْ عليه وهمَمْتُ بذلكَ، ثم التمستُ لِنَفسي مَخرَجاً فقلتُ إنْ كانَ مَنْ يَفْعَلُ هذا مَعذُوراً فإنَّ الذي يجدُ أباهُ ساحراً ويجري عَلَى مثالِهِ يكونُ غيرَ مَلُومٍ معَ أشبَاهِ ذلكَ ممَّا لا يحتَمِلُهُ العقْلُ، وذكَرْتُ في ذلكَ قولَ رجلٍ كانَ فاحِشَ الأكْلِ فعُوتِبَ في ذلك فقالَ: كذلكَ كانَ أكْلُ أبي وجَدِّي. فلمَّا ذَهبْتُ ألتمِسُ العُذْرَ لِنفسي في لزُومِ دِينِ الآباءِ والأجْدَادِ لَمْ أجدْ لها على الثُّبُوتِ علي دينِ الآباءِ طاقةً، بَلْ وجدْتُها تريدُ أن تَتَفَرَّغَ لِلْبَحْثِ عن الأديانِ والمسألةِ عنها ولِلنَّظَرِ فيها، فهَجَسَ[2] في قلبي وخطرَ على بالِي قُرْبُ الأجلِ وسرعَةِ انقطاعِ الدُّنْيا واعتِبَاطِ[3] أهلِها وتخَرُّم[4] الدَّهْرِ حياتَهمْ، ففكَّرْتُ في ذلكَ وقلتُ: أمَّا أنا فلعلّي قد قَرُبَ أجلِي وحانَتْ نُقْلتِي[5] وقد كنتُ أعمَلُ أموراً محْمُودةً أرجُو أن تكونَ أصلحَ الأعمالِ. ولعلَّ تَرَدُّدِي شغلني عنْ خيْرٍ كُنْتُ أعْمَلُهُ فيكونُ أجَلِي دونَ ما تطْمَحُ إليهِ نفسي

---

(١) منكساً: مقلوباً.

(٢) هجس: خطر لي.

(٣) الاعتباط: الهلاك بغتة.

(٤) تخرم الدهر حياتهم: استأصلهم.

(٥) النقلة: الموت.

ويَطلبُه أَمَلِي. ويصيبُني ما أصابَ الرَّجُلَ الذي زعموا أَنَّهُ تَوَاطَأ[١] معَ خادمٍ في بيْتٍ لأحدِ الأغنياءِ على أن يأتيَ البيْتَ في كلّ لَيْلةٍ يغيبُ أهله فيَجمعَ لهُ الخادمُ ممَّا في البيْتِ فيَذْهَبَ بهِ ويَبيعَهُ ويتشاطَرَا ثمنَهُ[٢]. فاتّفَق ذاتَ ليْلةٍ أن غاب أهلُ البيتِ وَبَقِيَ الخادِمُ وحْدَهُ فأنفَذَ فأخبرَ صاحبَهُ فأقبَلَ حتى دخلَ البيتَ وأخذَا في الجمْعِ ممّا فيه، وبينا هما يجمَعَانه إِذْ قُرِعَ البابُ. وكانَ لِلبيْتِ بابٌ آخرُ لَمْ يكُن يَعلمُهُ الرَّجُلُ وكانَ ذلكَ الباب عند جُبّ الماءِ فقالَ الخادمُ للرَّجُلْ على عَجَلٍ منهُ وخيفَةٍ: بادِرِ اخرُج منَ البابِ الذِي عِنْدَ جُبِّ الماء. وأشارَ لهُ إِلى موضعِهِ. فانطلَقَ الرجلُ إلى ذلكَ المكانِ فوجدَ البابَ ولكنْ لَمْ يَجِدْ جُبَّ الماء فرجعَ إليه وقال لهُ: أمَّا البابُ فوجدتُهُ وأمَّا الجُبُّ فَلَمْ أجِدْهُ. فقالَ لهُ: أيُّهَا المائقُ[٣] وما تصنعُ بالجُبّ أنا دَللْتُكَ به لتعرِفَ البابَ فإِذْ قدْ عرفتَهُ فاذْهَبْ عاجِلاً.

فقالَ لهُ: لِمَ ذَكَرْتَ الجُبَّ ولَيْسَ هُوَ هُناكَ. فقال لهُ: ويْحكَ أيُّهَا الأحمقُ انْجُ بِنَفسكَ ودَعْ عنْكَ الحَمَقَ والتردُّدَ فقالَ لهُ: كيْفَ أمْضِي وقدْ خَلطت عليَّ وذكَرْتَ الجُبَّ وليسَ هُناكَ... فلمْ يزَلْ على مثْلَ هذه الحالِ حتى دخلَ ربُّ البيتِ فأخذَهُ وأوْجعَهُ ضَرْباً ورفعَهُ إلى السُّلْطانَ.

فلما خِفْتُ منَ التردُّدِ رأيتُ ألاَّ أتعرَّضَ لِما أتخَوَّفُ منهُ المكرُوهَ وأنْ أقْتصِرَ على عمَلٍ تَشهَدُ الأنْفُسُ أنه يوافِقُ كلَّ الأدْيانِ فكفَفْتُ يَدِي عنِ الضَّرْبِ والقَتْلِ والسَّرِقَةِ، وزَجَرْتُ نفسي عن الكِبَرِ والْغضَبِ، ونَزَّهتُ نَفسي عنِ الحِقْد والبُغْض والخيانةِ، وصُنْتُ لساني عنِ الكَذِبِ والبُهْتانِ والغِيبَةِ والنميمةِ وكلِّ أمرِ مكرُوهٍ، وأضْمَرْتُ في نفسي ألاَّ أبْغيَ على أحدٍ ولا أُكذِّبَ بالبَعْثِ ولا

---

(١) تواطأ: اتفق.

(٢) يتشاطرا ثمنه: يتقاسماه مناصفة بينهما، فيأخذ كل واحد شطراً.

(٣) المائق: الأحمق في غباوة.

الْقيامة ولا الثَّوابِ ولا العِقابِ وأنْ لا إلهَ إلاَّ الله الأَحَدُ الصَّمَدُ[١] وزايَلْتُ[٢] الأشرارَ بِقَلْبي وحاوَلْتُ الجُلوسَ مَعَ الأخْيارَ بجُهْدِي، ورأيتُ الصَّلاحَ ليسَ كمِثْلِهِ صاحِبٌ ولا قَرينٌ ووَجدْتُ مكْسَبَهُ إذا وَفَّقَ الله وأعانَ يَسيراً ووَجدْتُهُ يدُلُّ على الخيرِ ويُشيرُ بالنُّصْحِ فعْلَ الصَّدِيقِ بالصَّدِيقِ، ووجدْتُهُ لا يَنْقُصُ على الإنْفاقِ منهُ بلْ يزْدَادُ جِدَّةً وحُسْناً ووجدْتُهُ لا خَوْفَ عليهِ منَ السُّلْطانِ أنْ يَغصِبَهُ، ولا منَ الماءِ أنْ يُغرِقَهُ، ولا منَ النَّارِ أنْ تُحْرِقَهُ، ولا منَ اللصُوصِ أنْ تَسْرقَهُ، ولا منَ السِّباعِ وجوارِحِ الطيرِ أن تُمزِّقَهُ.

[قصة التاجرُ الخاسر]

ووجدْتُ الرَّجُلَ السَّاهيَ اللاَّهيَ المؤْثِرَ اليسيرَ ينالُهُ في يوْمِهِ ويَعْدَمُهُ في غده على الكثير الْباقي نعيمُهُ، يُصيبُهُ ما أصابَ التَّاجرَ الذي زَعمُوا أنهُ كان لهُ جَوْهَرٌ نفيسٌ فاسْتأجرَ لثَقْبِهِ رجُلاً في اليوْمِ بمائةِ دِينارٍ، وآنْطلَقَ به إلى مَنزلِهِ ليَعمَلَ وإذا في ناحِيَةِ البيتِ صَنْجٌ موْضُوعٌ، فقالَ التَّاجرُ للصَّائغِ: هَلْ تُحْسِنُ آللَّعِبَ بآلصَّنْجِ؟ قال: نعَمْ. وكان بلَعِبِهِ ماهراً فقالَ الرَّجُلُ: دُونَكَ آلصَّنْجَ فأسمِعنا ضَرْبَكَ بهِ. فأخذَ الرَّجُلُ الصَّنْجَ ولم يزَلْ يُسْمِعُ التّاجرَ الضَّرْب الصَّحيحَ والصَّوْتَ الرَّفيعَ، والتاجرُ يُشيرُ بيدِه ورأْسهِ طرَباً حتى أمسَى، فلمّا حانَ الغرُوبُ قال الرَّجُلُ للتَّاجِرِ: مُرْ لي بالأُجْرَةِ. فقال لهُ التَّاجرُ: وهلْ عَمِلْتَ شيئاً تستحِقُ به الأُجْرَةَ؟ فقال: عَمِلْتُ ما أمَرْتَني به وأنا أجيرُكَ وما آسْتَعْملتَني[٣] عَمِلْتُ. ولم يزلْ بهِ حتى استَوْفَى منهُ مائةَ دينارٍ وبقيَ جوْهرُهُ غيرَ مثْقُوبٍ.

فلمْ أزْدَدْ في الدُّنْيا وشَهواتِها نظراً إلاَّ آزْدَدْتُ فيها زَهادةً ومنها هرَباً

(١) الصمد: من أسماء الله تعالى المقصود في الحوائج.
(٢) زايلت: فارقت.
(٣) استعملتني: أي طلبت مني عمله.

ووَجدْتُ النُّسْكَ هوَ الذي يُمَهِّدُ للْمَعادِ[١] كما يُمهِّدُ الوالدُ لوَلَدِهِ، ووجدْتُهُ هو البابَ المفتُوحَ إلى النَّعيم المُقيم، ووجَدْتُ النّاسِك قدْ تدبَّرَ[٢] فَعْلَتَهُ بالسكينةِ والوَقارِ فشكَرَ وتواضَعَ، وقَنِعَ فاسْتَغْنَى، ورضِيَ فلمْ يهتمَّ، وخلَعَ الدُّنْيا فنَجا منَ الشرُورِ، ورفَضَ الشَّهوَاتِ فصار طاهراً، وطَرَحَ الحسَدَ فوَجبتْ لهُ المحبَّةُ، وسَخَتْ نفْسُهُ بكلِّ شيءٍ، واسْتعمَلَ العقلَ فأبصَرَ العاقبةَ فأمِنَ النَّدَامَةَ، واعتزَلَ النَّاسَ فَسَلِمَ منهمْ.

[قصة الكلب المخدوع]

ولمْ آمَنْ أنْ تركتُ الدُّنْيَا وأخَذْتُ في النُّسْكِ أنْ أضْعُفَ عنْ ذلك وأكُونَ قد رَفضتُ أعمالاً كنتُ أرجُو عائدَتَها وقدْ كنتُ أعمَلُها فأنْتفعُ بها في الدُّنْيا، فيكُونُ مَثَلي في ذلكَ مثَلَ الكلْبِ الذي مرَّ بنَهْرٍ وفي فيهِ ضِلَعٌ فرَأى ظِلَّها في الماءِ فأهْوَى[٣] ليأخُذَها فأتْلَفَ ما كانَ معهُ ولمْ يجدْ في الماءِ شيْئاً.

فَهِبْتُ النُّسْكَ مهابةً شديدةً وخِفت منَ الضَّجَرِ وقلةِ الصبرِ وأردْتُ الثُّبُوتَ على حالَتي التي كنتُ عليها، ثُمَّ بدَا لِي أنْ أقيسَ ما أخافُ ألاَّ أصْبِرَ عليهِ من الأذَى والضّيقِ والخُشونةِ في النُّسْكِ وما يُصيب صاحِبَ الدُّنْيا منَ البلاءِ، وكان عِندِي أنهُ ليسَ شيءٌ منْ شَهواتِ الدُّنْيا ولَذَّاتِها إلاَّ وهوَ مُتحوِّلٌ إلى الأذَى ومُولِّدٌ للْحُزْنِ، فالدُّنيا كالماءِ المِلْحِ الذي لا يَزْدادُ شارِبُهُ شُرباً إلاَّ ازْدادَ عطَشاً، وهي كالعظْم الذي يُصيبُهُ الكلبُ فيهِ فيجدُ ريحَ اللَّحم فلا يزالُ يَطْلُبُ ذلك اللحمَ حتى يُدْمِيَ فاهُ، وكالحِدَأةِ التي تَظْفَرُ بقِطْعةٍ منَ اللَّحمِ فيَجتمعُ عليْها الطَّيْرُ فلا تزَالُ تدُورُ وتَدْأَبُ حتى تُعْيِيَ فإذا تَعِبَتْ ألْقتْ ما معَها، وكالكُوزِ منَ العسلِ الذي في أسْفلِهِ السُّمَّ الذي يُدَافُ[٤] فيهِ حلاوةٌ

(١) المعاد: الآخرة.

(٢) تدبر: تفكر.

(٣) أهوى إلى الشيء بيده مدها ليأخذه إذا كان عن قرب فإن كان عن بعد قيل: هوى إليه بغير ألف.

(٤) يداف: يخلط.

عاجلةٌ وآخرهُ موْتٌ زُعافٌ[١]، وكالبرْقِ الذي يُضيءُ يسيراً فيُطْمِعُ بالنُّورِ ثمَّ يذْهَبُ بغْتةً ويرْجعُ الظَّلامُ، فلمَّا فكرْتُ في هذهِ الأمُورِ رجَعْتُ إلى طلَبِ النُّسْكِ وهزَّني الاشْتِياقُ إليهِ ثم خاصَمتُ نفسي إذْ هيَ في شُرُورِها سارحةٌ وقدْ لا تَثبُتُ على أمْرٍ تعْزِمُ عليه كقاضٍ سَمعَ منْ خَصْمٍ فحكَم لهُ، فلمّا حضرَ الخَصْمُ الثاني عادَ إلى الأوَّلِ فقَضَى عليهِ، ثمّ نظَرْتُ في الذِي أكابدُهُ من احتمالِ النُّسْكِ وضيقِهِ فقلتُ ما أصْغَرَ هذهِ المشَقَّةِ في جانِبِ رَوْحِ[٢] الأبَدِ وراحتِه! ثمّ نظَرْتُ فيما تَشْرَهُ إليهِ النفسُ منْ لَذَّةِ الدُّنْيا فقلتُ ما أمَرَّ هذا وأوْجعَهُ وهوَ يدْفَعُ إلى عذابِ الأبَدِ وأهْوالِهِ، وكيفَ لا يَسْتَحْلي الرَّجُلُ مَرارة قليلةً تَعْقبُها حلاوَةٌ طويلةٌ وكيفَ لا تمُرُّ عليهِ حلاوةٌ قليلةٌ تُعقُبُها مرارَةٌ دائمةٌ، وقلتُ لوْ أنّ رجُلاً عُرِضَ عليهِ أنْ يعيشَ مائةَ سنةٍ لا يأتي عليهِ يوْمٌ واحدٌ إلاَّ بُضِعَ[٣] منهُ بَضْعَةٌ غيرَ أنهُ يُشْرَطُ لهُ أنهُ إذا استوْفَى السنينَ المائةَ نَجا منْ كلِّ ألَمٍ وأذَى وصارَ إلى الأمْنِ والسُّرُورِ كانَ حقيقاً ألاَّ يَرَى تلكَ السّنينَ شيئاً فكيْفَ يأبَى الصبرَ على أيَّامٍ قلائلَ يَعيشُها في النُّسْكِ وأذَى تلكَ الأيَّامِ قليلٌ يُعْقِبُ خيراً كثيراً؟ أوَ ليْسَ أنّ الدُّنْيا بلاءٌ وعذَابٌ والإنسَانُ إنما يَتقلَّبُ في عذابِها منْ حِينِ يكُونُ جَنيناً إلى أن يَستَوْفيَ أيّامَ حياتهِ؟.

فإنّنا نجدُ في كتُبِ الطّبِّ أنَّ الماءَ يُقَدَّر منهُ الوَلَدُ السَّوِيُّ إذا وقعَ في رَحِمِ المرْأةِ يَختلِطُ بدَمِها ومائِها فيَثْخُنُ ويَغلُظُ ثمّ تَمْخَضُ الريحُ ذلكَ الماءَ والدَّمَ حتى تترُكهُ كالجُبْنِ ثمَّ كالرّائِبِ الثّخينِ الغليظِ ثمّ تُقسَمُ فيهِ أعْضاءُ الولَدِ لإبّانِ أيّامهِ فإنْ كانتْ أنثَى فوَجْهُها قِبَلَ وجْهِ أمّها، وإنْ كانَ ذَكَراً فوَجْهُهُ قِبَلَ ظَهْرِ أُمّهِ ويداهُ على وجْنتيْهِ، وذَقَنُه على رُكْبَتَيْهِ وهوَ مُنقبِضٌ في المَشيمَةِ كأنها صُرَّةٌ مصرُورَةٌ يتنفَّسُ منْ مُتنفسٍ ضيِّقٍ شاقٌّ عليهِ وليْسَ منْ عُضوٍ إلاّ وهو مُقَمَّطٌ بقِماطٍ وفوْقَهُ حَرُّ البطْنِ وثِقَلُهُ وتحتَهُ ما تحتهُ منَ الظُّلمة

(١) زعاف: فتاك.
(٢) الرَّوْحُ: الراحة.
(٣) بُضِعَ: قُطِعَ.

والضِّيقِ، وهوَ مَنُوطٌ بَمَعاً[١] منْ سُرَّتِهِ إلى سُرَّةِ أمّهِ ومنْ ذلكَ المَعَا يمُصُّ ويَقتبسُ الطَّعامَ، فهوَ بهذهِ المنزلةِ في الظُّلمةِ والضّيقِ إلى يوم وِلادتِهِ، وإذا كانَ إبَّانُ المَخاضِ والوِلادةِ سُلطتْ ريحٌ على رِحَم المرأةِ، فتَهَبُ للْجَنينِ قوَّةً يَقْدِرُ بها على الحركة فيَضْرِبُ برأسِهِ قبلَ المَخْرَجِ منْ ضِيقهِ وحرِجه، فإذا وقعَ إلى الأرضِ فأصابَتْهُ ريحٌ أوْ لَمَسَتْهُ يدٌ وجدَ لذلكَ من الألمِ ما يجدُهُ الإنسانُ إذا سُلخَ جلْدُه.

ثمّ هوَ في أنوَاعِ العذابِ إن جاع فليسَ به اسْتِطْعامٌ أو عطش، فليسَ بهِ استِسْقاءٌ أو وَجِعَ، فليسَ به اسْتغاثةٌ معَ ما يَلْقَى من الوَضْعِ والحَمْلِ واللّفِّ والدَّهْنِ والمسْحِ إنْ أُنيمَ على ظهره لم يستطعْ تقلُّباً، ثمّ يَلقَى أصْنافَ العذابِ ما دامَ رَضِيعاً فإذا أفلَتَ منْ عذابِ الرَّضاعِ أُخِذَ في عذابِ الأدَبِ فأُذِيقَ منهُ ألواناً منْ عُنْفِ المُعلّمِ وضَجَرِ الدَّرْسِ وسآمةِ الكتابةِ، ثمّ لهُ منَ الدّواءِ والحمْيَةِ والأسْقامِ والأوْجاعِ أوْفَى نصيبٍ، فإذا أدْرَكَ كانت همَّتُهُ في جَمْعِ المالِ وتَرْبيَةِ الوَلَدِ ومُخاطرَةِ الطَّلبِ والسَّعْيِ والكَدِّ والتعبِ، وهو مع ذلكَ يتقلَّبُ معَ أعدائه الباطِنية اللازِمة لهُ وهي الصفرَاءُ والسَّوْداءُ والريحُ والبَلْغَمُ والدَّمُ والسُّمُّ المميت، والحيةُ اللادغة، . مع الخوف من السباع والهَوَامِّ، مع تقلُّب الفصُولِ من الحرّ والبرْدِ والأمطارِ والرّياحِ، ثمّ أنواعُ عذابِ الهرَمِ لمنْ يَبلُغُه.

فلوْ لمْ يخَفْ منْ هذهِ الأمُورِ شيئاً وكانَ قدْ أمِنَ ووَثِقَ بالسلامةِ منها فلمْ يُفكّرْ فيها لوَجَبَ عليهِ أنْ يكونَ مُفكّراً بالساعةِ التي يحضُرُهُ فيها الموْتُ، فيُفارِقُ الدنْيا فيذْكُرُ ما هوَ نازلٌ به في تلكَ الساعةِ منْ فِراقِ الأحبَّة والأقارب والمالِ وكلِّ مَضْنُونٍ[٢] به منَ الدُّنْيا معَ الإشرافِ على الهوْلِ العظيمِ بعدَ الموْتِ، فلوْ لمْ يَفْعَلْ ذلكَ لكانَ حقيقاً أنْ يُعَدَّ عاجِزاً مُفرِّطاً

(١) المعا: واحدة الأمعاء. (٢) مضنون: يبخل به.

مُحبًّا للدَّناءَةِ مُستَحِقًّا للَّوْمِ فَمنْ ذا الذي يَعلمُ ولا يَحتالُ لِغَدٍ جَهْدَ حيلَتهِ ويرْفُضُ ما يَشْغلُهُ ويُلْهيهِ من شهواتِ الدُّنْيا وغرُورِها، ولا سِيَّما في هذا الزَّمان الشَّبيهِ بالصَّافِي وهوَ كَدِرٌ فإنهُ وإنْ كانَ الملِكُ حازماً عظيمَ المَقْدرَةِ رفيعَ الهِمَّةِ بَليغَ الفَحْصِ عَدْلاً مَرْجُوًّا صَدُوقاً شَكُوراً رَحْبَ الذّراعِ مُوَاظِباً على الحُسنَى عالِماً بالنّاسِ مُهتَمًّا بأُمورِ رعيّتِهِ ناظراً في أحوالِهِمْ مُحبًّا للعلم والخَيْرِ والأخيارِ، شدِيداً على الظَّلَمةِ غيرَ جَبانٍ ولا خفيفِ القيادِ رَفيقاً بالتوَسُّعِ على الرّعيَّةِ فيما يُحِبُّونَ والدَّفْعِ لِما يكْرَهُونَ، فإنَّا قدْ نرَى الزَّمانَ مُدْبِراً بكلِّ مكانٍ حتى كأنَّ أُمورَ الصّدْقِ قد نُزِعتْ منَ الناسِ، فأصبحَ ما كان عزيزاً فقْدُهُ مَفقُوداً، وما كانَ ضائِراً[1] وُجُودُهُ موجُوداً، وكأنَّ الخيرَ أصبحَ ذابِلاً والشَّرَّ ناضِراً، وكأنَّ الفَهْمَ أصبَحَ قدْ زالَتْ سُبُلُهُ، وكأنَّ الحقَّ ولَّى كَسيراً وأقبلَ الباطِلُ تابِعُهُ، وكأنَّ اتِّباعَ الهوَى وإضَاعةَ الحُكْمِ أصبحَ بالحُكّامِ مُوَكَّلاً، وأصبحَ المَظلومُ بالحَيْفِ[2] مُقِرًّا والظَّالمُ لنفسهِ مُستطيلاً، وكأنَّ الحِرْصَ أصبحَ فاغِراً فاهُ منْ كلِّ جهةٍ يَتلَقَّف ما قَرُبَ منهُ وما بَعُدَ، وكأنّ الرِّضَا أصْبحَ مجهُولاً، وكأنّ الأشرَارَ يَقْصِدُونَ السَّماءَ صُعوداً، وكانّ الأخيارَ يُريدُونَ بطْنَ الأرضِ، وأصبَحَتِ المُرُوءَةُ مَقْذُوفاً بها من أعْلَى شَرَفٍ إلى أسفلِ دَرَكٍ[3] وأصبَحتِ الدَّناءَةُ مُكرَّمةً مُمكَّنةً وأصبحَ السُّلطانُ مُنتقِلاً عنْ أهْلِ الفضْلِ، إلى أهْلِ النَّقْص، وكأنّ الدُّنْيا جَذِلةٌ مسرُورةٌ تقُولُ قد غُيِّبَتِ الخيراتُ وأُظهِرَتِ السيئاتُ.

فلمّا فكَّرْتُ في الدُّنْيا وأمُورِها وأنَّ الإنسانَ هوَ أشرف الخلْقِ فيها وأفضلُهُ، ثمّ هوَ لا يَتقلَّبُ إلاّ في الشُّرُورِ والهمُومِ عرَفْتُ أنهُ ليسَ إنسانٌ ذُو عقْلٍ إلاّ وقد أغفَلَ هذا ولم يَعمَلْ لنفسهِ ويَحْتلْ لِنجاتِها فتعَجَّبتُ منْ ذلكَ

(١) ضائراً: مضراً.
(٢) الحيف: الجور.
(٣) الدرك: قعر الشيء.

كلَّ العجَبِ، ثمّ نظرْتُ فإذا الإنسانُ لا يَمنعُهُ عنِ الاحْتيال لِنفسهِ إلاَّ لذَّةٌ صغيرةٌ حَقيرةٌ من النَّظرِ والسَّمْعِ والشَّمِّ والذَّوْقِ واللَّمْسِ لعلهُ أنْ يُصيبَ منها الطَّفيفَ أوْ يَقْتني منها اليَسيرَ، فإذا ذلكَ يَشغَلُهُ ويَذْهَبُ بِهِ عنِ الاهتمامِ لنفْسِهِ وطلَب النَّجاةَ لها.

[الرجل الذي صار فريسة للتنين]

فالتَمَستُ لِلإنْسانِ مَثلاً فإذا مَثَلَهُ مثَلُ رُجلٍ نجَا منْ خَوْف فيلٍ هائجٍ إلى بئرٍ فتَدَلَّى فيها وتَعلَّقَ بغُصْنينِ كانا على سَمائِها فوَقَعتْ رِجْلاَهُ على شيءٍ في طيِّ البئرِ، فإذَا حيّاتٌ أربعٌ قدْ أخرَجْنَ رُؤُوسَهُنَّ منْ أجْحارِهِنّ ثمّ نظَرَ فإذا في قَعْرِ البئرِ تنِّينٌ فاتحٌ فاهُ مُنتظِرٌ لهُ ليقَعَ فيأخُذَهُ، فرَفَعَ بَصَرَهُ إلى الغُصنيْنِ فإذا في أصلهما جُرَذَانِ أسْوَدُ وأبَيضُ وهُما يَقْرِضانِ الغُصنيْنِ دائِبَيْنِ لا يَفتُرَانِ، فبينما هو في النَّظرِ لأمْرِهِ والاهتمامِ لنَفسهِ إذْ بَصُرَ قريباً منهُ بِخَليّةٍ فيها عسَلٌ فذاقَ العسَلَ فشغلَتْهُ حلاوتَهُ وألْهَتْهُ لذتُهُ عنِ الفِكرَةِ في شيءٍ منْ أمره، وأنْ يلْتمِسَ الخلاصَ لنفْسِه، ولم يذكُرْ أنَّ رِجْليْهِ على حيَّات أرْبعٍ لا يدرِي متَى يقَعُ عليهنَّ، ولم يَذْكُرْ أنَّ الجُرَذَيْنِ دَائبانِ في قَطْعِ الغُصْنينِ، ومتى انْقطَعا وَقَعَ على التِّنينِ، فلم يزَلْ لاهِياً غافِلاً مَشْغولاً بتلكَ الحلاَوَةِ حتى سقطَ في فَمِ التِّنين فهَلَكَ.

فشبَّهتُ بالبئر الدُّنْيا المملوءَةِ آفاتٍ وشروراً ومَخافاتٍ وعاهاتٍ وشبَّهْتُ بالحيَّاتِ الأربَعِ الأخلاطَ الأرْبَعَةَ التي في البدَنِ فإنها متَى هاجتْ أوْهاجَ أحدُهما كانتْ كَحُمَةِ[1] الأفاعِي والسُّمِّ المُميتِ، وشبَّهتُ بالغصنينِ الأجلَ الذي لا بدَّ من انقطاعهِ، وشبَّهتُ بالجُرَذَيْن الأسودِ والأبْيَضِ اللَّيلَ والنَّهارَ اللَّذيْنِ هما دائِبَان في إفْناءِ الأجَلِ، وشَبَّهتُ بالتِّنينَ المَصيرَ الذي لا

(١) الحمة: سم كل شيء يلدغ أو يلسع.

بُدَّ منهَ، وشبَّهتُ بالعَسل هذهِ الحلاوةَ القليلةَ التي يَنالُ منها الإنسانُ فيَرَى ويَطْعَمُ وَيَسْمَعُ ويَشَمُّ ويَلْمَسُ ويتَشاغَلُ عنْ نفْسهِ ويَلْهُو عنْ شأنِه فيَنسَى أمْرَ الآخرَةِ ويَصُدُّ عنْ سبيلِ قَصْدِهِ.

فحينئذٍ صارَ أمْرِي إلى الرِّضَا بحالِي وإصْلاحِ ما اْستطَعتُ إصْلاحَهُ منْ عمَلي لعلّي أنْ أُصادِفَ باقيَ أيّامِي زَماناً أُصيبُ فيهِ دليلاً على هُدَايَ وسلْطاناً على نفْسي وقِوَاماً على أمرِي، فأقَمتُ على هذهِ الحالِ وانْتسَختُ كتُباً كثيرَةً وانصَرَفتُ منْ بلادِ الهِندَ وقد نسختُ هذا الكتابَ.

الباب الثاني

باب الأسد والثور

قالَ دَبْشليمُ الملكُ لبيْدَبا الفيْلسُوفِ وهو رَأسُ البراهِمةِ: اضْرِبْ لي مثلاً للمُتحابَّيْنِ يَقطَعُ بينَهُما الكَذُوبُ المُحتالُ حتى يَحمِلَهُما على العداوَةِ والبَغضاءِ.

[التاجِرُ وبَنُوه]

قال بيدَبا: إذا ابْتُليَ المتَحابَّانِ بأنْ يَدْخُلَ بينهما الكَذُوبُ المُحتالُ لم يَلبثَا أن يتَقَاطَعا ويتَدَابَرا، ومن أمثالِ ذلكَ أنهُ كانَ بأرْضِ (دَستَاوَنْدَ) رَجُلٌ شيْخٌ وكانَ لهُ ثلاثةُ بَنينَ، فلما بلَغُوا أشُدَّهم أسْرَفُو في مالِ أبيهمْ ولم يكُونُوا احتَرَفُوا حرْفةً يكْسَبُونَ لأنفُسهِمْ بها خَيراً، فلامهُمْ أبُوهمْ ووعظَهمْ على سُوءِ فِعلِهِمْ، وكانَ منْ قولهِ لهمْ: يا بَنيَّ إنَّ صاحِبَ الدُّنْيا يَطلُبُ ثلاثةَ أُمورٍ لنْ يُدْرِكَها إلاَّ بأربعةِ أشْياءَ، أمَّا الثلاثةُ التي يطلُبُ فالسَّعةُ في الرِّزق والمنزلةُ في النّاسِ والزَّادُ للآخرةِ، وأمّا الأرْبعةُ التي يَحتاجُ إليها في دَرَكِ هذهِ الثلاثةِ فاكْتسابُ المالِ منْ أحسنِ وجْهٍ يكونُ، ثمّ حُسْنُ القيامِ على ما اكتسبَ منهُ، ثمَّ استثمارُهُ، ثمّ إنفاقُهُ فيما يُصلحُ المعيشةَ ويُرضِي الأهلَ والإخْوانَ فيعُودُ عليهِ نفْعُهُ في الآخرةِ فمنْ ضيَّعَ شيئاً من هذهِ الأحوَالِ لم يُدرِكْ ما أرادَ من حاجتهِ لأنهُ إن لم يكتسِب لم يكُن لهُ مالٌ يعيشُ بهِ... وإن هُو كانَ ذا مالٍ واكتسابٍ، ثمّ لم يُحسن القيامَ عليهِ أوْشَكَ المالُ أنْ يَفنَى ويَبقَى مُعدِماً[1] وإنْ

(١) معدماً: فقيراً.

هُوَ وضعَهُ ولم يَستثْمِرْهُ لم تمنَعْهُ قِلةُ الإنْفاق من سُرعةِ الذَّهابِ كالكُحلِ الذي لا يُؤخذُ منهُ إلاّ غُبارُ المِيْلِ، ثمّ هُوَ معَ ذلِكَ سريعُ فَناؤُهُ، وإن هو أنفقَهُ في غير وجْهِهِ ووَضعهُ في غير موضعِه وأخطأ بهِ مواضعَ استِحقاقه صار بمنزلةِ الفقيرِ الذي لا مال لهُ، ثمّ لم تمنعْ ذلك أيضاً ما لهُ منْ التّلفِ بالحوادثِ والعِلل التي تجْري عليه كمحْبس الماءِ الذي لا تزالُ المياهُ تنْصبُّ فيه فإنْ لم يكُن لهُ مَخْرجٌ ومَفيضٌ ومُتنفسٌ يخرُجُ الماءُ منهُ بقدر ما ينبغي خرَب وسال ونزَّ مَن نواحٍ كثيرةٍ وربّما انبَثق[1] البَثْقَ العظيم فذهب الماءُ ضياعاً، ثمَّ إنّ بَني الشَّيخِ اتَّعظُوا بقوْل أبيهِمْ وأخذُوا به وعلِمُوا أنَّ فيه الخيرَ وعوَّلُوا عليه، فانطلق أكبرُهُمْ نحوَ أرضٍ يُقالُ لها مَيُّونُ فأتى في طريقه على مكانٍ فيه وحلٌ كثيرٌ وكان معهُ عَجلةٌ يجُرها ثوْران يُقالُ لأحدهما شتْرَبةُ وللآخرِ بَنْدبَةُ.

فوَحِلَ شتْربةُ في ذلك المكانِ فعالَجهُ الرَّجُلُ وأصْحابُه حتى بلغَ منْهمْ الجَهْدُ فلم يقْدرُوا على إخْراجه، فذهب الرَّجلُ وخلَّف عندهُ رجُلاً يُشارفُه[2] لعلَّ الوحْلَ ينْشفُ فيتْبَعَهُ به فلمّا بات الرَّجُلُ بذلك المكانِ تبرَّم به واستوْحشَ فترك الثّوْرَ والْتحَق بصاحبهِ فأخبرهُ أنّ الثّوْر قدْ مات وقال لهُ: إنّ الإنسانَ إذا انْقضتْ مُدَّتُه وحانتْ منيّتُهُ فهو وإن اجتهد في التّوقّي من الأمور التي يخافُ فيها على نفسه الهلاكَ لمْ يُغْنِ ذلك عنهُ شيئاً وربّما عاد اجتهادُهُ في توقيه وحذَرهِ وبالاً عليْه.

[ومن يهرب من الموت لا بد أن يدركه]

كالذي قيل: إنّ رجُلاً سلك مفازة[3] فيها خَوْفٌ من السِّباع وكان الرّجُلُ خبيراً بوَعْثِ[4] تلك الأرض وخوْفِها، فلمّا سار غيرَ بعيدٍ اعترض لهُ ذئبٌ منْ أحدِّ الذِّئابِ وأضْراها، فلمّا رأى الرّجُلُ أنّ الذئبَ قاصدٌ نحوَهُ

(١) انبثق: طلع.
(٢) يشارفه: يحافظ عليه.
(٣) المفازة: الصحراء.
(٤) الوعث: مثلثة الطريق الشاق المسلك.

خافَ منهُ ونظرَ يميناً وشمالاً ليجِدَ موْضعاً يتحرَّزُ فيه من الذئبِ فلمْ يرَ إلاَّ قريْةً خلْفَ وادٍ فذهبَ مُسْرعاً نحوَ القريْةِ، فلمّا أتى الواديَ لمْ يرَ عليه قنْطرةً ورأى الذّئبَ قدْ أدْركهُ فألْقى نفسَهُ في الماءِ وهُوَ لا يُحْسنُ السّباحةَ وكادَ أن يَغْرَقُ لوْلا أنْ بصُرَ به قوْمٌ منْ أهل القرْية فتواقَعُوا لإخْراجه فأخرجُوهُ وقدْ أشرفَ على الهلاكِ، فلمّا حصَل الرَّجُلُ عندهمْ وأمِن على نفْسهِ منْ غائلةِ الذّئبِ رأى على عُدْوةِ[1] الوادي بيتاً مُفْرداً فقال: «أدخُلُ هذا البيْتَ فأستريحُ فيه»، فلمّا دخلهُ وجدَ جماعةً من اللُّصُوصِ قد قطَعُوا الطَّريقَ على رجُلٍ من التُّجَّار وهمْ يقتسمُون مالَهُ ويُريدُونَ قتْلَهُ، فلما رأى الرّجُلُ ذلك خافَ على نفْسهِ ومضَى نحو القريةِ فأسْندَ ظهرَهُ إلى حائطٍ منْ حيطانِها ليستريح ممَّا حلّ به من الهوْلِ والإعْياء إذْ سقطَ عليه الحائطُ فماتَ.

قال الرّجُلُ: صدقْتَ قد بلَغني هذا الحديثُ، وأمّا الثَّوْرُ فإنَّه خلَصَ منْ مكانِه وانْبعَثَ فلمْ يزلْ في مرْجٍ مُخْصبٍ كثيرِ الماء والكَلإ فلما سمِنَ وأمِن جعلَ يخُورُ ويرْفعُ صوتَهُ بالخُوار، وكان قريباً منهُ أجَمَةٌ فيها أسدٌ عظيمٌ وهو ملكُ تلك النَّاحيةِ ومعهُ سباعٌ كثيرةٌ وذئابٌ وبناتُ آوى وثعالبُ وفُهودٌ ونُمُورٌ، وكان هذا الأسدُ مُنْفرداً برأيه غيرَ آخذٍ برأي أحدٍ منْ أصْحابه، فلمَّا سمع خُوارَ الثَّوْرِ خامرهُ[2] منهُ هيْبةٌ لأنهُ لم يكُنْ رأى ثوْراً قطُّ ولا سمِعَ خُوارَهُ، لأنه كان مُقيماً مكانَهُ لا يَبرحُ ولا ينْشطُ[3] بلْ يُؤْتَى برزْقهِ كلَّ يومٍ على يدِ جُنْدهِ، وكان فيمنْ معهُ من السّباع ابْنا آوى، يُقالُ لأحدهما كليلةُ والآخرِ دِمْنةُ وكان ذَوَيْ دهاءٍ وعلمٍ وأدبٍ.

فقال دِمْنةُ يوْماً لأخيه كليلةُ: يا أخي! ما شأنُ الأسدِ مُقيماً مكانَهُ لا يَبرحُ ولا يَنْشَطُ؟ قال لَهُ كليلةُ: ما شأنُكَ أنتَ والمسألةَ عن هذا؟ نحنُ على

---

(١) عدوة: جانب.

(٢) خامره: خالطه.

(٣) ينشط: يخف.

بابِ مَلكِنا آخذينَ بما أحبَّ وتاركينَ ما يكْرَهُ ولسنا من أهلِ المرتبةِ التي يتناولُ أهلُها كلامَ المُلوك والنظر في أُمُورهم، فأمسِكْ عن هذا واعلمْ أنهُ من تكلَّفَ من الْقولِ والفِعل ما ليس من شأنهِ أصابهُ ما أصابَ القِرْدَ من النَّجّار، قال دِمنةُ: وكيف كان ذلك؟

[من تدخّل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه]

قال كليلةُ: زعمُوا أنَّ قِرداً رأى نجَّاراً يشُقُّ خَشبةً وهو راكبٌ عليها وكلَّما شقَّ منها ذِراعاً أدخَلِ فيها وتِداً فوقف ينْظُرُ إليه وقد أعجبَهُ ذلك، ثمّ إنَّ النَّجّارَ ذهبَ لبعْض شأنهِ فقامَ القِردُ وتكلَّفَ ما ليْس من شأنهِ فركِبَ الخشبةَ وجعلَ ظهْرَهُ قِبَلَ الوتِدِ ووجههُ قِبَلَ الخشبةِ فتدلى ذنبُهُ في الشّقّ ونزَعَ الوتدَ فلَزِمَ الشّقُّ عليه فكاد يُغشَى عليه من الألمِ. ثم إنَّ النَّجارَ وافاهُ فأصابَهُ على تلكَ الحالةَ فأقبَلَ عليه يضْرِبُه. فكانَ ما لقِيَ من النَّجارِ من الضرْبِ أشدَّ ممّا أصابَهُ منَ الخشَبةِ. قال دمنةُ: قد سمِعْتُ ما ذكَرْتَ، ولكن اعلمْ أنَّ كلَّ منْ يدْنُو من الملوكِ ليسَ يدْنُو منهمْ لبَطْنِه وإنَّما يدْنُو منهمْ ليَسُرَّ الصدِيقَ ويكْبِتَ[1] العدُوَّ، وإنَّ من الناسِ منْ لا مُرُوءَةَ لهُ وهمُ الذينَ يَفْرَحُونَ بالقليلِ ويَرْضوْنَ بالدُّونِ كالكلْبِ الذي يُصيبُ عَظْماً يابساً فيفرَحُ به، وأمَّا أهلُ الفضْلِ والمرُوءَةِ فلا يُقْنِعُهمُ القليلُ ولا يَرْضَوْنَ به دُونَ أنْ تَسْمُوَ بهمْ نُفوسُهمْ إلى ما هُمْ أهلٌ له وهو أيضاً لهمْ أهْلٌ كالأسَدِ الذي يَفترِسُ الأرْنبَ فإذا رأى البعيرَ ترَكَها وطلَبَ البَعيرَ، ألا ترى أنَّ الكلبَ يُبَصْبِص[2] بذَنَبِهِ حتى تُرْمَى لهُ الكِسْرَةُ من الخبز فيفرح بها؟ وأن الفيلَ المُعترَفَ بفضْلهِ وقُوَّتهِ إذا قُدّمَ إليهِ علَفُهُ لا يَعتَلِفُهُ حتى يُمْسَحَ وجههُ ويُتملَّقَ لهُ فمنْ عاشَ ذا مالٍ وكانَ ذا فضْلٍ وإفضَالٍ على أهْلِهِ وإخوانهِ فهوَ وإنْ قلَّ عُمُرُهُ طويلُ

(١) يكبت: يقهر.

(٢) يبصبص بذنبه: يحركه.

العُمُرِ، ومنْ كانَ في عيْشهِ ضِيقٌ وقِلَّةٌ وإمْساكٌ على نفسهِ وذَوِيهِ فالمَقْبُورُ أحْيا منهُ، ومنْ عَمِلَ لبَطْنه وقَنِعَ وترَكَ ما سِوَي ذلكَ عُدَّ من البهائمِ. قال كليلةُ: قدْ فهِمْتُ ما قلت، فراجعْ عقلَكَ واعلمْ أنَّ لكلِّ إنْسانٍ منزلةً وقَدْراً فإنْ كانَ في منزلتهِ التي هوَ فيها مُتماسِكاً كانَ حقيقاً أن يَقنَعَ، وليسَ لنا منَ المنزِلةِ ما يَحُطُّ حالَنا التي نحنُ عليها، قال دمنةُ: إنَّ المنازلَ مُتنازَعةٌ مُشترَكةٌ على قَدَر المرُوءَةِ فالمرْءُ ترفعُهُ مرُوءتُهُ من المنزِلةِ الوَضيعةِ إلى المنزِلةِ الرَّفيعةِ، ومَنْ لا مُروءةَ له يَحُطُّ نفسَهُ من المنزلةِ الرَّفيعةِ إلى المنزلةِ الوضِيعةِ، وإنَّ الارتِفاع إلى المنزلةِ الشريفةِ شديدٌ والانحطاطَ منها هيِّنٌ كالحجَرِ الثقيلِ، رفْعُه منَ الأرضِ إلى الْعاتِقِ عَسِرٌ ووضْعهُ إلى الأرضِ هَيِّنٌ، فنحنُ أحقُّ أن نرُومَ ما فوْقَنا من المَنازل وأنْ نلتمِسَ ذلكَ بمروءَتِنا ثم كيْفَ نَقْنَعُ بمنزلَتِنا ونحنُ نستطيعُ التحوُّلَ عنها، قال كليلةُ: فما الذي اجتمَعَ عليهِ رأيُكَ؟

قال دمنةُ: أُريد أنْ أتعرَّضَ للأسدِ عندَ هذه الفُرْصة لأنهُ قد ظهرَ لي أنهُ ضعيفُ الرَّأي قد التبس عليه أمرهُ وعلى جنده أيضاً. ولَعلّي على هذهِ الحالِ أدنُو منهُ فأُصيبَ عندَهُ منزلةً ومكانةً، قال كليلةُ: وما يُدريكَ أنَّ الأسدَ قدِ التَبَسَ عليهِ أمرُهُ. قال دمنةُ: بالحِسِّ والرَّأي أعلمُ ذلكَ منهُ فإنَّ الرَّجُلَ ذا الرأيِ يَعرِفُ حالَ صاحبِه وباطِنَ أمرِهِ بما يَظهَرُ لهُ من دَلِّهِ وشَكلهِ. قال كليلةُ: فكيْفَ ترْجُو المنزلةَ عندَ الأسد ولَسْتَ بصاحِبِ السُّلْطانِ ولا لكَ علْمٌ بخدْمةِ السَّلاطين. قال دمنةُ: الرجُلُ الشديدُ القويُّ لا يُعجِزُهُ الحِمْلُ الثقيلُ وإنْ لم تَكُنْ عادتُهُ الحَمْلُ، والرَّجُلُ الضعيف لا يَستقِلُّ به وإنْ كان ذلكَ منْ صِناعتهِ، قال كليلةُ: فإنَّ السُّلطانَ لا يَتوَخَّى[1] بكرامتِه فُضلاءَ مَنْ بحضْرَته ولكنهُ يُؤْثِرُ[2] الأدنى ومَنْ قَربَ منهُ، ويُقالُ: إنَّ مثَلَ السُّلْطانِ في ذلكَ مثلُ

(١) يتوخى: يمحّص.

(٢) يُؤْثِرُ: يفضل.

شجر الكَرْمِ الذي لا يتَعَلَّقُ بأكْرمِ الشَّجَرِ إنما يتعلَّقُ بمن دنا منهُ، وكيْفَ ترْجُو المنزلةَ عندَ الأسد ولسْتَ تَدنُو منهُ.

قال دمنةُ: قد فَهِمْتُ كلامَكَ جميعَهُ وتدَبَّرْتُ[١] ما قلتَ وأنتَ صادِقٌ ولكنْ اْعلمْ أنَّ الذي هو قريبٌ من السُّلْطانِ ولا ذلكَ موْضعُهُ ولا تلكَ مَنزِلتُهُ ليسَ كمَنْ دنا منهُ بعدَ البُعْدِ ولهُ حقٌّ وحُرْمة: وأنا مُلتمِسٌ بُلوغَ مكانتِهِمْ بِجَهْدِي، وقد قيلَ: لا يُواظِبُ على بابِ السُّلطانِ إلاَّ منْ يَطْرَحُ الأنَفَةَ[٢] ويحمِلُ الأذَى، ويكْظِمُ الغَيْظَ، ويَرْفُقُ بالنَّاسِ ويكتُمُ السِّرَّ، فإذا وصلَ إلى ذلكَ فقدْ بلَغَ مُرادَه، قال كليلةُ: هَبْكَ[٣] وصلْتَ إلى الأسدِ فما توفيقُكَ عندَهُ الذي تَرْجُو أنْ تَنالَ بهِ المنزلةَ والحُظْوَةَ لدَيْهِ؟ قال دِمنةُ: لوْ دَنَوْتُ منهُ وعرَفْتُ أخلاقه لَرَفِقْتُ في مُتابَعتِه وقلةِ الخِلافِ لهُ وإذا أرادَ أمْراً هو في نفْسهِ صوابٌ زيَّنْتُه له وصبَّرْتُهُ عليهِ وعرَّفتُهُ بما فيه منَ النَّفْعِ والخيْرِ وشجَّعْتُهُ عليه وعلى الوُصولِ إليه حتى يزْدَادَ به سروراً، وإذا أرادَ أمْراً يُخافُ عليهِ ضَرُّهُ وشَيْنُهُ بصَّرْتُهُ بما فيه منَ الضرِّ والشيْنِ وأطلعْتُهُ على ما في ترْكِهِ من النَّفْعِ والزَّيْنِ بحسَبِ ما أجد إليهِ السبيلَ، وأنا أرْجُو أن أزْدادَ بذلكَ عندَ الأسدِ مكانةً ويَرى منّي ما لا يَراهُ منْ غيري، فإنَّ الرَّجلَ الأديبَ الرَّفيقَ[٤] لوْ شاءَ أنْ يُبْطِلَ حقًّا أو يُحِقَّ باطلاً لَفَعَلَ كالمصَوِّرُ الماهرِ الذي يُصوّرُ في الحِيطان صُوراً كأنها خارجة وليسَتْ بخارَجةٍ وأخرَى كأنها داخلةٌ وليستْ بداخلةٍ، فإذا هو عرَفَ ما عنْدِي، وبانَ لهُ حُسْنُ رَأيي وجَوْدَةُ فِكْري، الْتَمسَ إكرامِي وقرَّبني إليهِ.

قال كليلةُ: أمَّا إنْ قلت هذا فإني أخافُ عليك من السُّلطانِ فإنَّ

---

(١) تدبرت: تفكرت.

(٢) الأنفة: التكبر.

(٣) هبك: هب أنك.

(٤) الرفيق: اللَّطِيف.

صُحْبَتَهُ خطِرَةٌ، وقد قالتِ العلماءُ: إنَّ ثلاثة لا يجترِىءُ عليهنَّ إلاَّ أهوَجُ ولا يَسلَمُ منهنَّ إلاَّ قليلٌ، وهيَ صُحْبةُ السُّلْطانِ وائتِمانُ النساءِ على الأسرارِ، وشُرْبُ السُّمِّ للتَّجْرِبةِ، وإنما شَبَّهَ العلماءُ السلْطان بالجبلِ الصَّعْبِ المُرْتقَى الذي فيهِ الثِّمارُ الطَّيبةُ والجواهر النَّفيسةُ والأدويةُ النافعةُ وهو معَ ذلكَ مَعْدِنُ السِّباعِ والنُّمورِ والذئابِ وكلّ ضارٍّ مَخُوفٍ، فالارْتِقاءُ إليهِ شديدٌ والمُقامُ فيه أشدُّ، قال دمنةُ: صدَقْتَ فيما ذَكرْتَ غيرَ أنهَ مَن لمْ يَرْكَبِ الأهوالَ لم يَنَلِ الرَّغائب ومنْ ترَكَ الأمرَ الذي لعلهُ يبْلُغُ فيه حاجتَهُ هيْبةً ومخافةً لِما لعلَّهُ أنْ يَتَوَقَّاهُ فليْسَ بِبالِغٍ جَسيماً، وقد قيلَ: إنَّ خِصالاً ثلاثةً لنْ يَستطِيعَها أحدٌ إلاَّ بمَعُونة منْ عُلوِّ هِمَّةٍ وعظيمِ خطَرٍ منها صُحْبةُ السُّلْطانِ وتجارةُ البحرِ ومُناجزَةُ العدو وقد قالتِ العلماءُ في الرَّجلِ الفاضلِ الرَّشيدِ: إنهُ لا ينبغي أنْ يُرَى إلاَّ في مكانيْنِ ولا يَليقُ به غيرُهُما إمَّا معَ المُلوك مُكرَّماً أو مع النُّسَّاكِ مُتَعبِّداً، كالفيلِ إنما جَمالُهُ وبهاؤُهُ في مكانيْنِ إمَّا أنْ تراهُ وحْشيًّا أو مَرْكَباً للملوكِ، قال كليلةُ: خارَ الله لكَ[1] فِيما عزَمْتَ عليه.

ثمَّ إنّ دمنةَ انطلَقَ حتى دخل على الأسدِ فعَفَّرَ وجهَهُ[2] بين يديْهِ وسلَّمَ عليهِ، فقال الأسدُ لبعضِ جُلسائهِ: منْ هذا: فقال: فلانُ ابن فلانٍ، قال: قدْ كنتُ أعرِف أباهُ، ثمّ سألَهُ أينَ تكونُ؟ قال: لمْ أزلْ مُرابطاً بِبابِ المِلكِ رجاءَ أنْ يحضُرَ أمْرٌ فأُعينَ الملكَ بنفْسي ورأيي، فإنَّ أبْوابَ الملوكِ تكثُرُ فيها الأُمورُ التي ربُما يحتاجُ فِيها إلى الذي لا يُؤْبَه[3] به وليسَ أحدٌ يَصْغُرُ أمرُهُ إلاّ وقد يكونُ عندَه بعضُ الغَناءِ والمَنافعِ على قدَرِه حتى العُودُ المُلقَى في الأرْضِ ربّما نفَعَ فيأخُذُه الرّجُلُ فيكونُ عُدَّتَهُ عندَ الحاجةِ إليهِ.

فلما سمِعَ الأسدُ قوْلَ دمنةَ أعجَبَهُ وظنَّ عندَهُ نَصيحةً ورأياً فأقبلَ على

(١) خار الله لك: جعل لك فيه الخير.

(٢) عفر وجهه: مرغه.

(٣) يؤبه به: يفطن له.

مَنْ حضَرَ فقالَ: إنَّ الرجلَ ذا النبْلِ[١] والمرُوءَةِ يكونُ خاملَ الذِّكْرِ مُنْخَفِضَ المنزِلَةِ، فتأبَى منَزِلتُه إلاّ أنْ تَشُبَّ وتَرْتَفعَ كالشُّعلةِ من النَّارِ يَضربُها صاحبُها وتَأبَى إلاّ ارْتِفاعاً.

فلما عرَفَ دِمنةُ أنَّ الأسدَ قدْ عَجِبَ منهُ، قال: أيُّها الملكُ! إنّ رعيةَ الملكِ تَحْضُرُ بابَهُ رَجاءَ أنْ يَعرِفَ ما عندَها منْ علمٍ وافر، وقد يقالُ: إنّ الفضَل في أمرَيْنِ: فضْل القاتِلِ على المُقاتِلِ والعالِمِ على الْعالِمِ، وإنّ كثرَةَ الأعوانِ إذا لم يكونوا مختبرين، ربما تكون مضرة على العمل، فإن العمل ليس رجاؤه بكثرة الأعوان، ولكنْ بِصالحي الأعوَانِ، ومَثَلُ ذلكَ مَثَلُ الرُجلِ الذي يَحْمِلُ الحجَرَ الثّقيلَ فَيقْتُلُ به نفْسَهُ ولا يجدُ له ثمَناً، والرَّجُلُ الذي يحْتاجُ إلى الجُذُوعِ لا يُجْزئهُ[٢] القَصَبُ وإنْ كثُرَ، فأنتَ الآنَ أيُّها الملِكُ حقِيقٌ ألاَّ تَحْقِرَ مرُوءَةً أنتَ تجدُها عندَ رجُلٍ صغيرِ المنزِلةِ فإنَّ الصغيرَ رُبما عَظُمَ كالعَصَب الذي يُؤْخَذُ منَ المَيْتةِ فإذا عُمِلَتْ منهُ القَوْس أُكْرِمَ فتَقْبِضُ عليهِ الملوكُ وتحتاجُ إليهِ في الْبأْسِ واللّهْو.

وأحَبَّ دمنةُ أنْ يُرِيَ القوْمَ أنَّ ما نالَهُ منْ كَرامةِ الملِكِ إنما هوَ لرَأيهِ ومُروءَتِه وعقْلهِ لأنهمْ عَرفوا قبلَ ذلكَ أنّ ذلكَ لمِعرفتهِ أباهُ، فقال: إنَّ السُّلْطانَ لا يُقَرِّبُ الرجالُ لِقُرْبِ آبائهِمْ ولا يُبْعدهُمُ لِبُعدِهِمْ ولكنْ ينبغي أنْ يَنظُرَ إلى كلِّ رجُلٍ بما عندَه لأنه لا شيءَ أقربُ إلى الرَّجلِ من جسدِه ومنْ جسدِهِ ما يَدْوَى[٣] حتى يُؤْذيَهُ ولا يَدْفَعُ ذلكَ عنهُ إلاَّ بالدَّواءِ الذي يأتيهِ منْ بَعْدُ.

فلما فرَغَ دِمنةُ منْ مَقالتِهِ هذه أُعْجِبَ الأسدُ به إعْجاباً شديداً وَحسنَ

---

(١) النبل: النجابة.

(٢) الجذع: ساق النخلة. ويجزئ: يكفي.

(٣) يدوى: يصيبه داء.

الرَّدَّ عليه وزادَ في كرَامتِه، ثم قال الملكُ لجُلسائهِ: ينبغي للسُّلطانِ ألاَّ يَلِجَّ في تَضْييعِ حقِّ ذَوِي الحقوقِ، والنَّاسُ في ذلكَ رجُلاَنِ: رجُلٌ طبْعُهُ الشَّراسة فهوَ كالحيَّةِ إنْ وطِئَها الواطِيءُ فلمْ تَلْدَغْهُ لم يكن جدِيراً أنْ يَغُرَّهُ ذلكَ منها فيَعودَ إلى وطْئها ثانياً فتَلْدَغَه، ورَجلٌ أصْلُ طِباعِه السُّهولةُ فهوَ كالصَّنْدَلِ البارِدِ الذي إذا أُفْرِطَ في حَكِّهِ صارَ حارًّا مُؤْذِياً.

ثم إنَّ دمنةَ آسْتأنَسَ بالأسَدِ وخلاَ به فقالَ لهُ يوْماً: أرَى الملِكَ قدْ أقامَ في مكانٍ واحدٍ لا يَبْرَحُ منهُ فما سببُ ذلكَ؟ فبَيْنما هُما في هذا الحديثِ إذْ خَار شَتْرَبةُ خُوَاراً شديداً فهيَّجَ الأسدَ وكَرِهَ أنْ يُخبِرَ دمنةَ بما نالَهُ، وعلِمَ دِمنةُ أنَّ ذلكَ الصَّوْتَ قد أدخَلَ على الأسدِ ريبةً وهَيْبةً، فسألَهُ: هَلْ رَابَ الملِكَ سَماع هذا الصَّوْتِ؟ قالَ: لمْ يَرِبني شيءٌ سِوى ذلكَ، قال دمنةُ: ليسَ الملِكُ بحَقيقٍ أنْ يدَعَ مكانَهُ لأجْلِ صوْتٍ، فقدْ قالتِ العُلماءُ: إنه ليسَ منْ كلِّ الأصواتِ تجبُ الهيْبَة، قال الأسدُ: وما مثَلُ ذلك؟

قال دِمنةُ: زعَمُوا أنَّ ثَعْلَباً أتى أجَمةً فيها طَبْلٌ مُعلَّقٌ على شجَرةٍ وكلّما هَبّتِ الرّيحُ على قُضْبانِ تلك الشّجَرةِ حرَّكَتْها فضربَتِ الطّبْلَ فَسُمِعَ له صوْتٌ عظيم باهِرٌ فتوَّجه الثّعلبُ نحوَهُ لأجْلِ ما سَمِعَ منْ عَظِيم صوْته، فلما أتاهُ وجدَهُ ضَخْماً فأيْقَنَ في نفْسهِ بكثرَةِ الشّحْم واللّحْم فَعالَجهُ حتى شقّهُ فلما رآهُ أجْوَفَ لا شيءَ فيه قالَ: لا أدرِي لَعَلَّ أفْشَلَ[1] الأَشْياءِ أجهرُها صوْتاً وأعظَمْها جُثّةً.

وإنما ضرَبْتُ لكَ هذا المثَلَ لتعلَم أنّ هذا الصَّوْتَ الذي رَاعَنا[2] لوْ وَصَلْنا إليهِ لوَجَدْناهُ أيسَرَ ممَّا في أنْفُسِنا، فإنْ شاءَ الملِكُ بعثَني وأقام بمكانهِ حتى آتِيَهُ ببَيانِ هذا الصَّوْتِ، فوَافقَ الأسدُ قوْلَهُ فأذِنَ لهُ في الذَّهابِ نحوَ الصَّوْتِ.

---

(١) أفشل: أضعف.

(٢) راعنا. أفزعنا.

فانطلَقَ دمنةُ إِلى المكانِ الذي فيهِ شَتْرَبةُ، فلمّا فصَلَ[(١)] دِمنةُ منْ عنْدِ الأسدِ فكَّرَ الأسدُ في أمرِه وندِمَ على إِرْسالِ دمنةَ حيثُ أرْسلَهُ، وقال في نفْسهِ: ما أصَبْتُ في ائْتِمانِ دمنةَ وإِطْلاعهِ على سرِّي، وقد كانَ بِبابي مطْرُوحاً، فإِنّ الرجُلَ الذي يَحْضُرُ بابَ الملِكِ إِذا كانَ قد أُطِيلَتْ جَفْوَتُهُ[(٢)] من غيرِ جُرْمٍ كانَ منهُ، أوْ كانَ مَبْغِيًّا عليهِ عندَ سُلطانهِ، أو كانَ عندَهُ معرُوفاً بالشَّرَهِ والحِرْصِ، أو كانَ قد أصابَهُ ضَرٌّ وضِيقٌ فلمْ يُنْعِشْهُ[(٣)]، أو كانَ قدِ اجْترَمَ جُرْماً فهوَ يخافُ العُقوبةَ منهُ، أو كانَ يرْجُو شيئاً يَضُرُّ الملِكَ وله من نفْعٌ، أو يخافُ في شيءٍ ممّا ينفعُهُ ضَرًّا، أو كانَ لعدُوِّ الملِكِ سِلْماً ولِسِلْمِه حَرْباً، فليْسَ السُّلطانُ بحقيقٍ أنْ يَعْجَلَ بالاسترْسَالِ إِلى هؤلاءِ[(٤)] والثِّقَةِ بهِمْ والائْتِمانِ لهمْ، وإِنَّ دِمْنةَ دَاهيَةٌ[(٥)] أديبٌ وقدْ كانَ بِبابي مَطْرُوحاً مَجْفُوًّا، ولعلّهُ قدِ احتَمَلَ عليَّ بذلكَ ضِغْناً[(٦)]، ولعلَّ ذلكَ يحمِلُهُ على خِيانتي وإِعانَةِ عَدُوِّي ونَقِيصَتي عندَه، ولعلهُ أنْ يصادِفَ صاحبَ الصوْتِ أقْوَى سُلطاناً مني فَيَرْغَبَ بهِ عني ويَمِيلَ معهُ عليَّ، ثمّ قامَ منَ مكانهِ فمشَى غيرَ بَعيدٍ فَبَصُرَ بدِمنةَ مقْبِلاً نحوَهُ فطابتْ نفْسُه بذلكَ ورجعَ إِلى مكانِهِ.

ودخلَ دمنةُ عليهِ فقال لهُ الأسَدُ: ماذاَ صَنَعْتَ وماذا رأيتَ؟ قال: رأيتُ ثَوْراً وهو صاحِبُ الخُوارِ والصوتِ الذِي سمِعْتَه، قال: فما قُوَّتُهُ؟ قال لا شَوْكَةَ[(٧)] لهُ وقد دنوْتُ منهُ وحاوَرْتُهُ مُحاورةَ الأكْفاءِ[(٨)] فلمْ يَستَطعْ لي شيئاً قال

(١) فصل: فارق.
(٢) جفوته: مقاطعته.
(٣) ينعشه: ينهضه من عثرته.
(٤) الاستئمان لهم والاطمئنان إليهم.
(٥) داهية: من الدهاء وهو جودة الرأي والأدب.
(٦) ضغناً: حقداً.
(٧) الشوكة: شدة البأس.
(٨) الأكفاء: الأمثال.

الأسدُ: لا يَغرَّنَّكَ ذلكَ منهُ ولا يَصْغُرَنَّ عندكَ أمْرُهُ، فإنَّ الريحَ الشديدةَ لا تَعْبأ بضَعيفِ الحشيشِ لكِنها تَحْطِمُ طِوَالَ النَّخلِ وعظيم الشَّجَرِ، قال دمنةُ: لا تهابَنَّ أيها الملكُ منهُ شيئاً، ولاَ يكْبُرَنَّ عليكَ أمرُهُ فأنا آتِيكَ به فأجْعلُه لك عبْداً سامِعاً مُطِيعاً، قال الأسدُ: دُونَكَ وما بَدَا لك، فانْطلَقَ دمنةُ إلى الثَّوْرِ فقال له غيرَ هائِبٍ ولا مُكْترِثٍ: إنَّ الأسَدَ أرْسلَني إليْكَ لآتِيَهُ بكَ وأمرَني إنْ أنتَ عَجّلْتَ إليْهِ طائِعاً أنْ أؤَمِّنَكَ على ما سلَفَ منْ ذَنْبِكَ في التَّأخُّرِ عنهُ وتَرْكِكَ لِقاءَهُ، وإنْ أنتَ تأخَّرْتَ عنهُ وأحْجمْتَ[1] أنْ أُعَجِّلَ الرَّجْعة إليهِ فأُخْبِرَهُ، قال له شَتَرْبَةُ: ومَنْ هوَ هذا الأسدُ الذي أرسلَكَ إليَّ؟ وأين هوَ؟ وما حالُهُ؟ قال دمنةُ: هوَ ملِكُ السِّباعِ وهوَ بمكان كذا وكذا ومعَهُ جنْدٌ كثيرٌ منْ جنْسِهِ، فَرَعَبَ شَتَرَبةُ منْ ذِكْرِ الأسد والسِّباعِ وقالَ: إنْ أنتَ جَعلْتَ ليَ الأمانَ على نفسِي أقبلْتُ معكَ إليه، فأعْطاهُ دِمنةُ منَ الأمانِ ما وَثِقَ به ثمّ أقْبَلَ والثَّوْرُ معهُ حتى دخلاَ على الأسدِ فأحسَنَ إلى الثَّوْرِ وقرَّبَهُ وقال لهُ: متَى قَدِمْتَ هذهِ البلادَ؟ وما أقْدَمَكَها؟، فقَصَّ عليهِ قصَّتَهُ، فقالَ لهُ الأسدُ: اصْحَبْني والْزَمْني فإنّي مُكْرِمُكَ، فدَعا له الثوْرُ وأثْنَى عليهِ، ثمّ إنَّ الأسدَ قرَّبَهُ وأكْرَمَهُ وأنسَ به وائْتمنَهُ على أسْرارِهِ وشاورَهُ في أمرِهِ ولم تَزِدْهُ الأيَّامُ إلاَّ عُجْباً به[2] ورَغْبةً فيهِ وتَقرِيباً لهُ حتى صارَ أخَصَّ أصْحابه عندَهُ مَنزِلةً.

فلَّما رأى دِمْنةُ أنَّ الثَّوْرَ قدِ اختَصَّ بالأسَدِ دُونَهُ ودُونَ أصحابهِ وأنهُ قد صارَ صاحبَ رأيِهِ وخلَوَاتِهِ ولَهْوِهِ، حسدَهُ حَسداً عَظيماً وبلَغَ منهُ غيْظُهُ كلَّ مَبلَغٍ، فشَكا ذلكَ إلى أخيهِ كليلةَ وقالَ لهُ: ألاَ تَعْجَبُ يا أخِي منْ عجْز رأيي وصُنْعِي بنفْسي ونظَرِي فيما ينفَعُ الأسدَ وأغْفلتُ نفْعَ نفسي حتى جلَبتُ إلى الأسَدِ ثَوْراً غلَبني على مَنزلتي، قال كليلةُ: قدْ أصابَكَ ما أصابَ النَّاسِكَ.

---

(١) احجمت: أعرضت.

(٢) عجباً: استحساناً.

قال دِمنةُ: وكيف كانَ ذلكَ؟.

قال كليلةُ: زعمُوا أنَّ ناسكاً أصابَ منْ بعضِ المُلوكِ كُسْوَةً فاخرَةً فبَصُرَ به سارقٌ فطمِعَ في الثيابِ فأتى النَّاسكَ وقال لهُ: إني أُريدُ أنْ أصْحَبَكَ فأتَعلَّمَ منكَ وآخُذَ عنكَ، فأذِنَ لهُ النَّاسكُ في صُحْبتِه فصَحِبَهُ مُتَشبِّهاً به ورَفَقَ[١] لهُ في خدمتهِ، حتى إذا ظَفِرَ به أخذَ تلكَ الثيابَ فذهبَ بها، فلما فقَدَ النَّاسكَ ثيابَهُ علِمَ أنَّ صاحبَهُ قد أخذَها فتوجَّهَ في طلَبِه نحوَ مدينةٍ منَ المدُنِ، فمرَّ في طريقهِ بوَعْليْن[٢] يتَناطحانِ حتى سالتْ دِماؤُهُما فجاءَ ثعلَبٌ يَلَغُ في تلكَ الدّماءِ، فبينما هوَ في وُلُوغِه في تلْكَ الدّماءِ إذْ أقبلَ عليهِ الوَعْلاَنِ بنِطَاحِهِما فقتَلاهُ ومضى النَّاسِكُ حتى دخَلَ تلكَ المدينَةَ فلمْ يجِدْ فيها قِرًى[٣] إلاَّ بيتَ امرأةٍ فنزَلَ بها واسْتَضافَها، وكانَ للمرْأةِ جاريةٌ تُؤَاجِرُها[٤] وكانتِ الجاريَة قد عَلِقتْ[٥] رجُلاً تُريدُ أنْ تتَّخذَهُ بعْلاً لها وقد أضَرَّ ذلكَ بموْلاتِها، فاحْتالتْ لقَتلهِ في تلكَ اللّيْلةِ التي اسْتضافَ بها النَّاسِكُ ثمّ إنَّ الرَّجُلَ وافَى فأسْقتْهُ منَ الخَمْرَةِ حتى سَكِرَ ونامَ ونامتِ الجارِيةُ إلى جانبِهِ، فلَّما استقلاًّ نوْماً عمَدَتْ لسُمٍّ كانتْ قدْ أعدَّتْهُ في قصَبةٍ لِتَنْفُخَهُ في دُبُرِ الرجُلِ، فلما أرادَتْ ذلكَ بدَرَتْ منْ دُبُرِ الرجُلِ ريحٌ فعكَستِ السُّمَّ إلى حلْقِ المرْأةِ فوَقَعتْ مَيْتةً وكلُّ ذلكَ بعيْنِ النّاسكِ وسَمْعهِ.

فلما رأى ذلكَ خرَجَ يَبْغي مَنزِلاً غيرَهُ فاسْتضافَ برجلٍ إسكافٍ فأتى به امْرأتَهُ وقال لها: انظُري إلى هذا النَّاسكِ وأكْرِمي مثْواهُ[٦] وقُومي بخِدْمته

(١) رفق: لطف.
(٢) الوَعِلُ: تيس الجبل.
(٣) قرى: مبيتاً.
(٤) تؤاجرها: تستأجرها.
(٥) علقت: أحبّت.
(٦) مثواه: قعره.

فقدْ دَعاني بعضُ أصدِقائي للشُّرْبِ عندَه، ثم انطلقَ ذاهِباً وكانَ للمرْأةِ خَليلٌ والسّفيرُ بينهما امرأةُ حَجَّامٍ، فأرسلت امرأةُ الإسكافِ إلى امرَأةِ الحجّام تأمرُها بالمصيرِ إليْها وتُعرِّفُ خليلَها خُلوَّ زَوْجِها وقالتْ: إنّ زوْجي قدْ ذَهبَ ليشْرَبَ عند بعضِ أصدقائهِ ولَنْ يعُودَ إلاْ سكرانَ فقولِي لهُ يُسْرِعِ الكَرَّة. ثُمَّ إنَّ خليلَ الامرأةِ جاءَفقعَدَ عَلَى البابِ ينتظِرُ. وجاءَ الإسْكافُ سكْرَانَ فرأى الرَّجلَ وارْتَابَ به ودَخلَ مُغْضِباً إلى امرأتهِ فأوْجَعَها ضَرْباً، ثمّ أوْثقَها في أسْطُوانَةٍ[1] في المنزِلِ وذَهَبَ فنامَ لا يَعقِلُ، وجاءَتِ امْرأةُ الحَجّامِ تُعْلمُها أنَّ الرَّجلَ قدْ أطالَ الجُلوسَ فماذا تأمُرِينَ؟ فقالت لها: إنْ شئتِ فأحْسَنتِ إليَّ وحلّيْتِيني وربَطْتُكَ مكاني حتى أنْطَلِقَ إلى خَليلي وأُعَجِّلَ العَوْدَةَ. فأجابَتْها امْرأةُ الحجَّامِ إلى ذَلكَ وحلَّتْها وانْطَلقتْ إلى خَلِيلِها وأوْثقتْ هيَ نفْسَها مكانَها، فاسْتيقَظَ الإسكافُ قَبلَ أنْ تَعُودَ زَوْجتُهُ فنَادَاها باسْمِها فلمْ تُجبهُ امْرأةُ الحجَّام وخافتْ منَ الفَضِيحةِ أنْ يُنْكِرَ صوْتَها، ثمّ دَعاها ثانيةً فلمْ تُجبْهُ، فامْتلأَ غيْظاً وحنَقاً وقامَ نحوَها بالشَّفْرَةِ فجدَعَ[2] أنفَها وقالَ: خُذِي هذا فأتْحِفي به صديقَكِ. وهو لا يَشُكُّ في أنها امرَأتُه، ثمّ جاءتْ امرأةُ الإسكافِ فرأتْ صُنْعَ زوْجِها بأمرأةِ الحَجَّامِ فَساءَها ذلك وأكْبَرَتْه[3] وحلَّتْ وَثاقَها[4] فانْطلقَتْ إلى مَنْزِلِها مَجْدُوعةَ الأنْفِ، وكلُّ ذلكَ بعيْنِ النّاسكِ وسمْعِه، ثم إنّ أمرأةَ الإسكافِ جعَلتْ تَبتَهِل وتدْعو على زوجِها الذي ظلَمَها، ثم رَفعَتْ صوْتَها ونادَتْ زوْجَها: أيها الفاجِرُ الظّالمُ! قمْ فانظُرْ كيفَ صُنْعُكَ بيَ وصُنْعُ الله بي كيفَ رحِمَني وردَّ أنْفي صحيحاً كما كانَ.

فقام وأوْقَدَ المِصْباحَ ونظَرَ فإذا أنْفُ زوجتِه صحيحٌ، فاستَغْفرَ إلَيْها وتابَ

---

(١) أسطوانة: عمود.

(٢) الجدع: قطع الأنف.

(٣) أكبرته: عدته أمراً كبيراً.

(٤) الوثاق: الرباط.

منْ ذَنْبِه واستغْفَرَ إلى ربِّهِ، وأمَّا امرَأةُ الحجَّامِ فإنها لما وصلَتْ إلى منزِلِها تفكَّرَتْ في طلبِ العُذْرِ عندَ زَوْجها وأهلِها في جَدْعِ أنْفِها ورفْعِ الالْتِباسِ، فلما كانَ عنْدَ السَّحَرِ اسْتيقظَ الحجَّامُ فقال لِامْرأتِه: هاتِي مَتاعِي كلَّهُ فإني أُرِيدُ المُضِيَّ إلى بَعضِ الأشرافِ. فأتَتْهُ بالمُوسى، فقال لها: هَاتي الآلَةَ جيمعَها.

فلمْ تأتهِ إلاّ بالمُوسَى فغضِبَ حينَ أطالتِ التَّكْرَارَ ورَماهَا بهِ فألْقتْ نفْسَها إلى الأرْضِ ووَلْولَتْ وَصاحتْ أنْفي أنْفي وجلَّبَتْ[1] حتى جاءَ أهلُها وأقرباؤُها فرأوْها على تلكَ الحالِ فأخَذُوا الحجّامَ فانْطلَقُوا به إلى القاضي فقالَ له القاضي: ما حمَلَكَ على جَدْعِ أنْفِ امرأتِكَ. فلمْ تكُنْ له حُجَّةٌ يَحتجُّ بها، فأمرَ به القاضي أنْ يُقْتَصَّ منهُ، فلما قُدِّمَ للقصاصِ وافَى[2] النّاسكُ فتقدَّمَ إلى القاضي وقال لهُ: أيُّها الحاكِمُ لا يَشْتبِهَنّ عليكَ هذا الأمرُ فإنّ اللصَّ ليسَ هو الذي سرَقَني، وإنَّ الثَّعلَبَ ليسَ الوَعْلاَنِ قَتلاَهُ، وإنّ البَغيّةَ ليسَ السُّمُّ قتَلها، وإنّ امرَأةَ الحَجَّامِ ليسَ زوْجُها جدَعَ أنْفَها، وإنّما نحنُ فعَلْنا ذلكَ بأنفُسِنا. فسألهُ القاضِي عن التّفْسيرِ فأخبرَهُ بالقصّةِ، فأمرَ القاضي بإطلاَقِ الحَجّامِ.

قال دمنةُ: قدْ سَمِعتُ هذا المثلَ وهو شبيهٌ بأمْري، ولَعلَي ما ضَرّني أحدٌ سِوى نفْسي ولكنْ ما الحِيلةُ؟ قال كليلةُ: أخبِرْني عنْ رأيكَ وما تُريدُ أنْ تَعزِمَ عليهِ في ذلكَ. قال دمنة: أمّا أنا فلستُ اليوْمَ أرْجُو أنْ تَزْدادَ منزِلتي عندَ الأسدِ فوْقَ ما كانتْ عليهِ، ولكنْ ألْتمِسُ أنْ أعودَ إلى ما كنتُ عليهِ، فإنّ أُموراً ثلاثةَ العاقلُ جديرٌ بالنظَرِ فيها والاحْتِيالِ لها بجُهْدِه، منها النظرُ فيما مضى من الضَّرِّ والنّفْعِ أن يَحترِسَ من الضَّرِّ الذي أصابَهُ فيما سلَفَ لِئَلاّ يَعودَ إلى ذلكَ الضَرَرِ، ويلتَمِسَ النفْعَ الذي مضَى ويحْتالَ لمُعاودَتِهِ، ومنها

(١) جلَّبت: صاحت.
(٢) وافى: أتى.

النَّظرُ فيما هوَ مُقيمٌ فيهِ من المنافعِ والمَضارِّ والاسْتِيثَاقِ[١] مما يَنْفَعُ والهرَبُ مما يَضُرُّ، ومنها النظَرُ في مُسْتَقبَلِ ما يَرجُو من قِبَلِ النَّفْعِ وما يَخافُ منْ قِبَلِ الضَّرِّ لِيَستَتِمَّ ما يَرْجُو ويَتوَقَّى ما يَخافُ بجُهْدِهِ، وإني لَمَّا نظَرْتُ في الأمرِ الذي بهِ أرجُو أن تَعُودَ مَنزلَتي وما غُلِبْتُ عليه مما كنتُ فيهِ لم أجِدْ حيلةً ولا وجْهاً إلاّ الاحتيالَ لِآكِلِ العُشْب هذا[٢] حتى أُفَرِّقَ بينَهُ وبينَ الحياةِ، فإنهُ إنْ فارقَ الأسدَ عادتْ لي مَنزِلتي، ولعلَّ ذلك يكونُ خيراً للأسدِ فإنَّ إفراطَهُ في تقَرِيبِ الثَّوْرِ خَلِيقٌ أنْ يَشينَهُ ويَضُرَّهُ في أمرِه.

قال كليلةُ: ما أرَى على الأسدِ في رأيهِ في الثّوْرِ ومكانهِ منهُ ومنزِلتِه عندَهُ شَيْئاً ولا شرًّا، قال دمنةُ: إنما يُؤْتَى السلطانُ ويُفسَدُ أمرُهُ منْ قِبَلِ ستَّةِ أشْياءَ: الحِرْمانِ والفِتنةِ والهوَى والفَظَاظَةِ والزمانِ والخُرْقِ، فأما الحِرْمانُ فأنْ يُحرَم من صالِحِي الأعوانِ والنّصحاءِ والسَّاسةِ[٣] منْ أهلِ الرأيِ والنّجدةِ والأمانة ويتركَ التَّفقُّدَ ممنْ هو كذلكَ، وأما الفتنةُ فهوَ تَحارُبُ الناسِ ووقُوعُ الحربِ والنزاعِ بينهم، وأما الهوَى فالإغرَامُ بالنساء والحديثُ واللهْوُ والشرابُ والصيدُ وما أشْبه ذلك، وأما الفظَاظةُ فهيَ إفراطُ الشِّدَّةِ حتى يَجمَحَ اللّسانُ بالشتْمِ واليَدُ بالبَطْشِ في غيرِ موْضِعِهما، وأما الزَّمانُ فهوَ ما يُصيبُ النَّاسَ من السِّنينِ[٤] منَ الموْتانِ[٥] ونقصِ الثَّمراتِ والغزَواتِ وأشْباهِ ذلكَ، وأما الخُرْقُ فإعمالُ الشّدَّةِ في موْضعِ اللّينِ واللّينِ في موْضعِ الشُّدَّةِ، وإنَّ الأسدَ قدْ أُغرِمَ بالثّوْرِ إغراماً شديداً هو الذي ذَكَرْتُ لكَ أنه خَليقٌ أن يَشينَهُ ويضُرَّهُ في أمرِه.

---

(١) الاستيثاق: الاعتماد.

(٢) يريد به الثور.

(٣) الساسة جمع سائس: من سياسة الدولة.

(٤) السنين جمع سِنَة: الشدة

(٥) الموتان: موت المواشي.

قال كليلةُ: وكيفَ تُطيقُ الثّوْرَ وهو أشدُّ منكَ وأكْرَمُ على الأسد منكَ وأكثرُ أعوَاناً؟ قال دمنةُ: لا تنظُرْ إلى صَغَرِي وضَعْفي، فإنّ الأمورَ ليستْ بالضعْفِ ولا القُوَّةِ ولا الصِّغَرِ ولا الكِبَرِ في الجُثّةِ، فرُبَّ صغيرٍ ضعيفٍ قد بلَغَ بحيلتهِ ودَهائهِ ورَأْيهِ ما يَعْجِزُ عنهُ كثيرٌ من الأقوِياءِ، أوَ لَمْ يَبْلُغْكَ أنَّ غُراباً ضعيفاً قدِ احْتالَ لأسْوَدَ حتى قَتَلَهُ؟ قال كليلةُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

[ابن آوى ونصحه للغراب]

قال دمنةُ: زعمُوا أنَّ غُراباً كانَ له وَكْرٌ في شجَرَةٍ على جبَلٍ وكانَ قَريباً منهُ جُحُر ثُعْبانٍ أسوَدَ فكانَ الغرابُ إذا فرَّخَ عمَدَ الأسوَدُ إلى فِرَاخِه فأكلَها، فبَلغَ ذلكَ منَ الغُرابِ وأحزنَهُ، فشكا ذلكَ إلى صَدِيقٍ لهُ منْ بَناتِ آوَى وقال لهُ: أُريدُ مُشاورَتُكَ في أمْرٍ قدْ عزَمْتُ عليهِ، قال لهُ: وما هُوَ؟ قال الغرابُ: قد عزَمْتُ أن أذْهَبَ إلى الأسوَدِ إذَا نام فأنقُرَ عينيْهِ فأفقأهُما لَعلّي أستريحُ منهُ. قال ابنُ أوَى: بئْسَ الحيلةُ التي احْتلْتَ فالْتَمسْ أمراً تُصِيب فيهِ بُغْيتَكَ من الأَسْوَدِ من غيرِ أنْ تُغرِّرَ بِنَفْسِكَ وتُخاطِرَ بها، وإيّاكَ أنْ يكون مَثَلُك مَثَلَ العُلجُومِ[1] الذي أرادَ قَتْلَ السرَطَانِ فقَتَلَ نفْسَهُ، قالَ الغرابُ: وكيفَ كانَ ذَلكَ؟

[ماذا دار بين العلجوم والسرطان؟]

قال ابنُ آوى: زعمُوا أنَّ عُلجُوماً عَشَّشَ في أجَمَةٍ كثيرَةِ السَّمكِ فَعاش بها ما عاشَ ثمّ هَرِمَ فلمْ يَستطعْ صيداً فأصابَهُ جُوعٌ وَجَهْدٌ شديدٌ، فجلَسَ حزيناً يلْتمِسُ الحيلةَ في أمرِهِ فمرَّ به سَرَطانٌ فرأى حالتَهُ وما هوَ عليهِ منَ الكآبةِ والحُزْنِ، فدَنا منهُ وقالَ: ما لِي أراكَ أيُّها الطائرُ هكذا حزيناً كئيباً؟ قال العُلجُومُ: وكيفَ لا أحزَنُ وقد كنتُ أعيشُ منْ صيدِ ما هٰهُنا منَ

(١) العلجوم: طائر.

السَّمَكِ، وإنّي قدْ رأيْتُ اليوْمَ صَيَّادَيْنِ قدْ مَرَّا بهذا المكانِ.

فقالَ أحدُهما لِصاحِبِهِ: إنَّ هٰهُنا سَمَكاً كثيراً أفلاَ نَصيدُهُ أوّلاً أوّلاً. فقالَ الآخَرُ: إني قدْ رأيْتُ في مكانٍ كذا سَمَكاً أكثرَ منْ هذا فلْنَبْدأْ بذلك فإذا فرَغْنا منهُ جِئْنا إلى هذا فأفْنَيناهُ، وقد عَلِمْتُ أنهما إذا فرَغا ممَّا ثمَّ[1] انتَهَيا إلى هذه الأجَمَةِ فاصْطَادَا ما فيها، فإذا كانَ ذلكَ فهوَ هَلاكِي ونَفاذُ مُدَّتي. فانْطَلَق السَّرَطانُ منْ ساعتِهِ إلى جَماعَةِ السَّمكِ فأخبَرَهُنَّ بذلكَ، فأقبَلْنَ إلى العُلجُومِ فاستَشَرْنَهُ وقلنَ لهُ: إنّا أتيْناكَ لتُشيرَ عليْنا فإنَّ ذا العَقْلِ لا يَدَعُ مُشاوَرَةَ عدُوِّه. قال العُلجُومُ: أما مُكابرَةُ الصَّيادَيْنِ فلاَ طاقةَ لي بها ولا أعلَمُ حيلةً إلا المَصيرَ إلى غَدِيرٍ قريبٍ منْ هٰهُنا فيه سَمَكٌ ومِياهٌ عظيمةٌ وقصَبٌ، فإن اسْتطعْتُنَّ الانْتقالَ إليهِ كانَ فيهِ صَلاحُكُنَّ وخِصْبُكُنَّ.

فقُلنَ لهُ: ما يَمُنُّ علينا بذلكَ غيرُكَ. فجعَلَ العُلجُومُ يحمِلُ في كلِّ يوْمٍ سمكَتينِ حتى يَنتهي بهما إلى بعضِ التِّلالِ فيأكلُهما، حتى إذا كانَ ذاتَ يوْمٍ جاءَ لأخْذِ السَّمكتيْنِ فجاءَ السرَطانُ فقال لهُ: إني أيضاً قد أشفقْتُ[2] منْ مكاني هذا واسْتوحَشْتُ منهُ فاذْهبْ بي إلى ذلكَ الغدِيرِ. فاحْتَمَلهُ وطارَ به حتى إذا دَنا من التَّلِّ الذي كان يأكلُ السمَكَ فيهِ نظرَ السرَطانُ فرأى عِظامَ السمكِ مجموعةً هُناكَ، فعَلِمَ أنَّ العُلجُومَ هو صاحبُها وأنهُ يُريدُ به مثل ذلكَ، فقالَ في نفسهِ: إذا لَقِيَ الرَّجلُ عدُوَّهُ في المَواطنِ التي يعلمُ أنهُ فيها هالكٌ سواءٌ قاتَلَ أمْ لمْ يُقاتِلْ كانَ حقيقاً أنْ يُقاتِلَ عنْ نفسهِ كرَماً وحِفاظاً. ثم أهْوَى بكلْبتَيْهِ على عنُقِ العُلجومِ فعصَرهُ فماتَ وتخلَّصَ السرَطانُ إلى جماعةِ السمكِ فأخبرَهُنَّ بذلكَ.

وإنما ضرَبْتُ لكَ هذا المثَلَ لِتعلمَ أنَّ بعضَ الحيلةِ مَهْلكةٌ للمُحْتالِ،

---

(١) ثم: هناك.

(٢) أشفقت: خشيت.

ولكنّي أدُلُّكَ على أمْرٍ إنْ أنتَ قَدِرْتَ عليهِ كانَ فيهِ هَلاكُ الأسْوَدِ من غيرِ أنْ تُهْلِكَ به نفْسَكَ وتكونُ فيه سلامَتُكَ، قال الغُرابُ: وما ذاكَ؟ قال ٱبنُ آوَى: تَنْطلِقُ فتُبْصِرُ في طيَرانِكَ لعلَّكَ أنْ تَظْفَرَ بشيءٍ منْ حُليِّ النّساءِ فتخْطَفَهُ ولا تزالُ طائِراً واقِعاً بحيثُ لا تَفوتُ العُيونَ، حتى تأتيَ جُحْرَ الأسوَدِ فترْمِيَ بالحُليِّ عندَهُ، فإذا رأى الناسُ ذلكَ أخَذُوا حُلِيَّهمْ وأراحُوكَ من الأسْوَدِ. فانطلَقَ الغُرابُ مُحلِّقاً[1] في السَّماءِ فوَجدَ امرأةً من بَناتِ العظَماءِ فوْقَ سَطْحِ تَغتسِلُ وقد وضَعَتْ ثيابَها وحُلِيَّها ناحيةً فانْقَضَ واختطَفَ من حُليِّها عِقْداً وطارَ به، فتبِعَهُ الناسُ ولم يزَلْ طائراً واقعاً بحيثُ يراهُ كلُّ أحدٍ حتى انْتهيَ إلى جُحْرِ الأسْوَدِ فألقَى العِقْدَ عليهِ والناسُ ينظُرونَ إليهِ، فلما أتَوْهُ أخذوا العِقْدِ وقَتَلُوا الأسوَدَ.

وإنما ضرَبتُ لكَ هذا المثَلَ لِتَعلمَ أنَّ الحيلةَ تُجْزِىءُ[2] ما لاَ تُجزِىءُ القوَّةُ. قال كليلةُ: إنَّ الثوْرَ لوْ لم يَجتمعْ معَ شدَّتِه رأيُه لكانَ كما تقولُ ولكنَّ لهُ معَ شدَّتِه وقوَّتِه حُسْنَ الرَّأيِ والعقْلِ فماذا تَستطيعُ لهُ؟ قالَ دمنةُ: إنَّ الثَّوْرَ لَكَما ذَكَرْتَ في قوَّتهِ ورأيهِ ولكنهُ مُقِرٌّ لي بالفضْلِ وأنا خَليقٌ أنْ أصرَعَهُ[3] كما صَرَعتِ الأرنبُ الأسدَ، قال كليلةُ: وكيفَ كان ذلكَ؟

[كيف استطاعت الأرنب أن تقتل الأسد بدهائها؟]

قال دمنةُ: زعمُوا أنّ أسداً كانَ في أرْضٍ كثيرةِ المياهِ والعُشْبِ، وكانَ في تلكَ الأرضِ منَ الوُحوشِ في سَعةِ المِياهِ والمَرْعَى شيءٌ كثيرٌ، إلاّ أنهُ لم يكنْ ينفَعُها ذلكَ لخوْفِها من الأسدِ، فاجتمعتْ وأتتْ إلى الأسدِ فقالتْ لهُ: إنكَ لَتُصيبُ منا الدّابَّةَ بعدَ الجَهْدِ والتعبِ، وقد رأينا لكَ رأياً فيهِ صَلاحٌ لكَ

(١) محلقاً: مرتفعاً.

(٢) تجزىء: تغني وتكفي.

(٣) أصرعه: أهلكه.

وأمْنٌ لَنا، فإنْ أنتَ أمَّنْتَنا ولمْ تُخِفْنا فلكَ علينا في كلّ يوْمٍ دابَّةٌ نُرْسِلُ بها إليكَ وَقْتِ غَدائِكَ. فرَضيَ الأسدُ بذلكَ وصالَحَ الوُحوشَ علَيْهِ ووَفَيْنَ لهُ به، ثم إنَّ أرْنَباً أصابتْها القُرْعَةُ وصارَتْ غَداءَ الأسدِ.

فقالتْ للوُحُوشِ: إنْ أنتُنَّ رَفَقتُنَّ بي فيما لا يَضُرُّكُنَّ رَجوْتُ أن أُريحَكُنَّ من الأسدِ، فقالتِ الوُحوشِ: وما الذي تُكلّفِينا من الأمورِ؟ قالتْ: فأمُرْنَ الذي يَنطَلِقُ بي إلى الأسَدِ أن يُمْهلَني رَيْثَما[1] أُبطِىءُ عليهِ بعض الإبْطاءِ. فقلْنَ لها: ذلكَ لكِ. فانْطلقَتِ الأرْنبُ مُتَباطئةً[2] حتى جاوَزَتِ الوقْتَ الذي كان يتَغَذَّى فيهِ الأسدُ، ثمّ تقدّمَتْ إليهِ وحْدَها رُوَيْداً وقد جاعَ فغَضِبَ وقامَ منْ مكانهِ نحوَها فقال لها: منْ أيْنَ أقبلْتِ؟ قالتْ: أنا رَسولُ الوُحُوشِ إليكَ بَعَثْنَنِي ومعي أرْنَبٌ لكَ فَتبِعَني أسدٌ في بعضِ تلكَ الطريقِ فأخذَها مني وقال: أنا أوْلَى بهذهِ الأرض وما فِيها من الوُحُوشِ. فقلتُ لهُ: إن هذا غدَاءَ الملكِ أرْسلَتْ به الوُحُوشُ مَعي إليهِ فلا تَغْصِبَنّهُ فَسبكَ وشتَمَكَ فأقبَلْتُ مُسْرِعةً لأُخبرَكَ. فقال الأسدُ: آنطلِقي معي فأريِني موْضعَ هذا الأسدِ. فأنطلقَتِ الأرْنَبُ إلى جُبٍّ فيهِ ماءٌ غامِرٌ صافٍ، فاطلَعَتْ فيه وقالتْ: هذا المكانُ. فاطّلعَ الأسدُ فرأى ظِلَّهُ وظِلَّ الأرْنَبِ في الماءِ فلمْ يَشُكَّ في قوْلِها ووَثَبَ إليهِ لِيقاتِلَهُ فغَرِقَ في الجُبِّ، فأنْقلَبتْ[3] الأرْنبُ إلى الوُحُوشِ وأعْلَمَتْهُنَّ صَنيعَها بالأسدِ.

قال كليلةُ: إنْ قَدِرْتَ على هَلاكِ الثوْرِ بشيءٍ ليسَ فيهِ مَضَرَّةٌ للأسدِ فشأنَكَ[4] فإنّ الثوْرَ قد أضرَّ بي وبكَ وبغيرِنا من الجُندِ وإنْ أنتَ لم تَقْدِرْ على ذلكَ إلاَّ بهلاكِ الأسد فلا تُقْدِمْ[5] عليه فإنهُ غَدْرٌ مني ومِنكَ.

(١) ريثما: قدراً قليلاً.
(٢) متباطئة: متلكئة.
(٣) انقلبت: رجعت.
(٤) شأنك: افعل ما تشاء.
(٥) تقدم عليه: تجترىء عليه وتفعله.

ثمّ إنّ دمنةَ ترَكَ الدُّخول على الأسدِ أيّاماً كثيرَةً ثم أتاهُ على خَلْوَةٍ منهُ فقال لهُ الأسدُ: ما حَبَسَكَ عني مُنذُ زمانٍ لم أرَكَ، ألاَ لِخَيْرٍ كانَ انقِطاعُكَ؟ قال دمنةُ: خيراً فليكنْ أيها الملكُ، قال الأسدُ: وهل حدَثَ أمرٌ؟ قال دمنةُ: حدثَ ما لم يكُنِ الملِكُ يُريدُه ولا أحَدٌ منْ جُنْدِه، قال وما ذاكَ؟ قال: كلامٌ فظيعٌ.

قال: أخبرْني بهِ. قال دمنةُ: إنه كلاَم يكرَهُهُ سامعه ولا يَشْجَعُ عليه قائلُه، وإنَّكَ أيها الملكُ لذُو فضِيلةٍ ورأيُكَ يدُلكَ على أنْ يُوجِعَني أنْ أقولَ ما تكرَهُ، وأثِقُ بكَ أنْ تَعرِفَ نُصْحي وإيثاري إيَّاكَ على نفْسي، وإنهُ لَيَعْرِضُ(١) لي أنَّكَ غيرُ مُصدِّقي فيما أُخبرِكَ به، ولكني إذا تذَكَّرْتُ وتفكَّرْتُ أنَّ نُفوسَنا مَعاشِرَ الوُحوشِ مُتعلقةٌ بكَ لم أجِدْ بُدًّا منْ أداءِ الحقِّ الذي يَلزَمُني وإنْ أنتَ لم تَسألْني وخِفتُ ألاَّ تَقْبَلَ مِني، فإنهُ يُقالُ مَنْ كتمَ السلطانَ نصيحتَهُ والإخوانَ رأيهُ فقدْ خانَ نَفسهُ. قال الأسدُ: فما ذاكَ؟ قال دمنةُ: حدَّثني الأمينُ الصَّدُوقُ(٢) عِندِي أن شَترَبة خلاَ برُؤُسِ جُندِكَ وقال: إني قدْ خَبَرْتُ الأسدَ وبَلَوْتُ رأيَهُ ومَكيدَتَهُ وقوَّتَهُ فاستبَانَ لي أنَّ ذلكَ يَؤولُ منهُ إلى ضعْفٍ وعَجْزٍ وسَيكون لي ولهُ شأنٌ منَ الشؤُونِ.

فلما بَلَغني ذلكَ علِمْتُ أنَّ شترَبَةَ خَوَّانٌ غدَّارٌ وأنكَ أكرَمْتهُ الكرامةَ كلَّها وجعلْتَهُ نظيرَ نفْسِكَ وهو يظُنُّ أنهُ مِثْلُكَ، وأنكَ مَتَى زُلْتَ عنْ مكانِكَ صارَ لهُ مُلكُكَ ولا يَدَعُ جَهْداً(٣) إلاَّ بلَغَهُ فيكَ، وقد كانَ يُقالُ إذا عرَفَ الملِكُ منَ الرّجُلِ أنهُ قد ساوَاهُ في المنزلةِ والحالِ فَلْيَصْرَعْهُ فإنْ لم يَفْعَلْ بهِ ذلكَ كانَ هوَ المَصْرُوعُ، وشَترَبَةُ أعلمُ بالأمور وأبلَغُ فيها، والعاقلُ هو الذي

(١) ليعرض: ليخطر.

(٢) الصدوق: الصادق.

(٣) الجَهد: الطاقة.

يَحْتالُ للأمْر قبلَ وُقوعهِ، فإنكَ لا تأمَنُ أنْ يكونَ ولا تَستدرِكَهُ، فإنهُ يقالُ الرِّجالُ ثلاثةٌ: حازِمٌ وأحزَمُ منهُ وعاجزٌ، فأحد الحازِمَيْنِ مَنْ إذا نزَلَ بهِ الأمرُ لم يَدْهشْ لهُ ولم يَذْهَبْ قلبُه شَعاعاً[١] ولم تَعْيَ به حيلتُه ومَكيدتُهُ التي يرجُو بها المَخْرَجَ منهُ، وأحزَمُ منْ هذا المتقدِّمُ ذُو العُدَّةِ الذي يَعرِفُ الابْتلاءَ قبلَ وقُوعه فيُعظِمُه إعظاماً ويحتالُ لهُ حيلةً حتى كأنهُ قد لزِمَهُ فيَحسِمُ الداءَ قبلَ أنْ يُبتلَى بهِ ويَدفَعُ الأمرَ قبلَ وقُوعِهِ، وأما العاجِزُ فهو في تردُّدٍ وتَمنٍّ وتَوانٍ حتى يَهلكَ، ومنْ أمثاله ذلكَ مثَلُ السَّمكاتِ الثلاَثِ. قال الأسدُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

[ما جرى للسمكات الثلاث]

قال دمنةُ: زعمُوا أنّ غديراً كانَ فيه ثلاثُ سَمَكاتٍ كيِّسَةٌ وأكيَسُ منها وعاجِزَةٌ، وكانَ ذلكَ الغدِيرُ بِنَجْوَةٍ[٢] من الأرضِ لا يكادُ يَقْرَبُهُ أحدٌ وبِقُرْبهِ نهرٌ جارٍ، فاتَّفَقَ أنهُ اجتازَ بذلكَ النهرِ صيَّادانِ فأبصَرا الغَدِيرَ فتَوَاعَدَا أنْ يَرْجِعا إليْهِ بِشباكِهما فيَصيدَا ما فيهِ من السمكِ، فَسمِعَ السَّمكاتُ قوْلَهُما، فأمَّا أكيَسُهُنَّ فإنها لمَّا سمِعَتْ قوْلَهُما ارْتابتْ بهِما وتخَوَّفَتْ منهما فلمْ تُعَرِّجْ على شيءٍ حتى خرَجَتْ منَ المكانِ الذي يدْخُلُ فيهِ الماءُ من النهرِ إلى الغَدِيرِ، وأمَّا الكيِّسَةُ فإنها مكثَتْ مكانَها حتى جاءَ الصَّيادَانِ، فلما رأتْهُما وعرَفتْ ما يُريدانِ ذهبَتْ لتَخرُجَ من حيثُ يدْخُلُ الماءُ فإذا بهما قدْ سدَّا ذلكَ المكانَ فحينئذٍ قالتْ: فرَّطْتُ وهذهِ عاقبةُ التفريطِ فكيْفَ الحيلةُ على هذهِ الحالِ وقلَّما تَنْجَعُ حيلةُ العجَلةِ والإرْهَاقِ[٣]، غيْرَ أنَّ العاقلَ لا يَقْنَطُ منْ مَنافعِ الرَّأيِ ولا يَيأسُ على حالٍ ولا يَدَعُ الرَّأيَ والجَهْدَ، ثم إنَّها

(١) شَعَاعاً: متفرقاً.

(٢) النجوة: المرتفع من الأرض.

(٣) الإرهاق: الإعجال.

تَماوَتَتْ فطَفتْ على وجْهِ المَاءِ مُنقلِبةً على ظَهرِها تارةً وتارةً على بَطْنها فأخذَها الصَّيادانِ فوَضَعاها على الأرْضِ بينَ النهرِ والغديرِ فوَثَبَتْ إلى النهرِ فَنجتْ، وأما الْعاجِزَةُ فلمْ تَزَل في إقْبالٍ وإدْبارٍ حتى صِيدَتْ.

قال الأسدُ: قدْ فهِمتُ ذلكَ ولا أظُنُّ الثوْرَ يَغُشُّني ولاَ يَرْجُو لي الغوائلَ[١]، وكيفَ يَفْعَلُ ذلكَ ولم يَرَ منّي سوءًا قَطْ ولم أدَعْ خيراً إلاّ فعَلْتُهُ معهُ ولا أُمنيَّةً إلاً بلغتُهُ إيَّاها قال دمنةُ: إن اللئيمَ لا يَزالُ نافِعاً ناصِحاً حتى يُرْفَعَ إلى المنزلةِ التي ليسَ لها بأهْلٍ، فإذا بَلَغها الْتَمَسَ ما فوْقَها ولا سِيما أهلُ الخيانةِ والفجُورِ، فإن اللَّئيمَ الفاجرَ لا يَخْدُمُ السلطانَ ولا يَنْصَحُ لهُ إلاَّ منْ فرَقٍ[٢] فإذا آستغنَى وذهبَتِ الهيْبَةُ عادَ إلى جوْهرِه، كَذَنَبِ الكَلْبِ الذي يُرْبَطُ ليستقيمَ، فلا يزالُ مُستَوِياً ما دام مَرْبوطاً فإذا حُلَّ انحنَى وتَعَوَّجَ كما كانَ.

«وآعلمْ أيها الملكُ أنهُ منْ لم يَقْبَلْ منْ نُصَحائه ما يَثْقُلُ عليهِ ممَّا يَنْصُحُونَ لهُ لم يُحْمَدْ رأيُهُ، كالمريضِ الذي يدَعُ ما يَبْعَثُ لهُ الطَّبيبُ ويَعْمِدُ إلى ما يَشتهيهِ، وحَقٌّ على مُؤازِرِ[٣] السلطانِ أنْ يُبالِغَ في التحْضيضِ[٤] لهُ على ما يَزيدُ سُلطانَهُ قوَّةً ويَزِينُهُ، والكفُّ عمَّا يضُرُّهُ ويَشينُهُ وخيرُ الإخوانِ والأعوانِ أقلُّهُمْ مُداهَنةً[٥] في النصيحةِ، وخيرُ الأعمالِ أحْمَدُها عاقبةً، وخيرُ النّساءِ المُوافِقةُ لبَعْلِها، وخيرُ الثناءِ ما كانَ على أفواه الأخْيارِ، وخيرُ السلطانِ ما لمْ يُخالِطْهُ بطَرٌ، وخيرُ الأخلاقِ أعونَها على الوَرَعِ[٦]، وقدْ قيلَ

(١) الغوائل: المهالك.
(٢) الفَرَق: الخوف.
(٣) مؤازر: مساعد.
(٤) التحضيض: الحث.
(٥) داهنه: أظهر له خلاف المضمر.
(٦) الورع: التقوى.

لوْ أنَّ امْرَءًا تَوَسَّدَ النارَ وافترَشَ الحيَّاتِ كانَ أحقَّ ألاَّ يَهنِئَهُ النومُ والرجلُ إذا أحسَّ منْ صاحبهِ بعداوَةٍ يُريدهُ بها لا يَطْمئنُّ إليهِ، وأعجزُ الملوكِ آخَذُهمْ بالْهُوَيْنا[١] وأقلُّهمْ نظراً في مُستقبَل الأمورِ وأشْبَهُهم بالفيل الهائج المُغْتلَم[٢] الذي لا يَلتفِتُ إلى شيءٍ، فإنْ أحزَنَهُ أمرٌ تهاوَنَ به وإنْ أضاعَ الأمورَ حَمَلَ ذلكَ على قُرَنائهِ.

قال الأسدُ: لقدْ أغلَظْتَ في القوْلِ وقوْلُ النَّاصحِ مقبولٌ محمولٌ، وإنْ كانَ شَترَبةُ مُعادِياً لي كما تقُولُ فإنهُ لا يَستطيعُ لي ضَرًّا، وكيفَ يَقْدِرُ على ذلكَ وهوَ آكلُ عُشْبٍ وَأنا آكلُ لحمٍ وإنما هوُ لِي طَعامٌ وليس عليَّ منهُ مَخافةٌ، ثمّ ليسَ إلى الغَدْرِ به سبيلٌ بعدَ الأمانِ الذي جعلْتُه لهُ وبَعْدَ إكرامِي لهُ وثَنائي عليهِ، وإنْ غَيَّرْتُ ما كانَ مني وبدَّلْتُه فقدْ سَفَّهْتُ[٣] رأيِي وجَهَّلتُ نفسي وغدَرْتُ بذمَّتي. قال دمنةُ: لا يَغُرَّنكَ قولُكَ هوَ لي طَعامَ وليسَ عليَّ منهُ مخافةٌ، فإنّ شَترَبةَ إنْ لم يَسْتطِعْكَ بنفْسهِ احْتالَ لكَ منْ قِبَلِ غيرِهِ، ويقالُ إن اسْتضَافكَ ضيْفٌ ساعةً منْ نهارٍ وأنتَ لا تَعرِفُ أخلاَقَهُ فلا تأْمَنْهُ على نفْسِكَ ولا تَأمَنْ أنْ يَصِل منهُ أو بسبَبِه ما أصابَ القَمْلَة منَ البُرْغُوثِ. قالَ الأسدُ: ـ وكيفَ كانَ ذلكَ؟

[كيف قضت القملة على نفسها؟]

قال دمنةُ: زعَمُوا أنَّ قَمْلَةً لَزِمتْ فِرَاشَ رجُلٍ منَ الأغنياءِ دَهْراً فكانتْ تُصيبُ منْ دمِهِ وهوَ نائمٌ لا يَشْعُرُ وتَدِبُّ دَبيباً رَفِيقاً[٤]، فمكثَتْ كذلكَ حيناً حَتى اسْتضَافَها ليْلةً منْ اللَّيالِي بُرْغُوثٌ فقالتْ لهُ: بِتِ اللَّيْلةَ عندَنا في دَمٍ

(١) الهوينا: التأني والمراد بها هنا التواني والفتور.

(٢) المغتلم: الهائج.

(٣) سفهت رأيي: نسبته إلى السفه وهو الجهل.

(٤) رفيقاً: لطيفاً.

طيِّبٍ وفِراشٍ لينٍ. فأقامَ البُرْغُوثُ عندَها حتى إذَا آوى الرَّجُلُ إلى فِراشِهِ وثبَ عليهِ البُرْغُوثُ فلدَغَهُ لذغةً أيْقظَتْهُ وأطارَتِ النَّوْمَ عنهُ فقام الرَّجلُ، وأمرَ أنْ يُفَتَّشَ فِراشهُ فنُظِرَ فلمْ يُرَ إلا القَمْلةُ فأُخِذَتْ فَقُصِعتْ(١) وفَرَّ البُرْغوثُ.

وإنما ضَربتُ لكَ هذا المثلَ لِتَعلمَ أنَّ صاحِبَ الشَّرِّ لا يَسلَمُ منْ شَرِّهِ أحدٌ وإنْ هُو ضَعُفَ عنْ ذلكَ جاءَ الشرُّ بسببِه، وإنْ كنتَ لا تخافُ منْ شَتربَةَ فَخفْ غيرَهُ منْ جُندِكَ الذينَ قدْ حَملَهُمْ عليكَ وعلى عداوتِكَ. فوَقَعَ في نفسِ الأسدِ كلامُ دمنةَ فقال: فما الذي تَرَى إذاً؟ وبماذَا تُشيرُ؟ قال دمنةُ: إنَّ الضِّرْسَ المأكُولَ لا يَزَالُ صاحبُهُ منهُ في ألَمٍ وأذًى حتى يُفارِقَهُ، والطَّعامَ الذي قد عَفِنَ في البطْنِ الرَّاحةُ في قَذْفِه، والعدُوَّ المخيفَ دواؤُهُ قتلُهُ. قال الأسدُ: لقدْ ترَكْتَني أكرَهُ مُجاورةَ شَتربَةَ إيَّايَ، وأنا مُرْسِلٌ إليهِ وذاكِرٌ لهُ ما وَقَعَ في نفْسي منهُ، ثمّ آمُرُهُ باللَّحاقِ حيثُ أحَبَّ.

فكَرِهَ دمنةُ ذلكَ وعَلِمَ أنّ الأسدَ مَتى كلَّمَ شَتربَةَ في ذلكَ وسَمِع منهُ جواباً عرَفَ باطِلَ ما أتَى هوَ بهِ واطَّلَعَ على غدْرِه وكَذِبِه ولم يَخْفَ عليْهِ أمْرُه. فقالَ للأسدِ: أمَّا إرْسالُكَ إلى شتربةَ فلا أراهُ لكَ رأياً ولا حَزْماً. فلْينظُرِ الملكُ في ذلكَ، فإنَّ شتربةَ متى شَعَرَ بهذا الأمر خِفْتُ أن يُعاجلَ الملكَ بالمُكابرةِ، وهوَ إنْ قاتَلَكَ قاتلَكَ مُستعِدًّا وإنْ فارقَكَ فارَقَكَ فِراقاً يَلِيكَ(٢) منهُ النقْصُ ويَلْزمُكَ منهُ الْعارُ، مَع أنَّ ذوي الرَّأيِ من الملوكِ لا يُعلِنونَ عُقوبةَ من لم يُعْلِنْ ذنْبَهُ، ولكنَّ لكلِّ ذنْبٍ عندَهُمْ عُقوبةً، فلذَنْبِ العلانيَةِ عُقوبةُ العلانيَةِ ولِذَنبِ السرِّ عقوبة السر. قال الأسدُ: إن الملِكَ إذا عاقبَ أحداً عنْ ظِنَّةٍ(٣) ظَنَّهامنْ غيره تيقُّنٍ بُجرْمِه فلنفْسِهِ عاقبَ وإيّاها ظلَمَ.

(١) قصعت: قتل القملة بالظفر.
(٢) يليك: يلحقك.
(٣) الظِّنَّة: التهمة.

قال دمنةُ: أما إذا كان هذا رأيَ الملكِ فلا يدْخُلنّ عليكَ شتربةُ إلاّ وأنتَ مُستعِدٌّ لهُ وإيّاكَ أنْ تُصيبَكَ منهُ غِرّةٌ(١) أوْ غفْلَةٌ، فإني لا أحسَبُ الملكَ حين يدْخُلُ عليه إلاّ سيَعْرِف أنه قدْ هَمّ بعظِيمةٍ، ومنْ عَلاماتِ ذلِكَ أنكَ تَرَى لوْنَهُ مُتغيراً وترَى أوْصالَهُ(٢) تُرْعَدُ وتراهُ مُلْتفِتاً يميناً وشِمالاً وتراهُ يَهُزّ قرْنيهِ فِعْلَ الذي هَمّ بالنطاحِ والقِتالِ. قال الأسدُ: سأكونُ منه على حَذَرٍ وإنْ رأيْتُ منه ما يدُلُّ على ما ذكرْتَ علِمْتُ أنَّ ما في أمرِهِ شكٌّ.

فلما فرغَ دمنةُ منْ تحميلِ الأسدِ على الثوْرِ وعرَفَ أنهُ قدْ وقعَ في نفْسِه ما كانَ يَلتمِسُ وأنَّ الأسدَ سَيَتحذّرُ الثوْرَ ويَتهيّأ لهُ أرادَ أنْ يأتيَ الثوْرَ ليُغْرِيَهُ بالأسدِ، وأحَبّ أنْ يكونَ إتْيانُهُ منْ قِبَلِ الأسدِ مَخافَة أنْ يبْلُغهُ ذلكَ فيتَأذّى به. فقال أيُّها الملكُ: ألا آتِي شَترَبَة فأَنْظُرَ إلى حالهِ وأمرِهِ وأسمَعَ كلامَهُ لَعلّي أنْ أطّلِعَ على سرِّهِ فأُطْلِعَ الملكَ على ذلكَ وعلى ما يَظْهَرُ لي منهُ؟ فأذِنَ لهُ الأسدُ في ذلكَ فانْطلَقَ فدَخلَ على شتربَةَ كالكَئيبِ الحزينِ، فلما رآهُ الثوْرُ رَحّبَ بهِ وقال: ما كانَ سببُ انْقطاعِكَ عني فإني لمْ أرَكَ مُنْذُ أيامٍ أسَلاَمَةٌ هيَ؟ قال دمنةُ: ومتَى كانَ منْ أهلِ السّلامةِ مَنْ لا يَملكُ نفسَه وأمرُه بيدِ غيره ممنْ لا يُوثَقُ به، ولا يَنْفكُّ على خطَرٍ وخوْفٍ حتى ما منْ ساعةٍ تمُرُّ ويأمَن فيها على نفسهِ. قال شترَبةُ: وما الذي حدَثَ؟ قال دمنةُ: حدَثَ ما قُدّرَ وهو كائنٌ، ومنْ ذا الذي غالَبَ القَدَرَ، ومَنْ ذا الذي بلَغَ منَ الدُّنْيا جَسيماً من الأمورِ فلمْ يَبْطَرْ؟ ومنْ ذا الذي بَلَغَ مُناهُ فلمْ يَغْتَرَّ؟ ومنْ ذا الذي تَبعَ هَواهُ فلمْ يَخسَرْ؟ ومنْ ذا الذي طلَبَ من اللّئامِ فلمْ يُحْرَمْ؟ ومنْ ذا الذي خالَطَ الأشرارَ فسَلِمَ؟ ومنْ ذا الذي صَحِبَ السلطانَ فدَامَ لهُ منهُ الأمْنُ والإحْسانُ؟ ولقدْ صدَقَ الذي قالَ: مَثَلُ السلاَطينِ في قلّةِ وَفائِهمْ لِمَنْ

(١) الغِرَّة: الغفلة.

(٢) أوصاله: مفاصله.

صَحِبَهُمْ وسَخاءِ أنفُسِهِمْ بمنْ فقَدُوا منْ قُرَنائِهِمْ كمثَلِ البَغيِّ كلَّما فقَدَتْ واحداً جاءَ آخرُ. قال شَتربُه: إنِي أسمَعُ منكَ كلاماً يدُلُّ على أنهُ قد رابَك من الأسدِ رَيْبٌ وَهالكَ[1] منهُ أمْرٌ.

قال دمنةُ: أجَلْ لقدْ رابَني منهُ ذلكَ وليسَ هو في أمْرِ نفْسي. قال شتَربةُ: ففي نَفْسِ مَنْ رَابَكَ؟ قال دمنةُ: قدْ تَعلَمُ ما بيني وبينَكَ وتَعْلَمُ حقَّكَ عليَّ، وما كنتُ جعَلتُ من العَهدِ والمِيثاقِ أيامَ أرْسلَني الأسدُ إليكَ، فلمْ أجدْ بُدًّا منْ حِفْظِكَ وإطْلاعِكَ على ما اطَّلَعْتُ عليهِ مما أخافُ عليكَ منهُ. قال شتربَةُ: وما الذي بَلَغكَ؟ قال دمنةُ: حدَّثني الخَبيرُ الصَّدُوقُ الذي لا مِرْيةَ في قوْلهِ أنَّ الأسدَ قال لبعضِ أصْحابِهِ وجُلَسائِهِ: قدْ أعْجبَني سِمَنُ الثَّوْرِ وليسَ لي إلى حَياتهِ حاجَةٌ فأنا آكِلُهُ ومُطْعِمٌ أصْحابي منْ لحمهِ، فلمَّا بلَغني هذا القوْلُ وعرَفتُ غدْرَه وسوءَ عَهْدِهِ أقبَلتُ إليكَ لأقْضِيَ حقَّكَ وتحتالَ أنتَ لأمْرِكَ.

فلمَّا سمِعَ شتربةُ كلامَ دمنةَ وتذَكَّرَ ما كان دمنةُ جَعلَ لهُ من العهْدِ والمِيثاقِ وفكَّر في أمْرِ الأسدِ ظنَّ أنَّ دمنةَ قدْ صَدَقَهُ ونَصحَ لهُ ورَأى أنّ الأمْرَ شَبيهٌ بما قال دمنةُ، فأهمّهُ ذلك وقال: ما كان للأسدِ أنْ يَغْدُرَ بي ولمْ آتِ إليهِ ذنباً ولا إلى أحدٍ منْ جُندِهِ مُنْذُ صَحِبْتُهُ ولا أظُنُّ الأسدَ إلاَّ قدْ حُمِلَ عليّ بالكذِبِ وشُبِّهَ عليهِ[2] أمرِي فإنّ الأسدَ قدْ صَحِبَهُ قوْمُ سُوءٍ وجرَّبَ مِنْهُمْ الكذِبَ وأموراً تُصدِّقُ عندَهُ ما بَلَغهُ منْ غيرهِمْ، فإنّ صُحبةَ الأشْرار ربّما أوْرَثتْ صاحبَها سوءَ ظنٍّ بالأخْيارِ وحَملَتْهُ تجْرِبتهُ على الخطإِ كخطإِ البطّةِ التي زعَموا أنها رأتْ في الماءِ ضوْءَ كوْكبٍ فظنَّتْه سمكةً فحاولَتْ أنْ تصيدَها، فلمّا جرّبتْ ذلك مِراراً عَلِمَتْ أنه ليسَ بشيءٍ يصادُ فتركَتْه، ثمّ

(١) هالك: أخافك وأفزعك.

(٢) شبه عليه: التبس عليه.

رأتْ منْ غدِ ذلك اليوْمِ سَمكةً فظنّت أنها مثْلُ الذي رأته بالأمْس فتركتْها ولم تطلبْ صيْدَها.

«فإنْ كانَ الأسَدُ بَلغَهُ عنّي كَذِبٌ فَصدَّقَهُ عليَّ وسمِعَهُ فيَّ فما جَرَى على غيري يَجْري عليَّ، وإن كانَ لم يبلُغْهُ شيءٌ وأرادَ السُّوءَ بي من غيرِ عِلَّةٍ فإنَّ ذلكِ لِمَنْ أعجَبِ الأمورِ. وقد كانَ يقالُ إنَّ مِنَ العَجَبِ أنْ يطْلُبَ الرَّجُلُ رِضَا صاحِبَهُ ولا يَرْضى.

وأعْجَبُ من ذلكَ أنْ يَلْتَمسَ رِضاهُ فيَسْخَطَ، فإذَا كانَتِ المَوجِدَةُ[1] عَنْ عِلَّةٍ كانَ الرِّضَا مَوْجُوداً والعَفْوُ مَأمولاً، وإذا كانَتْ عن غيرِ عِلَّةٍ انقطَعَ الرَّجاءُ، لِأن العِلَّةَ إذا كانَتِ المَوْجِدَةُ في وُرُودِها كانَ الرِّضَا مأمولاً في صُدُورها[2]، وقد نَظَرْتُ فلا أعلمُ بَيني وبَيْنَ الأسدِ جُرْماً ولا صغِيرَ ذَنْبٍ ولا كَبيرَهُ، ولَعَمْرِي ما يسْتَطيعُ أحدٌ أطالَ صُحْبَةَ صاحِبٍ أنْ يحْتَرِسَ في كلّ شيْءٍ مِنْ أمْرِهِ ولا يتَحفَّظَ مِنَ التَّيَقُّظِ ألاَّ يكونَ منْهُ صغيرَةٌ ولا كبيرةٌ يكْرَهُها صاحبُهُ، ولكِنَّ الرَّجُلَ ذَا العَقْلِ والْوَفاءِ إذا سَقَطَ عنْدَهُ صاحِبُهُ سَقْطَةً نظَرَ فيها وعَرَفَ قَدْرَ مَبْلغِ خطئِهِ عمْداً كانَ أو خطأً، ثمَّ ينظُرُ هَلْ في الصَّفْحِ عنهُ أمْرٌ يُخَافُ ضَرَرُهُ وشيْنُهُ فلا يُؤَاخِذُ صاحبَهُ بِشيْءٍ يَجِدُ فِيهِ إلى الصَّفْحِ عنْهُ سَبِيلاً.

«فإنْ كانَ الأسدَ قَدِ اعْتَقَدَ عليَّ ذَنْباً، فلسْتُ أعلمُهُ إلاَّ أنّي خالفْتُهُ في بعضِ رَأْيِهِ بطَراً منّي ونصيحَةً لهُ فعسَاهُ يكونُ قَد أنْزَلَ أمري على الجُرْأَةِ عليهِ والمُخالَفَةِ لهُ. ولا أجِدُ لي في هَذَا المَحضَرِ إثْماً ما، لِأنّي لمْ أخالِفْهُ في شيْءٍ إلا ما قدْ نَدَرَ مِنْ مُخالفَةِ الرُّشْدَ والمَنْفَعةَ والدِّينِ، ولمْ أُجاهِرْ بشيْءٍ مِنْ ذلكَ على رُؤُوسِ جُنْدِهِ وعِنْدَ أصحابِهِ ولكِنْ كُنْتُ أخْلُو بِهِ وأُكلِّمُهُ سِرًّا كلامَ الهائِبِ المُوَقِّرِ، وعلِمتُ أنّهُ مَنِ الْتمَسَ الرُّخَصَ مِنَ الإخْوَانِ عِنْدَ

(١) المَوْجِدَة: الغضب.

(٢) الصدور: الرجوع.

المُشاوَرَةِ ومِنَ الأطِبَّاءِ عنْدَ المَرَضِ ومِنَ الْفُقَهاءِ عنْدَ الشُّبْهَةِ فقد أخْطَأ منافِعَ الرَّأي وازْدَادَ فِيما وقعَ فيهِ منْ ذلكَ تورُّطاً وحملَ الْوِزْرَ، وإنْ لمْ يكُنْ هذا فَعَسى أنْ يكُونَ ذلكَ مِنْ بعْضِ سكَرَاتِ السُّلْطانِ فإنَّ مُصاحَبَةَ السُّلْطانِ خطِرَةٌ وإنْ صوحِبَ بالسَّلامةِ والثِّقةِ والمَوَدَّةِ وحُسْنِ الصُّحْبَةِ، وإنْ لمْ يكُنْ هذا ولا هذا فهُو إذاً من مواقِعِ القضاءِ والقَدرِ الّذِي لا يُدْفعُ، والقدرُ هو الّذِي يَسْلُبُ الأسدَ قُوَّتَهُ وشدّتَهُ ويُدْخِلُهُ القَبْرَ، وهو الّذِي يحمِلُ الرّجُلَ الضّعيفَ على ظهْرِ الفيلِ المُغْتلمِ، وهو الذي يُسلطُ على الحيّةِ ذاتِ الْحُمةِ[١] منْ ينزعُ حُمَتَها ويلعَبُ بها، وهو الذي يُحَزِّمُ الْعاجِزَ ويُثَبِّطُ الشّهْمَ ويُوسِّعُ على المُقْتِرِ[٢] ويُشَجِّعُ الجبانَ ويُجَبِّنُ الشُّجاعَ عندما تعْتريهِ المقاديرُ مِنَ الْعِللِ التي وضِعتْ عليها الأقْدارُ.

قال دِمْنةُ: إنّ إرادةَ الأسدِ بك ليستْ منْ تحمِيلِ الأشْرار ولا سكْرةِ السُّلْطان ولا غير ذلك، ولكنّها الغدْرُ والفُجُورُ منه فإنَّهُ فاجرٌ خَوّانٌ غدَّارٌ، طعامهُ حلاوةٌ، وآخرهُ سُمٌّ مُميتٌ، قال شتربَةُ: فأرَاني قد اسْتَلْذَذْتُ الحلاَوةَ إذْ ذُقتُها وقدِ انتهيْتُ إلى آخرِها الذي هوَ الموْتُ ولوْلاَ الحَينُ[٣] ما كانَ مُقامِي عندَ الأسد وهو آكِلُ لحم وأنا آكِلُ عُشْبٍ فأنا في هذهِ الوَرَطَةِ كالنَّحْلة التي تجلسُ على نَوْرِ النَّيْلَوْفَرِ[٤] إذْ تَستلذُّ ريحَهُ وطعمَهُ فتَحْبسُها تلكَ اللذّة، فإذا جاءَ الليْلُ ينْضَمُّ عليها، فتَتلجلَجُ[٥] فيها وتموتُ، ومنْ لم يرْضَ منَ الدُّنْيا بالكفَاف الذي يُغْنيهِ وطَمَحَتْ عيْنُه إلى ما سِوَى ذلك ولم يَتخَوَّفْ عاقبَتَها كان كالذّبابُ الذي لا يَرْضَى بالشجرِ والريَّاحينِ ولا يُقْنِعُه ذلك حتى

---

(١) الحُمَةُ: السم.

(٢) المُقْتِرُ: الفقير.

(٣) الحَيْنُ: الهلاك.

(٤) النور: الزهر. النيلوفر، ويقال النينوفر، ضرب من النبات ينبت في المياه الراكدة.

(٥) التلجلج: التردد.

يطلُبَ الماءَ الذي يَسيلُ منْ أُذُنِ الفيلِ فيَضْرِبَه الفيلُ بآذانِه فيُهْلِكَهُ، ومنْ يَبذُلْ وُدَّهُ ونصيحتهُ لمنْ يشكُرُهُ فهوَ كمنْ يَبذُرُ في السِّباخ ومنْ يُشرْ على المُعْجِبِ فهوَ كمنْ يشاوِرُ الميْتَ أوْ يُسارُّ الأصمَّ.

قال دمنةُ: دعْ عنكَ هذا الكَلامَ واْحْتَلْ لنفسِكَ، قال شتربَةُ: بأيِّ شيءٍ أحْتالُ لنفسي إذا أرادَ الأسدُ أكلي معَ ما عرَّفْتني منْ رأيِ الأسدِ وسوءِ أخلاقهِ، وأعلمُ أنهُ لوْ لم يُرِدْ بي إلا خيراً، ثم أرادَ أصْحابُه بمكرِهمْ وفُجورِهمْ هَلاكِي لقَدِرُوا على ذلك، فإنهُ إذا اجْتمعَ المَكَرَةُ الظَّلَمة على البريءِ الصَّحيحِ كانوا خُلَقاءَ أن يُهلكوهُ وإنْ كانوا ضُعفاءَ وهو قويٌّ، كما أهلكَ الذئبُ والغرابُ وابنُ آوَى الجملَ حينَ اجتمَعوا عليه بالمكْرِ والخدِيعةِ والخيانةِ. قال دمنةُ: وكيفَ كان ذلكَ؟

[ومن الغباء ماقتل]

قال شتْرَبَةُ: زعموا أنَّ أسداً كان في أجَمَةٍ مجاوِرةٍ لطريقٍ من طُرُقِ الناسِ وكان له أصحابٌ ثلاثةٌ ذئبٌ وغرابٌ وابنُ آوى، وأنّ رُعاةً مَرُّوا بذلكَ الطريقِ ومعهمْ جِمالٌ. فتخلَّفَ منها جَمَلٌ فدخلَ تلك الأجَمَةَ حتّى انتهى إلى الأسدِ فقال له الأسدُ: منْ أيْنَ أقْبلْتَ؟ قال: منْ موْضِعِ كذا. قال: فما حاجَتُكَ؟ قال: ما يأْمُرُني بهِ المَلكُ. قال: تُقيمُ عندَنا في السَّعَةِ والأمْنِ والخَصْبِ. فأقامَ الأسدُ والجملُ معهُ زماناً طويلاً، ثمَّ إنَّ الأسدَ مضى في بَعْضِ الأيَّامِ لطلَبِ الصَّيْدِ، فلَقيَ فيلاً عظيماً فقاتلهُ قتالاً شديداً وأفلَتَ منهُ مُثْقَلاً مُثْخَناً بالجِرَاحِ يسيلُ مِنْهُ الدَّمُ وقد خَدَشهُ الفيلُ بأنيابهِ، فلمَّا وصلَ إلى مكانهِ وقعَ لا يستْطيعُ حَرَاكاً ولا يقْدِرُ على طلبُ الصَّيْدُ. فلبُث الذِّئْبُ والغرابُ وابنُ آوى أيَّاماً لا يجِدُونَ طعاماً لأنهمْ كانوا يأكلُون منْ فَضَلاَتِ الأسدِ وطعامِهِ، فأصَابهُمْ جوعٌ شديدٌ وهُزَالٌ وعَرَفَ الأسدُ ذلكَ منهَمْ فقال: لقد جُهِدْتُمْ واحْتَجْتُمْ إلى ما تأكلُونَ. فقالوا: لا تَهُمُّنا أنْفُسُنا، لكنَّا نَرى

المَلكَ على ما نَراهُ فلَيْتَنا نَجِدُ ما يأكلُهُ ويُصْلِحُهُ. قال الأسدُ: ما أشُكُّ في نصيحَتِكُمْ ولكنِ انْتَشِرُوا لعلكم تُصيبُونَ صيداً فأكْسِبُكُمْ ونفسي منْهُ. فخرجَ الذِّئبُ والغُرابُ وابنُ آوى منْ عِنْدِ الأسَدِ فتنَحَّوْا ناحيَةً وأتَمَرُوا[1] فِيما بينَهُمْ فقالوا: ما لَنا ولهذا آكِلِ العُشْبِ[2] الذي ليسَ شأنَهُ من شأنِنا ولاَ رأيُهُ منْ رأيِنا، ألاَ نُزَيِّنُ للأسدِ فيأكُلَهُ ويُطْعِمَنا منْ لحمِهِ. قال ابنُ آوى: هذا ممَّا لا نستطيعُ ذكْرَهُ للأسدَ لأنَّهُ قدْ أمَّنَ الجملَ وجعلَ له منْ ذِمَّتِهِ عهداً. قال الغرابُ: أنا أكفيكُمْ أمْرَ الأسدِ.

ثمَّ انْطلقَ فدخلَ عليهِ فقال له الأسدُ: هلْ أصبْتَ شيئاً؟ قال الغرابُ: إنَّما يُصيبُ مَنْ يَسْعَى ويُبْصِرُ، ونحنُ لا سعْيَ لنا ولا بصَرَ لِما بنا منَ الجُوعِ، ولكنْ قد وُفِّقْنا لرأيٍ واجْتَمَعْنا عليهِ إنْ وافَقنا الملِكُ فنحْنُ لهُ مُجيبونَ.

قال الأسدُ: وما ذاكَ؟ قال الغرابُ: هذا الجمل آكِلُ الْعُشْبِ المُتَمَرِّغُ بيْننا منْ غيرِ منْفَعةٍ لنا منهُ ولاَ رَدٍّ عائدةٍ ولاَ عمَلٍ يُعْقِبُ مصلحةً. فلما سمعَ الأسدُ ذلك غضِبَ وقال: ما أخطأ رأيَكَ وما أعجزَ مقالَكَ وأبْعدكَ عنِ الوفَاءِ والرَّحمةِ، وما كنتَ حقيقاً أنْ تجترِىءَ عليَّ بهذهِ المقالةِ وتَسْتقبِلَني بهذا الخِطابِ مع ما عَلمتَ أن قدْ أمَّنتُ الجملَ وجعَلتُ له منْ ذمَّتي، أوَ لمْ يَبْلُغْكَ أنه لم يَتصدَّقْ مُتصدّقٌ بصدَقةٍ هيَ أعظمُ أجراً ممَّنْ آمنَ نفْساً خائفة وحقَنَ دماً مهْدُوراً، وقدْ آمنْتُه ولستُ بغادِرٍ به.

قال الغرابُ: إني لأعرفُ ما يقُولُ الملكُ ولكنَّ النفْسَ الواحدَةَ يُفْتدَى بها أهلُ المِصْرِ وأهْلُ المِصِر فِدَاءُ الملكِ، وقدْ نزَلَتْ بالملكِ الحاجةُ وأنا أجعل له من ذمته مخرجاً، على ألاَّ يتكلف الملكُ ذلك، ولا يَليَهُ بنفْسهِ ولا

(١) الائتمار: التشاور.

(٢) يريدون به الجمل.

يأمرَ بهِ أحداً، ولكنَّا نحتالُ بحيلةٍ لنا وله فيها إصلاح وظَفَرٌ. فسكتَ الأسد مِنْ جَوَابِ الغُرابِ عنْ هذا الخطابِ. فلمَّا عَرَفَ الغُرابُ إقرارَ الأسدِ أتى صاحِبَيْهِ فقال لهما: قد كلَّمتُ الأسدَ في أكلِهِ الجملَ على أنْ نَجْتمعَ نحنُ والجملُ عندَ الأسدِ فنَذْكُرَ ما أصابَهُ ونتوَّجعَ له اهتماماً مِنَّا بأمْرِهِ وحِرْصاً على صلاَحِهِ، ويَعْرِضَ كلٌّ واحِدٍ منَّا نَفْسَهُ علَيْهِ ليأكَلَهُ فيَرُدَّ الآخَرانِ عليه ويُسفِّهانِ رأيَهُ ويُبَيِّنانِ الضَّررَ في أكلِهِ فإذا فعَلْنا ذلكَ سلِمْنا كلُّنا وَرَضِيَ الأسَدُ عنَّا.

ففَعلُوا ذلكَ وتقَدَّمُوا إلى الأسدِ، فقال الغرابُ: قَدِ احْتجتَ أيُّها المَلكُ! إلى ما يقوِّيكَ ونحْنُ أحَقُّ أنْ نَهَبَ أنْفُسَنا لكَ فإنَّا بكَ نعيشُ، فإذا هَلَكتَ فليسَ لأحَدٍ منَّا بقاءٌ بَعْدَكَ ولا لنا في الحياةِ مِنْ خِيرَةٍ فلْيأكلْني المَلكُ فقدْ طبتُ بذلِكَ نفْساً. فأجابَهُ الذئبُ وابنُ آوى: أنِ اسكتْ فلا خَيْرَ لِلْمَلِكِ في أكلكَ وليسَ فيكَ شِبَعٌ. قال ابنُ آوَى: لكنْ أنا أُشْبعُ الملكَ فلْيأكلْني فقدْ رَضِيتُ بذلكَ وطِبْتُ عنهُ نفْساً. فرَدَّ عليهِ الذئبُ والغرابُ بقوْلِهما: إنكَ لَمُنتنٌ قذِرٌ.

قال الذئبُ: إني لستُ كذلكَ فليأكلْني الملكُ فقدْ سمَحْتُ بذلكَ وطِبْتُ عنهُ نفْساً. فأعترَضهُ الغرابُ وأبنُ آوَى وقالاَ: قدْ قالتِ الأطبَّاءُ منْ أرادَ قتْلَ نفْسِه فلْيأكلْ لحمَ ذئبٍ. فظنَّ الجمَلُ أنهُ إذا عرَضَ نفسَهُ على الأكلِ الْتمَسُوا لهُ عذْراً كما التَمَسَ بعضُهمْ لبعْضٍ الأعذارَ فيَسْلَمُ ويَرْضَى الأسدُ عنهُ بذلكَ ويَنْجُو من المَهالكِ، فقال: لكنْ أنا فيَّ لِلملِكِ شِبَعٌ وَرِيٌّ ولحمِي طيِّبٌ هنيءٌ وبَطْني نظيفٌ فلْيأكلْني الملِكُ ويُطْعِمْ أصحابَهُ وخدَمَه فقدْ رضِيتُ بذَلِكَ وطَابَتْ نفْسي عنهُ وسمَحْتُ بهِ. فقال الذئْبُ وابْنُ آوَى والغرابُ: لقدْ صدَقَ الجملُ وكَرُمُ وقال ما عَرَفَ، ثم إنهمْ وثَبُوا عليه فمزَّقُوهُ.

وإنَّما ضرَبتُ لكَ هذا المثَلَ لتعلمَ أنَّه إنْ كانَ أصحابُ الأسدِ قد اجْتمعَوا على هَلاَكِي فإني لستُ أقْدِرُ أنْ أمْتنعَ منهمْ ولا أحترِسَ، وإنْ كانَ رأيُ الأسدِ لي على غيرِ ما هُمْ عليهِ من الرَّأيِ فيَّ، فإنَّ ذلكَ لا يَنْفعُني ولا يُغْنى عني شيْئاً، وقدْ يُقالُ: خيرُ السلاَطين منْ عدَلَ في الناسِ، ولوْ أنَّ الأسدَ لم يكُنْ في نفْسِهِ لي إلاَّ الخيرُ والرَّحمةُ لَغَيَّرتْه كثرةُ الأقاويلِ فإنها إذا كثُرَتْ لم تلْبَثْ دُونَ أنْ تُذْهِبَ الرِّقةَ والرّأفةَ، ألاَ تَرَى أنَّ الماءَ ليسَ كالقوْلِ وأنَّ الحجَرَ أشدُّ منَ الإنْسانِ، فالماءُ إذا دامَ انحدَارهُ على الحجَرِ لم يلْبَثْ حتى يَثْقُبَهُ ويُؤَثِّرَ فيه، وكذلكَ القوْلُ في الإنسان.

قال دمنةُ: فماذَا تُريدُ أنْ تَصْنعَ الآنَ؟ قال شترَبةُ: ما أرَى إلاَّ الاجتهادَ والمُجاهدَةَ بالْقِتالِ فإنهُ ليسَ للمُصلّي في صلاَتِه ولا للمُتصدِّقِ في صدَقَتهِ ولاَ للْورِعِ في وَرَعهِ منَ الأجرِ ما لِلمُجاهِدِ عنْ نفْسهِ إذا كانتْ مُجاهدَتهُ على الحَقِّ.

قال دِمنةُ: لا يَنْبغي لأحدٍ أنْ يُخاطِرَ بنَفسِهِ وهو يَستطيعُ غيرَ ذلكَ، ولكنّ ذَا الرّأيِ جاعلُ القِتالَ آخرَ الحيَلِ وبادِىءٌ قَبْلَ ذلكَ بما اسْتطاعَ منْ رِفْقٍ وتَمحُّلٍ[1]، وقدْ قيل: لا تَحْقِرَنَّ العَدُوَّ الضَّعيفَ المَهينَ ولا سيما إذا كانَ ذَا حيلةٍ ويَقْدِرُ على الأعوان، فكيْفَ بالأسد على جرَاءَتِه وشِدَّتِه، فإنَّ مَنْ حَقَرَ عدُوَّهُ لِضَعْفه أصابَهُ ما أصابَ وكيلَ البحْرِ من الطَّيْطَوَى، قال شترَبَةُ: وكيفَ كان ذلكَ؟

[قصة وكيل البحر والطَّيْطَوَى]

قال دمنةُ: زَعموا أنَّ طائراً من طُيورِ البحرِ يقالُ له الطَّيْطَوَى كانَ وطنُه على ساحلِ البحرِ ومعهُ زوْجةٌ له، فلمَّا جاءَ أوانُ تَفْرِيخهِما قالتِ الأنثى

(١) التمحل: الاحتيال.

للذَّكرِ: لو ٱلتمَسْنا مكاناً حَريزاً[1] نُفَرِّخُ فيه فإني أخشَى منْ وكيلِ البحرِ إذا مَدَّ الماءَ أنْ يَذْهَبَ بِفِرَاخِنا. فقال لها: أفرِخي في مكانكِ فإنهُ مُوافِقٌ لنا والماءُ والزَّهَر منَّا قريبٌ. قالتْ لهُ: يا غافِلُ! لِيَحْسُنْ نظَرُكَ فإني أخافُ وكيلَ البحْرِ أنْ يَذْهَبَ بِفِراخِنا. فقال لها: أفرِخِي مكانَكِ فإنهُ لا يَفْعَلُ ذلكَ. فقالتْ لهُ: ما أشَدَّ تَعَنُّتَكَ! أمَا تذْكُرُ وعِيدَهُ وتهددُه إيَّاكَ؟ ألاَ تَعرِفُ نفْسَكَ وقدْرَكَ؟ فأبى أنْ يُطيعَها. فلمّا أكثرَتْ عليهِ ولم يسْمَعْ قوْلَها قالتْ لهُ: إنَّ منْ لمْ يَسْمَعْ قوْل النّاصحِ يُصيبُهُ ما أصابَ السُّلَحْفاةَ حينَ لمْ تَسْمَعْ قوْل البطَّتينِ، قال الذَّكَرُ: وكيفَ كان ذلكَ؟

[السُّلَحْفاة الحمقاء]

قالتِ الأنثى: زعمُوا أنّ غَديراً كانَ عنْدَهُ عُشْبٌ وكان فيه بطَّتانِ وكان في الْغدِيرِ سُلَحْفاةٌ بينها وبينَ البطَّتيْنِ مودَّةٌ وصدَاقةٌ، فاتَّفقَ أنْ غِيضَ ذلك الماءُ فجاءَتِ البطَّتانِ لوَداعِ السُّلحْفاةِ وقالتا: السلامُ عليكِ فإنَّنا ذاهِبَتانِ عنْ هذا المكانِ لأجْلِ نُقْصانِ الماءِ عنهُ. فقالتْ: إنما يَبِينُ نُقْصانُ الماء على مِثْلي فإني كأني السفينةُ لا أقْدِرُ على العيْشِ إلاَّ بالمَاء، فأما أنْتما فتَقْدِرانِ على العيْشِ حيثُ كنتُما، فاذْهَبا بي مَعكما.

قالَتا لها: نَعَمْ، قالتْ: كيْفَ السَّبيلُ إلى حَمْلي؟ قالتَا نأخذُ بطرَفيْ عُودٍ وتَقْبِضِينَ بِفِيكِ على وسَطِهِ ونَطيرُ بكِ في الجوّ، وإيَّاكِ إذا سَمِعْتِ الناسَ يَتكلَّمُونَ أنْ تَنْطِقي. ثمّ أخذَتاها فطارتَا بها في الجوّ فقال النّاسُ: عجَبٌ سُلَحْفاةٌ بينَ بطَّتيْنِ قدْ حَملَتاها. فلمّا سمِعتْ ذلكَ قالتْ: فَقأَ الله أعيُنَكُم أيُّها الناسُ. فلمّا فتحَتْ فَاها بالنطْقِ وقَعتْ على الأرضِ فَماتتْ.

قال الذَّكَرُ: قدْ سَمعْتُ مَقالَتَكِ فلا تَخافِي وكيلَ البحْرِ.. فلمَّا مَدَّ

(١) حَرِيزاً: حصيناً.

الماءُ ذهَبَ بفِراخِهِما، قالتِ الأنثى: قدْ عَرَفْتُ في بَدْءِ الأمرِ أنَّ هذا كائنٌ، قال الذَّكرُ: سوْفَ أنْتقِمُ منهُ. ثمّ مضَى إلى جَماعةِ الطيرِ، فقالَ لهنَّ: إنكُنَّ أخَواتي وثِقاتي فأعِنَّني. قلنَ: ماذَا تُريدُ أنْ نَفْعَلَ؟ قال: تجْتَمِعْنَ وتَذْهَبْنَ معي إلى سائرِ الطيْرِ فنشكُو إليهنَّ ما لَقِيتُ منْ وكيلِ البحرِ ونقولُ لهنَّ إنكُنَّ طَيرٌ مثلُنا فأعِنَّنا. فقالتْ لهُ جماعةُ الطَّير: إنَّ العَنْقاءَ هيَ سيِّدَتُنا ومَلِكَتُنا فاْذهبْ بنا إليْها حتى نَصيحَ بها، فتَظْهَر لنا فنشكُوَ إليها ما نالَكَ منْ وَكيلِ البحرِ ونَسألُها أنْ تَنْتقِمَ لنا منهُ بقوَّةِ مُلْكِها. ثمّ إنهنَّ ذَهَبَنَ معَ الطَّيْطَوىَ فاسْتغَثْنَ إليْها وصِحْنَ بها فترَاءَتْ لهنَّ فأخبَرْنَها بقِصَّتِهِنَّ وسألْنَها أنْ تَصيرَ معهُنَّ إلى مُحاربةِ وكيلِ البحرِ، فأجابتْهُنَّ إلى ذلكَ، فلما عَلِمَ وكيلُ البحر أنَّ العنْقاءَ قصدَتْهُ في جَماعةِ الطيرِ خافَ منْ مُحاربةِ ملِكٍ لا طاقة له به فرَدَّ فِرَاخَ الطَّيْطَوَى وصالَحهُ فرَجَعتِ العنْقاءُ عنهُ.

وإنما حدَّثْتُكَ بهذا الحديثِ لتَعلمَ أنَّ القِتالَ معَ الأسدِ لا أرَاهُ لكَ رأياً. قال شترَبةُ: فَما أنا بمُقاتِلِ الأسدَ ولا ناصِبٍ لهُ العداوَةَ سِرًّا ولا علاَنِيَةً ولا مُتغيِّرٍ لهُ عمّا كنْتُ عليه حتى يَبْدُوَ لي منهُ ما أتخوَّفُ فأغالبَه... فكرِه دمنةُ قوْلَهُ وعَلِمَ أنّ الأسدَ إنْ لمْ ير منَ الثوْرِ العلاماتِ التي كان ذكرَها لهُ اتّهمَهُ وأساءَ به الظّنَّ.

فقال دمنةُ لشترَبةَ: اذْهبْ إلى الأسْدِ فستعرِفُ حينَ يَنظرُ إليكَ ما يُريدُ منكَ. قال شتربةُ: وكيْفَ أعرِفُ ذلكَ؟ قال دمنةُ: سترَى الأسدَ حينَ تدْخُلُ مُقْعِياً[1] على ذَنَبِه رافِعاً صَدْرَهُ إليْكَ مادًّا بصرَهُ نحوَك قدْ صَرَّ أذُنَيْهَ وفَغَرَ فاهُ واسْتوَى للوَثْبةِ، قال شتربةُ: إن رأيتُ هذهِ العلاماتِ منَ الأسدِ عرَفْتُ صِدْقَكَ في قوْلِكَ.

(١) مقعياً: من اقعى إقعاء إذا ألصق أليتيه بالأرض ونصب ساقيه ووضع يديه على الأرض كجلوس الكلب.

ثمّ إنّ دِمْنَةَ لما فرَغَ منْ تخميلِ الأسدِ على الثوْرِ والثوْرِ على الأسدِ توَجَّهَ إلى كليلةَ، فلما الْتَقَيا قالَ كليلةُ: إلاَمَ انْتهَى عملُكَ الذي كنْتَ فيه؟ قال دمنةُ: قريبٌ من الفَراغِ على ما أُحِبُّ وتُحِبُّ. ثمّ إنّ كليلةَ ودمنةَ انْطلَقا جميعاً ليَحْضُرَا قِتالَ الأسدِ والثوْرِ وينْظُرا ما يَجرِي بينهما ويُعاينا ما يَؤُولُ إليه أمرُهُما، وجاءَ شتربةُ فدَخَلَ على الأسدِ فرآهُ مُقْعِياً كما وصفَهُ لهُ دمنةُ، فقال ما صاحِبُ السُّلْطانِ إلا كصَاحبِ الحيّةِ التي في صدْرِه لا يَدْرِي متَى تَهيجُ بهِ، ثم إن الأسدَ نظرَ إلى الثوْرِ فرأى الدّلاَلاتِ التي ذكرَها لهُ دمنةُ فلمْ يَشُكَّ أنهُ جاءَ لقِتالِه فواثَبَهُ ونَشأ بينهما الحرْبُ واشتَدَّ قتالُ الثوْرِ والأسدِ وطالَ وسالَتْ بينهما الدّماءُ، فلمّا رأى كليلةُ أنّ الأسدَ قدْ بلغَ منهُ ما بلغَ قال لدمنةَ: إنما السُّلطانُ بأصْحابه والبحْرُ بأمْواجهِ، وما عِظَتي وتأديبي إيَّاكَ إلاَّ كما قال الرّجلُ لِلطّائرِ: لا تَلتَمِسْ تقْويمَ ما لاَ يَسْتقيمُ ولا تُعالِجْ تأديبَ ما لاَ يتأدَّبُ. قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

[حوار القِرَدة واليراعَة]

قال كليلةُ: زعموا أنّ جماعةً من القِرَدَةِ كانوا سُكاناً في جَبَلٍ، فالتَمَسُوا في ليْلةٍ باردَةٍ ذاتِ رِياحٍ وأمْطارٍ ناراً فلم يجِدُوا، فرأوْا يَراعةً[1] تطيرُ كأنها شرارَةُ نارٍ فظَنُّوها ناراً وجَمَعُوا حطَباً كثيراً فألْقوْهُ عليها، وجعلوا يَنْفُخُونَ طَمعاً في أنْ يُوقِدُوا ناراً يَصطَلُونَ[2] بها منَ البرْدِ، وكانَ قريباً منهمْ طائرٌ على شجَرَةٍ ينْظُرونَ إليهِ وينْظُرُ إليهمْ وقدْ رأى ما صنعُوا فجعلَ يُناديهمْ ويقولُ: لا تَتْعَبُوا فإنّ الذي رأيْتُوهُ ليسَ بنارٍ، فلمَّا طالَ عليه ذلكَ عزَمَ على القُرْبِ منهمْ لِيَنْهاهمْ عمَّا همْ فيه، فَمرَّ به رجُلٌ فعَرَفَ ما عزَمَ عليه فقال لهُ: لا تَلتمِسْ تقويمَ ما لاَ يَسْتقيمُ، فإنَّ الحجَرَ المانعَ[3] الذي لا يَنْقطعُ لا

---

(١) اليراعة: ذبابة تطير بالليل كأنها نار.
(٢) يصطلون: يستدفئون.
(٣) المانع: الصلب.

تُجرَّبُ عليه السُّيوفُ والعُودَ الذي لا يَنْحني لا تُعْمَلُ منهُ القوْسُ فلا تَتْعَبْ. فأبَى الطائرُ أنْ يُطيعَهُ وتقدَّم إلى القِرَدَةِ لِيُعرِّفَهمْ أنَّ اليَراعةَ ليستْ بنارٍ فتناوَلَهُ بعضُ القِرَدةِ، فضرَبَ به الأرْضَ فماتَ، فهذا مَثَلُكَ معي في ذلك، ثمَّ قدْ غَلَبَ عليكَ الخِبُّ والفجُورُ وهُما خَلَّتا سوءٍ والخِبُّ شرُّهما عاقبةً، ولهذا مثلَ، قال دمنةُ: وما ذلكَ المثَلُ؟

[قصة الخَبُّ والمغفل]

قال كليلةُ: زعموا أن خَبًّا[١] ومُغفَّلاً اشترَكاً في تجارةٍ وسافَرَا، فبينما هُما في الطريقِ تخلَّفَ المُغفَّلُ لبعضِ حاجتهِ فوَجَدَ كيساً فيه ألْفُ دينارٍ فأخذَه، فأحَسَّ به الخَبُّ فرَجَعا إلى بَلَدِهما حتى إذا دَنَوَا منَ المدينةِ قَعدَا لاقْتِسام المالِ، فقال المُغفَّلُ: خُذْ نصفَهُ وأعطِني نِصْفَهُ. وكان الخَبُّ قدْ قرَّرَ في نفسهِ أنْ يَذْهبَ بالألْفِ جَميعهِ. فقال لهُ: لا، نَقتسِمُ فإنّ الشرِكةَ والمُفاوضةَ أقرَبُ إلى الصّفاءِ والمُخَالطَةِ ولكنْ آخُذُ نفقةً وتأخُذُ مِثلَها ونَدْفِن الباقِي في أصْلِ هذهِ الشجرَةِ فهوَ مكانٌ حَرِيزٌ، فإذا احْتجنا جِئنا أنا وأنْتَ فنأخُذُ حاجتَنا منهُ ولا يَعلَمُ بموضِعنا أحدٌ. فأخذَا منهُ يَسيراً ودفنا الْباقي في أصْلِ دَوْحةٍ[٢] ودَخَلا الْبلد، ثمّ إنّ الخَبَّ خالَفَ المُغفّلَ إلى الدَّنانيرِ فأخَذَها وسَوَّى الأرْضَ كما كانتْ، وجاء المُغفّلُ بعدَ ذلك بأشْهرٍ، فقال للخَبِّ قد احْتَجْتُ إلى نفَقَةٍ فانطَلِقْ بنا نأخُذْ حاجتَنا.

فقام الخَبُّ معهُ وذَهبا إلى المكانِ فَحفَرا فلمْ يجِدا شيئاً، فأقْبلَ الخَبُّ على وجههِ يَلْطِمُه ويقولُ: لا تَغترَّ بصُحْبةِ صاحبٍ، خالَفْتَني إلى الدّنانير فأخذْتَها، فجعلَ المغفَّلُ يحلِفُ وَيلْعَنُ آخِذَها ولا يَزْدادُ الخَبُّ إلاَّ شِدَّةً في اللّطْمِ وقال: ما أخذَها غيرُكَ وهلْ شَعُرُ بها أحدٌ سواكَ، ثمّ طالَ ذلكَ

(١) الخَبُّ بالفتح المخادع.

(٢) الدوحة: الشجرة العظيمة جمعها دوح.

بينهما فترَافَعا إلى القاضي فاقتَصَّ القاضي قِصَّتَهُما[١] فادَّعَى الخَبُّ أنَّ المغفَّلَ أخذَها، وجَحَدَ المُغفَّلُ، فقالَ للخَبِّ: ألكَ على دعواكَ بيِّنةٌ؟ قال: نعمْ الشجرةُ التي كانتِ الدَّنانيرُ عندَها تَشْهَدُ لي أنَّ المغفّلَ أخذَها، وكان الخَبُّ قد أمرَ أباه أنْ يذْهَبَ فيتوارَى في الشجرةِ بحيثُ إذا سُئِلَتْ أجابَ، فذهبَ أبو الخَبِّ فدخلَ جوْفَ الشجرةِ، ثمّ إنّ القاضي لمَّا سَمِعَ ذلكَ منَ الخَبِّ أكْبَرَهُ[٢] وانطلَقَ هو وأصْحابُه والخَبُّ والمغفَّلُ معهُ حتى وافَى الشجرَةَ فسألها عنِ الخبرِ، فقال الشيْخُ منْ جوْفِها: نعم المغفلُ أخذَها، فلما سمِعَ القاضي ذلكَ اشتدَّ تعجُّبُهُ فدَعا بحطبٍ وأمرَ أنْ تُحْرَقَ الشجرَةُ فأضْرِمَتْ حوْلَها النيرانُ، فاسْتغاثَ أبو الخبِّ عند ذلكَ، فأُخْرِجَ وقدْ أشرَفَ على الهَلاكِ فسألهُ القاضي عنِ القصَّةِ فأخبرَهُ بالخبرِ فأوْقَعَ بالخَبِّ ضَرْباً وبأبيهِ صَفْعاً وأركَبَهُ مَشْهُوراً وغرَّمَ الخَبَّ الدَّنانيرَ[٣] فأخذَها وأعْطاها المغفلَ.

وإنما ضرَبتُ لكَ هذا المثلَ لِتَعلمَ أنّ الخِبَّ والخديعَةَ رُبما كانَ صاحبُهُما هو المَغْبُونُ، وإنكَ يا دمنةُ جامعٌ للخِبِّ والخَديعةِ والفُجُورِ، وإني أخشَى عليكَ ثمرَةَ عمَلِكَ مع أنكَ لسْتَ بناجٍ من العقوبةِ لأنكَ ذُو لوْنيْنِ ولِسانيْنِ، وإنَّما عُذُوبةُ ماءِ الأنهارِ ما لَمْ تبْلُغْ إلى البِحارِ، وصَلاحُ أهلِ البيتِ ما لَمْ يكُنْ فيهمُ المُفسِدُ، وإنهُ لا شيءَ أشْبهُ بكَ منَ الحيَّةِ ذات اللّسانيْنِ التي فيها السُّمُّ فإنهُ قدْ يَجري منْ لِسانكَ كَسُمّها، وإني لمْ أزَلْ لذلِكَ السُّمِّ منْ لِسانِكَ خائفاً، ولِما يَحُلُّ بكَ مُتوَقِّعاً والمُفسِدُ بينَ الإخْوانِ والأصحابِ كالحيّةِ التي يُرَبّيها الرّجُلُ ويُطْعِمُها ويَمسَحُها ويُكْرِمُها ثمّ لا يكونُ لهُ منها غيرُ اللّدْغِ، وقدْ يُقالُ: الزَمْ ذا العقْلِ وذا الكَرَم واسترْسِلْ إليْهما وإيّاكَ مُفارَقَتَهُما، واصحَبِ الصَّاحبَ إذا كانَ عاقلاً كريماً أوْ عاقلاً

(١) اقتصَّ: طلب أن يقصاها عليه.
(٢) أكبره: أعظمه.
(٣) ألزمه أداءها.

غيرَ كريم أوْ كريماً غيرَ عاقل فالْعاقلُ الكريمُ كامِلٌ والعاقِلُ غيرُ الكريم أَصْحَبْهُ وإنْ كانَ غيرَ محمودِ الخَليقةِ[1] واْحذَرْ منْ سوءِ أخلاقهِ وانْتفِعْ بعقْلِهِ، والكريمُ غيرُ الْعاقلِ اْلزَمْهُ ولا تَدَعْ مُواصلتَهُ وإنْ كنتَ لا تَحْمَدُ عقْلَهُ، وانْتفِعْ بكرَمِه وانْفَعْهُ بعقلِكَ، والفِرارَ كلَّ الفِرارِ من اللَّئيم الأحمقِ، وإني بالفِرارِ منكَ لجدِيرٌ، وكيفَ يرْجُو إخوانُكَ عندكَ كرَماً ووُدًّا، وقدْ صَنَعْتَ بِمَلِكِكَ الذي أكْرَمَكَ وشرَّفَكَ ما صنَعْتَ وإنَّ مَثَلَكَ مَثَلُ التّاجرِ الذي قال: إنَّ أرْضاً تأكلُ جِرْذَانُها مِائةَ مَنٍّ[2] حدِيداً، ليسَ بمُستنكَرٍ على بُزَاتِها[3] أنْ تختطِفَ الأفْيلةَ. قال دمنةُ: وكيفَ كان ذلك؟

[جحود الأمانة]

قال كليلةُ: زعموا أنهُ كانَ بأرْضٍ كذا تاجرٌ، فأرادَ الخرُوجَ إلى بعضِ الوُجوهِ لابْتِغاءِ الرِّزْقِ، وكانَ عندَهُ مائةُ مَنٍّ حديداً فأوْدَعها رجلاً منْ إخوانِه وذَهبَ في وَجهِه، ثمّ قَدِمَ بعدَ ذلك بمدَّةٍ فجاءَ والْتمَسَ الحديدَ، فقال لهُ: إنهُ قدْ أكلَتْهُ الجِرْذَانُ. فقال: قدْ سَمِعْتُ أنهُ لا شيءَ أقطَعُ منْ أنيابِها للحدِيدِ. ففرِحَ الرَّجُلُ بتصْدِيقهِ على ما قالَ وادَّعَى، ثم إنّ التّاجرَ خرَجَ فلَقِيَ ابْناً للرَّجُلِ فأخَذَهُ وذَهبَ به إلى منزِله، ثمّ رجعَ إليهِ الرّجُلُ من الغَدِ فقال لهُ: هلْ عندكَ عِلْمٌ بابْني؟ فقال لهُ التاجرُ: إني لما خرَجْت منْ عندِكَ بالأمْسِ رأيْتُ بازِياً قدِ اختطَفَ صبيًّا صفته كذا ولعلهُ ابنُكَ، فلطَمَ الرَّجُلُ رأسَهُ وقال: يا قوْمُ هلْ سَمِعْتُمْ أوْ رأيتمْ أنَّ البُزاةَ تختطِفُ الصِّبْيان. فقال: نعمْ وإنَّ أرْضاً تأكلُ جِرْذَانُها مائةَ مَنٍّ حديداً ليسَ بعَجَبٍ أنْ تختطِفَ بُزاتُها الفيلةُ. قال لهُ الرَّجُلُ: أنا أكلْتُ حديدَكَ وهذا ثمنُهُ فارْدُدْ عليَّ ابْني.

---

(١) الخليقة: الطبيعة.

(٢) المن: رطلان.

(٣) بزاتها ج بازي: وهو طائر معروف.

وإنما ضربْتُ لكَ هذا المثلَ لتعلَمَ أنكَ إذا غَدَرْتَ بصاحبِكَ لا شكَّ بمنْ سِواهُ أَغْدَرُ، وأنهُ إذا صاحبَ أحدٌ صاحِباً وغَدَرَ بمنْ سِواهُ فقدْ علِمَ صاحبُهُ أنهُ ليسَ عنْدَهُ للمودَّةِ موْضعٌ فلا شيءَ أضيعُ منْ مَودَّةٍ تُمْنَحُ مَنْ لا وَفاءَ لهُ، وحِبَاءٍ[1] يُصطَنَعُ عندَ منْ لا شُكْرَ لهُ، وأدبٍ يُحْمَلُ إلى مَنْ لا يَتأدَّبُ بهِ ولا يَسمعُهُ، وسرٌّ يُسْتوْدَعُ عند منْ لا يَحفَظُهُ، فإنَّ صُحبةَ الأخْيارِ تُورِثُ الخيرَ، وصُحبةَ الأشرارِ تُورِثُ الشرَّ كالرِّيحِ إذا مرَّتْ بالطَّيِّبِ حَمَلتْ طِيباً، وإذا مَرَّتْ بالنَّتِنِ حمَلَتْ نَتْناً، وقدْ طال وثَقُلَ كلامي عليكَ.

فانتهَى كليلةُ منْ كلامهِ إلى هذا المكانِ وقدْ فرَغَ الأسدُ من الثَّوْرِ، ثمَّ فكَّرَ في قَتْلهِ بعد أنْ قَتلهُ وذَهبَ عنهُ الغضبُ، وقال: لقدْ فَجعني شتربةُ بنفسهِ وقدْ كانَ ذا عَقْلٍ ورأيٍ وخُلُقٍ كريمٍ، ولا أدْري لَعلهُ كانَ بَريئاً أوْ مكذُوباً عليهِ. فَحزِنَ ونَدِمَ على ما كانَ منهُ، وتبيَّنَ ذلكَ في وجْهِه وبَصُرَ به دمنةُ فتركَ مُجاوَرَة كليلةَ وتقدَّم إلى الأسدِ فقال لهُ: لِيَهْنِئْكَ الظَّفَرُ، إذ أهلكَ الله أعداءكَ، فماذا يُحْزِنُكَ أيُّها الملكُ؟ قال: أنا حزِينٌ على عَقْلِ شتربةَ ورأْيهِ وأدبهِ. قال لهُ دمنةُ: لا ترْحَمْهُ أيها الملكُ فإنّ الْعاقلَ لا يَرْحَمُ منْ يخافُهُ وإنَّ الرَّجُلَ الحازِمَ رُبما أبْغضَ الرَّجلَ وكرهَهُ ثمّ قرَّبَهُ وأدْناهُ لما يَعْلمُ عندَهُ من الغَناءِ[2] والكَفاءَةِ فعْلَ الرّجلِ المُتكارِهِ على الدَّواءِ الشَّنيعِ رَجاء منْفعتهِ، وربُما أحَبَّ الرَّجُلَ وعزَّ عليهِ فأقْصاهُ وأهْلكَهُ مخافةَ ضرَرِهِ كالذي تلدَغُهُ الحيّةُ في اصْبعهِ فيَقْطَعُها ويتبرَّأُ منها مخافةَ أنْ يَسْرِيَ سُمُّها إلى بدنهِ. فرضيَ الأسدُ بقوْلِ دمنةَ، ثم عَلِمَ بعدَ ذلك بكَذبِهِ وغدْرِه وفُجُورِه فقتَلهُ شَرَّ قِتْلةٍ.

---

(١) الحِبَاء: العطاء.

(٢) الغَنَاء: النفع.

باب الفحص عن أمر دمنة

قال دَبْشليمُ الملكُ لبيدَبا الفيْلسُوف: قد حدّثْتَني عنِ الواشِي الماهرِ بالمِحالِ[1] كيفَ يُفْسِدُ بالنميمةِ المَوَدّةَ الثابتةَ بين المُتحابَّيْنِ، فحدِّثْني إنْ رأيتَ بما كانَ منْ حالِ دِمنةَ وإلامَ آلَ مآلُهُ بعدَ قتْلِ شتربةَ، وما كانَ منْ مَعاذيرهِ عندَ الأسدِ وأصحابهِ حينَ راجعَ الأسدُ رأيَهُ في الثوْرِ، وأدْخلَ النميمةَ على ذمَتهِ وما كانتْ حُجَّتُهُ التي احتجّ بها.

قال الفيلسُوفُ: إني وجدْتُ في حديثِ دمنةَ أنَّ الأسدَ حينَ قتلَ شتربةَ نَدِمَ على قتْلِهِ وذكرَ قدِيمَ صُحْبتهِ، وجَسيمَ خدْمتهِ، وإنهُ كانَ أكْرَمَ أصْحابهِ عليهِ، وأخصّهمْ منزلة لدَيْهِ، وأقْرَبَهُمْ وأدْناهُمْ إليهِ، وكانَ يُواصِلُ بِهِ المَشوُرةَ دونَ خوَاصِّه، وكان منْ أخَصِّ أصْحابهِ عندَه بعدَ الثوْرِ النَّمِرُ، فاتَّفقَ أنهُ أمسَى النَّمِرُ ذات ليْلةٍ عند الأسدِ فخرجَ منْ عندِه جوْفِ الليْلِ يُريدُ منزلَهُ، فاجْتازَ[2] على منزِل كليلةَ ودمنةَ، فلَّما انْتَهى إلى البابِ سمعَ كليلةَ يُعاتِبُ دمنةَ على ما كانَ منهُ ويَلومُهُ في النميمةِ واسْتِعْمالِها مع الكَذِبِ والبُهْتانِ في حقِّ الخاصَّةِ. وعرَفَ النمِرُ عِصْيانَ دِمنةَ وتَرْكَ القَبُولِ لهُ فوقَفَ يَسْمَعُ ما يَجرِي بينهما، فكانَ فيما قال كليلةُ لدمنةَ: لقدِ ارْتكَبْتَ مَرْكَباً صعْباً ودَخلْتَ مدْخَلاً ضَيِّقاً وجنَيْتَ على نفسِكَ جناية مُوبقةً[3] وعاقِبَتُها وخيمة، وسوْفَ

(١) المِحَال: المكر.

(٢) اجتاز: مر.

(٣) الموبقة: المهلكة.

يكونُ مَصْرَعُكَ شديداً إذا انكشَفَ للأسدِ أمرُكَ واطَّلعَ عليه وعرَفَ غَدْرَكَ ومِحالَكَ وبَقِيتَ لا ناصِرَ لكَ، فيجتمعُ عليْكَ الهوانُ والقتْلُ مخافةَ شرِّكَ وحذَراً منْ غوائِلك فلسْتُ بمتَّخِذَكَ بعدَ اليوْمِ خليلاً ولا مُفْشٍ لكَ سرًّا، لأنّ العلماءِ قدْ قالوا: تَباعَدْ عمنْ لا رَغْبةَ لكَ فيه، وأنا جديرٌ بمباعدَتِك والتماسِ الخَلاصِ لي ممَّا وقعَ في نفْسِ الأسدِ منْ هذا الأمرِ، فلما سمعَ النَّمِرُ هذا منْ كلامِهِما قفَلَ راجعاً فدخلَ على أمِّ الأسدِ فأخَذَ عليها العُهودَ والمواثيقَ أنها لاَ تُفْشِي ما يُسِرُّ إِليْها فعاهدَتْهُ على ذلك، فاخبرَها بما سَمِعَ منْ كلام كليلةَ ودمنةَ، فلّما أصبحتْ دخلَتْ على الأسدِ فوجدَتْهُ كئيباً حزيناً مَهمُوماً لِما ورَدَ عليهِ من قتلِ شتربةَ. فقالتْ لهُ: ما هذا الهمُّ الذي قدْ أخذَ منكَ[1] وغلَبَ عليكَ؟ قال: يُحزنني قتلُ شتربةَ إذا تَذكَّرْتُ صُحبتهُ ومُواظبتَهُ معي وما كنتُ أسمعُ منْ نصيحتهِ وأسكنُ إليهِ من مُشاورَتهِ وأقبَلُ منْ مُناصحَتِه. قالتْ أمُّ الأسدِ: إنَّ أشدَّ ما شَهِدَ امْرُؤٌ على نفسهِ، وهذا خطأٌ عظيمٌ كيْفَ أقدمْتَ على قتْلِ الثَّوْرِ بلا عِلمٍ ولا يقينٍ ولوْلا ما قالتِ العُلماءُ، منْ إذاعةِ الأسْرارِ وما فيها منَ الأثمِ والشَّنارِ لذكرْتُ لكَ وأخبرْتُكَ بما عَلمْتُ، قال الأسدُ: إنَّ أقوالَ العلماءِ لها وُجُوهٌ كثيرة ومَعانٍ مختلفةٍ وإني لأعلمُ صوابَ ما تقْولينَ وإنْ كان عندكَ رأيٌ فلا تَطْوِيهِ عني، وإنْ كان قدْ أسَرَّ إليْكِ أحدٌ سِرًّا فأخبريني بهِ وأطْلِعيني عليهِ، وعلى جُملةِ الأمرِ. فأخبرَتْهُ بجميعِ ما ألْقاهُ إليها النمرُ منْ غيرِ أنْ تُخبرَهُ باسْمهِ وقالتْ: إني لم أجهَلْ قوْلَ العُلماءِ في تعظيم العقوبةِ وتشْدِيدِها وما يَدْخُلُ على الرجُلِ من الْعارِ في إذاعةِ الأسْرارِ، ولكني أحببتُ أنْ أُخبرَكَ بما فيهِ المصْلحةُ لكَ، وإنْ وصلَ خَطؤُهُ وضرَرُهُ إلى الْعامّةِ فإصرارُهُمْ على خِيانةِ الملكِ ممَّا لا يَدْفَعُ الشَّرَّ عنهمْ وبهِ تحتجُّ السُّفهاءُ ويُدْخِلُونَ الشُّبُهةَ على أعمالهم الْقبيحَةِ، وأشدُّ

(١) أخذ منك: أي اشتد عليك.

مَعارِّهمْ[١] إقْدامُهمْ على ذي الحَزْمِ.

فلما قصتْ أمُّ الأسدِ هذا الكلامَ اسْتدْعَى الأسدُ أصحابَهُ وجُنْدَهُ فأُدْخِلُوا عليه، فلما وقفَ دمنةُ بين يديِ الأسدِ ورأى ما هو عليهِ منَ الحُزْنِ والكآبةِ، الْتفَتَ إلى بعْضِ الحاضِرِينَ فقال: ما الّذي حدَثَ وما الذي أحْزنَ الملكَ؟ فالْتفتَتْ أمُّ الأسدِ إليهِ وقالتْ لهُ: قدْ أحزنَ الملِكَ بَقاؤُكَ ولو طَرْفةَ عيْنٍ ولَنْ يدَعَكَ بعدَ اليوْمِ حياً. قال دمنةُ. ما تركَ الأوَّلُ للآخرِ شيئاً لأنهُ يُقالُ أشدُّ الناسِ في تَوَقّي الشرِّ يُصيبُهُ الشَّرُّ قبْلَ المُسْتسْلِمِ لهُ فلا يكُونَنَّ الملكُ وخاصَّتُهُ وجُنُودُهُ المثلَ السَّوءَ، وقدْ علِمْتُ أنه قد قيلَ: منْ صَحِبَ الأشرارَ وهو يَعلَمُ عِلمَهُمْ كان أذاهُ منْ نفْسهِ، ولذلك انْقطعَتِ النُّسَّاكُ بأنْفُسِها عنِ الخَلْقِ واخْتارتِ الوَحْدةَ على المُخالَطةِ، وحُبَّ الْعملِ لله على حُبَّ الدُّنْيا وأهْلِها، ومَنْ يَجْزِي بالخيْرِ خيراً وبالإحْسانِ إحْساناً إلاَّ الله، ومنْ طلبَ الجَزاءَ على الخيرِ منَ النّاسِ كانَ حقيقاً أنْ يَحْظَى بالحِرْمانِ إذْ يُخطىءُ الصوابَ في خُلوصِ العملِ لِغيرِ الله وطلَبِ الجزَاءِ من النّاسِ وإنَّ أحقَّ ما رَغِبَتْ فيه رعيَّةُ الملكِ هو مَحاسِنُ الأخْلاقِ ومَواقعُ الصَّوابِ وجَميلُ السِّيَرِ، وقدْ قالتِ العُلماءُ منْ صدَّقَ ما ينبغي أنْ يُكذَّبَ، وكذَّبَ ما ينبغي أنْ يُصدّقَ أصابَهُ ما أصابَ المرْأةَ التي بَذَلَتْ نفْسَها لعبْدِها حتى فضحَها بالتَّلبُّس عليها[٢] قالتْ:

ـ وكيف كان ذلك؟

[المرأة الخائنة]

قال دمنةُ: زعموا أنهُ كانَ في بعضِ المدُنِ تاجرٌ وكانتْ لهُ امْرأةٌ ذاتُ حُسْنٍ وجَمالٍ، وكانَ إلى جَنْبِ التّاجرِ رجُلٌ مُصَوِّرٌ ماهِرٌ، وكانَ هو لِامْرَأةِ

---

(١) معارهم: بمعنى عارهم.

(٢) التلبيس: التخليط والتدليس.

التّاجرِ خَليلاً فقالتْ لهُ يوْماً: إنِ اسْتطعْتَ أنْ تَحْتالَ بحيلةٍ أعلمُ بها مَجيئَكَ منْ غيرِ نِداءٍ ولا إيماءٍ ولا ما يُرْتابُ به منْ فعْلِكَ وفِعْلي. قال المصوِّرُ: عندِي من الحيلةِ ما سألْتِ ممّا يَسُرُّكِ ويُقِرُّ عيْنَكِ، إنَّ عندي مُلاَءةً فيها منْ تهاويلِ الصُّوَرِ وتماثيلِ الصَّنْعةِ فإني ألْبَسُها حينَ مَجيئي إليْكِ وأتراءَى[1] لكِ فيها، ثمّ أنّ المُصوّرَ لَبِسَ المُلاَءةَ وتراءَى للمرْأةِ فعَلَمَتْ بمكانهِ فخرَجتْ إليهِ وفرِحَتْ به وتهيَّأتْ لهُ فبَصُرَ بها في تلكَ الحالة عبْدٌ للمرْأةِ فعَجبَ منْ ذلك وتحيَّرَ، وكان هذا العبْدُ لأمَةِ المُصوِّر خليلاً فطلَبَ المُلاءةَ منها وسألَها ذلك وقال: أُريدُ أنْ أرِيها لصدِيقٍ لي لأُسِرَّهُ بذلكَ وأُسْرِعُ الكَرَّةَ بردِّها قبْلَ أنْ يَعلَمَ به موْلاكِ. فأعْطتْهُ أمَةُ المُصوّرِ المُلاءَةَ فلبِسهَا العَبْدُ وأتى سيّدتَهُ على نحوِ ما كانَ يأتيها المصوّرُ، فلما رأتْهُ لم تَشُكَّ في مَجيئهِ ولمْ تَرْتَبْ به أنهُ خليلُها... فأتتْ إليهِ وبذلَتْ لهُ نفْسَها.

ثمَّ رَجعَ بالمُلاءةِ إلى أَمَةِ المُصوّرِ فدفَعَها إليْها فوَضَعتْها موْضِعَها، وكان المُصَوِّرُ عن بيْتهِ غائِباً، فلما جَنَّ الليلُ عادَ إلى منزلهِ فلبِسَ المُلاءةَ على عادتهِ وتراءى لِلْمرأةِ فلما شاهدَتْ ذلكَ وثبَتْ إليه وقالتْ: لقدْ أسرَعْتَ الكَرّةَ ألمْ تكُنْ عندي فماذا العَوْدُ؟ فلمّا سمعَ المصوّرُ كلامَها رجَع إلى منزِله فدَعا جاريتَهُ فأوْعدَها بالقتْلِ أو تُخْبِرَهُ بالحقيقةِ فأخبرَتْهُ بالقصَّةِ فأخذَ المُلاءةَ فأحْرَقَها.

وإنما ضرَبتُ لكَ هذا المثلَ إرادَة ألاَّ يَعْجَلَ الملك في أمْري بشُبْهةٍ ولستُ أقُولُ هذا كَراهةً للْموت فإنهُ وإنْ كان كريهاً فلا مَنْجَى منهُ وكلُّ حيٍّ هالكٌ، ولوْ كان لي مائةُ نفْسٍ وأعْلم أنَّ هوَى الملكِ في إتْلافِهنَّ طِبْتُ لهُ بذلكَ نفْساً، فقال بعْضُ الجُنْدِ: لمْ يَنْطِقْ بهذا لحُبّهِ الملكَ ولكنْ لخَلاصِ نفْسهِ والتماسِ العُذْرِ لها، فقال لهُ دمنةُ: ويْلَكَ وهلْ عليَّ في التماسِ العُذْرِ

(١) أتراءى لك: أي أتصدى لرؤيتك.

لنفْسي عيْبٌ وهلْ أحدٌ أقرَبُ إلى الإنْسانِ منْ نفْسه، وإذا لم يَلْتمِسْ لها العذْرَ فمنْ يلتمسُهُ؟ لقدْ ظهر منْكَ ما لَمْ تكُنْ تملِكُ كِتمانَهُ من الحسدِ والبَغْضاءِ، ولقدْ عرَف منْ سمَعَ منْكَ أنَّكَ لا تُحِبُّ لأحدٍ خيراً وأنكَ عدُوُّ نفْسِكَ فمنْ سِواها بالأوْلَى فمِثْلُكَ لا يَصلُحُ أنْ يكونَ مع الْبهائم فضْلاً أنْ يكونَ مع الملكِ وأن يكونَ ببابِهِ، فلمَّا أجابَهُ دمنةُ بذلكَ خرَجَ مُكْتئباً حزيناً مُسْتحياً، فقالتْ أمُّ الأسدِ لدمنةَ: لقدْ عَجِبْتَ منكَ أيُّها المُحتالُ في قلةِ حَيائكَ وكثرةِ قِحَتِكَ[1] وسُرْعةِ جوابكَ لمنْ كلَّمَك. قال دمنةُ: لأنَّكِ تنْظُرينَ إليَّ بعيْنٍ واحدةٍ وتَسْمَعين بأُذُنٍ واحدةٍ مع أنَّ شقاوةَ جَدِّي قدْ زَوَتْ[2] عني كلَّ شيءٍ حتى لقدْ سعَوْا إلى الملكِ بالنميمة عليَّ.

«وإني أرَى كلَّ شيءٍ قدْ تنكَّرَ حتى صارَ الناسُ لا يَنْطِقُونَ بالحقِّ وصارَ منْ ببابِ الملكِ لاستِخْفافهمْ به وطُولِ كرامتهِ إيَّاهُمْ وما هُمْ فيه من العيْشِ والنّعْمةِ لا يَدْرُونَ في أيِّ وقْتٍ ينبغي لهمْ الكلامُ ولا متَى يجبُ عليهم السُّكُوتُ» قالتْ: ألاَ تنْظُرُونَ إلى هذا الشَّقيّ مع عِظَمِ ذنْبِهِ كيف يجْعلُ نفْسَهُ بريئاً كمن لا ذنْبَ لهُ، قال دمنةُ: إنَّ الذين يعمَلُون غيرَ أعمالهمْ ليسُوا على شيء كالذي يضَعُ الرَّمادَ موْضِعاً ينبغي أنْ يضَعَ فيه الرَّمْلَ ويَستعمِلُ فيه السِّرْجِينَ[3] والرَّجُلِ الذي يلْبَسُ لِباسَ المرأةِ، والمرأةِ التي تلْبَسُ لباسَ الرَّجلِ، والضَّيْفِ الذي يقُولُ: أنا ربُّ البيتِ، والذي ينْطِقُ بينَ الجماعةِ بما لا يُسأَلُ عنهُ، وإنما الشّقيُّ مَن لا يَعْرِفُ الأُمورَ ولا أحوالَ النّاسِ ولا يقْدرُ على دفْعِ الشرّ عن نفْسهِ ولا يسْتطيعُ ذلك. قالتْ أمُّ الأسدِ: أتظُنُّ أيُّها الْغادرُ المُحْتالُ بقوْلكَ هذا أنَّكَ تخْدَعُ الملكَ ولا يَسْجُنُكَ. قال دمنةُ: الْغادرُ هو الذي لا يأمَنُ عدُوّهُ مكْرَهُ وإذا اسْتمكَنَ منْ عدُوّهِ قتَلهُ على غيرِ ذنْبٍ، قالتْ أمُّ

(١) القِحَة: الوقاحة.
(٢) زوَت: نحت وأبعدت.
(٣) السرجين: الزبل ومثله السرقين.

الأسدِ: أيها الْغادرُ الكَذُوبُ أتظُنُّ أنّكَ ناجٍ منْ عاقبَة كذِبِكَ وإنّ محالَكَ هذا ينَفَعُكَ مع عِظَمِ جُرْمِكَ، قال دمنةُ: الكَذُوبُ هو الذي يقُولُ ما لمْ يكُنْ ويأتي بما لم يُقَلْ ولم يُفْعَلْ وكلامي حقٌّ مُبينٌ، قالتْ أمُّ الأسد: العُلماءُ منكم منْ قَضَى حاجتَهُ فيه، ثم نَهضَتْ فخرجتْ، فدَفع الأسدُ دمنةَ إلى الْقاضي فأمرَ الْقاضي بحبسهِ فأُلْقي في عُنقُه حَبلٌ وانْطُلِقَ بهِ إلى السّجْن.

فلمّا انْتصَفَ اللَّيلُ أُخبرَ كليلةُ أنّ دمنةَ في الحبْس فأتاهُ مُسْتخْفياً فلمَّا رآهُ وما هُو عليه منْ ضِيق الْقُيُود وحرَجِ المكانِ بكى وقال لهُ: ما وصلْتَ إلى ما وصَلْتَ إليه إلاّ لاسْتِعْمَالِكَ الخديعة والمكْرَ، وإضْرابِكَ عن الْعِظةِ، ولكنْ لم يكنْ لي بُدٌّ فيما مضَى منْ إنْذارِكَ والنَّصيحةِ لكَ والمُسارعةِ إليْكَ في خُلُوصِ الرَّغْبةِ فيكَ، فإنه لكلِّ مَقام مقالٌ، ولكلِّ موْضعٍ مَجَالٌ، ولوْ كنتُ قصَّرْتُ في عِظَتكَ حين كنتَ في عافيةٍ لكنْتُ الْيومَ شَريكَكَ في ذنْبِكَ، غيرَ أنَّ العُجْبَ دخلَ منكَ مدْخَلاً قهَرَ رأيكَ وغلَب على عقْلِكَ، وكنتُ أضْرِبُ لك الأمْثال كثيراً وأُذَكِّرُكَ قوْلَ العلماءِ، وقدْ قالتِ العلماءُ: إنّ المُحْتالَ يموتُ قبْل أجَلهِ، قال دمنةُ: قد عرَفْتُ صِدْق مقالتِكَ، وقد قالتِ العلماءُ: لا تجْزَعْ من العذاب إذا وقعتْ منكَ خَطيئة، ولَأنْ تُعذَّبَ في الدُّنْيا بجُرْمِكَ خيرٌ مِنْ أن تُعذَّبَ في الآخرةِ بجهنمَ مع الإثم. قال كليلةُ: قدْ فَهِمتُ كلامَكَ ولكنَّ ذنْبَكَ عظيمٌ وعقابَ الأسدِ شديدٌ ألَيمٌ، وكان بقُرْبهما في السجْنِ فَهْدٌ مُعْتقَل يَسْمَعُ كلامَهُما ولا يَريَانهِ، فعرَفَ مُعاتبةَ كليلةَ لدمنةَ على سُوءِ فعلهِ، وما كان منهُ، وأنَّ دمنةَ مُقِرٌّ بسُوءِ عملهِ وعظيمِ ذنْبهِ فحفِظَ المُحاورةَ بينهما وكتمَها ليَشْهَد بها إنْ سُئلَ عنها، ثمّ إنّ كليلةَ انصرفَ إلى منزلهِ ودخلتْ أمُّ الأسدِ حينَ أصْبَحتْ على الأسد فقالتْ لهُ: يا سيِّدَ الوُحُوشِ! حُوشِيتَ[1] أنْ تَنسَى ما قُلتَ بالأمْسِ، وإنّكَ أمَرْتَ به لوقْتهِ

(١) حوشيت من حاشاك: نزهت.

وأرْضيْتَ به ربَّ العِباد، وقدْ قالتِ العُلماءُ لا ينْبغي للإنْسانِ أنْ يتولَّى في الجِدِّ للتَّقْوَى، بلْ لا ينبغي أنْ يُدافِعَ عن ذنْبِ الأثيمِ. فلما سمعَ الأسدُ كلامَ أمّهِ أمَرَ أنْ يَحْضُرَ النَّمِرُ وهو صاحبُ القَضاءِ، فلما حضَرَ قال لهُ وللجَوَّاسِ[1] العادِلِ: اجْلِسَا في موْضعِ الحُكمِ ونادِيَا في الجُنْدِ صغيرِهِمْ وكبيرِهِمْ أنْ يحضُرُوا وينظُرُوا في حالِ دمنةَ ويبْحَثُوا عن شأنِهِ ويفْحَصُوا عن ذنْبِهِ ويُثبِتُوا قولَهُ وعُذْرَهُ في كتُبِ القضاءِ وارْفَعا إليّ ذلكَ يوْماً فيوْماً. فلما سمعَ النمِرُ ذلكَ والجَوَّاسُ العادلُ، وكانَ هذا الجَوَّاسُ عمَّ الأسدِ قالاَ: سمْعاً وطاعةً لِمَا أمرَ الملكُ. وخَرَجا من عِنْدِه فعمِلا بمقتضَى ما أمرَهما به حتى إذا مضَى من اليَوْمِ الذي جلَسُوا فيه ثلاثُ ساعاتٍ أمرَ القاضِي أن يؤْتَى بدمنةَ فأُتيَ به فأوقِفَ بينَ يديْه والجماعةُ حُضورٌ.

فلما ٱستقَرَّ به المكانُ نادَى سيّدُ الجمْعِ بأعْلى صوْتِه: أيُّها الجمْعُ إنكم علِمتمْ أنَّ سيدَ السّباعِ لم يزَلْ مُنذُ قَتلَ شترَبةَ خاثِرَ[2] النفْس، كثيرَ الهمّ والحُزْنِ، يرَى أنهُ قدْ قتلَ شترَبةَ بغيرِ ذنبٍ وأنهُ أخذَهُ بكَذِبِ دمنةَ ونميمتِهِ، وهذا القاضي قدْ أُمِرَ أنْ يجلِسَ مجلسَ القضاءِ ويَبْحثَ عن شأنِ دمنةَ، فمنْ علِمَ منكم شيئاً في أمرِ دمنةَ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ فلْيقُلْ ذلك ولْيتكلَّمْ به على رؤوسِ الجمعِ والأشْهادُ ليكونَ القَضاءُ في أمرِهِ بحسبِ ذلكَ، فإذا استوْجَبَ القتْلَ فالتثبُّتُ في أمرِه أوْلى، والعجَلةُ من الهوَى[3]، ومُتابعة الأصْحابِ على الباطِل ذُلٌّ.

فعندَها قال القاضي: أيها الجمعُ اسْمَعُوا قوْلَ سيّدِكمُ ولا تكتُمُوا ما عرفْتمْ منْ أمرِهِ، واحْذَرُوا في السَّترِ عليهِ ثلاثَ خِصالٍ:

(١) الجَوَّاس: الأسد.
(٢) خاثر النفس: منقبضها.
(٣) الهوى: ميل النفس الذميم.

أما إِحداهُنَّ وهيَ أفْضلهنَّ: فلا تَزْدَرُوا فِعلَهُ ولا تَعدُّوهُ يسيراً فمنْ أعْظَمِ الخَطايا قتْلُ البريءَ الذي لا ذَنبَ لهُ بالكذِبِ والنميمةِ، ومَنْ علِمَ منْ أمرِ هذا الكَذّابِ الذي اتهمَ البريءَ بكَذِبهِ ونميمتهِ شيئاً فستَرَ عليه فهو شَريكُهُ في الإثم والعُقوبةِ.

والثانيةُ: إذا اعترَفَ المُذْنبُ بذَنْبه كان أَسْلَمَ لهُ، والأحْرَى بالملكِ وجُنْدِه أنْ يَعْفُوا عنهُ ويَصفَحُوا.

والثالثةُ: ترْكُ مُراعاةِ أهْلِ الذَّمِّ والفجُورِ، وقطْعُ أسبابِ صلاتِهِمْ ومَودَّتِهِمْ عن الخاصَّةِ والعامَّةِ، فمنْ عَلِمَ منْ هذا المُحتالِ شيْئاً فلْيتكلَّمْ بهِ على رؤُوسِ الأشهادِ ممنْ حضَرَ ليكونَ ذلكَ حُجَّةً عليه، وقد قيلَ إنهُ منْ كتمَ شهادَةَ ميّتٍ أُلْجِمَ بِلجامٍ من نارٍ يومَ القيامةِ، فلْيقلْ كلُّ واحدٍ منكُم ما عَلِمَ، فلما سمعَ ذلك الجمْعُ كلامَهُ أمْسَكُوا عن القوْلِ، فقال دمنةُ: ما يُسكِتُكمُ تكلموا بما عَلمتمْ واعلَموا أنَّ لكلِّ كلمةٍ جواباً وقدْ قالتِ العُلماءُ: مَنْ يَشْهَدْ بما لم يرَ ويقولُ ما لاَ يَعلمْ أصابَهُ ما أصابَ الطَّبيبَ الذي قال لِمَا لاَ يَعلمُه إِني أعلمُهُ. قالتِ الجماعة: وكيف كان ذلك؟

[الجهل يؤدي إلى التهلكة]

قال دِمْنَةُ: زعمُوا أَنَّهُ كانَ في بعْضِ المُدُنِ طبيبٌ له رفْقٌ[1] وَعِلْمٌ، وكانَ ذَا فِطْنةٍ فِيما يَجْرِي على يَدِهِ مِنَ المُعالَجاتِ فكَبِرَ ذلكَ الطَّبيب وضعُفَ بصَرُهُ، وكانَ لِمَلِكِ المَدينةِ ابْنةٌ قدْ زَوَّجَها لابْنِ أخٍ له فعرَضَ لها ما يَعْرُضُ لِلْحوامِلِ منَ الأوجاعِ فجيءَ بهذا الطَّبيبِ، فلمَّا حضَرَ سأل الجاريةَ عنْ وَجعِها وما تجدُ فأخبرَتْهُ فعرَفَ داءَها ودَواءَها وقالَ: لو كنْتُ أُبصرُ لَجَمَعْتُ الأخْلاَطَ[2] على مَعْرِفَتي بأجْناسِها ولا أثِقُ في ذلك بأحدٍ غيري.

(١) رفق: من رفق العمل إذا أحكمه.

(٢) الأخلاط: الأشياء المختلفة من أنواع شتى.

وكانَ في المدينةِ رجُلٌ جاهِلٌ بلَغَهُ الخبرُ فأتاهُمْ وادَّعى عِلْمَ الطِّبِّ وأعْلَمَهُمْ أنَّهُ خَبيرٌ بِمَعْرِفَةِ أخلاطِ الأدوِيَةِ والعقاقير وعارِفٌ بطبائعِ الأدْوِيَةِ المُرَكَّبَةِ والمُفْرَدَةِ. فأمرَ المَلكُ أنْ يدخُلَ خِزَانة الأدْوِيَةِ ولا عِلْمَ له بهِ ولا مَعْرِفَةَ عنْدَهُ بجنْسِهِ. فلمَّا تمتْ أخْلاَطُ الأدويَةَ سقَى الجاريَةَ منْهُ فماتتْ لوقتِها. فلمَّا عَرَفَ المَلك ذلكَ دعى بالجاهِلِ فسقاهُ منْ ذلكَ الدَّواءِ فماتَ منْ ساعتِهِ.

وإنما ضَرَبتُ لكُمْ هذا المثَلَ لِتَعلَمُوا ما يَدْخُلُ على القائِلِ والْعامِلِ مِنَ الزَّلَّةِ بالشُّبْهَةِ في الخرُوجِ عنِ الْحَدِّ. فمنْ خرَجَ منكُمْ عن حَدِّه أصابَهُ ما أصابَ ذلك الجاهِلَ ونَفْسُهُ المَلُومَةُ وقد قالت العلماءُ: ربُما جُزِيَ المُتَكلِّمُ بقولِهِ، والكلامُ بيْنَ أيديكُمْ فانظُرُوا لأنْفسكمْ. فَتكلَّمَ سيّدُ الْخَنَازيرِ لإدلالِهِ وتِيهِهِ بِمَنْزِلتِهِ عنْدَ الأسدِ. فقالَ: يا أهْلَ الشَّرَفِ مِنَ العُلماءِ! اسمعُوا مقالتِي وعُوا بِأحْلاَمكُمْ كلامي، فالعُلماءُ قالوا في شأنِ الصَّالِحِينَ: إنهُمْ يُعْرَفُونَ بِسيماهُمْ[1]، وأنْتُمْ معاشِرَ ذَوِي الاقْتِدار بِحُسْنِ صُنْعِ الله لكُمْ وتمامِ نعمَتِهِ عليكم تعْرِفُونَ الصَّالِحِينَ بِسيماهُمْ وَصُوَرِهمْ، وتَخْبُرُونَ[2] الشَّيْءِ الكَبيرَ بالشَّيْءِ الصَّغِيرِ، وهٰهُنا أشياءُ كثيرةٌ تَدُلّ على هذا الشَّقيِّ دِمنَة وتُخْبِرُ عن شَرِّه فاطلُبُوها على ظاهرِ جسْمِهِ لِتَسْتيقِنُوا وتَسْكُنُوا إلى ذلكَ. قال الْقاضي لِسيِّدِ الْخنازيرِ: قدْ علِمْتُ وعَلِمَ الجماعةُ الحاضرُونَ أنَّكَ عارفٌ بما في الصُّوَرِ منْ علاَماتِ السُّوءِ فَفَسِّرْ لنا ما تَقولُ وأطْلِعْنا على ما تَرَى في صُورَةِ هذا الشَّقيِّ. فأخذَ سَيدُ الخنازيرِ يَذُمُّ دمنةَ وقال: إنَّ العلماءَ قد كتَبُوا وأخْبَرُوا أنَّهُ مَنْ كانَتْ عَيْنُهُ الْيُسْرَى أصْغَرَ مِنْ عينهِ اليُمنَى وهيَ لا تَزَالُ تختَلجُ وكان أنْفُهُ مائلاً إلى جنبِه الأيمنِ، فهوَ شَقِيٌّ خَبِيثٌ جامعٌ للخِبِّ والفُجُورِ، فلمَّا سمِعَ

(١) السيماء: العلامة.

(٢) تخبرون: تقارنون.

دِمنةُ ذلك قال: وما مَثَلُكَ إلاّ مثَلُ رجُلٍ قال لاِمْرَأتِه: انظُري إلى عُرْيكِ وبعدَ ذلكَ انظُرِي إلى عُرْيِ غيرِكِ. قيل لهُ: وكيْفَ كان ذلك؟

قال دِمْنةُ: زَعمُوا أنَّ مدِينةً أغارَ عليها العَدُوُّ فقتَلَ وسَبَى وغَنِمَ وانْطلقَ إلى بلادِه، فاتَّفقَ أنهُ كانَ معَ جُنْدِيٍّ ممَّا وقعَ في قسمتهِ رجُلٌ حَرَّاثٌ ومعهُ امرَأتانِ لهُ، وكان هذا الجُنديُّ يُسيءُ إليهِمْ في الطعامِ واللِباسِ، فذهَبَ الحَرَّاث ذاتِ يوْمٍ ومعَهُ امْرأتان يحتَطِبون للجُنْدِيِّ وهمْ عُراةٌ، فأصابَتْ إحدَى المرْأتيْنِ في طريقِها خِرْقةً باليةً فوَضعَتْها على سَوْأتِها[1] ثم قالتْ لزوْجها مُشيرَةً إلى ضُرَّتِها: ألاَ تنظُر إلى هذهِ الفاعلةِ كيْفَ لا تَسْتحي وتستُرْ عوْرتَها. قال لها زوْجُها: لو بدأتِ بالنظَرِ إلى نفْسِكَ وأنَّ جِسمَكِ كلَّهُ عار لمَا عَيَّرْتِ صاحبَتَكَ بما هو بِعَيْنِهِ فيكِ.

وشأنكَ عَجَبٌ أيُّها القَذِرُ ذُو العلاماتِ الْفاضِحةِ القبيحةِ، ثم العَجَبُ منْ جُرْأتِكَ على طَعامِ الملكِ وقيامكَ بينَ يديه معَ ما بجسْمِكَ منَ القذَرِ والقُبْحِ ومعْ ما تعرِفُه أنتَ ويعرفُه غيرُكَ منْ عيُوبِ نفْسِكَ، أفتتكلَّمُ في النَّقيِّ الجسْمِ الذي لا عيْبَ فيه، ولسْتُ أنا وحْدِي أطلعُ على عيْبِكَ لكِنَّ جميعَ مَنْ حضَرَ قدْ عرَفَ ذلكَ، وقد كانَ يَحْجُزْني عنْ إظهارِهِ ما بيني وبينَكَ منَ الصَّداقةِ، فأمَّا إذْ قدْ كَذَبْت عليَّ وبهَتَّني[2] في وَجهي وقمتَ بعَداوتي فقلتَ ما قلْتَ فيَّ بغيرِ علمٍ وعلى رُؤُوسِ الحاضرينَ فإني أقتصِرُ على إظْهارِ ما أعرِفُ منْ عيُوبِكَ وتَعرِفُهُ الجماعةُ وحَقٌّ على مَنْ عرَفَكَ حقَّ معرفتِكَ أنْ يمنَعَ المَلِكَ منِ اسْتعمالهِ إياكَ على طَعامِه، فلوْ كُلِّفْتَ أنْ تَعمَلَ الزِّراعةَ لكُنْتَ جَديراً بالخِذْلانِ فيها، فالأحْرَى بكَ ألاَّ تَدْنُو إلى عَمَلٍ من الأعمالِ وألاَّ تكُونَ دَبَّاغاً ولاَ حَجَّاماً لِعامّيٍّ فضلاً عنْ خاصِّ خِدْمةِ الملكِ. قال سيِّدُ

(١) السوأة: العورة.
(٢) بهتني: من بهته أخبر عنه ما لم يفعله.

الخَنازِيرِ: أَلِي تقُولُ هذه المَقالةَ وتَلْقاني بهذا المَلْقَى.

قال دمنةُ: نعمْ وحَقًّا قلتُ فيكَ وإِيّاكَ أعْني أيها الأعرَجُ المَكسورُ، الذي في استهِ النَّاسُورُ[١]، الأفْدَعُ الرِّجْلِ[٢]، المنْفوخُ البطنِ، المُدَلَّى الخِصْيتيْنِ. الأفلَجُ[٣] الشَّفَتَيْنِ، السَّيِّىءُ المَنظَرِ والمَخْبَرِ. فلما قال دمنة ذلك تَغيَّرَ وجْهُ سيِّد الخنازيرِ واسْتعبرَ[٤] واسْتحَى وتَلجلَجَ لسانُه واسْتكانَ[٥] وفترَ نَشاطُهُ، فقال دمنةُ حينَ رَأى انكِسارَهُ وبُكاءَهُ: إنما ينبغي أنْ يطُولَ بُكاؤُكَ إذا اطَّلَعَ المَلِكُ على قَذَرِكَ وعُيوبِكَ فعزَلَكَ عنْ طَعامِهِ وحالَ بينَكَ وبينَ خِدْمتِهِ وأبعدَكَ عنْ حضرتِه، ثم إنَّ شَعْهَراً كان الأسدُ قدْ جرَّبَهُ فوجدَ فيه أمانةً وصِدْقاً فرَتَّبَهُ في خدْمتِهِ وأمرَهُ أنْ يَحْفَظَ ما يَجري بينهمْ ويُطْلِعَهُ عليه، فقام الشَّعْهَرُ فدخَلَ على الأسد فحدَّثَهُ بالحديث كلِّهِ على جَلِيَّتِهِ، فأمرَ الأسدُ بعَزْلِ سيِّد الخَنازيرِ عنْ عَمَلِهِ وأمرَ أنْ لا يَدْخُلَ عليهِ ولا يَرى وجهَهُ وأمرَ بدِمنةَ أنْ يُرَدَّ إلى السِّجنِ وقدْ مضَى منَ النهارِ أكثرُهُ، وجميعُ ما جَرَى وقالوا وقالَ قدْ كُتِبَ وخُتِمَ عليهِ بخاتَمِ النمرِ ورَجَعَ كلُّ واحدٍ منهمْ إلى منزلِهِ.

ثمَّ إنّ شَعْهَراً ويقالُ لهُ رَوْزَبَةُ كان بينهُ وبينَ كليلةَ إخاءٌ ومَوَدَّةٌ وكانَ عندَ الأسدِ وجيهاً وعليهِ كريماً، واتَّفَقَ أنَّ كليلةَ أخذَهُ الوَجْدُ إشْفاقاً وحذَراً على نفْسهِ وأخيهِ فمَرِضَ وماتَ، فانطلَقَ هذا الشَّعْهَرُ إلى دِمْنةَ فأخبرَهُ بموْتِ كليلةَ فبَكَى وحَزِنَ وقال: ما أصنَعُ بالدُّنيا بعدَ مفارقةِ الأخِ الصَّفِيِّ[٦] ولكنْ أحمَدُ الله تعالى إذْ لَمْ يَمُتْ كليلةُ حتى أبقى لي منْ ذَوي قرابتي أخاً مِثلكَ،

---

(١) الاست: العجز.
(٢) الفدع: اعوجاج الرسغ من اليد والرجل.
(٣) أفلج الشفتين: مشقوقهما.
(٤) استعبر: بكى.
(٥) استكان: خنع.
(٦) الصفي: الصادق.

فإني قد وَثِقْتُ بنعمةِ الله تعالى وإحسانه إليَّ فيما رأيْتُ منْ اهتمامِكَ بي ومُرَاعاتِكَ لِي وقد عَلمتُ أنكَ رَجائِي ورُكني[١] فيما أنا فيهِ، فأُريدُ منْ إنْعامِكَ أن تَنْطلِقَ إلى مكانِ كذا فتَنْظُرَ إلى ما جَمعتُهُ أنا وأخي بحيلتِنا وسَعْينا ومَشيئةِ الله تعالى فتأتيني بهِ، ففعَلَ الشَّعْهَرُ ما أمرَهُ به دِمنةُ، فلما وضَعَ المالَ بين يديْهِ أعطاهُ شَطْرَهُ وقالَ لهُ إنكَ على الدُّخولِ والخرُوجِ على الأسدِ أقدَرُ منْ غيرِكَ فتَفرَّغْ لشأني واصْرِفْ اهتمامَكَ إليَّ واسْمَعْ ما أذكرُ بهِ عندَ الأسدِ إذا رُفِعَ إليهِ ما يَجري بيني وبينَ الخُصومِ وما يَبْدُو من أمِّ الأسدِ في حقي وما تَرَى منْ مُتابعةِ الأسدِ لها ومخالفتهِ إيَّاها في أمري واحفظْ ذلكَ كلَّهُ. فأخذ الشّعْهَرُ ما أعطاهُ دمنةُ وانصَرَفَ عنهُ على هذا العَهْدِ فانطلقَ إلى منزلهِ فوَضعَ المالَ فيهِ.

ثمَّ إن الأسدَ بَكّرَ منَ الغدِ فجلسَ حتى إذا مَضَى منَ النّهارِ ساعتَانِ اسْتأذنَ عليهِ أصْحابُهُ في الدُّخول فأذِنَ لهمْ فدَخَلُوا عليهِ ووضَعوا الكتابَ بيْنَ يدَيْهِ، فلما عَرَفَ قَولَهمْ وقوْلَ دِمْنةَ دعا بأُمِّهِ فقرَأَ عليها ذلكَ، فلمّا سَمِعَتْ ما في الكتابِ نادَتْ بأعلَى صَوْتِها: إنْ أنا أغْلظْتُ في القوْلِ فلا تَلمني فإنكَ لسْتَ تعْرِفُ ضَرَّكَ من نَفْعِكَ. أليْسَ هذا مِمَّا كنتُ أنهاكَ عنْ سَماعِهِ لأنهُ كلامُ هذا المُجرِمِ المُسيءِ إلينا الغادِرِ بذِمَّتنا. ثم إنها خرَجتْ مُغْضَبَةً وذلك بعينِ الشَّعْهَرِ الذي آخاهُ دِمنةُ وبسَمْعهِ فخرجَ في إثْرِها مُسرِعاً حتى أتى دِمنةَ فحدَّثَهُ بالحديثِ. فبينما هوَ عندَهُ إذ جاءَ فَيْجٌ[٢] فانطلقَ بدِمنةَ إلى المَجْمَعِ عندَ القاضي.

فلما مَثَلَ بينَ يَدَيِ القاضي اسْتَفتَحَ سيِّدُ المجلسِ فقال: يا دمنةُ قدْ أنبأني عنْ خبَرِكَ الأمينُ الصَّادقُ وليسَ ينبغي لنا أنْ نَفْحَصَ عنْ شأنِكَ أكثرَ

(١) ركني: عضدي.

(٢) الفيج: هو الذي يدخل السجن ويخرج ويحرس.

منْ هذا لأنَّ العلماءَ قالوا: إنَّ الله تعالى جعَلَ الدنْيا سبَباً ومِصْدَاقاً للآخرةِ لأنها دارُ الرُّسُلِ والأنبياءِ الدَّالِّينَ على الخيرِ الهَادِينَ إلى الجَنةِ الدَّاعينَ إلى معرفةِ الله تعالى، وقدْ ثبَتَ شأنُكَ عندَنا وأخبرَنا عنْكَ مَنْ وَثِقْنا بقوْلِهِ، إلاَّ أنَّ سيِّدَنا أمرَنا بالعَوْده إلى أمْرِكَ والفَحصِ عنْ شأنِكَ وإنْ كانَ عِنْدَنا ظاهراً بَيِّناً. قال دِمنةُ: أراكَ أيها القاضي لمْ تَتعوَّدِ العدْلَ في القضاءِ، وليسَ في عَدْلِ الملُوكِ دَفْعُ المظلومينَ ومَنْ لا ذَنْبَ لهُ إلى قاضٍ غيرِ عادل بَلِ المُخاصَمَةُ لهمْ والذَّوْدُ عنْ حقُوقهمْ، فكيْفَ تَرَى أنْ أُقْتَلَ ولمْ أُخاصَمْ وتُعَجِّلَ ذلكَ موافَقةً لهواكَ ولمْ تَمض بعدُ ثلاثةُ أيامٍ، ولكنْ صَدَقَ الذِي قالَ: إنَّ الذي تَعَوَّدَ عمَلَ البِرِّ هيِّنٌ عليهِ عَمَلُهُ وإنْ أضرَّ بهِ.

قال القاضي: إنا نجدُ في كتُبِ الأوَّلينَ أنَّ القاضيَ العدْلَ ينبغي لهُ أنْ يَعْرِفَ عَمَلَ المُحْسِنِ والمُسيءِ لِيُجازِيَ المحسنَ بإحْسانِهِ والمسيءَ بإساءتِه، فإذا ذَهَبَ إلى هذا ازْدَادَ المُحسنونَ حِرْصاً على الإحْسانِ والمُسيئونَ اجْتِناباً للذُّنوبِ، والرَّأيُ لكَ يا دمنةُ أنْ تَنظُرَ الذي وقَعتَ فيهِ وتَعْترِفَ بذنْبِكَ، وتُقِرَّ بهِ وتَتُوبَ، فأجابهُ دِمنةُ: إنَّ صالِحي القُضَاةِ لا يَقطعون بالظنِّ ولا يَعْمَلونَ بهِ لا في الخاصَّةِ ولا في العامَّةِ لِعِلْمِهمْ أنَّ الظَّن لا يُغني منَ الحَقِّ شيئاً، وأنتمْ إنْ ظَننتمْ أني مُجرمٌ فيما فعَلْتُ فإني أعلمُ بنفسي منكمْ وعِلْمي بنفسي يَقينٌ لا شكّ فيهِ وعِلْمُكُمْ بي غايةُ الشَّكِّ، وإنما قُبْحُ أمرِي عِنْدَكُمْ أني سعَيْتُ بغيري[١] فما عُذْرِي عندكم إذا سعَيْتُ بنفسِي كاذِباً عليها فأسْلَمْتُها إلى القتْلِ والعَطَبِ على معرفةٍ مني ببرَاءَتي وسلاَمتِي ممَّا قُرِفْتُ بهِ[٢] ونفسي أعظَمُ الأنْفسِ عليَّ حُرْمةً وأوْجبُها حقًّا، فلوْ فَعلْتُ هذا بأقْصاكُمْ وأدْناكُمْ لِمَا وسِعَني[٣] في دِيني ولا حَسُنَ بي في مُرُوءَتِي ولا حُقَّ لي أنْ أفْعلهُ

(١) سعيت بغيري: أي وشيت به.

(٢) قُرِفْت: أي اتهمت.

(٣) لما وسعني: أي لما جاز لي.

فكيْفَ أفْعلُهُ بنَفْسِي؟ فاكْفُفْ أيها القاضي عنْ هذهِ المقالةِ فإنها إنْ كانتْ منكَ نصيحةً فقدْ أخْطأتَ موْضِعَها، وإنْ كانتْ خديعةً فإنَّ أقبحَ الخِدَاعِ ما نَظَرْتَهُ وعَرَفتَهُ منْ غيرِ أهلِهِ، معَ أنَّ الخِداعَ والمكرَ ليْسَا من أعمالِ صالِحي القُضاةِ ولا ثِقاتِ الوُلاةِ.

واعلمْ أنَّ قولَكَ ممَّا يَتَّخذُهُ الجُهَّالُ والأشرارُ سُنَّةً يَقتَدُونَ بها لأنَّ أمورَ القضاءِ يأخُذُ بصوابِها أهلُ الصَّوابِ، وبخَطَئِها أهلُ الخطإِ والباطل والقليلُو الورَعِ وأنا خَائفٌ عليك أيها القاضي منْ مَقالَتِكَ هذهِ أعظمَ الرَّزايا والبَلايا، وليسَ من البلاءِ والمصيبةِ أنكَ لمْ تزَلْ في نفْسِ الملكِ والجُندِ والخاصةِ والعامّةِ فاضلاً في رأيِكَ مُقْنِعاً في عذْلِكَ مَرْضِيًّا في حُكمِكَ وعَفافِكَ وفضلِكَ، وإنما البلاءُ كيف أُنسِيتَ ذلك في أمري، أوَ ما بلَغَكَ عن العُلماءِ أنهمْ قالوا: مَنِ ادَّعَى عِلْمَ ما لا يعلَمُ وشهِدَ على الغيبِ أصابهُ ما أصابَ البازِيارَ[1] القاذف زوْجةَ مولاهُ. قال القاضي: وكيف كان ذلكَ؟

[حكاية البازيار والببغاءيْن]

قال دمنةُ: زَعَموا أنهُ كان في بعض المدُنِ رجلٌ منَ المَرَازِبَةِ[2] مذْكورٌ، وكانتْ لهُ امرأةٌ ذاتُ جَمالٍ وعَفافٍ وكان للرَّجُلِ بازِيارٌ ماهرٌ خبيرٌ بعِلاجِ البُزاةِ وسياستِها، وكان هذا البازِيارُ عندَ هذا الرجُلِ بمكانِ خليلٍ بحيثُ إنهُ أدخلَهُ دارَهُ وأجلَسَه مع حَرمَهِ فاتَّفَقَ أنَّ البازيارَ رَاوَدَ زوجةَ مولاهُ عنْ نفسِها فأبَتْ عليهِ وتَسَخَّطَتْ لذلكَ وتَمَعَّرَ[3] وجهُها واحْمَرَّتْ خجَلاً وزادَ امتناعُها عليهِ وحرَصَ عليها كلَّ الحِرْصِ وعَمِلَ الحيلةَ في بلوغِ غرَضِه منها وضاقتْ عليهِ أبوابُ الحِيَل فخرَجَ يوماً إلى الصَّيْدِ على عادتِه فأصابَ فَرْخَيْ

(١) البازيار: معرّبة مربي البازي وجمعه بزاة.
(٢) المرازبة ج مرزبان: وهو رئيس الفرس.
(٣) تمعَّر وجهه: تغيَّر من شدة الغيظ.

بَبْغاءَ فأخذُهما وجاء بهما إلى منزلِهِ، فلما كَبِرَا فَرَّقَ بينَهُما وجعَلهُما في قَفَصيْنِ وعلَّمَ أحدَهما أنْ يقولَ: رأيتُ منْ مولاتي ما يُخِلُّ بالعَفَافِ، وعلَّمَ الآخرَ أن يقولَ: أمَّا أنا فلا أقولُ شيئاً. ثمَّ أدَّبَهُما على ذلكَ حتى أتْقناهُ وحذَقَاهُ في ستة أشهُرٍ، فلما بلَغَ الذي أرادَ منهما حَملَهُما إلى مولاهُ فلمَّا رآهما أعْجَباهُ ونطَقا بين يديهِ فأطرَباهُ، إلا أنهُ لمْ يَعلَمْ ما يقولانِ لأنَّ الْبازِيَارَ كانَ قدْ علَّمَهُما بلُغَةِ البَلْخِيِّينَ.

وإنّ المَرْزُبانَ أُعْجِبَ منهما إعْجاباً شديداً وحَظِيَ البازيارُ عندهُ بذلكَ حُظْوَةً كريمةً فأمرَ امرأتَهُ بالاحْتِياطِ عليهما والمراعاةِ لهما ففَعَلتِ المرأةُ ذلكَ، فاتفقَ أنهُ بعدَ مدةٍ قَدِمَ على الرَّجُلِ قوْمٌ منْ عُظَماءَ بَلْخَ فتأنَّقَ لهم في الطعامِ والشرابِ وجمَعَ منْ أصنافِ الفواكهِ والتُّحَفِ شيئاً كثيراً وحضَرَ القومُ، فلمَّا فرَغوا من الطعامِ وشرَعوا في الحديثِ أشارَ المَرْزُبانُ إلى البازيارِ أن يأتيَ البَبَغاءَيْنِ فأحضَرَهُما، فلما وُضِعَتا بين يديْهِ صاحَتَا بما كانتَا عُلِّمَتاهُ فعرَفَ أُولئك العظماءُ ما قالتَا فنَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ ونكَسُوا رؤُوسَهم حَياءً وخَجَلاً فسألهمُ الرَّجلُ عمَّا تقولانِ، فامتنَعُوا أنْ يقولوا ما قالتا فألحَّ عليهمْ وأكثرَ السؤالَ عما قالَتا، فقالوا: إنما تقولانِ كذا وكذا وليسَ منْ شأنِنا أنْ نأكلَ منْ بيْتٍ يُعْمَلُ فيهِ الفُجُورُ. فلمّا قالوا ذلكَ سألهمُ الرَّجُلُ أنْ يكلِّمُوهما بلِسانِ البَلْخيَّةِ بغيرِ ما نَطقَتَا به ففعَلوا ذلكَ فلمْ يَجِدوهُما تَعْرِفانِ غيرَ ما تَكلَّمَتا به وبَانَ لهمْ وللجماعةِ حَصانةُ المرأةِ وبَراءتُها ممَّا رُمِيَتْ بهِ ووَضَحَ كِذْبُ الْبازِيارِ. فأمرَ البازيَارِ أنْ يَدْخُلَ عليهِ وكانَ على يدَيْهِ بازٌ أشْهَبُ(١) فصاحتْ بهِ امرأةُ المَرْزُبَانِ منْ داخِلِ البيتِ: أيُّها العَدُوُّ لنِفْسهِ أنتَ رأيتَني على ما ذكَرْتَ وعَلَّمْتَ بهِ البَبْغاءَيْنِ؟ قال: نعمْ. أنا رأيتُكِ على مِثْلِ ما تقولانِ، فوثَبَ البازِي إلى وجههِ ففَقأ عينَهُ

(١) الأشهب: من الألوان ما غلب بياضه على سواده.

بِمَخالبِه فقالتِ المرأةُ: بحقٍّ أصابَكَ هذا إنهُ لجَزاءٌ منَ الله تعالى لشَهادتِكَ بما لمْ تَرَهُ عينُكَ.

وإنما ضربتُ لكَ هذا المثَلَ أيها القاضي لتزدادَ علْماً بوَخامَةِ عاقبةِ الشهادَة بالكَذِبِ في الدنيا والآخرةِ. فلما سَمِعَ القاضي ذلكَ منْ لفظِ دِمنةَ نهَضَ فرفَعَهُ إلى الأسدِ على وجهه[1] فنظَرَ فيه الأسدُ ثم دعا أُمَّهُ فعرَضَهُ عليها فقالتْ حينَ تدَبَّرَتْ كلامَ دمنةَ للأسدِ: لقدْ صارَ اهتمامي بما أتَخَوَّفُ منْ احتيالِ دمنةَ لكَ بمَكْرِهِ ودَهائهِ حتى يَقْتُلَكَ أَوْ يُفْسِدَ عليكَ أَمرَكَ أعظمَ منِ اهتمامِي بما سَلَفَ منْ ذنْبِهِ إليكَ في الغِشِّ والسِّعايَةِ حتى قتَلْتَ صديقَكَ بغيرِ ذنْبٍ. فوقَعَ قولُها في نفسِه فقال لها: أخبريني عنِ الذي أخبرَكِ عنْ دمنةَ بما أخبرَكِ فيكونَ حُجَّةً لي في قتلِ دِمنةَ. قالتْ: لأَكرَهُ أن أفشِيَ سِرَّ منِ اسْتكْتَمَنِيهِ، فلا يَهنِئُني سروري بقتلِ دمنةَ إذا تذكَّرْتُ أني استَظْهَرْتُ عليهِ برُكوبِ ما نهَتْ عنهُ العلماءُ منْ كشْفِ السِّرِّ، ولكنِّي أُطالبُ الذي استوْدَعَنيهِ أنْ يُحالِلَني منْ ذِكْرِهِ لكَ ويقومَ هو بعلمِه وما سَمعَ منه، ثمّ انصرَفَتْ وأرسلَتْ إلى النَّمِرِ وذَكَرتْ له ما يَحِقُّ عليهِ من التزْيينِ للأسدِ وحُسْنِ مُعاونتهِ على الحقِّ وإخراجِ نفسهِ من الشهادةِ التي لا يكتمُها مثلُهُ مع ما يَحِقُّ عليهِ منْ نصْرِ المظلومينَ وتثبيتِ حُجّةِ الحقِّ في الحياةِ والمماتِ، فإنّ العلماءَ قدْ قالتْ: من كتَمَ حُجَّةَ ميِّتٍ أخطأ حُجتَهُ يومَ القيامةِ، فلمْ تَزَلْ به حتى قامَ فدَخلَ على الأسدِ فشهِدَ عندَهُ بما سَمعَ منْ إقرارِ دِمنةَ.

فلما شَهِدَ النَّمِرُ بذلكَ أرسلَ الفَهْدُ المسجونُ الذي سَمِعَ إقرارَ دمنةَ وحَفِظَهُ إلى الأسدِ فقال: إنّ عندي شهادة فأخرجوهُ فشهِدَ على دِمنةَ بما سمعَ منْ إقرارِهِ، فقال لهما الأسَدُ: ما مَنعكما أن تقُوما بشهادتِكما وقد عَلِمْتُما أمرَنا واهتمامَنا بالفَحْصِ عنْ أمرِ دمنةَ. فقال كلٌّ واحدٍ منهما: قد

(١) على وجهه: على حكمه.

عَلِمْنا أنَّ شَهادةَ الواحدِ لا توجبُ حُكماً فكَرِهْنا التعرُّضَ لغيْرِ ما يَمضي بهِ الحُكْم، حتى إِذا شَهِدَ أحدُنا قامَ الآخرُ بشهَادتِه، فقَبِلَ الأسدُ قولَهُما وأمرَ بدِمنةَ أنْ يُقتَلَ في حَبْسِه فقُتِلَ أشْنعَ قَتْلةٍ.

فمنْ نظَرَ في هذا فلْيعلَمْ أنَّ من أرادَ منفعةَ نفسهِ بضَرِّ غيره بالخِلابَةِ[١] والمكْر فإنهُ سيُجْزَى على خِلابتِه ومكْرِهِ.

(١) الخِلَابة، بكسر الخاء: المكر والخداع.

باب الحمامة المُطَوَّقة

قال دَبْشَلِيمُ الملِكُ لبَيْدَبَا الفيلَسوفِ: قدْ سَمِعْتُ مَثَلَ المُتحابَّيْنِ كيْفَ قَطَعَ بينهما الكَذُوبُ وإلى ماذا صارَ عاقبةُ أمرِهِ منْ بعْدِ ذلكَ، فحدِّثْني إنْ رأيتَ عنْ إخوانِ الصَّفاءِ كيفَ يَبتدئُ تَواصُلُهم ويَستمتِعُ بعضُهمْ ببعْضٍ، قال الفيْلَسوفُ: إنَّ العاقلَ لا يَعْدِلُ بالإخوانِ شيئاً، فالإخوانُ همُ الأعوانُ على الخيرِ كلِّهِ والمؤَاسُونَ عندَ ما يَنوبُ[1] منَ المكرُوهِ، ومنْ أمثِالِ ذلكَ مَثَلُ الحَمامةِ المُطَوَّقَةِ والجُرَذِ والظبْيِ والغُرابِ، قالَ المَلِكُ: وكَيفَ كانَ ذلكَ؟

قال بيْدَبا: زَعمُوا أنهُ كانَ بأرْضِ سَكَاوَندَجِين عندَ مدينةِ دَاهَرَ مكانٌ كَثيرُ الصَّيْدِ يَنْتابُه[2] الصَّيادُونَ، وكانَ في ذلكَ المكانِ شجرَةٌ كثيرةُ الأغصانِ مُلْتَفَّةُ الورَقِ فيها وَكْرُ غُرَابٍ، فبينما هوَ ذاتَ يوْمٍ ساقِطٌ في وَكْرِهِ إذْ بَصُرَ بصَيَّادٍ قبيحِ المَنْظَرِ، سيِّءِ الخَلْقِ على عاتِقِهِ[3] شَبَكَةٌ وفي يدِه عَصاً مُقْبِلاً نحوَ الشجَرَةِ فذُعِرَ منْهُ الغُرابُ وقالَ: لقدْ ساقَ هذا الرَّجُلَ إلى هذا المَكانِ إمَّا حَيْنِي[4] وإما حَيْنُ غيري فَلأَثْبُتَنَّ مَكاني حتى أنْظُرَ ماذا يَصْنَعُ، ثمَّ إنَّ الصَّيادَ نَصَبَ شَبكتَهُ ونشَرَ عليها الحَبَّ وكَمَنَ قَريباً منها فلم يَلبَثْ إلاَّ قليلاً حتى مَرَّتْ بهِ حمامةٌ يقالُ لها المُطوَّقةُ وكانتْ سيدةَ الحَمامِ ومعَها حَمامٌ كثيرٌ

(١) ينوب: يصيب.

(٢) ينتابه: ينزل به ويقصده.

(٣) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

(٤) الحَيْن: الهلاك.

فَعمِيَتْ هيَ وصاحباتُها عن الشَّرَكِ فوَقَعْنَ في الحَبِّ يَلتَقِطْنَهُ فعَلقْنَ في الشبكة كلُّهُنَّ وأقبَلَ الصَّيادُ فَرِحاً مَسْروراً، فجَعَلتْ كلُّ حمامةٍ تَضْطرِبُ في حِبَالتِها وتَلتمِسُ الخلاصَ لنفْسِها، قالتِ المطوَّقةُ: لا تَخاذَلْنَ[1] في المعالجةِ ولا تكنْ نفْسُ إِحداكنَّ أهمَّ إِليْها منْ نفْسِ صاحبتِها، ولكنْ نتَعاوَنَّ جميعُنا ونَطيرُ كطائرٍ واحدٍ فيَنْجو بعضُنا ببَعْض، فجَمَعْنَ أنفسَهُنَ ووثَبْنَ وَثْبةً واحدةً فقَلَعنَ الشبكةَ جميعُهُنَّ بِتَعاوِنهنَّ وعلَوْنَّ بها في الجوِّ، ولم يَقطَعِ الصَّيادُ رَجاءَهُ منهُنَّ وظنَّ أنهنَّ لا يجاوِزْنَ[2] إلا قريباً ويقَعْنَ. فقال الغُرابُ: لأتَّبعُهُنّ وأنظُرُ ما يكونُ منهن فالتفتت المطوَّقةُ فرأتِ الصيَّادَ يَتْبَعُهنَّ فقالتْ للحمام: هذا الصَّيادُ مُجِدٌّ في طَلبكُنَّ فإِنْ نحنُ أخَذْنا في الفضاءِ لم يخْفَ عليْهِ أمرُنا ولم يزَلْ يتْبَعُنا، وإِنْ نحنُ توَّجهْنا إلى العُمْرَانِ خَفِيَ عليه أمرُنا وانصرَف، وبمكانِ كذا جُرَذٌ هو لي أخٌ فلوِ انتهيْنا إليهِ قطَع عنَّا هذا الشرَكَ، ففعَلْنَ ذلك وأيِسَ الصيادُ منهنَّ وانصرَفَ، وتبِعَهُنَّ الغُرابُ فلمَّا انتهتِ الحمامةُ المُطوَّقةُ إلى الجُرَذِ أمرَتِ الحمام أنْ يَسْقُطْنَ فوقَعْنَ.

وكان للجرَذِ مائةُ جُحْرٍ للمَخاوِفِ، فنادَتْهُ المطوَّقةُ باسْمِهِ وكان اسْمُهُ زيْرَكَ فأجابَها الجُرَذُ منْ جُحْرِهِ: مَنْ أنتِ؟ قالتْ: أنا خليلتُكَ المطوَّقةُ، فأقبلَ إليها الجُرَذُ يَسْعى فقال لها: ما أوْقعَكِ في هذهِ الوَرْطةِ؟ قالتْ لهُ: ألمْ تَعلَمْ أنهُ ليسَ من الخيرِ والشرِّ شيءٌ إلا وهو مُقدَّرٌ على مَنْ تُصِيبُه المَقادِيرُ وهي التي أوقعَتْني في هذه الورْطةِ، فقدْ لا يَمتنِعُ من القَدَرِ منْ هو أقوَى منِّي وأعظَمُ أمراً. وقدْ تَنكسِفُ الشمْسُ والقمرُ إذا قُضِيَ ذلكَ عليهما، ثمّ إِنَّ الجُرَذَ أخذَ في قرْضِ العَقْدِ الذي فيهِ المطوَّقةُ فقالتْ لهُ المطوَّقة: ابْدَأْ بقَطْعِ عَقْدِ سائرِ الحَمامِ وبعدَ ذلكَ أقبِلْ على عَقْدِي. فأعادَتْ ذلكَ عليهِ مراراً وهو

(١) لا تخاذلن: لا تتركن التعاون.

(٢) لا يجاوزن: يقطعن.

لا يَلتفِتُ إلى قولِها، فلما أكثرَتْ عليْه القوْل وكرَّرَتْ قال لها: لقدْ كَرَّرْتِ القوْلَ عليَّ كأنك لَيْسَ لكِ في نفسِكِ حاجةٌ ولا لكِ عليْها شَفَقةٌ ولا تَرْعَيْنَ لها حقًّا. قالتْ: إني أخافُ إنْ أنتَ بدأتَ بقَطْعِ عَقْدِي أنْ تَمَلَّ وتَكْسَلَ عنْ قَطْعِ ما بقيَ، وعرَفْتُ أنَّكَ إنْ بدَأتَ بهنَّ قَبْلي وكُنْتُ أنا الأخيرَةَ لَمْ ترْضَ وإنْ أدْرَكَكَ الفتُورُ أنْ أبْقيَ في الشَّرَكِ، قال الجُرذُ: هذا ممَّا يَزيدُ الرَّغبةَ فيكِ والموَدَّةَ لكِ، ثمّ إنَّ الجُرَذَ أخذَ في قَرْضِ الشبَكةِ[1] حتى فرَغَ منها. فانطلَقتِ المطوَّقةُ وحَمامُها معها.

فلمَّا رأى الغُرابُ صُنْعَ الجُرَذِ رَغِبَ في مُصادَقتِهِ فجاءَ ونَاداهُ باسْمِه فأخرَجَ الجُرذُ رَأسَهُ فقالَ لهُ: ما حاجتُكَ؟ قال إني أُريدُ مَصادَقَتَك. قال الجُرَذُ: ليسَ بيني وبينَكَ توَاصُلٌ وإنما الْعاقِلُ ينبغي لهُ أنْ يَلْتَمسَ مَا يَجِدُ إليهِ سبيلاً ويَترُكَ التماسَ ما لَيْسَ إليهِ سبيلٌ، فما أنْتَ إلاَّ آكلٌ وأنا طَعامٌ لكَ. قال الغُرَابُ: إنَّ أكلي إيَّاكَ وإن كنتَ لي طعاماً ممَّا لا يُغني عني شيئاً، وإنَّ مؤدَّتَكَ آنَسُ لِي ممَّا ذَكَرْتَ، ولستَ بحقيقٍ إذا جئتُ أطلُبُ مودَّتَكَ أنْ ترُدَّني خائباً، فإنهُ قدْ ظهرَ لي منْ حُسْنِ الخُلُقِ ما رغَّبَني فيكَ، وإنْ لـم تكنْ تَلتَمِسُ إظهارَ ذلكَ فإن العاقلَ لاَ يَخْفَى فضلُهُ وإن هوَ أخْفاهُ كالمِسكِ الذي يُكْتَمُ ثم لا يمنعُهُ ذلكَ من النَّشْرِ الطيِّب والأَرَجِ الفائح[2]. ثمَّ قالَ الجُرَذُ: إنَّ أشدَّ العداوةِ عداوةُ الجَوْهَرِ وهيَ عدَاوَتانِ منها ما هوَ مُتكافىءٌ كعدَاوةِ الفيلِ والأسدِ، فإنهُ ربُما قتلَ الأسدُ الفيلَ أو الفيلُ الأسدَ، ومنها ما قوَّتُهُ منْ أحدِ الجانِبَيْنِ على الآخَرِ كعداوَةِ مَا بيني وبينَ السِّنَّوْرِ[3] وبينَكَ وبيني، فإنَّ العداوةَ التي بينَنا ليْسَتْ تضُرُّكَ وإنما ضَررُها عائدٌ عَليَّ، فإنَّ الماءَ لوْ أُطِيلَ إسْخانُهُ لمْ يَمْنَعْهُ ذلكَ منْ إطْفائِه النارَ إذا صُبَّ عليْها.

(١) قرض: قطع.
(٢) النشر: الرائحة الطيبة، والأرج: توهج ريح الطيب.
(٣) السنور: القط.

وإنما مُصاحِبُ العَدُوِّ ومُصالِحُهُ كَصاحِبِ الحيّةِ يَحْمِلُها في كُمِّهِ، والْعاقِلُ لا يَستأنِسُ إلى العَدُوِّ الأريبِ[١]. قال الغرابُ: قدْ فَهِمْتُ ما تقُولُ وأنْتَ خَلِيق[٢] أنْ تأخُذَ بفضْلِ خَلِيقتِكَ[٣] وتعرِفَ صِدْقَ مَقالِي ولا تُصَعِّبْ عَليَّ الأمْرَ بقوْلِكَ ليسَ إلى التَّواصُلِ بيْنَنا سبيلٌ، فإنّ العُقلاءَ الكرَامَ لا يَبْتَغُونَ على معروفٍ جَزاءً، والمودّةُ بينَ الصالحينَ سريعٌ اتصالُها بطيءٌ انقِطاعُها، ومَثَلُ ذلكَ مَثَلُ الْكُوزِ منَ الذهبِ، بطيءُ الانكِسارِ سريعُ الإعادَةِ، هَيِّنُ الإصلاحِ، إنْ أصابَهُ ثَلْمٌ أو كَسْرٌ، والموَدَّةُ بينَ الأشرارِ سريعٌ انْقِطاعُها بطيءٌ اتِّصالُها، ومَثَلُ ذلك مَثَلُ الكوزِ منَ الفَخّارِ سريعُ الانْكِسارِ يَنكسِرُ منْ أدْنى شيءٍ ولا وَصْلَ لهُ أبداً، والكريمُ يَوَدُّ الكريم واللَّئيمُ لا يَوَدُّ أحداً إلاّ عنْ رَغْبةٍ أو رَهْبةٍ، وأنا إلى وُدِّكَ ومعروفِكَ مُحتاجٌ لأنكَ كريمٌ، وأنا مُلازِمٌ لِبابِكَ غيرُ ذائِقٍ طَعاماً حتى تُؤَاخِيَني.

قالَ الْجُرَذُ: قدْ قَبِلْتُ إخاءَكَ فإني لَمْ أردُدْ أحداً عنْ حاجةٍ قط، وإنما بَدَأْتُكَ بما بدأتك بهِ إرادةَ التَّوَثُّقِ لنفسي فإنْ أنْتَ غَدَرْتَ بي لم تُقُلْ إني وَجدْتُ الجُرَذَ سريعَ الانخدَاعِ. ثمّ خرَجَ منْ جُحْرِهِ فوقَفَ عندَ البابِ. فقال له الغُرابُ: ما يمنَعُكَ من الخروجِ إليَّ والاسْتِئْناسِ بي أوَفي نفسكَ بَعدُ مِنِّي ريبةٌ. قال الجُرَذُ: إنّ أهلَ الدُّنيا يتعاطَوْن فيما بينهمْ أمرَيْنِ وَيتواصَلُونَ عليهما وهما ذاتُ النفْسِ وذاتُ اليدِ، فالمُتبادِلُونَ ذاتَ النَّفْسِ همُ الأصفْياءُ وأمّا المُتبادِلُونَ ذاتَ اليَدِ فهُمُ المُتعاوِنونَ الذينَ يَلْتَمِسُ بَعْضُهم الانْتِفاعَ ببعضٍ، ومنْ كانَ يَصْنَعُ المَعْروفَ لبعضِ مَنافعِ الدُّنيا فإنما مَثَلُهُ فيما يَبْذَلُ ويُعْطِي كمثَلِ الصَّيادِ وإلقائهِ الحَبَّ للطيرِ لا يُرِيدُ بذلكَ نَفْعَ الطَّيْرِ وإنما يُريدُ نَفْعَ نفْسهِ، فتَعاطِي ذاتِ النفْسِ أفضَلُ منْ تَعاطي ذاتِ اليَدِ، وإني وَثِقْتُ

(١) الأريب: الذكي.
(٢) خليق: جدير.
(٣) خليقتك: سجيتك.

مِنْكَ بذات نفْسِكَ ومنَحْتُكَ مِنْ نفْسِي مثلَ ذلكَ، وليسَ يمنَعُني من الخروجِ إليكَ سوءُ ظَنٍّ بكَ ولكنْ قدْ عَرَفْتُ أنَّ لكَ أصحاباً جوْهرُهُمْ كجَوْهرِكَ وليسَ رأيُهمْ فيَّ كرأيِك. قال الغرابُ: إنَّ منْ علامةِ الصَّدِيقِ أنْ يكونَ لصديق صدِيقه صديقاً ولعدوِّ صدِيقهِ عدُوًّا وليْسَ لي بصاحِبِ ولا صَدِيقٍ مَنْ لا يكونَ لك مُحبًّا، وإنهُ يَهُونُ عليَّ قَطِيعةُ مَنْ كانَ كذلكَ منْ جوْهري. ثمَّ إنَّ الْجُرَذَ خرَجَ إلى الغُرابْ فتَصافَحا وتَصافَيا وأنِسَ كلٌّ واحدٍ منهما بصاحبِهِ حتى إذا مضتَ لهمْ أيامٌ قال الغرابُ للْجرَذِ: إنَّ جُحْرَكَ قريبٌ منْ طريقِ النَّاس وأخافُ أن يَرْمِيَكَ بعضُ الصِّبيانِ بحجَرٍ، ولي مكانٌ في عُزْلةٍ ولي فيهِ صَدِيقٌ منَ السلاحِفِ وهو مُخْصبٌ من السَّمَكِ ونحنُ واجِدُونَ هُناكَ مَا نأكلُ فأريدُ أنْ أنْطَلِقَ بكَ إلى هُناكَ لِنَعيشَ آمِنينَ. قال الجرَذُ: إنَّ لي أَخْباراً وقِصَصاً سأقُصُّها عليكَ إذا انتهيْنا حيثُ تُريدُ فافعلْ ما تشاءُ، فأخذَ الغُرابُ بِذَنَبِ الجُرذِ وطارَ بهِ حتى بلَغَ حيثُ أرادَ فلمّا دَنا منَ العَيْنِ التي فيها السُّلَحْفاةُ بَصُرَتِ السُّلَحْفاةُ بغرابٍ ومعَهُ جُرذٌ فذُعِرَتْ منه ولم تَعلم أنهُ صاحبُها، فناداها فخرَجَتْ إليْهِ وسألَتْهُ: منْ أيْنَ أقبلْتَ؟ فأخبرَها بقِصَّتهِ حينَ تَبعَ الحَمامَ وما كانَ منْ أمرِهِ وأمْرِ الجُرَذِ حتى انْتهَى إليْها. فلمَّا سَمِعَتِ السُّلَحْفاةُ شأنَ الجُرَذِ عَجِبتْ منْ عقلِهِ ووَفائهِ ورَحَّبَتْ بهِ وقالتْ له: ما ساقَكَ إلى هذِه الأرْضِ؟ قال الغرَابُ للجُرَذِ: اُقْصُصْ عليَّ الأخْبارَ التي زَعَمْتَ أنَّكَ تُحَدِّثْني بها فأخبِرْني بها معَ جوَابِ ما سألَتِ السُّلَحْفاةُ فإنها عندَكَ بمنزِلَتي. فبَدَأَ الجُرَذُ وقال:

«كانَ مَنزِلي أوَّلَ أمْري بمدِينة (مارُوتَ) في بيْتِ رجُلٍ ناسِكٍ وكانَ خالياً منَ الأهلِ والعيالِ، وكان يُؤتي في كلِّ يوْم بِسَلَّةٍ من الطَّعامِ فيأكلُ منها حاجتَهُ ويُعلِّقُ الباقي، وكنتُ أرْصُدُ(١) الناسكَ حتى يَخرُجَ وأثِبُ إلى السَّلَّةِ فلا أدَعُ

(١) أرصد: أرقب.

فيها طعاماً إلاّ أكَلْتُهُ وأرْمِي بهِ إلى الجِرْذَانِ فَجَهِدَ النّاسِكُ مِراراً أنْ يُعلّقَ السَّلَّةَ في مكانٍ لا أنالُهُ فلمْ يَقْدِرْ على ذلكَ حتى نزَلَ به ذاتَ ليْلةٍ ضيْفٌ فأكَلاَ جميعاً ثمّ أخَذا في الحديثِ فقال الناسكُ للضيْفِ: منْ أيّ أرْضٍ أقبلْتَ وأيْنَ تُرِيدُ الآنَ، وكانَ الرَّجلُ قدْ جابَ الآفاقَ[1] ورأى عجائب كثيرةً فأنْشأ يُحدِّثُ النّاسكَ عمَّا وَطِيءَ منَ البلادِ ورأى منَ العجائبِ وجعَلَ النّاسكُ خِلالَ ذلكَ يُصفِّقُ بيدَيْهِ لِيُنفِّرَني عنِ السَّلةِ فغضِب الضيْفُ وقالَ: أنا أُحدِّثُكَ وأنتَ تَهزَأُ بحَدِيثي فما حَملَكَ على أنْ سألْتَني؟ فاعتذَرَ إليهِ الناسكُ وقال: إنما أُصَفّقُ بيَدِي لأُنَفِّرَ جُرَذاً قدْ تحيَّرْتُ في أمْرِهِ ولَسْتُ أضَعُ في البيْتِ شيئاً إلاّ وأكلَهُ. فقال الضَّيْفُ: جُرَذٌ واحدٌ يَفْعَلُ ذلك أمْ جرْذان كثيرَةٌ؟ فقالَ الناسكُ: جِرْذَانُ البيْتِ كثيرَة لكنَّ فيها جُرَذاً واحداً هو الذِي غلَبَني فما أسْتطيعُ له حِيلةً. قال الضيْفُ: لقدْ ذكَّرْتَني قوْلَ الذِي قالَ: لأمْرٍ ما باعَتْ هذِه المرْأةُ سِمْسِماً مَقْشُوراً بغيْرِ مَقْشُورٍ. قال النّاسِكُ: وكيفَ كانَ ذلِكَ؟

قال الضَّيْفُ: نَزَلْتُ مرَّةً على رَجُلٍ بمكانِ كذَا فتَعَشَّيْنا ثمَّ فَرشَ لي وانْقلَبَ الرَّجُلُ على فِراشهِ معَ زوْجتِه وبَيني وبيْنَهما خُصٌّ منْ قَصَبٍ فسَمِعْتُ الرَّجُلَ يقولُ في آخرِ اللّيْلِ لامرأتِه: إني أُريدُ أنْ أدعُو غداً رَهْطاً[2] ليأكلُوا عنْدَنا فاصنَعي لهمْ طعاماً. فقالت المرْأةُ: كيفَ تدْعو الناسَ إلى طَعامِكَ وليْسَ في بيْتِكَ فَضْلٌ عنْ عِيالِكَ وأنتَ رجُلٌ لا تُبْقي شيئاً ولا تَدَّخِره. قال الرَّجلُ: لا تَندَمي على شيءٍ أطعَمْناهُ وأنْفقْناهُ فإنّ الجَمعَ والادِّخارَ ربما كانتْ عاقبتُهُ كَعاقبَةِ الذِّئبِ. قالتِ المرْأة: وكيف كان ذلك؟

قال الرَّجُلُ: زعَمُوا أنهُ خرَجَ ذاتَ يومٍ رجُلٌ قانِصٌ ومعَهُ قوْسُهُ ونُشَّابُه، فلمْ يُجاوِزْ غيرَ بَعيدٍ حتى رَمَى ظَبياً فحمَلَهُ ورَجَع طالباً مَنزِلَهُ

(١) الآفاق: النواحي المختلفة.

(٢) الرهط: دون العشرة من الرجال.

فاعترَضه خِنزيرٌ بَرِّيٌّ فرماهُ بنُشَّابَةٍ نَفَذَتْ فيهِ فأدركَه الخِنزيرُ وضَربَه بأنْيابِهِ ضرْبةً أطارَتْ من يدِهِ القَوْسَ ووَقَعا مَيْتَيْنِ، فأتَى عليهم ذِئبٌ فقال: هذا الرَّجُلُ والظَّبيُ والخِنْزيرُ يَكْفِينِي أكلُهمْ مدَّةً، ولكِنْ أبْدَأ بهذا الوَتَرِ فآكُلَهُ فيكونُ قُوتَ يَوْمي، فعالَجَ الوترَ حتى قطَعَه فلمّا انْقطَع طارَتْ سِيَةُ[1] القَوْسِ فضَرَبَتْ حَلْقَهُ فماتَ.

وإنما ضرَبْتُ لك هذا المَثَلَ لتَعلَمي أنَّ الجَمْعَ والادِّخارَ وَخِيمُ العاقبةِ. فقالتِ المرْأةُ: نِعِمَّا قُلْتَ وعندَنا منَ الأرُزِّ والسِّمْسِمِ ما يَكفي ستَّةَ نَفَرٍ أو أكثرَ. فأنا غادِيةٌ[2] على صُنْعِ الطَّعامِ فادْعُ منْ أحبَبْتَ، وأخَذَتْ المرأةُ حينَ أصْبَحتْ سِمْسِماً وقَشَرتْهُ وبَسَطَتْه في الشمسِ لِيَجِفَّ وقالتْ لِغُلامِ لهمْ: اطْرُدْ عنهُ الطيرَ والْكلابَ، وتَفرَّغَتِ المرْأةُ لِصُنْعِها وتَغافَلَ الغلامُ عنِ السِّمْسِمِ فجاءَ كلْبٌ فَعاثَ[3] فيهِ فاستقْذَرَته المَرْأةُ وكرِهَتْ أنْ تَصْنَعَ منهُ طَعاماً، فذَهَبَتْ بهِ إلى السُّوق فأخَذَتْ بهِ مُقايِضةً[4] سمْسِماً غيرَ مَقْشُورٍ مِثْلاً بمِثْلٍ... وأنا واقِفٌ في السُّوقِ. فقال رجُلٌ لآخَرَ: لأَمْرٍ مَا باعتْ هذه المرْأةُ سمْسِماً مَقْشُوراً بغيرِ مقْشُورٍ.

وكذلِكَ قوْلِي في هذا الجُرَذِ الذي ذَكَرْتَ أنهُ على غيرِ عِلَّةٍ مَّا يَقْدِرُ على ما شَكَوْتَ منهُ فالْتَمِسْ لي فأساً لَعلي أحْتَفِرُ جُحْرَهُ فأطَّلِعَ على بَعْضِ شأنِه، فاسْتعارَ النَّاسِكُ منْ بعْضِ جيرانِه فأساً فأتَى بها الضَّيفَ وأنا حينئذٍ في جُحْرٍ غيرِ جُحْرِي أسْمَعُ كلامَهُما وفي جُحْري كيسٌ فيهِ مائةُ دينارٍ لا أدْرِي مَنْ وضَعَها، فاحتَفَرَ الضَّيفُ حتى انتهَى إلى الدَّنانيرِ فأخَذَها للنَّاسكِ: ما كانَ هذا الجُرَذَ يَقْوَى على الوُثوبِ حيْثُ كانَ يَثِبُ إلاَّ بهذِه الدَّنانيرِ فإنَّ

---

(١) سية القوس: طَرَفُها.

(٢) غادية: مبكرة.

(٣) عاث: أضرَّ وأفسد.

(٤) مقايضة: مبادلة.

المالَ جَعَلَ لهُ قوّةً وزيادةً في الرَّأي والتَّمكُّن، وسترَى بعدَ هذا أنهُ لا يَقْدِرُ على الوُثُوبِ حيثُ كانَ يثبُ، فلمَّا كان منَ الغدِ اجْتَمعَتِ الجِرْذانُ التي كانتْ معي فقالتْ: قدْ أصابنا الجُوعُ وأنتَ رجاؤُنا فانْطلَقْتُ ومعي الجِرْذانُ إلى المكانِ الذي كنتُ أثِبُ منهُ إلى السَّلَّةِ فحاولْتُ ذلكَ مِراراً فلمْ أقْدرْ عليه فاسْتبان لِلْجِرذانِ نَقْصُ حالي فسمِعتُهنَّ يَقُلْنَ: انصَرِفْنَ عنهُ ولا تَطْمَعْنَ فيما عندهُ فإنّا نرَى له حالاً لا نَحْسَبُه إلاّ قدِ احْتاجَ إلى منْ يَعُولُه[1] فترَكْنَني ولَحِقْنَ بأعدَائي وجفَوْنَني وأخَذْنَ في غِيبَتي عندَ منْ يُعادِيني ويَحْسُدني.

فقلْتُ في نفسِي: ما الإخوانُ ولا الأعوَانُ ولا الأصدِقاءُ إلاّ بالمالِ، ووَجَدْتُ منْ لا مالَ لهُ إذا أرادَ أمراً قَعَدَ بهِ العُدْمُ[2] عمَّا يُريدُه، كالماءِ الذي يَبْقَى في الأوْدِيةِ منْ مطَرِ الشِّتاءِ لا يَمُرُّ إلى نَهَرٍ ولا يَجْرِي إلى مكانٍ فتَشْرَبُه أرْضُه، ووجَدْتُ منْ لا إخْوانَ لهُ لا أهْلَ لهُ، ومنْ لا وَلَدَ لهُ لا ذِكْرَ لهُ، ومنْ لا مالَ لهُ لا عَقْلَ لهُ ولا دُنْيا ولا آخرَة لهُ لأنَّ الرَّجُلَ إذا افتَقَرَ قطَعه أقارِبُه وإخْوانُه، فإنّ الشجرَةَ النّابِتةَ في السِّباخِ[3] المأكُولةَ منْ كلِّ جانِبٍ كَحالِ الفقيرِ المُحْتاجِ إلى ما فِي أيدِي النَّاسِ.

ووَجَدْتُ الفَقْرَ رَأسَ كلِّ بلاَءٍ وجالِباً إلى صاحبِهِ كلَّ مَقْتٍ ومَعْدِنَ النَّمِيمَةِ، ووَجَدْتُ الرَّجلَ إذا افتَقَرَ اتَّهَمَهُ مَنْ كان لهُ مؤْتَمِناً وأساءَ بهِ الظَّنَّ مَنْ كانَ يَظُنّ بهِ حَسَناً، فإنْ أذْنَبَ غيرُهُ كانَ هوَ للتُّهْمَةِ موْضِعاً، وليْسَ منْ خَلَّةٍ[4] هيَ لِلْغنيِّ مَدْحٌ إلاّ وهيَ لِلْفقيرِ ذَمٌّ، فإنْ كانَ شُجاعاً قِيلَ أهْوَجُ وإن كان جَوَاداً[5] سُمِّيَ مُبذِّراً، وإن كانَ حليماً سُمِّيَ ضَعيفاً، وإنْ كانَ وَقوراً سُمِّيَ بليداً، فالموْتُ أهْوَنُ منَ الحاجةِ التي تُحْوِجُ صاحِبَها إلى المَسألةِ ولا

(١) يعوله: يعيشه.
(٢) العُدْمُ: الفقر والفاقة.
(٣) السباخ مفردها سبخة. وهي الأرض ذات الملح والنز.
(٤) خلة: خصلة.
(٥) الجواد: الكريم.

سيَّما مَسألةُ الأشِحّاءِ(١) واللّئام فإنَّ الكريمَ لوْ كُلِّفَ أنْ يُدْخِلَ يدَهُ في فَمِ الأفْعَى فيُخْرِجَ منهُ سُمًّا فيَبْتلِعَهُ كانَ ذلكَ أهْوَن عليهِ وأحَبَّ إليْهِ منْ مَسألةِ البخيلِ اللَّئيمِ.

وقدْ كنْتُ رأيْتُ الضَّيفَ حينَ أخذَ الدَّنانيرَ فَقاسَمَها النَّاسِكَ فجعَلَ النَّاسِكُ نَصِيبَهُ في خَريطةٍ(٢) عندَ رَأسِهِ لمّا جَنَّ اللَّيْلُ، فطَمِعْتُ أنْ أصِيبَ منها شيئاً فأرُدَّهُ إلى جُحْرِي ورجَوْتُ أنْ يَزِيدَ ذلكَ في قوَّتي ويُراجِعَني بسببه بعْضُ أصْدِقائي فانْطَلَقْتُ إلى النَّاسكِ وهوَ نائمٌ حتى انتهَيْتُ عنْدَ رَأسِه فوجدْتُ الضَّيفَ يَقْظانَ وبِيَدِهِ قضِيبٌ فضَرَبني على رأسِي ضَرْبَةً مُوجِعةً فسَعَيْتُ إلى جُحْرِي فلمَّا سكَنَ عنِّي الألَمُ، هَيَّجَني الحِرْصُ والشَّرَهُ فخرَجْتُ طمَعاً كطَمَعي الأوَّلِ وإذا الضَّيْفُ يَرْصُدُني فضربَني بالقَضِيبِ ضرْبةً أسالَتْ مني الدَّمَ فتَقلَّبْتُ ظهْراً لِبَطْنٍ إلى جُحرِي فخَرَرْت مَغْشِيًّا عليَّ فأصابني منَ الوجَعِ ما بَغَّضَ إليَّ المالَ حتى لا أسْمَعُ بذِكْرِه إلاّ تَدَاخَلَني منْ ذِكْرِهِ رِعْدَةٌ وَهَيْبةٌ، ثمَّ تَذَكَّرْتُ فوَجَدْت البَلاءَ في الدُّنْيا إنما يَسوقُه الحِرْصُ والشَّرَهُ ولا يزالُ صاحِبُ الدُّنْيا في بلِيَةٍ وتعبٍ ونَصَبٍ، ووَجَدْتُ تجَشُّمَ(٣) الأسْفارِ البعيدَةِ في طلَبِ الدُّنْيا أهْوَنَ عليَّ منْ بَسْطِ اليدِ إلى السَّخيِّ بالمالِ، ولمْ أرَ كالرضَا شيئاً.

ووَجَدْتُ العلماءَ قدْ قالوا لا عقْلَ كالتَّدْبيرِ ولا وَرَع ككَفِّ الأذَى ولا حَسَبَ(٤) كحُسْنِ الخلُقِ ولا غِنَى كالرِّضَا، وأحَقُّ ما صَبَّرَ الإنْسانَ على الشيءِ نفْسُهُ، وأفْضَلُ البرِّ الرَّحمةُ، ورأسُ المودَّة الاسترْسالُ(٥) ورأسُ العقْلِ

(١) الأشحاء مفردها شحيح: وهو البخيل.
(٢) الخريطة: كيس من جلد وغيره.
(٣) التجشم: تحمل المشاق.
(٤) الحَسَبُ: الشرف.
(٥) الاسترسال: أي الثقة بالصديق والاطمئنان إليه.

معرفةُ ما يكونُ مما لا يكونُ، وقالوا: الخَرَسُ خيرٌ منَ اللِّسانِ الكَذُوبِ، والضُّرُّ[١] والفقرُ خيرٌ من النَّعْمةِ والسَّعةِ منْ أموالِ النَّاسِ، فصارَ أمْرِي إِلى أنْ رَضِيتُ وقَنِعْتُ وانْتقَلْتُ منْ بيْتِ النَّاسكِ إِلى البرِّيّةِ، وكانَ لي صديقٌ من الحَمامِ فَسِيقَتْ إِليَّ بصَداقَتهِ صداقةُ الغُرابِ والتفت إلى السُّلَحْفاة فقال: ثمَّ ذكَرَ لي الغُرابُ ما بيْنَكِ وبيْنهُ من المودَّةِ وأخبَرني أنهُ يُريدُ إِتْيانَكِ فأحْببتُ أنْ آتِيَكِ معهُ وكَرِهتُ الوَحْدَةَ فإنهُ لا شيءَ منْ سرُورِ الدُّنْيا يَعْدِلُ صُحْبةَ الإِخْوانِ ولا غَمَّ فيها يَعْدِلُ البُعْدَ عنهمْ، وجَرَّبْتُ فعَلِمتُ أنه لا يَنْبغي للْعاقلِ أنْ يَلْتَمِسَ من الدُّنْيا غيرَ الكَفافِ الذي يَدْفَعُ به الأذَى عنْ نفْسهِ وهو الْيسيرُ منَ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ إِذا أُعِينَ بصِحَّةٍ وسَعَةٍ، ولوْ أنَّ رجُلاً وُهِبتْ لهُ الدُّنْيا بما فيها لَمْ يكنْ يَنْتفعُ منْ ذلكَ إِلاَّ بالْقليلِ الذي يَدْفَعُ به عنْ نفْسهِ الحاجَةَ فأقبلْتُ معَ الغُرابِ إِلَيْكِ على هذا الرَّأْيِ وأنا لَكِ أخٌ فلْتكُنْ منزِلَتي عنْدَكِ كذلكَ.

فلمَّا فرَغَ الجُرَذُ منْ كلامهِ أجابَتْهُ السُّلَحْفاةُ بِكلامٍ رقيقٍ وقالتْ: قدْ سَمِعتُ كلاَمَكَ وما أحْسَنَ ما تكلَّمتَ به، إِلاّ أني رأيْتُكَ تَذْكرُ بَقايا أُمورٍ هيَ في نَفْسِكَ منْ حيْثُ قِلَّةِ مالكَ وسُوءِ حالكَ واغترابِكَ عنْ مَوْطِنكَ، فاطْرحْ ذلكَ عنْ قلْبِكَ واعلَمْ أنَّ حُسْنَ الكلامِ لا يَتِمُّ إِلاّ بحُسْنِ العمَلِ، وأنَّ المريضَ الّذِي قدْ عَلِمَ دواءَ مرَضِه إِنْ لمْ يَتَدَاوَ به لمْ يُغْنِ علْمُه به شيئاً ولمْ يَجِدْ لدَائه راحةً ولا خِفّةً، فاسْتَعْمِلْ رأيَكَ ولا تَحْزَنْ لقلةِ المالِ فإنّ الرَّجُلَ ذا المُرُوءةِ قدْ يُكْرَمُ على غيرِ مالٍ كالأسدِ الذي يُهابُ وإِنْ كانَ رابِضاً[٢]، والغنيُّ الذي لا مُرُوءَةَ لهُ يُهانُ وإِنْ كانَ كثيرَ المالِ كالكلبِ لا يحْفَلُ به[٣] وإِنْ طُوِّقَ وخُلْخِلَ بالذّهَبِ، فلا تَكْبُرَنَّ عليْكَ غُرْبَتُكَ فإِنَّ الْعاقِلَ لا غُرْبةَ لهُ

(١) الضُّرُّ بالضم: الفقر.
(٢) رابضاً: آوياً في مأواه.
(٣) لا يحفل به: أي لا يبالي به.

كالأسدِ الذي لا يَنْقلِبُ[١] إلاّ معَه قوَّتُه فلْتُحْسِنْ تعهُّدَكَ لنفْسِكَ فإنّكَ إذا فعَلْتَ ذلكَ جاءَ الخيْرُ يَطْلُبُكَ كما يَطْلُبُ الماءُ انحدارَهُ، وإنما جُعِلَ الفضْلُ لِلْحازمِ الْبصيرِ، وأما الكَسْلانُ المتردّدُ فإنَّ الفضْلَ لا يَصْحَبُه كما أنّ المرْأةَ الشابَّةَ لا يَطِيبُ لها صُحْبةُ الشّيْخِ الهرمِ وقدْ قيلَ في أشْياءَ ليْسَ لها ثَباتٌ ولا بَقاءٌ: ظلُّ الغَمامةِ في الصَّيْفِ وخِلَّةِ[٢] الأشْرارِ والْبِناءِ على غيرِ أساسٍ، والنّبإِ الكاذِبِ، والمالِ الكثيرِ، فالْعاقلُ لا يَحْزَنُ لقلَّتِهِ ولكنَّ مالَهُ عقلُه وما قَدَّمَ منْ صالحِ عملِهِ، فهو واثِقٌ بأنهُ لا يُسْلَبُ ما عَمِلَ ولا يُؤاخَذُ بشيءٍ لمْ يَعْمَلْهُ، وهو خَلِيقٌ ألاَّ يَغْفُلَ عنْ أمرِ آخرتِه فإنّ الموْتَ لا يأتِي إلاّ بغْتةً ليس لهُ وقْتٌ معيَّنٌ، وأنتَ عنْ موْعِظتي غنيٌّ بما عندَكَ منَ العلمِ، ولكنْ رأيْتُ أنْ أقضِيَ منْ حقِّكَ فأنتَ أخُونا وما قِبَلَنا[٣] مبْذُولٌ لكَ.

فلمَّا سَمِعَ الغُرابُ كلامَ السُّلَحْفاةِ للجُرَذِ وردَّها عليهِ وإلْطافَها إيّاهُ فرِحَ بذِلكَ وقالَ: لقدْ سَرَرْتِني وأنْعَمْتِ عليَّ وأنتِ جَدِيرةٌ أن تَسُرِّي نفْسَك بمِثْلِ ما سَرَرْتِني به، وإنَّ أوْلَى أهلِ الدنْيا بشدَّة السُّرورِ مَنْ لا يَزالُ رَبْعُه[٤] منْ إخْوانِه وأصْدِقائهِ منَ الصَّالحينَ مَعْمُوراً، ولا يَزالُ عنْدَه منهمْ جماعةٌ يَسُرُّهمْ ويَسُرُّونَه ويكونُ منْ وراءِ أُمورِهمْ وحاجاتِهِمْ بالمِرْصادِ فإنَّ الكريمَ إذا عثرَ لاَ يَأخذُ بيدِهِ إلاّ الكرامُ كالفيلِ إذا وَحِلَ لا تُخْرِجهُ إلاّ الْفِيَلَةُ، فبينما الغرابُ في كلامهِ والثّلاثةُ مُستأنِسُونَ بعْضُهمْ ببعْضٍ إذْ أقبَلَ نحوَهُمْ ظبيٌ يَسْعَى فذُعِرَتْ منهُ السُّلَحْفاةُ فغاصَتْ في الماءِ ودَخلَ الجُرَذُ إلى جُحْرِه وطارَ الغُرَابُ فوقَعَ على شجرةٍ، ثمَّ إنَّ الغرَابَ حَلَّقَ في السَّماءِ لِيَنْظُرَ هلْ لِلظبيِ طالِبٌ، فنَظَرَ فلمْ يَرَ شيئاً فنادَى الجُرَذَ والسُّلَحْفاةَ فخرَجا، فقالتِ السُّلَحْفاةُ

(١) ينقلب: يبدل مكانه.
(٢) الخِلَّة: المصادقة والإخاء.
(٣) قِبَلَنا: لدينا وعندنا.
(٤) ربعه: مسكنه.

لِلظبيِ حينَ رأَتْهُ يَنْظُرُ إلى الماءِ: ٱشْرَب إنْ كانَ بكَ عَطَشٌ ولا تَخَفْ فإنهُ لا خَوْفَ عليكَ. فدَنا الظبيُ فرَحَّبَتْ بهِ وحيَّتْهُ وقالتْ لهُ: منْ أيْنَ أقبلْتَ؟ قال: كنتُ بهذهِ الصحارَى راتِعاً[١] فلمْ تَزَلِ الأَساوِرَةُ[٢] تَطْرُدُني منْ مكانٍ إلى مكانٍ حتى رأَيْتُ اليوْمَ شَبَحاً فَخِفْتُ أنْ يكونَ قانِصاً. قالتْ: لا تخَفْ فإنّا لمْ نَرَ هٰهُنا قانِصاً قطُّ ونحنُ نَبْذُلُ لكَ وُدَّنا ومكانَنا، والماءُ والمَرْعَى كثيرٌ عندَنا فٱرْغَبْ في صُحْبتِنا. فأقامَ الظبيُ معَهمْ وكانَ لهمْ عَرِيشٌ[٣] يَجْتَمِعونَ فيهِ ويَتذاكَرُونَ الأحادِيثَ والأَخْبارَ.

فبينما الغرَابُ والجُرَذُ والسُّلَحْفاةُ ذاتَ يوْمٍ في العرِيشِ إذْ غابَ الظَّبيُ فتوقَّعُوهُ[٤] ساعةً فلمْ يأت فلمَّا أبطأَ أشْفَقُوا أنْ يكونَ قدْ أصابَهُ عَنَتٌ[٥] فقالَ الجُرَذُ والسُّلَحْفاةُ للغُرابِ: هلْ تَرَى ممَّا يَلِينا شيئاً؟ فَحلَّقَ الغُرابُ في السَّماءِ فنَظَرَ فإذا الظبْيُ في الحبائلِ مُقْتَنَصاً، فانْقَضَّ مُسْرِعاً فأخبرَهُما بذِلكَ. فقالتِ السُّلَحْفاةُ والغرَابُ للْجُرَذِ: هذا أمْرٌ لا يُرْجَى فيهِ غيرُكَ فأغِثْ أخاكَ. فسَعَى الجُرَذُ مُسرِعاً فأتَى الظبيَ. فقالَ لهُ: كيْفَ وقَعْتَ في هذهِ الوَرْطةِ وأنْتَ منَ الأَكْياسِ[٦]. قالَ الظبيُ: هَلْ يُغْنى الكَيْسُ معَ المَقادِيرِ شيئاً؟.

فبينما هما في الحديثِ إذْ وافَتْهُما السُّلَحْفاةُ فقالَ لها الظَّبيُ: ما أَصَبْتِ بمجِيئكِ إليْنا فإنّ الْقانِصَ لوِ انْتهَى إليْنا وقدْ قطَعَ الجرَذُ الحَبائِلَ سبَقْتُهُ عَدْواً ولِلْجُرذِ أجحارٌ كثيرَةٌ والْغرابُ يَطيرُ وأنْتَ ثِقِيلةٌ لاَ سَعْيَ لَكِ ولا حرَكةَ وأخافُ عليْكِ الْقانِصَ. قالتْ: لا عَيْشَ معَ فرَاقِ الأحبَّةِ، وإذا فارَقَ

(١) راتعاً: آكلاً وشارباً في أرضٍ واسعة.

(٢) الأساورة ج أسوار بالضم والكسر: الرجل الجيد الرمي بالسهام.

(٣) العريش: ما يستظل به.

(٤) توقعوه: انتظروه.

(٥) العنت: المكروه والشدة.

(٦) الأكياس ج كيس: الفَطِنُ.

الأَلِيفُ أليفَهُ، فقدْ سُلِبَ فؤادَه وحُرِمَ سرُورَهُ وغُشِيَ على بصَرِه، فلمْ يَنتَهِ كلامُها حتى وَافَى الْقانصُ ووافقَ ذلكَ فراغَ الجرَذِ منْ قَطْعِ الشَّرَكِ. فنجا الظَبْيُ بِنَفْسهِ وطار الغرابُ محلِّقاً ودَخَلَ الجُرَذُ بعضَ الأجحارِ ولم يَبْقَ غيرُ السُّلَحْفاةِ ودَنا الصَّيَّادُ فوَجَدَ حِبالَتَهُ مُقطَّعةً فنَظَرَ يميناً وشِمالاً فلمْ يَجِدْ غيرَ السُّلَحْفاةِ تدِبُّ فأخذَها وربَطَها فلمْ يَلْبَثِ الغرابُ والجرَذُ والظبيُ أنِ اجْتَمَعوا فنظَرُوا الْقانِصَ قدْ رَبَطَ السُّلَحْفاةَ فاشْتدَّ حُزْنُهمْ وقال الجُرَذُ: ما أُرانا نجاوِزُ عقَبةً[1] منَ البَلاءِ إلاّ صِرْنا في أشدّ منها. ولقدْ صدَقَ الذي قالَ لا يَزالُ الإنْسانُ مُسْتمِرًّا في إقْبالِهِ ما لَمْ يَعْثُرْ فإذا عَثَرَ لَجَّ به[2] الْعِثارُ وإنْ مشَى في جَدَدِ[3] الأرْضِ. وحذري على السُّلَحْفاةِ خَيرِ الأَصْدقاءِ التي خِلَّتُها ليْسَتْ للمجَازاةِ ولا لالْتِماسِ مكافأةٍ ولكنَّها خِلَّةُ الكَرمِ والشَّرَفِ، خِلّةٌ هيَ أفضَلُ منْ خِلةِ الوَالِدِ لوَلَدِهِ، خِلَّةٌ لا يُزيلُها إلاَّ الموْتُ، وَيْحٌ[4] لهذا الجَسَدِ الموَكَّلِ بهِ البَلاءُ الذي لا يَزالُ في تَصَرُّفٍ وتَقلبٍ ولا يَدُومُ لهُ شيءٌ ولا يَلْبَثُ معهُ أمْرٌ كما لا يَدُومُ للطّالعِ عليَ النجُوم طُلوعٌ ولا لِلآفِلَة منها أُفُولٌ لكنْ لا يزالُ الطّالعُ منها آفِلاً والآفِلُ طالِعاً، وكما تكونُ آلامُ الكلُومِ وانْتِقاضُ الجِرَاحاتِ كذَلِكَ مَنْ قَرِحَتْ كُلُومه بِفَقْدِ إخوانهِ بعدَ اجتماعه بهمْ.

قالَ الظبيُ والغرابُ للْجُرَذِ: إنّ حذَرَنا وحذَرَكَ وكلامكَ وإنْ كانَ بَلِيغاً فإنهُ لا يُغني عنِ السُّلَحْفاةِ شيئاً، وإنهُ كما يُقالُ: إنما يُخْتَبَرُ النّاسُ عنْدَ البَلاءِ وذُو الأمانَةِ عنْدَ الأخْذِ والْعَطاءِ، والأَهْلُ والوَلَدُ عنْدَ الفاقَةِ، والإخوانُ عنْدَ النّوَائِبِ. قال الجُرذُ: أرى منَ الحِيلةِ أنْ تَذْهَبَ أيُّها الظَّبْيُ فتقَعَ بمَنْظَرٍ منَ الْقانص كأنكَ جرِيحٌ ويقَعَ الغرابُ عليْكَ كأنهُ يأكلُ منْكَ وأسْعَى أنا فأكونُ

(١) العقبة: الطريق الصعبة في الجبل.

(٢) لج به: تمادى.

(٣) الجَدَدُ: الأرض المتسوية.

(٤) ويح: كلمة رحمة.

قريباً منَ الْقانصِ مُراقِباً له لعلَّهُ أنْ يَرْمِيَ ما معَهُ منَ الآلةِ ويَدَعَ السُّلَحْفاةَ ويَقْصِدَكَ طامِعاً فيكَ راجِياً تحْصِيلكَ، فإذا دَنا مِنكَ فَفِرَّ عنهُ رُوَيداً بحيْثُ لا ينقَطِعُ طمَعُه منكَ وأمكِنْهُ[١] منْ أخْذِكَ مرَّةً حتى يَبْعُدَ عنَّا، وانْحُ منهُ هذا النّحْوَ ما اسْتطَعْتَ فإني أرْجو ألاّ يَنْصِرفَ إلاّ وقدْ قطَعْتُ الحَبائِلَ عن السُّلَحْفاةِ وأنجُو بها.

ففعَلَ الظبيُ والغرابُ ما أمرَهُما بِهِ الجُرَذُ وتبِعَهُما الْقانصُ فاسْتجرَّهُ[٢] الظبيُ حتى أبعدَهُ عنِ الجرَذِ والسُّلَحْفاةُ والجرَذُ مُقْبِلٌ على قَطْعِ الحِبالِ حتى قطَعَها ونجا بالسُّلَحْفاةِ وعادَ القانصُ مجهوداً لاغباً[٣] فوَجدَ حِبالتَهُ مُقطّعةً؛ ففكّرَ في أمرِهِ مع الظبيِ المُتطلِّعِ فظَنَّ أنهُ خُولِطَ في عقْلِهِ[٤] وفكَّرَ في أمْرِ الظبيِ والغرابِ الذي كان كأنهُ يأكلُ منهُ وتَقْرِيضِ حِبالَتِهِ. فاستَوْحَشَ من الأرْضِ وقال هذِه أرْضُ جِنٍّ أوْ سحَرةٍ. فرَجَعَ مُولّياً لا يَلْتَمِسُ شيئاً ولا يَلْتَفِتُ إليهِ. واجتَمعَ الغرَابُ والظبيُ والجُرَذُ والسُّلَحْفاةِ إلى عَرِيشهمْ آمنين كأحْسنِ ما كانوا عليهِ.

فإذا كانَ هذا الخَلْقُ مع صِغَرِه وضَعْفِه قدْ قَدَرَ على التّخلُّص من مَرابِطِ الهلَكةِ مرَّةً بعد أخْرى بمودَّتهِ وخُلوصِها وثَباتِ قلبِه عليها واسْتمتاعِ بعضِه ببعْضٍ. فالإنسانُ الذي قدْ أعطيَ العقلَ والفهمَ، وألهمَ الخيرَ والشّرَّ، ومُنِح التمييزَ والمعرِفَةَ أوْلَى وأحْرى بالتواصلِ والتّعاضُدِ.

فهذا مثل إخوانِ الصّفاء وأئتلافِهمْ في الصُّحبةِ.

---

(١) أمكنه: مَكِّنْهُ.
(٢) استجره: استدرجه.
(٣) لاغباً: تعباً.
(٤) أي اختل عقله.

باب البُومِ والغِرْبَانِ

قال دَبْشَليمُ المَلِكُ لِبَيْدَبا الفيْلَسوفِ: قدْ سَمِعْتُ مَثَلَ إخوانِ الصَّفاءِ وتَعاوُنِهمْ، فاْضرِبْ لي مثَلَ العدُوِّ الذي لا يَنبغي أنْ يُغتَرَّ بهِ وإنْ أظْهَرَ تضرُّعاً ومَلَقاً. قال الفيلَسوفُ: مَنِ اغترَّ بالعَدُوِّ الذي لا يَزال عدوًّا أصابَهُ ما أصَابَ البُومَ منَ الغِرْبانِ. قال الملكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

قال بَيْدَبا: زعَمُوا أنهُ كانَ في جَبلٍ منَ الجِبالِ شجرَةٌ منْ شجرِ الدَّوْحِ[1] فيها وَكْرُ ألْفِ غُرابٍ وعليْهِنَّ والٍ منْ أنفُسهِنّ، وكانَ عندَ هذهِ الشجرَةِ كهْفٌ فيهِ ألْفُ بُومةٍ وعليْهِنَّ والٍ منهنَّ. فخرَجَ مِلِكُ البُومِ لبعْضِ غَدَواتِه ورَوْحاتِه[2] وفي نفْسهِ العَداوةُ لـمِلِكِ الغِرْبانِ، وفي نفْسِ الغِرْبانِ ومَلِكِها مثْلُ ذلكَ للبُومِ، فأغارَ ملكُ البومُ في أصْحابهِ على الغِرْبانِ في أوْكارِها فقَتَلَ وسَبَى منها خَلْقاً كثيراً وكانتِ الْغارَةُ لَيْلاً فلمَّا أصبَحَتِ الغِرْبانُ اجْتمَعَتْ إلى ملِكِها فقُلْنَ له: قدْ عَلِمْتَ ما لَقِينا الليْلَةَ منْ مِلِكِ البُومِ وما مِنَّا إلاَّ منْ أصْبَحَ قَتِيلاً أوْ جَريحاً أوْ مكْسورَ الجَناحِ أوْ مَنْتوفَ الرِّيشِ أو مَقْطوفَ الذَّنَبِ، وأشَدُّ ممَّا أصابَنا ضَرًّا جُرْأتُهنَّ علَيْنا وعلْمُهُنَّ بمكانِنا وهُنَّ عائدَاتٌ إلَيْنا غيرُ مُنْقطِعاتٍ عنّا لِعلْمهِنَّ بمكانِنا فإنما نحْنُ لكَ أيُّها الملِكُ! ولكَ الرَّأيُ، فانظُرْ لنا ولِنفْسِكَ وكانَ في الغِرْبانِ خمسةٌ مُعترَفٌ لهنَّ بحسْنِ الرَّأيِ يُسْتَنَدُ إليْهِنَّ في الأُمُورِ وتُلْقَى إليْهِنَّ أزِمَّةُ الأحوالِ، وكانَ الملِكُ كثيراً

(١) الدوحة: الشجرة العظيمة.

(٢) غدواته وروحاته: أي ذهابه ورجوعه.

ما يُشاوِرُهُنَّ في الأُمورَ ويأخذُ آراءَهنَّ في الحوَادِثِ والنّوازِلِ. قالَ الملِكُ للأوَّل منَ الخمسةِ: ما رَأيُكَ في هذا الأمْرِ؟ قالَ: رأيٌ قدْ سبَقَنا إليهِ العُلماءُ، وذلكَ أنّهمْ قالوا: ليْسَ للعدُوِّ الحَنِقِ[1] الذي لا طاقةَ لكَ بهِ إلاّ الهَرَبُ منهُ. قال الملكُ للثاني: ما رَأيُكَ أنتَ في هذا الأمْرِ؟ قال: رَأيي ما رَأي هذا منَ الهرَبِ. قال الملكُ: لا أرَى لَكما ذلكَ رأياً، أنْ نَرْحَلَ عنْ أوْطانِنا ونُخْلِيَها لعدُوِّنا من أوّلِ نَكْبةٍ أصابَتْنا منهُ ولا ينبغي لنا ذلكَ، ولكِنْ نَجْمعُ أمرَنا ونَستَعِدُّ لِعدُوِّنا ونُذْكِي[2] نارَ الحرْبِ فيما بَينَنا وبينَ عَدُوِّنا ونحترِسُ منَ الغِرَّةِ[3] إذا أقبَلَ إلَيْنا فنَلقاهُ مُستَعِدِّينَ ونُقاتِلُه قِتالاً غيرَ مراجِعينَ فيهِ ولا حَامِينَ عنهُ[4] وتَلقَى أطرَافُنا أطرَافَ العدُوِّ ونَتَحَرَّزُ بِحُصونِنا ونُدَافِعُ عدُوَّنا بالأناةِ مرَّةً وبالْجِلاَدِ[5] أخرَى حَيْثُ نُصِيبُ فُرْصَتَنا وبُغْيَتنا، وقدْ ثَنَيْنا عدوَّنا عنّا.

ثمّ قالَ الملِكُ للثّالِثِ: ما رأيُكَ أنتَ؟ قال: لا أرَى ما قالاَ رَأياً، ولكنْ نَبُثُّ العيُونَ[6] ونَبْعَثُ الجواسِيسَ ونُرْسِلُ الطَّلائعَ بيْننا وبينَ عدُوِّنا فنَعَلمُ هلْ يُريدُ صُلْحَنا؟ أمْ يُريدُ حَرْبَنا؟ أمْ يُريدُ الفِدْيةَ؟ فإنْ رأيْنا أمرَهُ أمْرَ طامعٍ في مالٍ لمْ نكْرَهِ الصلْحَ على خَراجٍ نُؤَدِّيهِ إليهِ في كلِّ سنَةٍ نَدْفَعُ بهِ عنْ أنفُسِنا ونَطْمئنُّ في أوْطانِنا، فإنّ منْ آراءِ المُلوكِ إذا اشْتدَّتْ شوْكةُ[7] عدُوِّهمْ فخافُوهُ على أنْفُسِهمْ وبلادِهم أنْ يجعَلوا الأموالَ جُنَّةَ[8] البلادِ والمَلِكِ

(١) الحنق: الشديد الغيظ.
(٢) نذكي: نُسَعِّر.
(٣) الغِرَّةُ: الغفلة.
(٤) حامين: راجعين.
(٥) الجلاد: القوة.
(٦) نبث العيون: نفرق الرقباء.
(٧) شوكة: قوة.
(٨) الجنة: الترس.

والرَّعيَّةِ قال الملكُ للرَّابعِ: فما رأيُكَ في هذا الصلْحِ؟ قال: لا أراهُ رأياً بلْ أنْ نُفارِقَ أوْطانَنا ونَصبِرَ على الغُرْبَةِ وشدَّةِ المعِيشةِ خَيرٌ مِنْ أنْ نُضِيعَ أحْسابَنا ونَخْضَعَ للعدُوِّ الذي نحنُ أشرَفُ منهُ، معَ أنَّ البُومَ لوْ عَرَضْنا ذلكَ علَيْهِنَّ لَمَا رَضِيْنَ منّا إلاّ بالشَّطَطِ ويقالُ في الأَمْثالِ: قارِبْ عدُوَّكَ بعْضَ المُقارَبةِ لِتَنالَ حاجتَكَ ولا تُقارِبْهُ كلَّ المُقارَبةِ فيَجترِىءَ عليْكَ ويُضْعِفَ جُندَكَ وتَذِلَّ نفْسُكَ.

ومثَلُ ذلكَ مثَلُ الخشَبةِ المَنصوبةِ في الشَّمسِ إذا أمَلْتَها قليلاً زادَ ظِلُّها وإذا جاوزْتَ بها الحَدَّ في إمالَتِكها نقَصَ الظِّلُّ. وليسَ عدوُّنا راضِياً منَّا بالدُّونِ في المُقارَبةِ. فالرأيُ لنا ولكَ المُحارَبةُ. قال الملكُ للْخامسِ: ما تقولُ أنتَ وماذا تَرَى: القِتالَ أمِ الصلْحَ أمِ الجَلاءَ عنِ الوَطنِ؟ قال: أمَّا القتالُ فلا سبيلَ للْمَرْءِ إلى قِتالِ مَنْ لا يَقْوَى عليهِ، وقد يُقالُ: إنهُ مَنْ لا يَعْرِفُ نفْسَه وعدُوَّه وقاتلَ مَنْ لا يَقْوَى عليهِ حَمَلَ نفْسَه على حَتْفِها معَ أنّ الْعاقِلَ لا يَسْتَصْغِرُ عدُوًّا. فإنَّ منِ اسْتَصْغَرَ عدُوَّهُ اغترَّ بهِ ومنِ اغترَّ بعدوِّهِ لمْ يَسْلَمْ منْه، وأنا للْبُومِ شديد الهَيْبةِ وإنْ أضْرَبْنِ عنْ قِتالِنا وقد كنتُ أهابُها قبْلَ ذلكَ. فإنَّ الحازِمَ لا يَأمَنُ عدُوَّهُ على كلِّ حالٍ فإنْ كانَ بعيداً لمْ يَأمَنْ سَطْوَتَه وإنْ كانَ مكثِباً[1] لمْ يَأمَنْ وَثْبتَهُ وإنْ كانَ وَحيداً لمْ يَأمَنْ مَكْرَه. وأحزَمُ الأقوامِ وأكيَسُهمْ[2] مَن كَرِهَ القِتالَ لأجْلِ النَّفقةِ فيه. فإنَّ ما دُونَ القِتالِ النَّفقَةُ فيهِ منَ الأموالِ والقوْلِ والعمَلِ، والقتالَ النفقَةُ فيهِ منَ الأنْفُسِ والأَبْدَانِ ورُبّما اكتُفِيَ عنهُ بالنفَقةِ اليَسيرَةِ والكلامِ اللَّيِّنِ، فلا يكونَنَّ القِتالُ لِلْبُومِ منْ رأيِكَ أيها المَلِكُ، فإنّ مَنْ قاتَلَ مَنْ لا يَقْوَى عليهِ فقدْ غَرَّرَ بنَفْسهِ.

فإنْ كانَ المَلِكُ مُحصِناً للأسرارِ مُتَخيِّراً للوُزَراءِ مَهيباً في أعيُنِ النّاسِ

---

(١) مكثباً: قريباً.

(٢) أكيسهم: أعقلهم.

بعيداً مِنْ أنْ يُقْدَرَ عليه كانَ خَلِيقاً ألاَّ يُسْلَبَ صحيح ما أوتيَ منَ الخيرِ. وأنتَ أيُّها المَلِكُ! كذلكَ والملِكُ يَزْدَادُ برأيِ وُزَرائهِ بَصيرَةً كما يَزِيدُ البحْرُ بمُجاوِرِه منَ الأنهارِ، وقدِ اسْتَشَرْتَني في أمْرٍ جوابُكَ مِني عنهُ في بعضهِ عَلانِيَةٌ وقدْ أجَبْتُكَ بهِ، وفي بعضه سِرٌّ وللأسْرارِ مَنازِلُ منها ما يَدْخُلُ فيهِ الرَّهْطُ[١] ومنها ما يُسْتعانُ فيهِ بالقوْمِ، ومنها ما يَدْخُلُ فيهِ الرَّجُلانِ. ولسْتُ أرَى لهذا السِّرِّ على قدَرِ منزِلَتهِ أنْ يُشارِكَ فيهِ إلاَّ أرْبعةُ آذانٍ ولِسانانِ، فنَهَضَ الملِكُ منْ ساعتهِ وخَلاَ بهِ فاسْتَشارَهُ، فكانَ أوَّلَ ما سألَهُ عنهُ الملِكُ أنهُ قال: هلْ تَعْلَمُ ابْتِداءَ العداوةِ ما بَيْنَنا وبينَ البُومِ؟ قال نعَمْ: كلِمةٌ تكلَّمَ بها غُرابٌ. قال الملكُ: وكيْفَ كانَ ذلك؟

[نصح الغراب للكراكي]

قال الغُرابُ: زَعَمُوا أنَّ جَماعةً منَ الكَرَاكِيِّ[٢] لَمْ يكنْ لها مَلِكٌ فأجْمَعَتْ أمْرَها على أنْ تُمَلِّكَ عليها مَلِكَ البُومِ، فبينما هيَ في مَجْمعِها إذْ وقَعَ لها غُرابٌ. فقالتْ: لوْ جاءَنا هذا الغُرابُ لأَسْتَشَرْناهُ في أمرِنا، فلمْ يَلْبَثْنَ دونَ أنْ جاءَهُنَّ الغُرابُ فاستَشَرْنَهُ فقالَ: لوْ أنَّ الطَّيْرَ بادَتْ منَ الأقاليمِ وفُقِدَ الطَّاوُوسُ والبَطُّ والنَّعامُ والحَمامُ منَ الْعالَمِ لَمَا اضْطُرِرْتُنَّ إلى أنْ تُمَلِّكْنَ عليكُنَّ البُومَ التي هيَ أقْبَحُ الطَّيْرِ مَنْظَراً وأسْوَؤُها خَلْقاً وأقلُّها عقْلاً وأشدُّها غضَباً وأبعَدُها منْ كلِّ رَحمةٍ معَ عَماها وما بِها منَ العَشَا[٣] في النهارِ، وأشدُّ منْ ذلكَ وأقْبَحُ أُمورِها سفَهُها وسوءُ أخْلاَقِها، إلاَّ أنْ تَرَيْنَ أن تُملِّكْنَها، وتكُنَّ أنتُنَّ تُدَبِّرْنَ الأُمورَ دُونَها بِرَأيِكُنَّ وعُقولِكُنَّ كما فَعَلَتِ الأرْنَبُ التي زعَمَتْ أنَّ القمَرَ مَلِكُها ثمَّ عَمِلَتْ برأيِها، قالتِ الطَّيْرُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

---

(١) الرهط: الجماعة.
(٢) الكراكي واحدة الكُرْكي: طائر معروف.
(٣) العشا: ضعف البصر.

[الأرنب تنقذ جماعتها من ملك الفيلة]

قال الغُرابُ: زَعمُوا أنَّ أرْضاً منْ أرَاضِي الفِيلَة تَتابَعَتْ عليها السِّنُونُ وأجدَبَتْ[1] وقَلَّ ماؤُها وغارَتْ عُيونها وَذَوَى[2] نَبْتُها ويَبِسَ شجرُها فأصَابَ الفيلَةَ عَطَشٌ شدِيدٌ، فشَكَوْنَ ذلكَ إلى مَلِكِهِنَّ فأرْسَلَ الملِكُ رُسُلَهُ ورُوَّادَهُ[3] في طلَبِ الماءِ في كلِّ ناحِيةٍ، فرَجَعَ إليهِ بعْضُ الرُّسُلِ فأخبَرَهُ أني قدْ وَجدْتُ بمكانِ كذَا عيْناً يُقالُ لها: عيْنُ القَمَرِ كثيرَةُ الماءِ، فتَوَجَّهَ ملِكُ الفِيلَةِ بأصْحابهِ إلى تلْكَ العيْنِ ليَشْرَبَ منْها هوَ وفيلَتُه. وكانتِ العيْنُ في أرْضٍ للأرانِبِ فوَطِئْنَ الأرانِبَ في أجْحارِهِنَّ فأهلَكْنَ منهُنَّ كثيراً، فاجْتَمَعَتِ الأرانِبُ إلى ملِكِها فقلْنَ لهُ: قدْ عَلِمْتَ ما أصابَنا مِنَ الْفيَلةِ. قالَ: لِيُحْضِرْ منكُنَّ كلُّ ذي رأيٍ رأيَهُ. فتَقدَّمَتْ أرْنَبٌ مِنَ الأرانِبِ يقالُ لها: فَيْرُوزُ.

وكانَ الملكُ يَعْرِفُها بحُسْنِ الرَّأيِ والأدَبِ فقالتْ: إنْ رأى الملِكُ أنْ يَبْعَثَني إلى الفِيلَةِ ويُرْسِلَ مَعي أمِيناً ليَرَى ويَسْمَعَ ما أقولُ ويَرْفَعَهُ إلى الملِكِ. فقالَ لها الملِكُ: أنتِ أمِينةٌ ونَرْضَى بقوْلِكَ فانطَلِقي إلى الفيلةِ وبلِّغي عنِّي ما تُريدينَ، واْعلَمي أنَّ الرَّسولَ برَأيِه وعقْلِهِ ولِينِهِ وفَضْلهِ يُخْبِرُ عنْ عقْلِ المُرْسِلِ، فعليْكِ باللِّينِ والرِّفْقِ والحِلمِ والتَّأني فإنَّ الرسولَ هو الذِي يُلَيِّنُ الصُّدورَ إذا رَفَقَ، ويُخَشِّنُ الصدُورُ إذا خَرِقَ[4]، ثمَّ إنّ الأرْنَبَ انطلَقتْ في ليْلةٍ قَمْراءَ حتى انتهَت إلى الفيَلةِ، وكَرِهَتْ أنْ تدْنُوَ منهنَّ مخافةَ أنْ يطأْنَها بأرْجُلهِنَّ فيَقْتُلْنَها وإنْ كنَّ غيرَ مُتعمِّداتٍ فأشْرَفَتْ على الجبَلِ ونادَتْ مَلِكَ الْفِيلَةِ وقالتْ لهُ: إنَّ القمَرَ أرسلَني إليْكَ والرَّسولُ غيرُ مَلُومٍ فيما يُبَلِّغُ وإنْ أغلَظَ في القوْلِ. قال ملِكُ الفيَلةِ: فما الرِّسالةُ؟ قالتْ: يقولُ لكَ إنهُ مَنْ

---

(١) السنون: أيام الجدب. وأجدبت: أمحلت.

(٢) ذوَى: ذَبُلَ.

(٣) رواد جمع رائد: وهو الطليعة.

(٤) خرِق: حَمُقَ.

عرَفَ فَضْلَ قوَّتِه على الضُّعفاءِ فاغترَّ بذلكَ في شأنِ الأقوياءِ قِياساً لهمْ على الضُّعَفاء كانت قوَّتُه وبَالاً عليهِ، وأنتَ قدْ عَرَفْتَ فضْلَ قوَّتِكَ على الدَّوَابِ فغَرَّكَ ذلكَ فعمَدْتَ إلى العيْنِ التي تُسَمَى باسْمِي فشَرِبْتَ منها وكَدَّرْتَها.

فأرْسَلَني إليكَ فَأُنْذِرُكَ ألاَّ تَعودَ إلى مِثْلِ ذلكَ، وأنتَ إنْ فعَلْتَ يُغشّي على بُصَرِكَ ويُتْلِفُ نَفْسَكَ، وإنْ كنتَ في شكٍّ منْ رسالَتي فهلُمَّ إلى العيْنِ منْ ساعَتِكَ فإنهُ مُوَافيكَ بها. فعَجِبَ ملكُ الفِيَلَةِ منْ قوْلِ الأرنبِ فانطلَقَ إلى العينِ معَ فَيْرُوزَ الرَّسولِ، فلمَّا نظَرَ إليْها رأى ضَوْءَ القمَرِ فيها فقالتْ لهُ فيرُوزَ الرَّسولُ: خذْ بخُرْطُومِكَ منَ الماءِ فاغْسِلْ بهِ وجْهَكَ واسجُدْ للقَمَرِ. فأدْخَلَ الفِيلُ خُرْطُومَهُ في الماءِ فتَحَرَّكَ فخُيِّلَ إلى الفِيلِ أنَّ القمَرَ ٱرْتَعَدَ فقالَ: ما شأنُ القمرِ ارْتَعَدَ أَتُرَاهُ غَضِبَ منْ إدْخالِي الخُرْطومَ في الماءِ؟ قالتْ فيرُوزُ الأرْنَبُ: نعمْ، فسجَدَ الفيلُ للْقمَرِ مرَّةً أخْرَى وتابَ إليْهِ ممَّا صَنَعَ وشَرَطَ ألاَّ يَعُودَ إلى مِثْلِ ذلكَ هو ولا أحدٌ منْ فِيَلَتِه.

قال الغُرابُ: ومعَ ما ذَكَرْتُ منْ أمرِ البُوم فإنَّ فيها الخِبَّ والمَكْرَ والخدِيعةَ، وشرُّ المُلوكِ المُخادِعُ، ومنِ ٱبْتُلِيَ بسُلْطانٍ مُخادِعٍ وخدَمَهُ أصابَهُ ما أصابَ الأرْنبَ والصِّفْرِدَ[1] حينَ احتَكَما إلى السِّنَّوْرِ قالَتِ الكَراكيُّ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

[حكاية الأرنب والصفرد والناسك الكذاب]

قال الغُرابُ: كانَ لي جارٌ منَ الصَّفارِدِ في أصْلِ شجرَةٍ قريبةٍ منْ وَكْرِي، وكانَ يُكْثِرُ مُواصَلَتي، ثمَّ فَقَدْتُهُ فلمْ أعلمْ أيْنَ غابَ وطالتْ غَيْبَته عنِّي. فجاءَتْ أرْنَبٌ إلى مكانِ الصِّفْرِدِ فَسكَنَتْهُ فكَرِهْتُ أنْ أخاصِمَ الأرْنبَ فلَبِثَتْ فيهِ زَماناً. ثمَّ إنَّ الصِّفْرِدَ عادَ بعدَ زَمانٍ فأتى منزِلَهُ فوَجَدَ فيهِ الأرْنَبَ

(١) الصفرد: طائر.

فقالَ لها: هذا المَكانُ لي فأنْتقِلي منهُ، قالتِ الأرنبُ: المَسْكِنُ لي وتحتَ يَدي وأنتَ مُدَّع لهُ، فإنْ كانَ لَكَ حَقٌّ فاستَعْدِ عليَّ[١]. قالَ الصِّفْرِدُ: القاضي مِنّا قريبٌ فهلُمِّي بنا إليْهِ، قالتِ الأرْنبُ: ومَنِ القاضِي؟ قال الصِّفْرِدُ: إنَّ بِساحلِ البحْرِ سِنَّوْراً مُتعَبِّداً يَصُومُ النهارَ ويقومُ الليلَ كلَّهُ ولا يُؤذِي دابّةً ولا يُهْرِيقُ[٢] دماً، عَيْشُهُ منَ الحشِيشِ وممَّا يَقْذِفُه إليهِ البَحْرُ، فإنْ أحْبَبْتِ تَحاكَمنا إليْهِ ورَضِينَا بهِ. قالتِ الأرنبُ: ما أرْضاني بهِ إذا كانَ كما وَصَفْتَ. فانْطلَقا إليْهِ. فتَبِعْتُهُما لأنظُرَ إلى حكُومةِ الصَّوَّامِ، ثمَّ إنهُما ذَهَبا إليْهِ فلمَّا بَصُرَ السِّنَّوْرُ بالأرنَبِ والصِّفْرِدِ مُقْبلَيْنِ نحوَهُ انتَصَبَ قائماً يُصلِّي وأظهَرَ الخشُوعَ والتَّنسُّكَ.

فعَجبا لِمَا رأيَا منْ حالهِ ودَنَوا منهُ هائِبيْنِ لهُ وسَلَّما عليهِ وسَألاهُ أنْ يَقْضِيَ بينهما، فأمرَهُما أنْ يَقُصَّا عليهِ القِصّةَ ففعَلاَ، قالَ لهما: قدْ بَلَغَني الكِبَرُ وثقُلَتْ أذُناي[٣] فادْنُوا مني فأسْمِعاني ما تُقولانِ فدَنَوَا منهُ وأعادَا عليْهِ القِصَّةَ وسألاهُ الحُكْمَ، فقالَ: قدْ فَهِمْتُ ما قلتُما وأنا مُبتدِئُكُما بالنَّصِيحَةِ قبلَ الحُكومةِ بينكما فأنا آمُرُكُما بتَقْوَى الله، وألاَّ تَطْلُبا إلا الحَقَّ، فإنَّ طالِبَ الحَقِّ هوَ الذي يُفْلِحُ وإنْ قُضِيَ عليهِ وطالِب الباطلِ مَخْصومٌ[٤] وإنْ قُضِيَ لهُ، وليْسَ لِصاحِبِ الدُّنْيا منْ دُنْياهُ شيءٌ لا مالٌ ولاَ صَدِيقٌ سِوَى العَمَلِ الصَّالحِ يقدِّمُه. فذُو العقْلِ حَقيقٌ أنْ يكونَ سَعْيُهُ في طلَبِ ما يَبْقَى ويعُودُ نفْعُهُ عليهِ غداً وأنْ يَمْقُتَ بسَعْيِه ما سِوَى ذلكَ منْ أمُورِ الدنْيا فإنَّ مَنزِلةَ المالِ عندَ العاقل بمنزِلةِ المَدَرِ[٥]، ومَنزلةَ النَّاسِ عندَهُ فِيما يُحِبُّ لهمْ مِنَ

(١) استَعْدِ على: استعن.

(٢) يهريق: يريق.

(٣) ثقلت أذناي: ضعف سمعي.

(٤) مخصوم: مغلوب بالخصام.

(٥) المدر: الطين اليابس.

الخير ويَكْرَهُ منَ الشرِّ بمنزلةِ نفْسِه، ثمَّ إنَّ السِّنَّوْرَ لمْ يَزَلْ يَقُصُّ عليهما منْ جِنْس هذا وأشْباهِهِ حتى أنِسَا إليهِ وأقبَلا عليهِ ودَنَوَا منهُ فوَثَبَ عليهما فقتَلَهُما.

قال الغُرابُ: ثمَّ إنَّ البُومَ تَجْمَعُ معَ ما وَصفْتُ لَكُنَّ من الشُّوْم[١] وسائرِ العيُوبِ فلاَ يكُونَنَّ تمليكُ البُوم منْ رَأيكُنَّ. فلمَّا سَمِعَ الكرَاكِيُّ ذلكَ منْ كلاَمِ الغُرابِ أضْرَبْنَ عنْ تَمليكِ البُوم، وكانَ هُناكَ بُومٌ حاضِرٌ قدْ سَمِعَ ما قالوا فقالَ للغُرابِ: لقدْ وَتَرْتَني[٢] أعظَمَ التِّرَةِ[٣] ولا أعلمُ أنهُ سَلَفَ مني إلَيْكَ سُوءٌ أوْجَبَ هذا، وبعْدُ فاعلَمْ أنَّ الفأسَ يُقْطَعُ بها الشَّجَرُ فيَعودُ يَنْبُتُ، والسَّيْفُ يَقْطَعُ اللَّحْمَ، ثم يَرْجِعُ فيَنْدَمِلُ واللِّسانُ لا يَنْدِمِلُ جُرْحُهُ ولا تُؤْسي مَقاطِعُه[٤] وأنَّ النَّصْل منَ السَّهْمِ يَغِيبُ في اللَّحْمِ ثمّ يُنزَعُ فيَخْرُجُ، وأشْباهُ النَّصْلِ منَ الكلاَمِ إذا وصَلَتْ إلى القلْبِ لمْ تُنزَعْ ولمْ تُسْتَخْرَجْ، ولكلِّ حَريقٍ مُطْفِئٌ فللِنَّارِ الماءُ، ولِلسُّمِّ الدَّواءُ، ولِلْحُزْنِ الصَّبْرُ، ولِلْعِشْقِ الفُرْقَةُ، ونارُ الحِقْدِ لا تَخْبُو[٥] أبداً.

وقدْ غَرَستمْ مَعاشِرَ الغُرْبانِ بيْنَنا وبينَكُمْ شجَرَ الحِقْدِ والعَداوَةِ والبَغْضاءِ. فلمَّا قَضَى البُومُ مَقالتَهُ ولَّى مُغْضَباً فأخبرَ مَلِكَ البُومِ بما جرَى وبكلِّ ما كانَ منْ قَوْلِ الغُرابِ. ثمَّ إنَّ الغُرابَ نَدِمَ على ما فَرَطَ منهُ وقالَ: والله لقدْ خَرِقْتُ في قوْلِي الذِي جَلَبْتُ بهِ العدَاوَةَ والبَغْضاءَ على نفْسِي وقوْمِي ولَيتَني لمْ أخْبِرِ الكَرَاكِيَّ بهذهِ الحالِ ولمْ أعْلِمْها بهذا الأمْرِ، ولعَلَّ أكثرَ الطَّيْرِ قدْ رَأى أكثرَ ممَّا رأيْتُ وعَلِمَ أضْعافَ ما عَلِمْتُ فمنَعَها من

(١) الشوم: الشر.

(٢) وترتني: أصبتني بسوء.

(٣) الترة: الظلم.

(٤) تؤسي: تداوي... ومقاطعه: أي مواضع قطعه.

(٥) تخبو: تنطفئ.

الكلام بِمِثْلِ ما تَكَلَّمْتُ اتِّقاءُ مَا لَمْ أَتَّقِ والنَّظَرُ فيما لَمْ أنظُرْ فيهِ منْ حِذَارِ العَواقِبِ، لاسِيَّما إذا كانَ الكلامُ أفظَعَ كلاَمٍ يَلْقَى منهُ سامِعهُ وقائِلُهُ المَكرُوهَ ممَّا يُورِثُ الحِقْدَ والضغِينةَ، فلاَ يَنْبغي لأشْباهِ هذا الكلامِ أنْ يُسَمَّى كلامَاً ولكِنْ سِهاماً، والْعاقِلُ وإنْ كانَ واثِقاً بقُوَّتِه وفضْلِهِ لا يَنبغي أنْ يَحْمِلَهُ ذلكَ على أنْ يجْلِبَ العَداوَةَ لنفْسهِ اتِّكالاً على ما عندهُ منَ الرَّأْيِ والقوَّةِ كما أنهُ وإنْ كانَ عِنْدَهُ التِّرْياقُ لا يَنبغي لهُ أنْ يَشْرَبَ السُّمَّ اتِّكالاً على ما عِنْدَهُ، وصاحِبُ حُسْنِ العمَلِ وإنْ قَصَّرَ بهِ القوْلُ في مُسْتقبَلِ الأمْرِ كانَ فضلُهُ بَيِّناً واضِحاً في العاقِبَةِ والاخْتِيارِ.

وصاحِبُ حُسْنِ القوْلِ وإنْ أعْجَبَ النّاسَ منهُ حُسْنُ صفَتِه للأُمُورِ لَمْ تُحْمَدْ عاقبةُ أمرِه وأنا صاحِبُ القولِ الذِي لا عاقبةَ لهُ مَحْمودَةً، أليْسَ منْ سَفَهِي اجترَائي على التكلُّم في الأمْرِ الجَسيمِ لا أسْتَشيرُ فيهِ أحداً، ولَمْ أعْمِلْ فيهِ رأياً، ومَنْ لَمْ يَستَشِرِ النُّصَحاءَ الأوْلِياءَ وعَمِلَ برَأيِه منْ غيرِ تَكْرَارِ النَّظَرِ والرَّوِيَّةِ لَمْ يَغْتبِطْ بمَواقِعِ رَأيِه، فما كانَ أغْناني عمَّا كَسَبْتُ يَوْمِي هذا ومَا وَقَعْتُ فيهِ منَ الهَمِّ... وعاتَبَ الغُرابُ نفْسَهُ بهذا الكلامِ وأشباهِهِ وذَهَبَ.

فهذا ما سَألتَني عنهُ منِ ابتِدَاءِ العدَاوَةِ بينَنا وبَينَ البُومِ، وأمَّا القِتالُ فقدْ عَلِمْتَ رَأيِي فيهِ وكَرَاهتي لهُ ولَكنَّ عندِي منَ الرَّأيِ والحِيلةِ غيرَ القِتالِ ما يكُونُ فيهِ الفَرَجُ إنْ شاءَ الله تعالى، فإنهُ رُبَّ قوْمٍ قدِ احْتالوا بآرائهِمْ حتى ظَفِرُوا بما أرادُوا، ومنْ ذلكَ حدِيثُ الجَماعةِ الذِينَ ظَفِرُوا بالنَّاسِكِ وأخَذُوا عَرِيضَهُ[1] قال الملِكُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

[أمر اللصوص والناسك]

قال الغُرابُ: زعَمُوا أنَّ ناسِكاً اشترَى عَرِيضاً ضَخْماً ليَجْعلَهُ قُرْباناً،

(١) العريض: من المعز ما بلغ السنة.

فانطلَقَ بهِ يقُودُهُ فبَصُرَ بهِ قوْمُ منَ المَكَرَةِ فائْتمَرُوا[١] بينهم أنْ يأخذُوهُ منَ النّاسِكِ فعَرَضَ لهُ أحدُهمْ فقال لهُ: أيُّها النّاسِكُ! ما هذا الكلْبُ الذِي معَكَ؟ ثمّ عَرَضَ له الآخَرُ فقالَ لصاحبِه: ما هذا ناسِكاً لأنَّ النَّاسِكَ لا يقُودُ كلْباً، فلمْ يَزالوا معَ النَّاسِكِ على هذا ومِثْلِهِ حتى لمْ يَشُكَّ أنَّ الذي يقودُهُ كلْبٌ وأنَّ الذِي باعَهُ إيَّاهُ سَحَرَ عينَيْهِ، فأطلَقَهُ منْ يدِهِ فأخذَهُ الجَماعة المُحْتالونَ ومَضَوْا بهِ.

وإنما ضَرَبْتُ لكَ هذا المثَلَ لِمَا أرْجُو أنْ نُصِيبَ منْ حاجَتِنا بالرِّفْقِ والحِيلةِ، وإني أُرِيدُ منَ الملِكِ أنْ يَنْقُرَني[٢] على رُؤُوسِ الأشْهادِ ويَنْتِفَ رِيشِي وذَنَبي ثمَّ يَطْرَحَني في أصْلِ هذهِ الشجَرَةِ ويَرْتَحِلَ الملِكُ وجُنودُهُ إلى مكانِ كذَا، فأَرْجُو أني أصبرُ وأطَّلِعُ على أحْوَالِهِمْ ومَواضِعِ تحْصِينِهِمْ وأبْوابِهِمْ فأُخادِعُهمْ وآتي إلَيْكُمْ لِنَهْجُمَ عَلَيْهِمْ ونَنالَ منهمْ غرَضَنا إنْ شاءَ الله تعالى. قالَ الملكُ: أتَطِيبُ نَفْسُكَ لذلكَ. قالَ نعَمْ: وكيْفَ لا تَطِيبُ نفْسِي لذلكَ وفيهِ أعظَمُ الرَّاحاتِ للْملِكِ وجُنودِهِ، ففعَلَ الملِكُ بالغُرَابِ ما ذَكَرَ ثمَّ ارْتَحَلَ فجعَلَ الغُرابُ يئِنُّ ويَهْمِسُ حتى سَمِعَهُ البُومُ ورأيْنَهُ يَئِنُّ فأخبَرْنَ مِلِكَهُنَّ بذلِكَ فقَصَدَ نحوَهُ لِيَسألَهُ عنِ الغِرْبانِ، فلمَّا دَنا منهُ أمَرَ بُوماً أنْ يسألَه.

فقالَ لهُ: مَنْ أنتَ؟ وأيْنَ الغربْان؟ فقالَ: أمَّا اسمي ففُلاَنٌ، وأمَّا ما سألْتَني عنهُ فإني أحْسَبُكَ تَرَى أنَّ حالي حالُ مَنْ لا يَعْلَمُ الأسرَارَ. فقيلَ لملِكِ البُومِ هذا وَزِيرُ ملِكِ الغِرْبانِ وصاحِبُ رأيِهِ فنَسألُه بأيِّ ذَنْبٍ صُنِعَ بهِ ما صُنِعَ، فسُئِلَ الغُرَابُ عنْ أمْرِهِ، فقالَ إنَّ مَلِكَنا استَشارَ جَماعتنا فيكُنَّ وكُنتُ يوْمئذٍ بمَحْضَرٍ منَ الأمْرِ فقالَ: أيها الغِرْبانُ! ما تَرَوْنَ في ذلكَ؟

---

(١) ائتمروا: تشاوروا.

(٢) ينقرني: يعيبني.

فقُلْتُ: أيها الملكُ! لا طاقةَ لنَا بِقِتالِ البُومِ لأنهُنَّ أشدُّ بَطشاً وأحَدُّ قلْباً مِنَّا، ولكِنْ أرَى أنْ نَلْتَمِسَ الصُّلْحَ ثمّ نَبْذُلُ الفِدْيَةَ في ذلكَ فإنْ قَبِلَتِ البُومُ ذلكَ منّا وإلا هَرَبْنا في البِلاَدِ، وإذا كانَ القِتالُ بَينَنا وبينَ البُوم كانَ خيراً لهُنَّ وشَرًّا لنا، فالصُّلْحُ أفضلُ منَ الخُصومةِ، وأمَرْتُهُنَّ بالرجُوعِ عنِ الحَرْبِ وضَرَبْتُ لهنَّ الأمْثالَ في ذلكَ، وقلتُ لهُنَّ إنَّ العدُوَّ الشَّدِيدَ لا يَرُدُّ بأسَهُ وغضَبَهُ مثْلُ الخضُوعِ لهُ، ألاَ تَرَيْنَ إلى الحشِيشِ كيْفَ يَسْلَمُ منْ عاصِفِ الرِّيحِ لِلينِه ومَيْلهِ معَها حيْثُ مالَتْ فَعَصَيْنَني في ذلك وزَعَمْنَ أنهنَّ يُرِدْنَ القِتالَ واتَّهَمْنَني فِيما قلْتُ، وقُلْنَ: إنكَ قدْ مالأْتَ البُومَ علَيْنا[1] ورَدَدْنَ قوْلِي ونَصِيحتي وعذَّبْنَني بهذاَ العذَابِ وتركَني الملِكُ وجنُودُه وارْتَحَلَ ولا عِلْمَ لي بهِنَّ بعدَ ذلكَ.

فلمَّا سَمِعَ مِلِكُ البُومِ مَقالةَ الغُرابِ قالَ لبعْضِ وُزَرائهِ: ما تقُولُ في الغُرابِ وما تَرَى فيهِ؟ قال: ما أرَى إلاّ المُعاجلةَ لهُ بالقتْلِ فإنَّ هذا أفضَلُ عُددِ الغِرْبانِ[2] وفي قَتْلهِ لنا راحَةٌ منْ مَكْرِهِ وفَقْدُهُ على الغِرْبانِ شَدِيدٌ، ويُقالُ: مَنْ ظَفِرَ بالسَّاعةِ التي فيها يَنْجَحُ العمَلُ ثمَّ لا يُعاجِلُه بالذِي ينبَغي لهُ فلَيْسَ بحكيم، ومَنْ طَلَبَ الأمْرَ الجَسِيمَ فأمكنَهُ ذلكَ فأغْفلَهُ[3] فاتَهُ الأمْرُ، وهوَ خلِيقٌ ألاَّ تَعودَ الفُرْصةُ ثانيةً، ومَنْ وَجَدَ عدُوَّهُ ضَعِيفاً ولمْ يُنْجِزْ[4] قتْلَهُ نَدِمَ إذا اسْتَقْوىَ ولمْ يَقْدِرْ عليهِ. قالَ الملِكُ لوَزِيرٍ آخرَ: ما تَرَى أنتَ في هذا الغُرابِ؟ قالَ: أرَى ألاَّ تَقْتُلَهُ، فإنَّ العدُوَّ الذَّليلَ الذِي لا ناصِرَ لهُ أهْلٌ لأنْ يُسْتَبْقَى ويُرْحَمَ ويُصْفَحَ عنْهُ لاسِيَّما المُسْتَجِيرُ الخائِفُ فإنهُ أهْلٌ لأنْ يُؤَمَّنَ، والعدُوُّ إذا صَدَرَتْ منهُ المنْفَعَةُ ولوْ كانَ غيرَ مُتعَمِّدٍ لَها أهْلٌ لأنْ

(١) مالأه: ساعده.

(٢) عدد: جمع عدة وهو ما أعددته لحوادث الدهر.

(٣) أغفله: تركه.

(٤) ينجز: يعجل.

يُصْفَحَ عنهُ بِسَبَبِها، كالتَّاجرِ الذِي عَطَفَ على سَارِقٍ لمَكانةِ امْرَأتِه عنْدَهُ. قال الملكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

[قصة اللص الذي أصلح بين التاجر وزوجته]

قال الوَزيرُ: زَعموا أنهُ كانَ تاجِرٌ كثيرُ المالِ والمَتاعِ وكانتْ له امْرَأةٌ ذاتُ جَمالٍ، وكان بينه وبينها وحشةٌ وأنَّ سارِقاً تَسَوَّرَ بيْتَ التّاجرِ فدَخَلَ فوجدَهُ نائماً ووَجَدَ امرَأتَهُ مستَيْقِظَةً فذُعِرَتْ منَ السَّارِقِ ووثَبَتْ إلى التَّاجِرِ فالْتَزَمَتْهُ[1] واعتَنَقَتْهُ وقدْ كانَ يَوَدُّ لوْ دَنَتْ منهُ يوْماً مَا، فاستَيْقَظَ التَّاجِرُ بالتزَامِها إيَّاهُ فقال: منْ أيْنَ لي هذِهِ النِّعْمةُ؟ ثمَّ بَصُرَ بالسَّارِقِ فقالَ: أيُّها السَّارِقُ أنتَ في حِلٍّ ممّا أخَذْتَ منْ مالِي ومَتاعي ولكَ الفضْلُ بما عَطَّفَتَ قلْبَ زَوْجتي على مُعانَقتي.

قالَ مَلِكُ البُومِ لوزيرٍ آخرَ منْ وُزَرائهِ: ما تقُولُ في الغُرابِ؟ قالَ: أرَى أنْ تَستَبْقِيَهُ وتُحْسِنَ إليهِ فإنهُ خَلِيقٌ أنْ يَنْصحَكَ، والعاقلُ يَرى مُعاداة بعْضِ أعدَائهِ بعضاً ظَفَراً حسَناً ويَرى اشْتِغالَ بعْضِ أعدائهِ ببَعْضٍ خَلاصاً لنفْسهِ منهمْ ونَجاةً كنَجاةِ النّاسكِ منَ اللّصِّ والشّيْطانِ حينَ اختَلَفَا عليهِ. قالَ الملِكُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

قال الوزيرُ: زَعَمُوا أنَّ ناسكاً أصابَ منْ رجُلٍ بقَرَةً حَلُوبةً، فانطلَقَ بها يقُودُها إلى مَنزلِهِ فعَرَضَ لهُ لِصٌّ أرادَ سَرِقتَها وتَبِعَهُ شيْطانٌ يُريدُ اخْتِطافَهُ. فقالَ الشيْطانُ للّصِّ: مَنْ أنتَ؟ قالَ: أنا اللصُّ أريدُ أنْ أسرقَ هذهِ البقَرَةَ مِنَ الناسكِ إذا نامَ فَمنْ أنْت؟ قال: أنا الشيْطانُ أريدُ اختْطِافَه إذا نامَ وأذْهَبُ بهِ. فانْتَهيا على هذا إلى المنزلِ فدَخَلَ الناسِكُ مَنزلَهُ ودخَلاَ خَلفهُ، وأدخَلَ البقرةَ فربَطَها في زَاوِيةِ المَنزلِ وتَمشَّى ونامَ، فأقبَلَ اللّصُّ والشيْطانُ

---

(١) التزمته: اعتنقته.

يَأتمِرَانِ فيهِ واختَلَفا على مَنْ يَبْدَأ بشُغلهِ أوَّلاً. فقالَ الشيْطانُ للّصِّ: إنْ أنتَ بَدَأتَ بأخذِ البقرَةِ ربّما استَيْقَظَ وصاحَ واجتَمَعَ الناسُ فلاَ أقدِرُ على أخْذِهِ فانتَظِرْني رَيْثَما آخُذُهُ وشأنَكَ وما تُرِيدُ. فأشفَقَ[1] اللصُّ إنْ بَدَأ الشَّيْطانُ باخْتِطافهِ أنْ يَستَيْقِظَ فلا يَقْدِرُ على أخذِ البقرَةِ فقالَ: لا بَلِ انْتَظِرْني أنتَ حتى آخُذَ البقرةَ وشأنّكَ وما تُرِيدُ فلمْ يَزالاَ في المُجادَلةِ هكذا حتى نادَى اللصُّ: أيُّها الناسِكُ! انتَبِهْ فهذَا الشيْطانُ يُريدُ اخْتِطافَكَ، ونادَى الشيْطانُ أيُّها النّاسِكُ! انتَبِهْ فهذَا اللصُّ يُرِيدُ أنْ يَسرِقَ بَقَرَتَكَ، فانتَبَهَ النّاسِكُ وجيرَانُهُ بأصواتِهما وهَرَبَ الخَبيثانِ.

فقالَ الوزيرُ الأوَّل الذِي أشارَ بقتْلِ الغُرابِ: أظُنُّ أنَّ الغرابَ قدْ خَدَعَكُنَّ ووقَعَ كلامُهُ في نفْسِ الغَبيِّ مِنكُنَّ مَوْقِعَهُ فتُرِدْنَ أنْ تَضَعْنَ الرَّأيَ في غيرِ مَوْضِعهِ، فَمهلاً مَهْلاً أيها الملِكُ! عنْ هذا الرَّأيِ ولا تَكُونَنَّ كالرَّجُلِ الذِي كَذَّبَ بِما رَأى، وصَدَّقَ بما سَمِعَ، وانْخَدَعَ بالمُحَالِ.

فلمْ يَلتَفِتِ الملِكُ إلى قوْلِهِ وأمَرَ بالغرَابِ أنْ يُحْمَلَ إلى مَنازِلِ البُومِ ويُكْرَمَ ويُسْتَوْصَى بهِ خيراً، ثمّ إنّ الغرَابَ قال للْملِكِ يوْماً وعندَهُ جَماعةٌ منَ البُومِ وفيهِنَّ الوزيرُ الذِي أشارَ بقَتلهِ: أيُّها الملِكُ! قدْ عَلِمْتَ ما جَرَى عليَّ منَ الغِرْبانِ وإنهُ لا يَستَرِيحُ قلبي دُونَ الأخْذِ بِثأرِي منهُنَّ، وإني قدْ نظَرْتُ في ذلكَ فإذا بي لا أَقْدِرُ على ما رُمْتُ لأني غُرَابٌ، وقدْ رُوِيَ عن العُلماءِ أنّهمْ قالوا: مَنْ طابَتْ نفْسهُ بأنْ يُحْرِقَها فقدْ قَرَّبَ لله أعظَمَ القُرْبانِ لا يَدْعُو عندَ ذلكَ بدَعْوَةٍ إلاَّ ٱستُجيبَ لهُ.

فإنْ رأى الملِكُ أنْ يَأمُرَني فأحْرِقَ نفْسِي وأدْعُوَ رَبي أنْ يُحوِّلَني بُوماً فأكونَ أشدَّ عدَاوَةً للْغِرْبانِ وأقْوَى بأساً عليْهِنَّ لَعَلّي أنْتقِمُ منهُنَّ. فقالَ الوزيرُ الذِي أشارَ بِقَتلهِ: ما أشْبَهَكَ في خير ما تُظْهِرُ وشرِّ ما تُخْفي إلاَّ بالخمرَةِ

---

(١) أشفق: خشي.

الطيِّبَةِ الطَّعْمِ والرِّيحِ المُنْقَعِ فيها السُّمُّ، أرأيْتَ لوْ أحْرَقْنا جِسْمَكَ بالنّارِ كانَ جَوْهَرُكَ وطِباعُكَ مُتغيِّرَةً ألَيْسَتْ أخلاقُكَ تَدُورُ معَكَ حيْثما دُرْتَ وتَصيرُ بعدَ ذلكَ إلى أصْلِكَ وطِينتِكَ، كالْفأرَةِ التي خُيِّرَتْ في الأزْواجِ بين الشَّمْسِ والرِّيحِ والسَّحابِ والجَبَلِ فلمْ يَقَعِ اخْتِيارها إلاَّ على الجُرَذِ، قيلَ لهُ: وكيفَ كان ذلكَ؟

[الناسك والفأرة]

قالَ: زعَمُوا أنَّ ناسِكاً مُسْتجابَ الدَّعْوَةِ بَينما هوَ ذاتَ يوْمٍ جالِسٌ على ساحلِ البَحْرِ إذْ مَرَّتْ بهِ حِدَأَةٌ[1] في رِجْلِها دَرْصُ[2] فأرَةٍ، فوَقَعَتْ منها عنْدَ النَّاسِكِ وأدْرَكَتْهُ لَها رَحمٌ فأخَذَها ولَفَّها في ورَقَةٍ وذَهَبَ بها إلى مَنزِلِهِ، ثمَّ خافَ أنْ تَشُقَّ على أهلِهِ تَرْبِيَتُها، فدَعا ربَّهُ أنْ يُحوِّلها جارِيةً فتَحَوَّلَتْ حَسْناءَ، فانطلَقَ بها إلى امرَأتِهِ فقالَ لها: هذِهِ أبنَتي فاصْنَعي معَها صَنِيعَكَ بوَلَدِي، فلمَّا بَلَغَتْ مبلَغَ النِّسَاءِ قالَ لها النَّاسِكُ: يا بُنَيَّةُ إنكِ قدْ أدْرَكْتِ ولا بُدّ لَكِ من زَوْجٍ فاخْتاري مَنْ أحْبَبْتِ حتى أزَوِّجَكِ بهِ؟ فقالتْ: أمَّا إذْ خَيَّرْتَني فإني أخْتارُ زَوْجاً يكُونُ أقْوى الأشْياءِ.

فقالَ النَّاسِكُ: لعَلَّكِ تُريدِينَ الشمْسَ. ثمَّ انطلَقَ إلى الشَّمْسِ فقالَ لها: أيُّها الخَلْقُ الْعظيمُ! لِي جَاريةٌ وقدْ طلَبَتْ زَوْجاً يكونُ أقْوى الأشْياءِ فهلْ أنتَ مُتزَوِّجُها. فقالت الشَّمْسُ: أنا أدُلُّكَ على مَنْ هُوَ أقْوَى منِّي، السَّحابُ الذي يُغطِّيني ويَرُدُّ جِرْمَ شُعاعِي ويَكْسِفُ أشِعَّةَ أنْوارِي. فذَهَبَ النَّاسِكُ إلى السَّحابِ فقالَ لهُ ما قالَ للشمْسِ، فقالَ السَّحابُ: وأنا أدُلُّكَ على مَنْ هو أقْوَى منِّي، فاذْهَبْ إلى الرِّيحِ التي تُقْبِلُ بي وتدْبِرُ وتَذْهَبُ بي شَرْقاً وغَرْباً، فجاءَ النَّاسِك إلى الرِّيحِ فقالَ لها كقَوْلِهِ لِلسَّحابِ فقالتْ: وأنا

---

(١) الحِدَأَةُ: طائر معروف.

(٢) الدرص بالفتح ويكسر: ولد الفأرة.

أَدُلُّكَ على مَنْ هوَ أقْوَى منّي وهو الجَبَلُ الذي لا أقْدِرُ على تحرِيكهِ فمضَى إلى الجبَلِ فقالَ لهُ القوْلَ المذْكُورَ فأجابَهُ الجبَلُ وقالَ لهُ: أنا أدُلّكَ على مَنْ هو أقْوَى منّي: الْجرَذُ الذِي لا أسْتطيعُ الامْتِناعَ منْهُ إذا خَرقَني واتَّخذَني مَسكناً. فانْطلقَ النَّاسِكُ إلى الجُرَذِ فقال لهُ: هلْ أنتَ مُتزَوِّجٌ هذهِ الجارِيةَ؟ فقال: وكيْفَ أتزَوَّجها وجُحْرِي ضَيِّقٌ، وإنما يَتزَوَّجُ الجُرَذُ الْفأرَةَ، فدَعا النَّاسِكُ ربَّهُ أنْ يُحَوِّلَها فأرَةً كما كانتْ وذلكَ برِضَا الجارِيةِ. فأعادَها الله إلى عُنْصُرِها[1] الأوَّلِ فانْطلقَتْ معَ الجُرَذِ.

فهذاَ مَثَلُكَ أيها المُخادِعُ، فلمْ يَلتَفِتْ مَلِكُ البُومِ إلى ذلكَ القَوْمِ ورَفَقَ بالغُرابِ ولمْ يَزْدَدْ لهُ إلاَّ إكْراماً، حتى إذا طابَ عيْشُهُ ونَبَتَ رِيشهُ واطَّلَعَ على ما أرَادَ أنْ يَطَّلِعَ عليه رَاغَ رَوْغَةً فأتَى أصْحابَهُ بما رَأى وسَمعَ، فقالَ لِلملِكِ: إنِي قدْ فَرَغْتُ ممَّا كنتُ أرِيدُ ولمْ يَبْقَ إلاَّ أنْ تَسْمَعَ وتُطيعَ. قال لهُ: أنا والجنْدُ تحتَ أمْرِكَ فاْحتَكِمْ كيْفَ شئْتَ. قال الغُرابُ: إنَّ البُومَ بمكانِ كذَا في جبَلٍ كثيرِ الحطَبِ، وفي ذلكَ الموْضِعِ قَطيعٌ الغنَمِ معَ رجُلٍ راعٍ ونحْنُ مُصِيبُونَ هُناكَ ناراً ونُلْقِيها في أنْقابِ البُومِ ونَقْذِفُ علَيْها منْ يابِسِ الحطَبِ ونُرَوِّحُ عليْها ضَرْباً بأجْنِحَتِنا حتى تَضْطَرِمَ النَّارُ في الحطَبِ، فَمنْ خَرَجَ منهُنَّ احتَرَقَ ومنْ لَمْ يَخْرُجْ ماتَ بالدخَانِ موْضعَهُ، ففَعَلَ الغِرْبانُ ذلكَ فأهلَكْنَ البُومَ قاطِبةً ورَجَعْنَ إلى مَنازِلِهِنَّ سالِماتٍ آمِناتٍ.

ثمَّ إنَّ مَلِكَ الغِرْبانِ قالَ لذلكَ الغُرابُ: كيْفَ صَبَرْتَ على صُحْبَةِ البُومِ ولا صَبرَ للأخْيارِ على صُحْبةِ الأشْرَارِ؟ قال الغُرابُ: إنَّ ما قلتَهُ أيُّها الملِكُ! لَكذلِكَ، ولكِنَّ الْعاقلَ إذا أتاهُ الأمْرُ الفظيعُ العظيمُ الذي يَخافُ منْ عدَمِ تحَمُّلهِ الجائِحةَ على نفْسهِ وقومه لم يَجْزَعْ منْ شِدّةِ الصبرِ عليْهِ لِمَا يَرْجُو مِنْ أنْ يُعْقِبَهُ صَبرُهُ حُسْنَ العاقبَةِ وكَثيرَ الخَيرِ، فلمْ يَجِدْ لذلكَ ألَماً ولمْ تَكْرَهْ

(١) عنصرها: أصلها.

نفْسُهُ الخُضُوعَ لمنْ هوَ دُونَهُ حتى يَبلُغَ حاجتَهُ فيَغْتَبِط بخاتِمةِ أمرِهِ وعاقِبةِ صَبرِهِ. فقالَ الملِكُ: أخبِرْني عنْ عُقولِ البُومِ. قالَ الغُرابُ: لمْ أجِدْ فيهِنَّ عاقِلاً إلاَّ الذي كانَ يَحُثُّهُنَّ على قَتْلي وكانَ حَرَّضَهُنَّ على ذلكَ مِراراً فكُنَّ أضْعَفَ شيْءٍ رَأياً فلمْ يَنظُرْنَ في أمرِي ويَذْكُرْنَ أني قدْ كنتُ ذَا مَنزِلةٍ في الغِرْبانِ، وأني أُعَدُّ منْ ذوِي الرَّأيِ، ولمْ يَتَخَوَّفْنَ مَكْرِي وحِيلتي ولا قَبِلْنَ منَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ ولا أخفَيْنَ دُوني أسرارَهُنَّ.

وقدْ قالَتِ العُلماءُ: يَنبغي للمِلِكِ أنْ يُحَصِّنَ أمورَهُ منْ أهلِ النَّمِيمةِ ولا يُطْلِعَ أحداً منهمْ على مَواضِعِ سِرِّهِ، فقالَ الملِكُ: ما أهْلَكَ البُومَ في نَفْسي إلاَّ البَغْيُ وضَعْفُ رأيِ الملكِ ومُوافقَتُهُ وُزَراءَ السُّوءِ. فقالَ الغُرَابُ: صَدَقْتَ أيها الملِكُ! إنهُ قَلَّما ظَفِرَ أحدٌ بِغنًى ولمْ يَطْغَ، وقَلما حَرَصَ الرَّجُلُ على النّساءِ ولم يَفتَضِحْ، وقَلَّ مَنْ وَثِقَ بِوُزَراءِ السُّوءِ وسَلِمَ منْ أنْ يَقَعَ في المَهالِكِ، وكان يُقالُ لا يَطْمَعنَّ ذُو الكِبْرِ في حُسْنِ الثَّناء، ولا الْخَبُّ في كَثرَةِ الصَّدِيقِ، ولا السَّيِىءُ الآدابِ في الشرَفِ، ولا الشَّحيحُ في البِرِّ، ولا الحَريصُ في قلةِ الذنوبِ، ولا المَلِكُ المُخْتالُ المُتهاوِنُ بالأمورِ الضَّعيفُ الوُزَراءِ في ثَباتِ مُلكهِ وصَلاحِ رَعيَّتِهِ.

قال الملِكُ: لقد احْتَمَلْتَ مشَقَّةً شدِيدةً في تصنُّعِكَ للبُومِ وتضرُّعِكَ إليهِنَّ. قال الغُرابُ: إنهُ مَنِ احتَمَلَ مشَقَّةً يرْجُو نفْعَها ونحَّى عنْ نفْسهِ الأنَفةَ والحَمِيَّة ووَطَّنَها على الصبرِ حَمِدَ غِبَّ[1] رَأيِه كما صَبَرَ الأسوَدُ على حَمْله ملِكَ الضَّفادِعِ على ظَهرِهِ وشَبِعَ بذلكَ وعاشَ. قال الملِكُ: وكيْفَ كانَ ذلِكَ؟

[محاورة بين ملك الضفادع والثعبان الأسود]

قال الغُرابُ: زعَمُوا أنَّ أسْوَدَ منَ الحَيَّاتِ كَبِرَ وضَعُفَ بصرُهُ وذَهَبَتْ

(١) غب رأيه: أي عاقبته.

قوَّتُهُ فلمْ يَسْتطِعْ صيْداً ولمْ يَقْدِرْ على طَعام، وأنّهُ ٱنْسابَ يَلتَمِسُ شيئاً يَعيشُ بهِ حتى انتَهَى إلى عيْنٍ كثيرَةِ الضَّفادِعِ قدْ كانَ يأتِيها قبْلَ ذلكَ فيُصِيبُ منْ ضَفادِعِها رِزْقَهُ، فرَمَى نفْسَهُ قريباً منهُنَّ مُظْهِراً للكآبة والحُزْنِ.

فقالَ لهُ ضِفْدِعٌ: ما لِي أرَاكَ أيُّها الأسوَدُ كئيباً حزِيناً؟ قالَ: ومنْ أحْرَى[1] بطُولِ الحُزْنِ منِّي. وإنما كانتْ أكثرُ مَعِيشتي ممَّا كنْتُ أُصِيبُ منْ الضَّفادعِ فابْتُلِيتُ ببَلاءٍ حُرِّمَتْ عليَّ الضَّفادِعُ منْ أجْلهِ حتى إنِّي إذا التَقَيْتُ ببعْضِها لا أقْدِرُ على إمْسَاكهِ، فانطلَقَ الضِّفْدعُ إلى مَلِكِ الضفادع فبَشَّرَهُ بما سَمِعَ منَ الأسوَدِ، فأتى ملِكُ الضَّفادِعِ إلى الأسْوَدِ. فقالَ لهُ: كيْفَ كانَ أمْرُكَ؟ قال: سَعَيْتُ منْذُ أيّام في طلَبِ ضِفْدِعٍ وذلكَ عنْدَ المَساءِ فاضْطُرِرْتُ إلى بيتِ ناسكٍ ودَخَلْتُ في أثَرِه في الظُّلْمَةِ وفي البيْتِ ابْنٌ للنَّاسكِ، فأصَبْتُ إصْبَعَهُ فظَنَنْتُ أنها الضِّفْدِعُ فلَدَغْتُهُ فماتَ فخرَجْتُ هارِباً فتبِعَني النّاسِكُ في أثَرِي ودَعا عليَّ ولَعنَني وقالَ: كما قتَلْتَ ابْني البرِيءَ ظُلْماً وتَعدِّياً أدْعُو عليْكَ أنْ تَذِلَّ وتَصيرَ مَرْكَباً لملِكِ الضَّفادِعِ فلا تَسْتَطِيعَ أخْذَها ولا أكْلَ شيءٍ منها إلاّ ما يَتَصَدَّقُ به عليْكَ مَلكُها فأتيْتُ إليْكَ لِتَرْكبَني مُقِرًّا بذلكَ رَاضِياً بهِ، فرَغِبَ ملِكُ الضفادِعِ في رُكُوبِ الأسْوَدِ وظَنَّ أنَّ ذلكَ فخرٌ لهُ وشرَفٌ ورِفْعةٌ فرَكِبَهُ واستَطابَ ذلكَ. فقالَ لهُ الأسْوَدُ: قدْ عَلِمْتَ أيُّها الملِكُ أني مَحْرُومٌ فاجْعَلْ لي رِزْقاً أعِيشُ بهِ. قالَ ملِكُ الضفادِعِ لعَمْرِي لا بدَّ لكَ منْ رِزْقٍ يقُومُ بكَ إذْ كنْتَ مَرْكَبي فأمَر لهُ بِضِفْدِعَيْنِ يُؤْخَذانِ في كلِّ يوْمٍ ويُدْفَعانِ إليْهِ، فَعاشَ بذلكَ ولمْ يَضُرَّهُ خُضُوعُه للْعدُوِّ الذَّليلِ بلِ ٱنتَفَعَ بذلكَ وصارَ لهُ رِزْقاً ومَعيشةً.

وكذلكَ كانَ صَبرِي على ما صَبَرْتُ عليهِ ٱلْتِماساً لهذا النَّفْعِ العظيمِ الذي اجْتَمَعَ لنا فيهِ الأمْنُ والظَّفَرُ وهَلاَكُ العدُوِّ والرَّاحةُ منهُ، ووَجَدْتُ

---

(١) أحرى: أولى.

صَرْعةَ[١] اللَّينِ والرِّفْقِ أَسْرَعَ وأَشَدَّ اسْتِئْصالاً للعدُوِّ منْ صَرْعَةِ المُكابرَةِ، فإنَّ النّارَ لا تَزِيدُ بحِدَّتِها وحَرِّها إذا أصابَتْ الشجرَةَ على أنْ تُحْرِقَ ما فوْقَ الأرْضِ منها، والماءُ بلِينِهِ وبَرْدِه يَسْتأصِلُ ما تحْتَ الأرْضِ منها، ويُقالُ: أرْبعةَ أشْياءَ لا يُسْتَقلُّ قليلُها: النّارُ، والمرَضُ، والعدُوُّ، والدَّيْنُ. قال الغُرابُ: وكلُّ ذلكَ كانَ منْ رأيِ الملكِ وأدَبهِ وسَعادَةِ جَدِّهِ. وإنهُ كانَ يُقالُ: إذا طلَبَ اثْنانَ أمْراً ظَفِرَ بهِ منهُما أفضلُهُما مُروءَةً، فإن اعتَدَلاَ في المُروءة فأشدُّهُما عزْماً، فإن استَوَيا في العَزْمِ فأسْعَدُهُما جَدّاً.

وكانَ يُقالُ: مَنْ حارَبَ الملكَ الحازِمَ الأرِيبَ المُتضرِّعَ[٢] الذي لا تُبْطِرُهُ[٣] السَّرّاءُ ولا تُدْهشُه الضَّرّاءُ كانَ هوَ داعيَ الحَتْفِ إلى نفْسِهِ، ولا سِيَّما إذا كانَ ذلكَ أيُّها الملكُ العالِمُ بفُرُوضِ الأعمالِ ومَواضِعِ الشِّدَّة واللّينِ والغضَبِ والرِّضَى والمُعاجَلةِ والأناةِ، النّاظِرُ في أمرِ يوْمِهِ وغَدِهِ وعواقِبِ أعمالِهِ، قالَ الملكُ للغُرابِ: بلْ برأيِكَ وعَقِلِكَ ونَصِيحتِكَ ويُمْنِ طالِعِكَ كانَ ذلكَ فإنَّ رأيَ الرَّجُلِ الوَاحدِ العاقلِ الحازِمِ أبلَغُ في هَلاكِ العدُوِّ منَ الجنُودِ الكثيرَة منْ ذَوِي الْبأسِ والنَّجْدَةِ والعَدَدِ والعُدَّةِ، وإنَّ منْ عَجِيبِ أمْرِكَ عنْدِي طُولَ لُبْثِكَ بينَ ظَهْرَانَي البُومِ تَسْمَعُ الكلامُ الغَليظَ ثمَّ لمْ تَسْقطْ بينهنَّ بكلمَةٍ. قال الغُرابُ: لمْ أزَلْ مُتمَسِّكاً بأدبكَ أيها الملكُ أصْحَبُ البَعِيدَ والقَرِيبَ بالرِّفْقِ واللِّينِ والمُبالَغةِ والأنَاةِ.

قال الملكُ: أصبَحْتُ وقدْ وَجدْتُكَ صاحبَ العمَلِ ووَجدْتُ غيرَكَ منَ الوُزراءِ أصْحابَ أقاويلِ ليْسَ لها عاقبةٌ حَميدَةٌ، فقدْ مَنَّ الله علَيْنا بكَ مِنَّةً لمْ نكُنْ قبْلَها نجِدُ لَذَّةَ الطَّعامِ والشَّرابِ ولا النَّوْمِ ولا القَرارِ، وكانَ يُقالُ: لا

(١) الصرعة: الحالة.

(٢) الأريب: العاقل. والمتضرع الحسن الاحتيال.

(٣) البطر: الطغيان بالنعمة.

يجِدُ المرِيضُ لَذَّةَ الطَّعامِ والنَّوْمِ حتى يَبرَأَ، ولا الرَّجُلُ الشَّرِهُ الذي أطْمعَهُ سُلْطانُه في مالٍ وعمَلٍ في يدِهِ حتى يُنْجِزَهُ لهُ، ولا الرَّجُلُ الذي قدْ ألحَّ عليْهِ عدُوُّه وهوَ يَخافُه صَباحاً ومَساءً حتى يَستَريحَ منهُ قلْبُه، ومَنْ وَضَعَ الحِمْلَ الثَّقِيلَ عنْ يدِهِ أراحَ نفْسَهُ ومَنْ أمِنَ عدُوَّهُ ثَلَجَ(١) صدْرُهُ.

قال الغُرابُ: أسألُ الله الذِي أهلَكَ عدُوَّكَ أنْ يُمتِّعكَ بِسُلْطانِكَ وأنْ يجْعَلَ في ذلكَ صَلاحَ رَعِيَّتكَ، ويُشْرِكَهمْ في قُرَّة العيْنِ(٢) بمُلْككَ، فإنّ الملِكَ إذا لمْ يكُنْ في مُلْكهِ قُرَّةَ عُيونِ رعيَّتهِ فمثَلُهُ مثَلُ زَنَمةِ العَنْزِ(٣) التي يَمُصُّها الجَدْيُ وهوَ يَحْسَبُها حلَمةَ الضَّرْعِ فلا يُصادِفُ فيها خيراً.

قال الملكُ: أيها الوزيرُ الصَّالحُ كيْفَ كانتْ سيرَةُ البُومِ ومَلكِها في حُروبِها وفيما كانتْ فيهِ منْ أمُورِها، قال الغُرابُ: كانتْ سِيرَتُه سيرَةَ بَطَرٍ وأشَرٍ وخُيَلاءَ وعَجْزٍ وفَخْرٍ معَ ما فيهِ منَ الصِّفاتِ الذَّمِيمَةِ، وكلُّ أصْحابهِ ووُزَارئهِ شَبيهٌ بهِ إلا الْوزيرَ الذي كانَ يُشيرُ عليْهِ بقَتْلي فإنهُ كانَ حكيماً أرِيباً فيْلَسُوفاً حازِماً قَلَّما يُرَى مثْلُهُ في عُلوِّ الهِمّةِ وكمالِ العقْلِ وجَوْدَةِ الرَّأيِ. قال الملكُ: وأيُّ خَصْلةٍ رأيْتَ منْهُ كانتْ أدَلَّ على عقْلِهِ؟ قالَ: خَلَّتانِ... إحدَاهُما رأيُهُ في قَتْلي والأخرَى أنّهُ لمْ يكُنْ يكتُمُ صاحِبَهُ نَصِيحتَهُ وإنِ اسْتقلَّها، ولمْ يكنْ كلامُهُ كلامَ عُنْفٍ وقَسْوَةٍ ولكنّهُ كلامُ رِفْقٍ ولِينٍ حتى إنهُ رُبّما أخبرَهُ بِبَعْضِ عيُوبهِ ولا يُصَرِّحُ بحقيقةِ الحالِ بلْ يَضْرِبُ لهُ الأمْثالَ ويُحدِّثُهُ بِعَيْبِ غيرِهِ فيَعْرِفُ عيْبَهُ فلا يَجِدُ ملِكهُ إلى الغَضَبِ عليهِ سبيلاً.

وكانَ ممَّا سَمِعْته يقولُ لملكهِ أنهُ قالَ: لا يَنْبغي للْملكِ أن يَغْفُلَ عنْ أمْرِه فإنّه أمْرٌ جَسيمٌ لا يَظْفَرُ بهِ منَ النَّاسِ إلاّ قليلٌ ولا يُدْرَكُ إلاّ بالحزْمِ،

---

(١) ثلج صدره: اطمأن.
(٢) قرة العين: تعني: السرور.
(٣) زنمة العنز: قطعة لحم تتدلى من حلقها.

فإنَّ المُلْكَ عَزِيزٌ فَمنْ ظَفِرَ بِهِ فلْيُحْسِنْ حِفْظَهُ وتَحْصينَهُ، فإِنهُ قدْ قيلَ: إِنهُ في قِلةِ بَقائهِ بمنزِلةِ قِلةِ بَقاءِ الظِّلِّ عنْ ورَقِ النيْلُوفَرِ[١]، وهوَ في خِفّةِ زَوالهِ وسُرْعةِ إِقْبالهِ وإِدْبارِهِ كالرِّيحِ، وفي قلةِ ثَباتهِ كاللّبيبِ معَ اللّئامِ، وفي سُرْعةِ اضْمِحْلاَلهِ كَحَبابِ الماءِ[٢] منَ وَقْعِ المطَرِ.

فهذا مَثَلُ أهلِ العَدَاوةِ الذينَ لا ينْبغي أنْ يُغْترَّ بهمْ وإِنْ هُمْ أظهَرُوا تَوَدُّداً وتضَرُّعاً.

---

(١) ضرب من الرياحين.

(٢) حَبَابُ الماء: الفقاعات التي تعلوه.

باب القرد والغَيْلَمِ[1]

قالَ دَبْشَليمُ المَلِكُ لِبَيْدَبا الفيْلَسوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ فاضْرِبْ لي مثَلَ الرَّجُلَ الذي يَطْلُبُ الحاجةَ فإذا ظَفِرَ بها أضاعَها.

قال الفيْلَسُوفُ: إنَّ طلَبَ الحاجَةِ أهْوَنُ منَ الاحْتِفاظِ بها، ومَنْ ظَفِرَ بحاجةٍ ثمَّ لمْ يُحْسِنِ الْقيامَ بها أصابَهُ ما أصَابَ الغَيْلَمَ. قال الملِكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

قال بَيْدَبا: زَعمُوا أنَّ قِرْداً كانَ مَلِكَ القِرَدَةِ يُقالُ لهُ: ماهِرٌ وكانَ قدْ كَبِرَ وهَرِمَ، فوَثَبَ عليْهِ قِرْدٌ شابٌ منْ بيْتِ الممْلكَةِ فتَغلَّبَ عليْهِ وأخَذَ مكانَهُ فخرَجَ هارِباً على وجهِهِ حتى انْتَهَى إلى السَّاحلِ فوَجَدَ شجَرَةً منْ شجَرِ التِّينِ فارْتَقى إلِيْها وجعَلَها مُقامَهُ فبينما هوَ ذاتَ يوْم يأكلُ منْ ذلكَ التِّينِ إذْ سَقَطَتْ منْ يدِه تِينةٌ في الماءِ فَسَمِعَ لها صَوْتاً وإيقاعاً[2] فجعَلَ يأكلُ ويَرْمِي في الماءِ فأطْرَبَهُ ذلكَ فأكثرَ منْ طرْحِ التِّينِ في الماءِ، وثَمَّ[3] غَيْلَمٌ كلَّما وقَعَتْ تِينَةٌ أكلَها، فلمَّا كثُرَ ذلكَ ظَنَّ أنَّ القِرْدَ يَفْعَلُ ذلكَ لأجْلِهِ فرَغِبَ في مُصادَقَته وأنسَ إليْهِ وكلَّمَهُ وألِفَ كلُّ واحدٍ منْهُما صاحبَهُ.

طالَتْ غَيْبَةُ الغَيْلَم عنْ زَوْجَتِهِ فجزِعَتْ عليْه وشكَتْ ذلكَ إلى جارَةٍ لها وقالتْ: قدْ خِفْتُ أنْ يكُونَ قدْ عَرَضَ لهُ عارِضُ سُوءٍ فاغْتالَهُ، قالتْ لها:

---

(١) الغيلم: ذكر السلحفاة.

(٢) الإيقاع: اللحن.

(٣) ثَمَّ: هناك.

إنَّ زَوْجَكِ في السَّاحلِ قدْ ألِفَ قِرْداً وألِفَهُ القِرْدُ فهُوَ مُؤَاكِلُهُ ومُشارِبُه وهوَ الذِي قطَعَهُ عنْكِ ولا يَقْدِرُ أنْ يُقيمَ عنْدَكِ حتى تَحْتالِي لِهلاَكِ القرْدِ قالتْ: وكيْفَ أصْنَعُ؟ قالتْ جارَتُها: إذا وصَلَ إليْكِ فتَمارَضِي فإذا سألكِ عنْ حالِكِ فقُولِي إنَّ الأطباءَ وصَفُوا لِي قَلْبَ قِرْدٍ، ثمَّ إنَّ الغَيْلَمَ انْطلقَ بعْدَ مدَّةٍ إلى مَنزِلهِ فوَجَدَ زَوْجَتَهُ سيِّئَةَ الحالِ مَهْمُومة، فقالَ لها: ما لي أرَاكِ هكذا؟ فأجابَتْهُ جارَتُها وقالتْ: إنَّ زوْجتَكَ مَرِيضةٌ مِسكينةٌ، وقدْ وصَفَ لهاالأطِبَّاءُ قلْبَ قِرْدٍ وليْسَ لها دَواءٌ سِواهُ.

قالَ الغَيلَمُ: هذا أمْرٌ عَسيرٌ مِنْ أيْنَ لنا قلْبُ قِرْدٍ ونحنُ في الماءِ، ولكنْ سأحْتالُ لِصَديقي. ثمَّ ٱنطلَقَ إلى ساحلِ البحْرِ فقالَ لهُ القِرْدُ: يا أخي ما حبَسكَ عنِّي؟ قالَ له الغيْلَمُ: ما حبَسَني عنْكَ إلاَّ حَيائي فلمْ أعْرِفْ كيْفَ أجازِيكَ على إحْسانِكَ إليَّ، وأرِيدُ أنْ تِتِمَّ إحْسانَكَ إليَّ بزيارتِكَ لي في مَنزِلي فإني ساكِنٌ في جَزيرَةٍ طيِّبَةِ الْفاكِهةِ، فارْكَبْ ظَهْرِي لأسْبَحَ بكَ، فرَغِبَ القِرْدُ في ذلكَ ونزَلَ فركِبَ ظَهْرَ الغَيْلَم فسَبَحَ بهِ حتى إذا تَغَلْغَلَ في الماءِ عَرَضَ لهُ قُبْحُ ما أضْمَرَ في نفْسهِ منَ الغَدْرِ فنكَسَ رأسَهُ.

قال لهُ القِرْدُ: ما لي أراكَ مُهتَمًّا؟ قال الغَيْلَمُ: إنما هَمِّي لأني ذَكَرْتُ أنَّ زوْجتي شدِيدَةُ المرَضِ وذلكَ يَمنَعُني منْ كَثِيرٍ ممَّا أريدُ أنْ أبلُغَهُ منْ كَرامتِكَ ومُلاطفَتِكَ. قال القرْدُ: إنَّ الذِي أعْرفُ منْ حِرْصِكَ على كَرامتي يَكْفِيكَ مؤُونةَ التكلُّفِ، قال الغَيْلَمُ: أجَلْ، ومضَى بالقِرْدِ ساعةً ثمَّ توَقَّفَ بهِ ثانيةً، فَساءَ ظَنُّ القرْدِ وقالَ في نفْسهِ: ما ٱحْتباسُ الغَيْلَم وإبْطاؤُهُ إلاَّ لأمرٍ ولسْتُ آمِناً أنْ يكونَ قلبُهُ قدْ تَغيَّرَ لِي وحالَ عنْ مَوَدَّتي فأرادَ بي سُوءًا، فإنهُ لا شيءَ أخفُّ وأسرَعُ تَقلُّباً من القلْبِ، وقدْ يُقالُ: يَنبغي للْعاقلِ ألاَّ يَغْفُلَ عنِ ٱلْتِماسِ ما في نفْسِ أهْلهِ وولَدِه وإخْوانِهِ وصَدِيقهِ عنْدَ كلِّ أمرٍ وفي كلِّ لَحْظةٍ وكلمَةٍ وعنْدَ القِيامِ والقُعود وعلى كلِّ حالٍ، فإنَّ ذلكَ كلَّهُ يَشْهَدُ على

ما في الْقلوبِ، وقدْ قالت العلماءُ: إذا دَخلَ قلْبَ الصَّدِيقِ منْ صدِيقهِ رِيبةٌ فلْيأخُذْ بالْحَزْمِ في التَّحَفُّظِ منهُ. ولْيَتَفَقَّدْ ذلكَ في لحظاتِه وحالاتِهِ، فإنْ كانَ ما يَظُنُّ حقًّا ظَفِرَ بالسَّلامةِ، وإنْ كانَ باطِلاً ظَفِرَ بالْحَزْمِ ولمْ يضُرَّه ذلكَ.

ثمَّ قالَ للغَيلَمِ: ما الذي يَحْبِسُكَ وما لِي أراكَ مُهْتَمًّا كأنكَ تُحدِّثُ نفْسَكَ مرَّةً أخرَى؟ قال: يَهُمَّني أنكَ تأتي مَنزِلي فلا تَجِدُ أمرِي كما أحِبُّ لأنَّ زوْجتي مرِيضةٌ. قال القرْدُ: لا تَهْتَمَّ فإنَّ الهمَّ لا يُغْني عنكَ شَيئاً ولكنِ التَمِسْ ما يُصْلِحُ زوْجتَكَ منَ الأدْوِيةِ والأغْذِيةِ، فإنهُ يُقالُ: لِيَبْذُلْ ذوُو المالِ ما لَهمْ في ثلاثةِ موَاضِعَ: في الصَّدَقَةِ، وفي وقْتِ الحاجةِ. وعلى النسَاءِ. قال الغَيْلَمُ: صدَقْتُ، وقدْ قالتِ الأطِبَّاءُ إنهُ لا دَوَاءَ لَهَا إلاَّ قلْبُ قِرْدٍ. فقالَ القَرْدُ في نفْسهِ: وا أسَفاهُ لقدْ أدْركَني الحِرْصُ والشَّرَهُ على كِبَرِ سنِّي حتى وَقَعْتُ في شَرٍّ وَرْطةٍ. ولقدْ صَدَقَ الذي قال يَعيشُ الْقانِعُ الرَّاضِي مُسترِيحاً مُطْمئنًّا وذُو الحرْصِ والشَّرَهِ يَعيشُ ما عاشَ في تَعَبٍ ونَصَبٍ[1] وإني قدِ احتَجْتُ الآنَ إلى عَقْلي في الْتِماسِ المَخْرَجِ ممَّا وقَعْتُ فيهِ ثمَّ قال للغَيْلمِ: وما منَعَكَ أنْ تُعْلِمَني عندَ مَنزِلي حتى كُنْتُ أحْمِلُ قلْبي مَعي وهذهِ سُنَّةٌ فِينَا مَعاشِرَ القِرَدَةِ إذا خَرَجَ أحدُنا لزِيارةِ صَدِيقٍ خَلّفَ[2] قلْبَهُ عنْدَ أهلهِ أوْ في موْضِعِه لِنَنْظُرَ إذا نظَرْنا إلى حَرَمِ المَزُورِ وليْسَ قُلوبُنا معَنا. قال الْغَيْلمُ: وأيْنَ قلْبُكَ الآن؟

قال: خَلَّفتهُ في الشَّجرةِ فإنْ شئْتَ فارْجِعْ بي إلى الشجرَةِ حتى آتِيَكَ بهِ. ففَرِحَ الغَيْلَمُ بذلكَ وقالَ: لقدْ وافَقني صاحِبي بدُونِ أنْ أغْدِرَ بهِ. ثمَّ رَجعَ بالقرْدِ إلى مكانِه، فلمَّا قارَبَ السَّاحلَ وثَبَ عنْ ظَهرِه فارْتَقى الشَّجرَةَ. فلمَّا أبْطأ على الغَيْلَمِ نادَاهُ: يا خَليلي احْمِلْ قلبك وانزِلْ فقدْ حبَسْتني. فقالَ

---

(١) النصب: التعب.

(٢) خلف: ترك.

القِرْدُ: هَيْهاتَ أتظُنّ أني كالحِمارِ الذي زَعَمَ ابْنُ آوَى أنهُ لمْ يكُنْ لهُ قلْبٌ ولا أُذُنانِ. قال الغَيْلَمُ: وكيْفَ كان ذلكَ؟

[حكاية الأسد والحمار وابن آوى المكّار]

قال القِرْدُ: زَعمُوا أنهُ كانَ أسدٌ في أجَمَةٍ وكانَ معهُ ابنُ آوَى يأْكلُ منْ فضَلاتِ طَعامِهِ، فأصابَ الأسدَ جَرَبٌ وضَعُفَ ضُعْفاً شديداً وجُهِدَ فلمْ يَسْتطِعِ الصَّيْدَ، فقالَ لهُ ابنُ آوَى: ما بالُكَ يا سيِّدَ السِّباعِ! قدْ تَغيَّرَتْ أحْوالُكَ؟ قال: هذا الجَرَبُ الذي قدْ أجْهَدني وليْس لهُ دَواءٌ إلاَّ قلْبُ حِمارٍ وأُذُناهُ. قال ابْنُ آوَى: ما أيْسَرَ هذا! وقدْ عَرَفْتُ بمكانِ كذَا حِماراً مع قَصَّارٍ[1] يَحْمِلُ عليْهِ ثِيابَهُ وأنا آتِيكَ بهِ، ثمَّ دَلَفَ[2] إلى الحِمارِ فأتاهُ وسلَّمَ عليْه وقالَ: ما لِي أراكَ مَهْزُولاً؟ قال: ما يُطْعِمُني صاحِبي شيْئاً. فقالَ لهُ: كيْفَ تَرْضَى المُقامَ معهُ على هذا الحالَ؟ قال: ما لِي حِيلةٌ للْهرَبِ منهُ فلسْتُ أتوَجَّهُ إلى جهةٍ إلاَّ أضرَّ بي إنْسانٌ فكَدَّني وأجاعني.

قال ابنُ آوَى: فأنا أدُلُّكَ على مَكانٍ مَعْزُولٍ عنِ النَّاسِ لا يَمُرُّ بهِ إنْسانٌ، خَصِيبِ المَرْعى فيهِ أتانٌ لمْ تَرَ عيْنٌ مثلَها حُسْناً وسِمَناً. قال الحِمارُ: وما يَحْبِسُنا عنها، فانْطلقْ بنا إليْها. فانْطَلَقَ بهِ نحوَ الأسدِ وتَقدَّمَ ابْنُ آوى ودَخَلَ الْغابةَ على الأسدِ وأخبرَهُ بمكانِ الحِمارِ، فخرَجَ إليْهِ وأرادَ أنْ يَثِبَ عليْهِ فلم يَسْتطعْ لِضعْفِه، وتَخلَّصَ الحِمارُ منهُ فأفلَتَ هَلِعاً[3] على وجْهِه. فلمَّا رأى ابْنُ آوى أنَّ الأسدَ لمْ يقْدِرْ على الحِمارِ، قال: يا سيِّدَ السِّباعِ! أعَجزْتَ إلى هذهِ الغايةِ؟ فقالَ لهُ: إنْ جِئْتَني بهِ مرَّةً أخْرَى فلَنْ يَنْجُوَ منِّي أبداً. فمضَى ابنُ آوى إلى الحِمارِ فقالَ لهُ: ما الذِي جَرَى عليْكَ، إنَّ

(١) القصَّار: الذي يبيض الثياب.
(٢) دلف: دنا.
(٣) هلعاً: فزِعاً.

الأتَانِ لِشدَّةِ غُلْمتِها[١] وهَيَجانِها وثَبَتْ عليْكَ ولوْ ثَبَتَّ لها لَلاَنَتْ لكَ. فلمَّا سَمِعَ الحمارُ ذلكَ هاجَتْ غُلْمتُهُ ونَهَقَ وأخَذَ طريقهُ إلى الأسدِ، فَسبَقَه ابْنُ آوَى إلى الأسدِ وأعلَمَهُ بمكانِهِ وقالَ لهُ: اسْتعِدَّ لهُ فقدْ خَدَعْتُهُ لكَ فلا يُدْركَنَّكَ الضَّعْفُ في هذهِ النَّوبَةِ فإنهُ إنْ أفلَتَ لنْ يَعُودَ مَعي أبداً فَجاشَ جأشُ الأسدِ[٢] لتَحْرِيضِ ابنِ آوَى لهُ وخرَجَ إلى موْضِعِ الحِمارِ فلمّا بَصُرَ به عاجَلَهُ بوَثْبةٍ افترَسَهُ بها. ثمَّ قالَ: قدْ ذَكَرَتِ الأطبَّاءُ أنهُ لا يُؤكَلُ إلاَّ بَعْدَ الغُسْلِ والطُّهُورِ فاحتَفِظْ بهِ حتى أعُودَ فآكلَ قلْبَهُ وأذُنيْهِ وأتْرُكَ ما سِوَى ذلكَ قُوتاً لكَ. فلمَّا ذهَبَ الأسدُ لِيَغتَسِلَ عَمَدَ ابْنُ آوَى إلى الحِمارِ فأكلَ قلْبَهُ وأُذُنَيْهِ رَجاءَ أنْ يَتَطيَّرَ[٣] الأسدُ منهُ فلا يَأكلَ منْهُ شيئاً. ثمَّ إنَّ الأسدَ رَجعَ إلى مكانهِ فقالَ لابْنِ آوى: أيْنَ قلْبُ الحِمارِ وأذُناهُ؟ قالَ ابْنُ آوَى: أوَ لَمْ تَعْلَمْ أنهُ لوْ كانَ لهُ قَلْبٌ وأذُنانِ لَمْ يَرْجِعْ إليْكَ بعْدَ ما أفْلَتَ ونَجا من الهَلَكةِ.

وإنما ضَرَبْتُ لكَ هذا المثَلَ لِتَعْلَمَ أني لسْتُ كذلك الحِمارِ الذي زعَمَ ابْنُ آوَى أنهُ لَمْ يكنْ لهُ قلْبٌ ولا أذُنان. ولكنَّكَ احتَلْتَ عليَّ وخَدَعَتَني فَخدَعْتُكَ بمِثْلِ خَديعتكَ فاستَدْرَكْتُ فارِطَ أمْرِي، وقدْ قيلَ: إنَّ الذي يُفْسِدُهُ الحِلمُ لا يُصْلِحُهُ إلاَّ العِلْمُ. قال الغَيْلَمُ: صَدَقْتَ إلاَّ أنَّ الرَّجُلَ الصَّالحَ يَعترِفُ بزَلَّتِهِ وإذا أذْنَبَ ذَنْباً لَمْ يَسْتَحْيِ أنْ يؤَدَّبَ لِصدْقِه في قوْلهِ وفِعْلهِ، وإنْ وَقَعَ في وَرْطَةٍ أمكنَهُ التخلُّصُ منها بحِيلته وعَقْلهِ كالرَّجُلِ الذي يَعثُرُ على الأرْضِ ثمَّ يَنْهَضُ عليْها مُعْتمِداً.

فهذَا مَثَلُ الذي يَطْلُبُ الحاجةَ فإذَا ظَفِرَ بها أضَاعَها.

---

(١) الغلمة: سورة الشهوة.

(٢) جاش: هاج. والجأش: النفس.

(٣) يتطير: يتشاءم.

باب النّاسكِ وابنِ عِرْسٍ[1]

قالَ دَبْشَليمُ المَلِكُ لِبَيْدَبا الفيْلَسوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ فاضربْ لي مثَلَ الرَّجُلِ العَجْلانِ في أمْرِهِ منْ غيرِ رَوِيَّةٍ[2] ولا نَظَرٍ في العَواقِبِ.

قالَ الفيْلَسُوفُ: إنهُ مَنْ لمْ يكُنْ في أمرِهِ مُتَثبِّتاً لمْ يَزَلْ نادِماً ويَصيرُ أمرُهُ إلى ما صارَ إليْهِ النَّاسِكُ منْ قتْلِ ابْنِ عِرْسٍ وقدْ كان لهُ وَدُوداً. قال الملِكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

قال الفَيْلَسُوفُ: زعَمُوا أنّ ناسِكاً منَ النُّسَّاكِ كانَ بأرْضِ جُرْجانَ وكانتْ لهُ امرَأةٌ جميلةٌ لها مَعهُ صُحْبةٌ. فَمكثَا زَماناً لم يُرْزَقَا ولَداً، ثمَّ حَمَلتْ منهُ بعْدَ الإياسِ[3] فسُرَّتِ المرْأةُ وسُرَّ النّاسِكُ بذلكَ فَحمِدَ الله تعالى وسألَهُ أنْ يكُونَ الحَمْلُ ذَكراً. وقال لزوْجتِه: أبْشِري فإني أرْجُو أنْ يكونَ غُلاماً لنَا فيهِ مَنافِعُ وقُرَّةُ عيْنٍ، أخْتارُ لهُ أحْسَنَ الأسْماءِ وأُحْضِرُ لهُ سائرَ الأدَباءِ. فقالتِ المرْأةُ: ما يَحْمِلُكَ أيُّها الرَّجُلُ على أنْ تَتَكلَّمَ بما لا تَدْرِي هلْ يكونُ أمْ لا، ومَنْ فَعَلَ ذلكَ أصابَهُ ما أصَابَ النَّاسِكَ الذي أهْرَقَ على رأسِهِ السَّمْنَ والعسَلَ. قال لَها: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

[حلم الناسك]

قالتْ: زعمُوا أنَّ ناسِكاً كانَ يَجْري عليْهِ منْ بيْتِ رجُلٍ تاجرٍ في كلِّ

---

(١) ابن عرس بالكسر: دويبة كالفأرة جمعها بنات عرس. تفتك بالدجاج ونحوها.

(٢) الروية: التأني.

(٣) الإياس: القنوط.

يوْمٍ رِزْقٌ منَ السَّمْنِ والعسَلِ، وكانَ يأكلُ منْهُ قُوتهُ وحاجتَهُ، ويَرْفَعُ الْباقيَ ويَجْعَلُهُ في جَرَّةٍ ويُعلّقُها في وَتِدٍ في ناحيَةِ البيْتِ حتى امْتلأتْ. فبينما النَّاسِكُ ذاتَ يوْمٍ مُسْتلْقٍ على ظَهْرِهِ والعُكَّازَةُ في يدِهِ والجَرَّةُ مُعلَّقةٌ فوْقَ رَأسِهِ تَفكَّرَ في غَلاءِ السَّمْنِ والعسَل. فقالَ: سَأبيعُ ما في هذهِ الجَرَّةِ بدِينارٍ، وأشتَرِي بهِ عَشْرَ أعنُزٍ فيَحْبَلْنَ ويَلِدْنَ في كلِّ خمْسَةِ أشْهُرٍ بَطْناً، ولا تَلْبَثُ إلا قليلاً حتى تَصيرَ غنَماً كثيراً إذا وَلَدَتْ أوْلاَدُها. ثمَّ حَرَّرَها على هذا النَّحْوِ بِسنينَ فوَجَدَ ذلكَ أكثرَ منْ أرْبعمائةَ عَنْزٍ. فقالَ: أنا أشتَرِي بها مائةً منَ البقَرِ بكلِّ أربْعةِ أعنُزٍ ثَوْراً أوْ بقرَةً وأشترِي أرْضاً وبَذْراً وأسْتأجِرُ أكَرَةً[1] وأزْرَعُ على الثِّيرَانِ وأنْتفِعُ بألْبانِ الإناثِ ونَتائِجِها فلا تأتي عليَّ خمْسُ سِنينَ إلاّ وقدْ أصَبْتُ منَ الزَّرْعِ مالاً كثيراً فأبْني بيْتاً فاخِراً وأشتري إمَاءً وعَبيداً وأتزوَّجُ امرَأةً ذاتَ حُسْنٍ وأدْخُلُ بها فتحْبَلُ ثمَّ تأتي بغُلامٍ سَرِيٍّ[2] نَجيبٍ، فأخْتارُ لهُ أحْسَنَ الأسْماءِ، فإذا تَرَعْرَعَ أدَّبْتُهُ وأحسَنْتُ تأدِيبَهُ وأشَدِّدُ عليْهِ في ذلكَ فإنْ قَبلَ منِّي وإلاّ ضَرَبْتُهُ بهذهِ العُكَّازَةِ وأشارَ بيدهِ إلى الجَرَّةِ فكسَرَها وسَالَ ما فِيها على وجْهِه.

وإنَّمَا ضَرَبْتُ لكَ هذا المثَلَ لكيْ لا تَعْجَلَ بذِكْرِ ما لا ينْبغي ذِكْرُه، وما لاَ تَدْري أيَصحُّ أمْ لا يَصحُّ، فاتَّعَظَ النَّاسكُ بما حَكَتْ زوْجتُهُ، ثمَّ إنَّ المرْأةَ ولَدَتْ غُلاماً جَيملاً ففَرِحَ بهِ أبُوهُ، وبعْدَ أيَّامٍ حانَ لها أنْ تَتَطَهَّرَ، فقالتِ المرْأةُ للنَّاسكِ اقعُدْ عنْدَ ابْنِكَ حتى أذْهَبَ إلى الحَمَّامِ فأغتسِلَ وأعُودَ، ثمَّ إنها انْطلَقَتْ إلى الحمَّامِ وخَلّفَتْ زوْجها والغُلاَمَ، فلمْ يَلْبَثْ أنْ جاءَ رَسُولُ الملِكِ يَسْتَدْعِيهِ ولمْ يَجِدْ مَنْ يُخلّفُهُ عندَ ابنهِ غيرَ ابنِ عِرْسٍ دَاجِنٍ[3] عنْدَهُ كانَ قد ربَّاهُ صغيراً فهُوَ عندَهُ عَدِيلُ ولَدِه فترَكَهُ عندَ الصبيِّ

(١) أكرة جمع أكار: وهو الحراث.
(٢) سري: أي صاحب مروءة وشرف.
(٣) الداجن: كل حيوان يربى في البيوت.

وأغلَقَ عليْهِما البيْتَ وذهَبَ معَ الرَّسولِ.

فخرَجَ منْ بعْضِ أجحارِ البيْتِ حيةٌ سوْداءُ فدَنتْ منَ الغُلامِ فَضَرَبها ابْنُ عِرْسٍ ثمَّ وثَبَتْ فقتَلَها ثمَّ قَطّعَها وامتلأَ فمُهُ منْ دمِها، ثمَّ جاءَ النّاسكُ وفَتَحَ الْبابَ فالْتَقاهُ ابْنُ عرْسٍ كالمُبشِّرِ لهُ بما صَنعَ منْ قتْلِ الحيةِ. فلمّا رآهُ مُلوَّثاً بالدَّمِ وهوَ مَذْعُورٌ طارَ عقْلُهُ وظَنَّ أنهُ قدْ خَنَقَ ولدَهُ ولمْ يَتَثَبَّتْ في أمرِه ولمْ يَترَوَّ فيهِ حتى يَعْلَمَ حقيقةَ الحالِ ويَعْمَلَ بغيرِ ما ظَنَّ منْ ذلكَ ولكِنْ عجَّلَ على ابْنِ عِرْسٍ وضَربَهُ بِعُكّازةٍ كانتْ في يدِهِ على أمِّ رأسهِ[1] فماتَ ودَخلَ النّاسِكُ فرَأى الغُلامَ سَليماً وعنْدَهُ أسوَدُ مُقطَّعٌ، فلمَّا عرَفَ القِصَّةَ وتَبيَّنَ لهُ سوءُ فِعْلهِ في العَجَلَةِ لطَمَ على رأسهِ وقالَ: لَيتَني لمْ أُرْزَقْ هذا الوَلَدَ، ولمْ أغْدِرْ هذا الغَدْرَ، ودَخَلَتِ امرَأتُه فوَجَدَتْهُ على تلكَ الحالِ فقالتْ لهُ: ما شأنُكَ؟ فأخبَرَها بالخبرِ منْ حُسْنِ فعلِ ابْنِ عِرْسٍ وسُوءِ مُكافأتهِ لهُ، فقالتْ: هذهِ ثمرَة العَجَلةِ.

فهذَا مثَلُ مَنْ لا يَتَثَبَّتُ في أمرِهِ بلْ يَفْعَلُ أغْراضهُ بالسُّرْعةِ والعجَلةِ.

---

(١) أم رأسه: دماغه.

الباب الثامن

باب الجُرَذِ والسِّنَّوْرِ

قالَ دَبْشَليمُ الملِكُ لبَيْدَبا الفيْلَسُوف: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ، فاضْرِبْ لي مثلَ رجُلٍ كثُرَ أعداؤُهُ وأحْدَقُوا بهِ منْ كلِّ جانِبٍ، فأشْرَفَ معَهمْ على الهَلاكِ فالتَمَسَ النجاة والمَخْرَجَ بمُوَالاةِ[1] بعْضِ أعْدَائهِ ومُصالَحتهِ فَسَلِمَ منَ الخَوْفِ وأمِنَ ثمّ وَفَّى لمنْ صالَحهُ منهمْ.

قالَ الفيْلَسُوفُ: إنَّ المودَّةَ والعَداوَةَ لا تَثْبُتانِ على حالةٍ أبداً، ورُبما حالتِ[2] المودَّةُ إلى العدَاوَةِ وصارَتِ العدَاوَةُ ولايةً[3] وصَداقةً، ولهذا حوَادِثُ وعِلَلٌ وتَجارِبُ، وذُو الرَّأيِ يُحْدِثُ لكلِّ ما يَحْدُثُ منْ ذلكَ رَأياً جديداً، أمَّا مِنْ قِبَلِ العدُوِّ فَبالْبأسِ[4] وأمَّا منْ قِبَلِ الصَّدِيقِ فَبالأسْتِئْناسِ[5] ولا تَمنَعُ ذا العقلِ عداوَةٌ كانتْ في نفْسهِ لعدُوِّهِ منْ مُقاربتهِ والاستِنجادِ بهِ على دَفْعِ مَخُوفٍ أوْ جرِّ مَرْغُوبٍ ومَنْ عَمِلَ في ذلكَ بالحزْمِ ظَفِرَ بحاجتهِ، ومثَلُ ذلكَ مثَلُ الجُرَذِ والسِّنَّوْرِ حينَ وَقَعا في الوَرْطَةِ فنَجيَا باصطِلاَحِهِما جميعاً منَ الوَرْطةِ والشِّدَّةِ. قال الملِكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

قالَ بَيْدَبا: زعمُوا أنَّ شجرَةً عظيمةً كانَ في أصْلِها جُحْرُ سِنَّوْرٍ يُقالُ لهُ: رُوميٌّ. وكانَ قريباً منهُ جُحْرُ جُرَذٍ يقالُ لهُ: فَرِيدُونُ، وكانَ الصَّيادُونَ

---

(١) الموالاة: المصادقة.

(٢) حالت: تبدلت.

(٣) ولاية: محبة.

(٤) البأس: الشدة.

(٥) الاستئناس: الأنس.

كثيراً ما يَتداوَلونَ[1] ذلكَ المكانَ يَصِيدُونَ فيهِ الوَحْشَ والطيرَ. فنزَلَ ذاتَ يوْمٍ صيَّادٌ فنَصَبَ حبالتَهُ قريباً منْ موْضِعِ رُوميٍّ فلمْ يَلْبَثْ أنْ وقَعَ فيها. فخرَجَ الجرَذُ يَدِبُّ ويَطْلُبُ ما يأكلُ وهوَ حَذِرٌ منْ رُوميٍّ. فبينما هوَ يَسْعَى إذْ بَصُرَ بهِ في الشَّرَكِ فسُرَّ واسْتَبْشَرَ، ثمَّ التَفَتَ فرأى خَلْفَهُ ابْنَ عرْسٍ يُريدُ أخْذَهُ وفي الشجرَةِ بُوماً يُريدُ اختِطافَهُ، فتَحيَّرَ في أمرِهِ وخافَ إنْ رَجَعَ وَراءَهُ أخذَهُ ابنُ عِرْسٍ وإنْ ذَهَبَ يَميناً أوْ شِمالاً اختَطفهُ البُومُ وإنْ تَقدَّمَ أمامَهُ افترَسهُ السِّنَّوْرُ. فقال في نفسهِ هذا بَلاءٌ قدْ اكتَنفَني وشُرورٌ تَظاهَرت عليَّ[2] ومِحَنٌ قدْ أحاطتْ بي.

«وبَعْدَ ذلكَ فمعي عقْلي فلا يُفزِعُني أمري ولا يَهُولَنِّي[3] شأني ولا يَلحَقُني الدَّهَش ولا يَذْهَبُ قلبي شَعاعاً[4]، فالعاقِلُ لا يَفْرَقُ[5] عندَ سَدادِ رأيهِ ولا يَعْزبُ[6] عنهُ ذهنُهُ على حالٍ، وإنَّما العقْلُ شبيهٌ بالبحْرِ الذي لا يُدرَكُ غَوْرُهُ[7] ولا يَبلُغُ البلاءُ من ذي الرَّأيِ مجهُودَهُ فيُهْلِكَهُ، وتحقُّقُ الرَّجاءِ لا ينبغي أن يَبلُغ منهُ مَبلَغاً يُبْطِرهُ ويُسْكِرهُ فيَعْمَى عليهِ أمرُهُ، ولسْتُ أرَى لي من هذا البَلاءِ مخلَصاً إلا مُصالحة السِّنَّورِ فإنهُ قدْ نزَل بهِ منَ البلاءِ مِثْلُ ما قدْ نَزَلَ بي أوْ بعضُهُ، ولَعلَّنا إنْ سَمِعَ كلامي الذي أُكلّمهِ بهِ وَوَعى[8] عنِّي صَحيحَ خِطابي ومَحْضَ صِدْقي الذي لا خِلافَ فيهِ ولا خِداعَ معهُ ففَهِمَهُ وطَمِعَ في مَعُونتي إياهُ خَلَصْنا جميعاً.

---

(1) يتداولون المكان: يتبادلونه بين حين وآخر.
(2) اكتنفني: أحدق بي، وتظاهرت: تعاونت.
(3) يهولني: يخيفني.
(4) شعاعاً: متفرقاً.
(5) يَفْرَقُ: يفزع.
(6) يعزب: يبتعد.
(7) غوره: قعره.
(8) وعى: حفظ.

ثُمَّ إِنَّ الجُرَذَ دَنا منَ السِّنوْرِ فقالَ لهُ: كيْفَ حالُكَ؟ قال لهُ السِّنوْرُ: كما تحِبُّ في ضَنْكٍ[١] وضيقٍ، قال: وأنا اليوْمَ شَريكُكَ في البَلاءِ، ولسْتُ أرْجُو لنفْسي خَلاصاً إلا بالذي أرْجُو لكَ فيهِ الخلاصَ وكلاَمي هذا ليْسَ فيهِ كَذِبٌ ولا خَديعةٌ، وابْنُ عِرْسٍ ها هوَ كامِنٌ لي والبُومُ يَرْصُدُني، وكِلاهُما لي ولكَ عدُوٌّ، فإنْ أنتَ جَعَلْتَ لِيَ الأمانَ قَطَعْتُ حِبالَتَكَ وخَلَّصْتُكَ منْ هذهِ الوَرْطةِ، فإنْ كانَ ذلكَ تَخلَّصَ كلّ واحدٍ منّا بسبَبِ صاحبِه كالسَّفينةِ والرُّكابِ في البحْرِ فَبالسّفينةِ يَنجُونَ وبهِمْ تنجُو السَّفينةُ.

فلمَّا سَمِعَ السِّنوْرُ كلاَمَ الجُرَذِ وعَرَفَ أنهُ صادقٌ قال لهُ: إنَّ قوْلَكَ هذا لشَبيهٌ بالحق وأنا أيضاً رَاغِبٌ فيما أرْجُو لكَ ولنفْسي بهِ الخَلاَصَ، ثمَّ إنكَ إنْ فَعَلْتَ ذلكَ سأشْكُرُكَ ما بَقِيتُ. قال الجُرَذُ: فإني سأدْنُو منكَ فأقْطَعُ الحِبالَةَ كلَّها إلاَّ حَبْلاً واحداً أبْقيهِ لأسْتَوْثِقَ لنفْسي منكَ، ثمَّ أخَذَ في تَقْريضِ الحِبالةِ؛ ثمَّ إنَّ البُومَ وابنَ عِرْسٍ لمَّا رَأيَا دُنُوَّ الجُرَذِ منَ السِّنَّوْرِ أيِسا منهُ وانْصَرَفا، ثمَّ إنَّ الجرَذَ أبْطأ على رُوميٍّ في قَطْعِ الحِبالةِ. فقال: ما لِي لا أرَاكَ جادًّا في قَطْعِ حِبالَتي فإنْ كنتَ قدْ ظَفِرْتَ بحاجتِكَ فتَغيَّرْتَ عمَّا كنتَ عليهِ وتَوانَيْتَ[٢] في حَاجتي فَما ذلك منْ فِعْلِ الصَّالحينَ فإنّ الكريمَ لا يَتَوانَى في حقِّ صاحبِهِ.

وقد كانَ لكَ في سابِقِ مَوَدَّتي منَ الْفائدَةِ والنَّفْعِ ما قدْ رأيْتَ وأنتَ حقَيقٌ أنْ تُكافِئَني بذلكَ ولا تَذْكُرَ العَداوةَ التي بَيني وبينَكَ، فالذي حَدَثَ بيْني وبيْنَكَ منَ الصُّلحِ حَقيقٌ أنْ يُنْسِيَكَ ذلكَ معَ ما فِي الوَفاءِ منَ الفَضْلِ والأجْرِ وما في الغَدْرِ منْ سُوءِ الْعاقبةِ، فإنّ الكريمَ لا يكُونُ إلاّ شَكُوراً غيرَ حَقُودٍ تُنْسِيهِ الخَلَّةُ[٣] الواحدةُ منَ الإحْسانِ الخِلاَلَ الكثيرةَ منَ الإساءَةِ، وقدْ

(١) الضنك: قسوة العيش.

(٢) توانيت: تهاونت.

(٣) الخَلَّة: الخصلة.

يُقالُ: إنّ أعجَلَ العُقوبَةِ عُقُوبةُ الغَدْرِ، ومن إذا تضرَّعَ إليهِ وسُئِلَ العَفْوَ فلمْ يَرْحَمْ ولُم يَعْفُ، فقدْ غَدَرَ. قال الجُرَذُ: إنَّ الصّدِيقَ صَدِيقانِ طامعٌ ومُضْطَرٌّ وكِلاهُما يَلْتمِسانِ المنْفعةَ ويَحترِسانِ منَ المَضَرَّةِ. فأمَّا الطّامعُ فيُسْتَرْسَلُ إليْهِ(١) ويؤْمنُ في جميعِ الأحْوالِ، وأمَّا المُضْطَرُّ ففي بعْضِ الأحوَالِ يُسترسَلُ إليهِ وفي بَعْضها يُتحذَّرُ منهُ، ولا يَزالُ العاقلُ يَرْتَهِنُ منهُ بعْضَ حاجاتهِ لبَعْضِ ما يَتَّقي ويخافُ، وليْسَ عاقبةُ التَّواصُلِ المتوَاصلِ إلاّ لِطلَب عاجِلِ النَّفعِ وبَلوغِ مأمُولهِ.

«وأنا وَافٍ لكَ بما جَعلْتُ لكَ ومُحترِسٌ منْكَ معَ ذلكَ منْ حيْثُ أخافُكَ تَخوُّفَ أنْ يُصِيبَني منْكَ ما ألْجأني خوْفُهُ إلى مُصالحَتِكَ، وألْجأكَ إلى قُبولِ ذلكَ منِّي فإن لكلِّ عمَلٍ حيناً فما لَمْ يكُنْ في حِينهِ فلا حُسْنَ لِعاقبتِهِ، وأنا قاطعٌ حِبالَتَكَ كلَّها غيرَ أنّي تارِكٌ عُقْدَةً أرْتَهِنُكَ بها ولا أقْطَعُها إلاّ في السَّاعةِ التي أعلَمُ أنكَ فيها عنِّي مشغُولٌ وذلكَ عندَ مُعايَنتي الصَّيادَ، ثمَّ إنَّ الجُرَذَ أخذَ في قَطْعِ حِبالَةِ السِّنوْرِ. فبينما هوَ كذلكَ إذْ وافَى الصَّيادُ. فقالَ لهُ السِّنوْرُ: الآنَ جاءَ الجِدُّ في قَطْعِ حِبالَتي فجَهَدَ الجُرَذُ نفْسَهُ في القَرْضِ حتى إذا فرَغَ وثَبَ السِّنوْرُ إلى الشَّجرَةِ على دَهَشٍ منَ الصيَّادِ ودخلَ الجُرَذُ بعْضَ الأجْحارِ وجاءَ الصيَّادُ فأخذَ حِبالَتهُ مُقطَّعةً ثمَّ انصَرَفَ خائِباً.

ثمَّ إنَّ الجُرَذَ خرَجَ بعدَ ذلكَ وكَرِهَ أنْ يَدْنُوَ منَ السِّنوْرِ فنادَاهُ السِّنَّوْرُ: أيُّها الصَّدِيقُ النّاصحُ ذُو البَلاءِ(٢) الحَسَنِ عندِي، ما منَعكَ منَ الدُّنُوِّ إليَّ لأجازِيَكَ بأحْسَنِ ما أسْدَيْتَ إليَّ، هَلُمَّ إليَّ ولا تَقْطَعْ إخائِي فإنهُ مَنِ اتَّخذَ صَدِيقاً وقَطَعَ إخاءَهُ وأضاعَ صَداقتَهُ حُرِمَ ثَمَرَةَ إخائِهِ وأيِسَ منْ نَفْعهِ الإخْوانُ والأصْدِقاءُ، وإنَّ يدَكَ عنْدِي لا تُنْسَى وأنتَ حَقيقٌ أنْ تَلْتمِسَ مُكافأةَ ذلكَ

(١) يسترسل إليه: يُطْمَأَنُّ.
(٢) البلاء: الاختبار.

منِّي ومنْ أخْواني وأصْدِقائي ولا تَخافَنَّ منِّي شيئاً واْعْلَمْ أنَّ ما قِبَلي لكَ مَبْذُولٌ.

ثمَّ حَلَفَ واجتَهَدَ على صِدْقِهِ فيما قالَ. فناداهُ الجُرَذُ: رُبَّ صَداقَةٍ ظاهرَةٍ باطِنُها عَداوةٌ كامِنةٌ وهي أشدُّ منَ العَداوَةِ الظَّاهرَةِ ومَنْ لمْ يَحتَرِسْ مِنْها وقَعَ مَوْقِعَ الرَّجُلِ الذي يَرْكَبُ نابَ الفِيلِ المُغْتَلِمِ ثمَّ يَغْلِبُهُ النُّعاسُ فيسْتَيْقِظُ تحتَ فَرَاسِنِ[1] الفيلِ فيَدُوسُهُ ويَقْتُلُهُ، وإنما سُمِّيَ الصَّدِيقُ صَديقاً لِمَا يُرْجَى منْ نَفْعِهِ وسُمِّيَ العدُوّ عدُوًّا لِما يُخافُ منْ ضَررِه، والْعاقلُ إذا رَجا نفْعَ العدُوِّ أظهَرَ لهُ الصَّداقةَ وإذا خافَ ضَرّ الصَّديقِ أظهرَ لهُ العداوةَ. ألاَ تَرَى تَتبُّعَ البَهائِمِ أُمَّاتِها[2] رَجاءَ أَلْبانِها فإذا انْقَطَعَ عنها انصَرَفتْ عنْها، ورُبَّما قَطعَ الصَّدِيقُ عن صدِيقهِ بعْضَ ما كانَ يَصِلُهُ منهُ فلمْ يَخَفْ شرَّهُ لأنّ أصْلَ أمْرِه لمْ يكُنْ عَداوةً.

فأمَّا مَنْ كانَ أصْلُ أمرِهِ عداوَةً جَوْهَرِيةً ثمّ أحدَثَ صَداقةً لحاجَةٍ حمَلتْهُ على ذلكَ زَالَتْ صدَاقتُهُ فتَحوَّلَتْ وصارَتْ إلى أصلِ أمرِهِ، كالماءِ الذي يَسْخُنُ بالنَّارِ فإذا رُفِعَ عنها عادَ بارِداً، ولَيْسَ منْ أعْدائي عدُوٌّ أضَرُّ لِي منكَ، وقد اْضْطُرَّتْني وإيّاكَ حاجةٌ إلى ما أحْدَثْنا منَ المُصالَحةِ، وقدْ ذَهَبَ الأمْرُ الذي احتَجْتَ إليَّ واحتَجْتُ إلَيْكَ فيهِ، وأخافُ أنْ يكونَ معَ ذَهابِهِ عَوْدُ العَداوةِ، ولا خيرَ للضّعِيفِ في قُرْبِ العدُوِّ القَوِيِّ ولا للذَّلِيلِ في قُرْبِ العَدُوِّ الْعَزيزِ، ولا أعلمُ لكَ قِبَلي حاجةً إلاَّ أنْ تكُونَ تُريدُ أكْلي، وليسَ عندِي بكَ ثِقةٌ، فإني قدْ عَلِمْتُ أنّ الضَّعِيفَ المُحترِسَ من العدُوِّ القوِيِّ أقْرَبُ إلى السَّلامةِ من القويِّ إذا اْغترَّ بالضّعفِ واستَرْسَلَ إلَيْهِ، والْعاقلُ يُصالِحُ عدُوَّهُ إذا اضْطُرَّ إلَيْهِ ويُصانِعُه ويُظْهِرُ لهُ وُدَّهُ، ويُريهِ منْ نفْسِهِ

(١) فراسن: مفردها فِرْسِن وهو للفيل والجمل كالقدم للإنسان.

(٢) أماتها: جمع أم. والأمهات للإنسان والأمات للحيوان.

الاسترْسالَ إِلَيْهِ إِذا لمْ يَجِدْ منْ ذلكَ بُدًّا، ثمَّ يُعجِّلُ الانْصِرافَ عنهُ حينَ يَجِدُ إِلى ذَلكَ سَبِيلاً.

وٱعلمْ أنَّ سَريعَ الاسترْسالِ لا تُقالُ عَثْرَتُهُ، والْعاقلُ يَفي لمنْ صالَحَهُ منْ أعدَائهِ بما جَعَلَ لهُ منْ نفْسهِ ولا يَثِقُ بهِ كلَّ الثّقةِ ولا يأمنُهُ على نفْسهِ معَ القُرْبِ منهُ، وينْبغي أنْ يَبْعُدَ عنهُ ما اسْتطاعَ، وأنا أَوَدُّكَ منْ بَعيدٍ وأحِبُّ لكَ منَ البَقاءِ والسَّلامةِ ما لمْ أكُنْ أحِبُّهُ لكَ منْ قَبْلُ، وليْسَ عليْكَ أنْ تُجازِيَني على صَنِيعي إِلاَّ بمِثْلِ ذلكَ إِذْ لا سبيلَ إِلى ٱجْتِمَاعِنا، والسّلامُ.

الباب التاسع

باب الملك والطائر فَنْزَة

قالَ دَبْشليمُ الملِكُ لَبَيْدَبَا الفَيْلَسُوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ فاضْرِبْ لي مثَلَ أهْل التِّرَاتِ[١] الذِينَ لا بُدَّ لبعضِهِمْ منِ اتِّقاءِ بعْضٍ.

قالَ بَيْدبا: زعَمُوا أنَّ مَلكاً منْ مُلوكِ الهِنْدِ كانَ يُقالُ لهُ: يَرِيدُونَ، وكانَ لهُ طائرٌ يُقالُ لهُ: فَنْزَة، وكانَ لهُ فَرْخٌ، وكانَ هذا الطائرُ وفَرْخُهُ يَنْطِقانِ بأحْسَنِ مَنْطِقٍ وكانَ الملِكُ بهما مُعَجَباً فأمَر بهما أنْ يُجْعَلاَ عندَ امْرأتهِ وأمَرَها بالمُحافَظةِ عليْهِما، واتَّفَقَ أنَّ امْرأةَ الملِكِ ولَدَتْ غُلاماً فألِفَ الفَرْخُ الغُلامَ وكِلاهُما طِفْلاَنِ يَلْعَبانِ جَميعاً، وكانَ فَنزةُ يَذْهَبُ إلى الجبَلِ كلَّ يوْمٍ فيأتي بِفَاكهةٍ لا تُعْرَفُ فيُطْعِمُ ابنَ الملِكِ شَطْرَها[٢] ويُطْعِمُ فَرْخَهُ شَطْرَها، فأسرَعَ ذلك في نَشأتِهما وشَبابِهما وبانَ عليْهِما أثَرُهُ عندَ الملِكِ فازْدَادَ لِفَنزَةَ إكراماً وتَعْظِيماً ومَحبَّةً، حتى إذا كانَ يوْمٌ منَ الأيَّام وفَنزَةُ غائبٌ في اجْتِناءِ الثَّمَرةِ وفَرْخهُ في حَجْرِ[٣] الغُلامِ فَزَرَقَ في حُجْرِهِ فغَضِبَ الغُلامُ وأخَذ الفَرخَ فضَرَبَ بهِ الأرْضَ فماتَ.

ثمَّ إنَّ فَنزَةَ أقبَلَ فوَجَدَ فرْخَهُ مَقْتولاً فصاحَ وحَزِنَ وقال: قُبحاً للْمُلوكِ الذينَ لاَ عَهْدَ لهمْ ولا وَفاءَ، ويْلٌ لمنِ ابْتُلِيَ بصُحْبةِ الملوكِ الذينَ لاَ حَمِيَّةَ لهمْ ولا حُرْمةَ[٤] ولا يُحِبُّونَ أحداً ولا يَكْرُمُ عليهِمْ إلاّ إذا طَمِعُوا فيما عندَهُ منْ غَناءٍ[٥] واحْتاجُوا إلى ما عِنْدَهُ منْ عِلمٍ فيُكْرِمُونهُ لذلكَ، فإذا ظَفِرُوا

---

(١) التِّرات: جمع: التِّرةِ، وهي: الثأر.
(٢) شطرها: نصفها.
(٣) الحَجْر: الحضن.
(٤) حرمة: عهد.
(٥) الغَنَاء: النفع.

بحاجاتِهمْ منهُ فلا وُدَّ ولا إخاءَ ولا إحْسانَ ولا غُفْرانَ ذنْب ولا مَعْرِفةَ حقٍّ، همُ الذينَ أمرُهمْ مَبْنيٌّ على الرِّياءِ والفُجورِ، وهمْ يَسْتَصغِرُونَ ما يَرْتكِبُونَهُ منْ عظيمِ الذُّنُوبِ، ويَسْتَعْظمُونَ اليَسيرَ إذا خُولِفَتْ فيهِ أهواؤُهمْ، ومنْهُمْ هذا الكَفُورُ[1] الذي لا رَحمةَ لهُ، الْغادِرُ بإلْفهِ وأخيهِ، ثمَّ وثَبَ في شِدَّةِ حَنَقهِ على وجْهِ الغُلامِ ففقأ عينَهُ. ثم طارَ فَوَقَعَ على شُرْفةِ المنزِلِ.

ثمَّ إنهُ بَلغ الملِكَ ذلكَ فَجزِعَ أشدَّ الجزَعِ ثمَّ طَمِعَ أنْ يَحْتالَ لهُ فوَقَفَ قرِيباً منْهُ وناداهُ وقالَ لهُ: إنكَ آمِنٌ فانزِلْ يا فنزَةَ. فقالَ لهُ: أيُّها الملِكُ إنَّ الْغادِرَ مأخُوذٌ بِغَدْرِهِ وإنهُ وإنْ أخْطأهُ عاجلُ العقُوبةِ لمْ يُخْطِئْهُ الآجِلُ حتى إنهُ يُدْرِكُ الأَعْقابَ وأعْقابَ الأعْقابِ، وإنَّ آبنَكَ غَدَرَ بابْني فعَجَّلْتُ لهُ العُقوبةَ. قال الملِكُ: لعَمْري قدْ غدَرْنا بابْنِكَ فانتَقَمْتَ منّا فَلَيْسَ لكَ قِبَلَنا، ولَيْسَ لنا قِبَلَكَ وِترٌ[2] مَطلوبٌ فارْجعْ إلَيْنا آمناً. قال فنزَةُ: لسْتُ براجعٍ إلَيْكَ أبداً فإنَّ ذَوِي الرَّأْيِ قدْ نهَوْا عنْ قُرْبِ المَوْتُورِ فإنهُ لا يَزيدُكَ لُطْفُ الحَقُودِ ولِينُهُ وتَكْرِمتُهُ إيَّاكَ إلا وَحْشةً منهُ وسوءَ ظَنٍّ بهِ، فإنكَ لا تجِدُ للْحَقُودِ المَوْتُورِ أماناً هُوَ أوْثَقُ لكَ منَ الذُّعْرِ منهُ ولا أجْوَدُ منَ البُعْدِ عنهُ والاحتِرَاسُ منهُ أوْلَى.

وقدْ كانَ يُقالُ: إنَّ العاقلَ يَعُدُّ أبويْهِ أصدِقاءَ والإخوَةَ رُفَقاءَ والأزْواجَ أُلَفاءَ والْبنينَ ذِكْراً والْبناتِ خُصَماءَ والأقارِبَ غُرَماءَ ويَعُدُّ نفسَهُ فريداً، وأنا الفريدُ الوحيدُ الغريبُ الطَّرِيدُ قدْ تَزَوَّدْتُ منْ عِنْدِكُمْ منَ الحُزْنِ عِبْئاً ثقيلاً لا يَحْمِلُهُ مَعي أحدٌ، وأنا ذاهِبٌ فعليْكَ مِني السَّلاَمُ. قال الملكُ: إنكَ لوْ لمْ تكُنْ قدِ اجتَزَيْتَ منَّا فيما صَنَعْناهُ بكَ أو كانَ صَنيعُكَ بِنا منْ غير ابْتِدَاءٍ منَّا بالغَدْرِ كان الأمْرُ كما ذكَرْتَ. أمَا ونحنُ قدْ بَدأناكَ فما ذَنْبُكَ؟ وما الذِي

(١) الكَفُور: من يجحد النعمة.
(٢) وتر: ثأر.

يَمنعُكَ منَ الثِّقَةِ بِنا؟ هلُمَّ فارْجعْ فإنكَ آمِنٌ. قال فَنْزَةُ: أعلمُ أنَّ الأحْقادَ لها في القُلوبِ مَواقِعُ ممكَّنةٌ مُوجِعةٌ. فالألْسُنُ لا تَصْدُقُ في خَبرِها عنِ القُلوبِ، والقلْبُ أعدَلُ شَهادَةً على اللسانِ منَ اللّسانِ على القَلْبِ. وقدْ عَلِمْتُ أنَّ قلبي لا يَشْهَدُ لِلسانِكَ ولا قَلْبُكَ للساني.

قال الملِكُ: ألَمْ تَعْلم أنَّ الضَّغائنَ والأحْقادَ تكونُ بينَ كثيرٍ منَ النّاسِ، فمَنْ كانَ ذا عقْلٍ كانَ على إماتَةِ الحِقْدِ أحْرَصَ منهُ على ترْبيتِهِ. قال فَنْزَةُ: إنَّ ذلكَ لكما ذَكَرْتَ، ولكنْ ليْسَ ينْبغي لذِي الرَّأيِ معَ ذلكَ أن يَظُنَّ أنّ الموْتُورَ الحَقُودَ ناسٍ ما وُتِرَ بهِ ولا مَصرُوفٌ عنهُ، وذُو الرَّأيِ يَتخَوَّفُ المَكْرَ والخَدِيعةَ والحِيَلَ ويَعلمُ أنّ كثيراً منَ العدُوِّ لا يُسْتطاعُ بالشدَّةِ والمُكابرَةِ حتى يُصادَ بالرِّفْقِ والمُلاينَةِ كما يُصادُ الفيلُ الوَحشِيُّ بالفيلِ الدَّاجِنِ. قالَ الملكُ: إنّ العاقلَ الكريمَ لا يَترُكُ إلْفَهُ ولا يَقطَعُ إخوانَهُ ولا يُضيِّعُ الحِفاظَ وإنْ هوَ خافَ على نفْسِهِ، حتى إنَّ هذا الخُلُقَ يكونُ في أوْضَعِ الدَّوابِّ مَنزلةً، فقدْ عَلِمْتَ أنّ اللَّعَّابِينَ يَلعَبُونَ بالكلاّبِ ثمَّ يَذْبَحُونها ويأكُلونَها ويَرَى الكلْبُ الذي قدْ ألِفَهُمْ ذلكَ فلا يَدعُوهُ إلى مُفارقَتِهِمْ ولا يَمنَعُه منْ إلْفَتِه إيَّاهُمْ.

قال فَنْزَةُ: إنّ الأحْقادَ مَخُوفَةٌ حيْثُ كانتْ فأخْوَفُها وأشدُّها ما كانَ في أنفُسِ المُلوكِ، فإنَّ المَلوكَ يَدِينُونَ بالانْتِقامِ، وَيَرَوْنَ الدَّرْكَ والطلَبَ بالوِتْر مَكْرُمَةً وفَخْراً وإنَّ العاقلَ لا يَغتَرُّ بسكونِ الحِقْدِ إذا سَكَنَ، فإنما مَثَلُ الحِقْدِ في القلْبِ إذا لمْ يَجِدْ مُحرِّكاً مثَلُ الجَمْرِ المكنونِ ما لَمْ يَجِدْ حَطباً، فليْسَ يَنفَكُّ الحِقْدُ مُتطلِّعاً إلى العِلَلِ[1] كما تَبْتغي النّارُ الحطبَ، فإذا وَجَدَ عِلةً استَعَرَ اسْتِعارَ النار فلا يُطْفئُهُ حُسْنُ كلامٍ ولا لِينٌ ولا خُضوعٌ ولا تَضرُّعٌ ولا مُصانَعةٌ[2] ولا شيءٌ دونَ تَلَفِ الأنفُسِ، معَ أنهُ رُبَّ واتِرٍ يَطْمَعُ في مُراجعةِ

---

(١) العلل: الأسباب.

(٢) المصانعة: المداراة والرشوة.

المَوْتُورِ لِما يَرْجُو أنْ يَقْدِرَ عليهِ منَ النفْعِ لهُ والدَّفْعِ عنهُ، ولكني أنا أضعَفُ منْ أنْ أقْدِرَ على شيءٍ يَذْهَبُ بهِ ما في نَفْسِكَ ولوْ كانتْ نفسُكَ مُنْطويةً لي على ما تقولُ ما كانَ ذلكَ عنِّي مُغْنياً، ولا أزالُ في خوْفٍ ووَحْشَةٍ وسوءِ ظَنٍّ ما اصْطَحَبْنا، فليسَ الرَّأيُ بيْنِي وبيْنَكَ إلاّ الفِرَاقَ وأنا أقْرَأُ عليْكَ السلام.

قال الملِكُ: لقدْ عَلِمْتُ أنهُ لا يَستطيعُ أحدٌ لأحدٍ ضَرًّا ولا نَفْعاً، وأنهُ لا شيءَ منَ الأشْياءِ صَغيراً ولا كَبيراً يُصِيبُ أحداً إلاّ بقَضاءٍ وقَدَرٍ مَعلومٍ، وكما أنّ خَلْقَ ما يُخْلَقُ ووِلادةَ ما يُولَدُ وبَقاءَ ما يَبْقَى ليْسَ إلى الخلائقِ منهُ شيءٌ. كذلكَ فَناءُ ما يَفْنَى وهَلاكُ ما يَهْلكُ، وليْسَ لكَ في الذِي صَنَعْتَ بابْنِي ذَنْبٌ ولا لابْني فِيما صَنَعَ بابْنِكَ ذنْبٌ، إنما كانَ ذلكَ كلُّهُ قَدَراً مَقْدُوراً وكِلاَنا لهُ عِلةٌ فلا نُؤَاخَذُ بما أتانا بهِ القَدَرُ. قال فَنْزَةُ: إنّ القَدَرَ لكَما ذَكَرْتَ لكنْ لا يَمْنَعُ ذلكَ الحازِمَ منْ تَوَقِّي المَخاوِفِ والاحتِرَاسِ منَ المَكارِهِ. ولكنهُ يَجْمَعُ تَصْدِيقاً بالقَدَرِ وأخْذاً بالحَزْمِ والقوَّةِ، وأنا أعلمُ أنكَ تُكلّمُني بغيرِ ما في نفْسِكَ، والأمرُ بيْني وبينَكَ غيرُ صَغيرٍ لأنّ ٱبنَكَ قَتَلَ ٱبْني وأنا فَقأتُ عيْنَ ابْنِكَ، وأنتَ تُريدُ أنْ تَشْتَفِيَ بقَتْلي وتَخْتِلَني[1] عنْ نفْسِي والنفْسُ تَأبَى الموْتَ. وقدْ كانَ يُقالُ: الفاقةُ بَلاءٌ، والحُزْن بَلاءٌ، وقُرْبُ العدُوِّ بَلاءٌ، وفِراقُ الأحِبّةِ بَلاءٌ، والسُّقْمُ بَلاءٌ، والهَرَمُ بَلاءٌ، ورأسُ البَلايا كلها الموْتُ.

وليْسَ أحَدٌ بأعلمَ بما في نفْسِ المُوجَعِ الحزِينِ ممَّنْ ذاقَ مِثْلَ ما بهِ، فأنا بما في نفْسِي عالِمٌ بما في نفْسِكَ للْمَثَلِ الذِي عِنْدِي منْ ذلكَ ولا خَيرَ لي في صُحْبتِكَ، فإنكَ لنْ تَتذَكَّرَ صَنِيعي بٱبْنِكَ ولنْ أتذَكَّرَ صَنيعَ ابْنِكَ بِٱبْني إلاَّ أحدَثَ ذلكَ لِقُلوبِنا تَغْييراً. قالَ الملِكُ: لا خَيرَ في مَنْ لا يَسْتطيعُ الإعْرَاضَ عمَّا في نفْسهِ حتى يَنْساهُ ويُهْملَهُ فلا يَذْكُرَ منهُ شيئاً ولا يكونَ لهُ

(١) تختلني: الختل: الخداع.

في نفْسهِ مَوْقِعٌ. قال فنزَةُ: إن الرَّجلَ الذي في باطنِ قدمه قَرْحَةٌ إنْ هوَ حَرَصَ على المشْيِ لا بُدَّ أنْ تُنْكأ[١] قَرْحتُهُ، والرَّجُلُ الأرْمدَ العيْنِ إذا استَقْبَلَ بها الرِّيحَ تَعرَّضَ لأنْ تزْدادَ رَمَداً، وكذلكَ الواتِرُ إذا دَنا من المؤْتُورِ فقدْ عَرَّضَ نفْسَه للْهلاكِ. ولا ينبغي لِصاحبِ الدُّنْيا إلاَّ تَوَقِّي المَهالِكِ والمَتالِفِ وتقْدِيرُ الأمورِ وقلةُ الاتِّكالِ على الحَوْلِ[٢] والقوَّةِ وقلةُ الاغترَارِ بمن لا يأمَنْ.

«فإنهُ مَنِ اتكلَ على قوَّتِه فحمَلهُ ذلكَ على أنْ يَسْلُكَ الطَّريقَ المَخُوفَ قدْ سعَى في حَتْفِ نفسِهِ، ومنْ لا يُقدِّرُ لِطاقتهِ طَعامَهُ وشرابَهُ وحَمَّلَ نفْسَهُ ما لا تُطِيقُ ولا تَحْمِلُ فقدْ قَتَلَ نفْسَهُ، ومنْ لمْ يُقَدِّرْ لُقْمتَهُ وعظَّمَها فوْقَ ما يَسَعُ فُوهُ فرُبما غَصَّ بها فماتَ، ومنِ اغْترَّ بكلامِ عدُوِّهِ وانخَدَعَ لهُ وضَيَّعَ الحَزْمَ فهوَ أعْدَى لنفسهِ منْ عدُوِّه، وليْسَ لأحدٍ النظَرُ في القَدَرِ الذِي لا يَدْرِي ما يَأتيهِ منهُ ولا ما يُصْرَفُ عنهُ ولكنْ عليهِ العمَلُ بالحَزْمِ والأخْذُ بالقُوَّةِ ومُحاسبةُ نفسهِ في ذلكَ. والعاقِلُ لا يَثِقُ بأحدٍ ما اسْتطاعَ ولا يُقيمُ على خَوْفٍ وهوَ يَجِدُ عنهُ مَذْهَباً وأنا كثيرُ المذَاهِبِ وأرْجُو ألاَّ أذْهَبَ وجْهاً إلاَّ أصَبْتُ فيهِ ما يُغْنيني.

«فإنّ خِلاَلاً خمساً مَنْ تَزوَّدَهُنَّ كَفَيْنَهُ في كلِّ وجْهٍ وآنَسْنَهُ في كلِّ غُرْبةٍ وقَرَّبْنَ لهُ البَعِيدَ وأكسَبْنَهُ المَعاشَ والإخْوَانَ. أُولاهُنَّ: كَفُّ الأذَى. والثّانيةُ: حسْنُ الأدَبِ. والثّالثةُ: مُجانبةُ الرِّيَبِ. والرَّابعةُ: كَرَمُ الخُلُقِ. والخامسةُ: النُّبْلُ[٣] في العمَلِ. وإذا خافَ الإنسانُ على نَفْسهِ شيئاً طابَتْ نفسُهُ عنِ المالِ والأهْلِ والوَلَدِ والوَطنِ فإنهُ يَرْجُو الخَلَفَ منْ ذلكَ كلِّهِ ولا يَرْجُو عنِ

---

(١) تنكأ قرحته: تقشرها قبل أن تبرأ.

(٢) الحَوْل: بمعنى القوة.

(٣) النبل: الفضيلة.

النّفْسِ خَلَفاً، وشَرُّ المالِ مالا إِنْفاقَ منهُ، وشَرُّ الأزْواجِ التي لا تُؤَاتي بَعلَها[1] وشَرُّ الوَلدِ العاصِي العَاقُّ والِدَيْهِ وشرُّ الإخوانِ الخاذَلُ لأخيهِ عنْدَ النَّكبَاتِ والشَّدائدِ، وشرُّ المُلوكِ الذِي يَخافُهُ البرِيءُ ولا يُواظِبُ على حِفْظِ أهلِ مَملكتهِ، وشَرُّ البلادِ بِلاَدٌ لا خِصْبَ فيها ولا أمْنَ، وإِنهُ لا أمْنَ لي عنْدَكَ أيُّها الملِكُ ولا طُمأنِينةَ لي في جِوَارِكَ. ثمَّ وَدَّعَ الملِكَ وطارَ.

فهذَا مَثَلُ ذَوِي الأوْتارِ الذينَ لا يَنْبغي لبَعْضِهمْ أنْ يَثِقَ ببَعْضٍ.

(١) تؤاتي: توافق.

باب الأسد وابن آوى

قالَ دَبْشَليمُ الملِكُ لبيْدَبا الفيْلسوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ فاضربْ لي مثَلَ الملِكِ الذِي يُراجِعُ منْ أصابَتْهُ منهُ عقُوبةٌ منْ غيرِ جُرْمٍ أو جَفْوَةٌ منْ غيرِ ذنْبٍ.

قالَ الفيْلَسُوفُ: إنَّ الملِكَ لوْ لمْ يُراجِعْ مَنْ أصابتْهُ منهُ جَفْوَةٌ عنْ ذنْبٍ أوْ عنْ غيرِ ذنْبٍ ظُلِمَ أوْ لمْ يُظْلَمْ لأضرّ ذلكَ بالأُمورِ، ولكنَّ الملِكَ حَقِيقٌ أنْ يَنْظُرَ في حالِ مَنِ ابْتُلِيَ في ذلكَ ويَخْبُرَ ما عنْدَهُ منَ المنافعِ فإنْ كانَ ممَّنْ يُوثَقُ بهِ في رأيهِ وأمانتهِ فإنّ الملكَ حَقيقٌ بالحِرْصِ على مُراجعتهِ، فإنَّ المُلْكَ لا يُسْتَطاعُ ضَبْطُه إلاّ معَ ذَوِي الرَّأْيِ وهمُ الوُزَراءُ والأعْوانُ، ولا ينتفع بالوُزراءِ والأعوانِ إلاَّ بالموَدَّةِ والنَّصيحةِ، ولا مَوَدّةَ ولا نصِيحةَ إلاّ لذوِي الرّأْيِ والعَفافِ، وأعمالُ السُّلْطانِ كثيرَةٌ والذِينَ يَحْتاجُ إليْهِمْ من العُمَّالِ والأعوانِ كثيرُونَ، ومَنْ يَجمَعُ منهمْ ما ذَكرْتُ منَ النَّصيحةِ والعَفافِ قليلٌ، والمثلُ في ذلكَ مثَلُ الأسدِ وابنِ آوَى. قال الملِكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ.

[الأسد وابن آوى]

قال الفيْلَسوفُ: زعَموا أنَّ ابْنَ آوَى كان يَسكُنُ في بَعْضِ الدِّحالِ[1] وكانَ مُتزَهِّداً مُتعفِّفاً معَ بَناتِ آوَى وذِئابٍ وثَعالِبَ ولمْ يكنْ يَصنَعُ ما يَصْنَعْنَ

(١) الدحل: نقب ضيق فمه متسع أسفله بحيث يمشى فيه.

ولا يُغِيرُ كما يُغِرْنَ ولا يُهْرِيقُ دَماً ولا يأكلُ لحماً ولاَ يَظْلِمُ طَرْفَةَ عيْنٍ فخاصَمَتْهُ تلْكَ السَّباعُ وقُلْنَ: لا نَرْضَى بسيرَتِكَ ولا رأيِكَ الذي أنتَ عليْهِ منْ تَزَهُّدِكَ معَ أنَّ تَزَهُّدَكَ لا يُغْنِي عنكَ شيئاً، وأنْتَ لا تَسْتطِيعُ أن تكونَ إلاَّ كأَحِدِنا تَسْعَى مَعنا وتَفْعَلُ فِعْلَنا. فما الذي كفَّكَ عنِ الدِّماءِ وعنْ أكْلِ اللَّحْمِ؟ قال ابنُ آوى: إنَّ صُحْبتي إيَّاكُنَّ لا تُؤَثِّمُني[1] إذا لمْ أُؤَثِّمْ نفسِي لأنَّ الآثامَ ليْسَتْ منْ قِبَلِ الأماكنِ والأصْحابِ، ولكِنَّها منْ قِبَلِ القُلوبِ والأعمالِ. ولوْ كانَ صاحِبُ المَكانِ الصَّالحِ يكونُ عملُهُ فيهِ صالِحاً، وصاحِبُ المكانِ السيِّءِ يكونُ عملُهُ فيهِ سيِّئاً كانَ حينئذٍ مَنْ قتَلَ النّاسِكَ في مِحْرَابِهِ لمْ يَأثَمْ، ومَنِ اسْتَحْياهُ في مَعْرَكةِ القِتالِ أثِمَ. وإني إنما صَحِبْتُكُنَّ بنفْسِي ولمْ أصْحَبْكُنَّ بِقلْبي وأعمَالِي لأني أعْرِفُ ثمَرَةَ الأعمالِ فلَزِمْتُ حالِي.

وثَبَتَ ابْنُ آوَى على حالِهِ تِلْكَ واشتَهَرَ بالنُّسْكِ والتَّزَهُّدِ حتى بَلَغَ ذلكَ أسداً كانَ مَلِكَ تلكَ النَّاحيَةِ، فرَغِبَ فيهِ لِما بَلَغَهُ عنهُ منَ العفافِ والنَّزاهةِ والأمانةِ فأرْسَلَ إليْهِ يَسْتَدْعِيهِ، فلمَّا حَضَرَ كلَّمَهُ وآنسَهُ، ثمَّ دَعاهُ بعْدَ أيَّامٍ إلى صحْبتِهِ وقالَ لهُ: تعْلَمُ أنَّ عُمَّالِي كثيرٌ وأعوَاني جَمٌّ غَفيرٌ[2] وأنا معَ ذلكَ إلى الأعْوَانِ مُحْتَاجٌ، وقدْ بَلَغني عنك عَفافٌ فازْدَدْتُ فيكَ رَغْبةً، وأنا مُوَلِّيكَ منْ عمَلي جَسيماً ورَافِعُكَ إلى منزِلةٍ شَريفَةٍ وجاعِلُكَ منْ خاصَّتي. قال ابنُ آوى: إنَّ المُلوكَ أحِقَّاءُ[3] باخْتِيارِ الأعوَانِ فيما يَهْتَمُّونَ بهِ منْ أعمالِهِمْ وأمُورِهِمْ وهُمْ أحْرَى ألاَّ يُكرِهُوا على ذلكَ أحداً، فإنّ المُكْرَهَ لا يَسْتَطيعُ المُبالغَةَ في العمَلِ، وإني لِعَمل السُّلْطانِ كارِهٌ وليسَ لي بهِ تَجْرِبةٌ ولا بالسلْطانِ رِفْقٌ، وأنتَ مَلِكُ السِّباعِ وعنْدَكَ منْ أجْناسِ الوُحوشِ عَدَدٌ كثيرٌ

(١) أي تجعلني أثيماً مذنباً.
(٢) جم غفير: كثير.
(٣) أحقاء: جمع حقيق أي جدير.

فيهِمْ أهْلُ نُبْلٍ وقوَّةٍ ولهمْ على العَمَلِ حِرْصٌ، وعِنْدَهمْ بهِ وبالسلْطانِ رِفْقٌ، فإنِ استَعْمَلْتَهمْ أغْنَوْا عنكَ واغْتَبَطُوا لأنفُسِهِمْ بما أصابَهمْ منْ ذلكَ.

قال الأسدُ: دَعْ عنكَ هذا فإني غيرُ مُعْفِيكَ منَ العمَلِ. قال ابنُ آوى: إنما يَسْتطيعُ خِدْمةَ السلْطانِ رَجُلاَنِ لسْتُ بواحِدٍ منهُما. إمَّا فاجِرٌ مُصانِعٌ[١] يَنالُ حاجتَهُ بفُجُورِه ويَسْلَمُ بمُصانَعتهِ. وإمَّا مُغفَّلٌ لا يَحْسُدهُ أحدٌ. فمنْ أرادَ أنْ يَخدُمَ السلطانَ بالصِّدْقِ والعَفافِ فلا يَخْلِطُ ذلكَ بمُصانَعتهِ وحينئذٍ قَلَّ أنْ يَسْلَمَ على ذلكَ، لأنهُ يَجْتمِعُ عليهِ عدُوُّ السلْطانِ وصَدِيقهُ بالعَداوَةِ والحَسَدِ، أمَّا الصَّدِيقُ فيُنافِسهُ في مَنزلتهِ ويَبْغِي عليهِ فيها ويُعادِيهِ لأجْلِها، وأمَّا عدُوُّ السلْطانِ فيَضْطَغِنُ[٢] عليْهِ لنصيحته لِسُلْطانهِ وإغْنائهِ عنهُ فإذا اجتَمَعَ عليهِ هَذانِ الصِّنْفانِ فقدْ تَعَرَّضَ للهَلاكِ.

قال الأسدُ: لا يَكُونَنَّ بَغْيُ أصْحَابي عليْكَ وحسَدُهمْ إيَّاكَ ممَّا يَعْرِضُ في نفْسِكَ فأنتَ مَعي وأنا أكْفِيكَ ذلكَ وأبلُغُ بكَ منْ دَرجاتِ الكَرامَةِ والإحْسانِ على قدْرِ همَّتِكَ. قال ابنُ آوى: إنْ كانَ الملِكُ يُريدُ الإحسانَ إليَّ فلْيَدَعْني في هذهِ البَرِيّةِ أعيشُ آمِناً قليلَ الهَمِّ راضِياً بعَيْشِي منَ الماءِ والحَشِيشِ، فإني قدْ عَلِمْتُ أنَّ صاحِبَ السلطانِ يَصِلُ إليْهِ منَ الأذَى والخَوْفِ في ساعةٍ واحدَةٍ ما لاَ يَصِلُ إلى غيرِه في طُولِ عُمْره، وإنَّ قليلاً منَ العَيْشِ في أمْنٍ وطُمَأنينةٍ خيرٌ منْ كثيرٍ منَ العيْشِ في خَوْفٍ ونَصَبٍ[٣] قال الأسدُ: قدْ سَمِعْتُ مَقالَتكَ فلا تَخَفْ شيئاً ممَّا أراكَ تخاف منهُ، ولسْتُ أجِدُ بُدًّا منَ الاسْتِعانةِ بكَ في أمري.

قال ابنُ آوى: أمَّا إذْ أبَى الملكُ إلاّ ذلكَ فلْيَجْعَلْ لي عَهْداً إنْ بَغَى

---

(١) مصانع: مداهن.

(٢) يضطغن: يحقد.

(٣) النصب: التعب.

عليَّ أحدٌ منْ أصْحابِهِ ممَّنْ هوَ فَوْقي مَخافةً على مَنزلتِهِ أوْ ممَّنْ هوَ دُوني لِيُنازِعَني في مَنزِلَتي فذَكَرَ عندَ الملِكَ منهمْ ذاكِرٌ بلِسانهِ أوْ على لِسانِ غيرِهِ ما يُريدُ به تَحْميلَ[1] الملِكِ عليَّ ألاَّ يَعْجَلَ في أمري، وأنْ يَتَثَبَّتَ فيما يُرْفَعُ إليهِ ويُذْكَرُ عندَهُ منْ ذلكَ ويَفْحَصَ عنهُ ثمَّ لِيَصْنَعْ ما بَدَا لهُ، فإذا وَثِقْتُ منهُ بذلكَ أعَنْتهُ بنفْسِي فيما يَجِبُ وعَمِلْتُ لهُ فيما أوْلاَني بنَصيحةٍ واجْتِهادٍ، وحَرَصْتُ على ألاَّ أجْعَلَ لهُ على نفْسي سَبيلاً. قال الأسدُ: لكَ عليَّ ذلكَ وزيادَةٌ. ثمَّ وَلاَّهُ خَزائنَهُ واْختَصَّ بهِ دونَ أصْحابِهِ وزَادَ في كَرَامَتِه.

فلمَّا رأى أصْحابُ الأسدِ ذلكَ غاظَهمْ وَساءَهُمْ فأجْمَعوا كيْدَهمْ واتَّفَقُوا كلُّهمْ على أنْ يُحَمِّلُوا عليهِ الأسدِ، وكانَ الأسدُ قدِ اسْتَطابَ لحماً فَعَزَلَ منهُ مِقْداراً وأمَرَ ابنَ آوى بالاحْتِفاظِ بهِ وأنْ يَرْفَعَهُ في أحْصَنِ موْضِعِ طَعامهِ وأحْرَزِه ليُعادَ عليه. فأخذُوهُ منْ مَوْضِعِهِ وحَمَلوهُ إلى بيْتِ اْبْنِ آوى فَخَبأُوهُ ولا عِلمَ لهُ بهِ ثمَّ حَضَرَوا لِيُكذِّبوه إنْ جَرَتْ في ذلكَ حالٌ. فلمَّا كانَ منَ الغَدِ ودَعا الأسدُ بِغَدائهِ فَقَدَ ذلكَ اللّحْمَ والتَمَسَهُ فلمْ يَجِدْهُ. وابْنُ آوى لمْ يَشْعُرْ بما صُنِعَ في حَقِّهِ منَ المَكيدَةِ، فَحضَرَ الذينَ عَمِلُوا المَكِيدَةَ وقَعَدُوا في المجْلسِ، ثمَّ إنَّ الملكَ سألَ عنِ اللَّحْمِ وشَدَّدَ فيه وفي المسألةِ عنهُ فنَظَرَ بعْضُهمْ إلى بَعْضٍ.

فقالَ أحدُهمْ قوْلَ المُخْبِرِ النّاصِحِ: إنهُ لا بدَّ لنا أنْ نُخْبِرَ الملِكَ بما يَضُرُّهُ ويَنْفَعُه وإنْ شَقَّ ذلكَ على مَنْ يَشُقُّ عليهِ. وإنهُ بلَغَني أنَّ ابنَ آوَى هوَ الذي ذَهَبَ باللَّحْم إلى مَنزلِهِ. قال الآخَرُ: لا أراهُ يَفْعَلُ هذا. ولكنِ انْظُروا وافْحَصُوا فإنّ مَعْرِفَةَ الخَلائقِ شديدَةٌ. فقالَ الآخَرُ: لَعَمْري ما تَكادُ السَّرائرُ أنْ تُعْرَفَ، وأظُنُّكمْ إنْ فَحصْتُمْ عنْ هذا وَجَدْتُمُ اللَّحْمَ في بيْتِ ابْنِ آوَى، وكلُّ شيءٍ يُذْكَرُ منْ عُيوبِهِ وخِيانتِهِ نحنُ أحَقُّ أنْ نُصدِّقَه. قال الآخَرُ: لئنْ وَجَدْنا

---

(١) تحميل: تهييج.

هذا حَقًّا فليْستْ بالخِيانةِ فقطْ ولكنْ معَ الخِيانةِ كُفْرُ النِّعْمةِ والجُرْأةُ على الملِكِ. قال الآخرُ: أَنتمْ أهلُ العَدْلِ والفضْلِ لا أسْتطيعُ أنْ أكذِّبَكُمْ، ولكنْ سَيَبِينُ هذا لوْ أرْسَلَ الملِكُ إلي بيْتِهِ منْ يُفتّشهُ. قال الآخَرُ: إنْ كانَ الملكُ مُفَتّشاً مَنزِلَهُ فلْيُعجِّلْ فإنَّ عُيونَه[1] وجَواسِيسَهُ مَبْثُوثةٌ[2] بكلِّ مكانٍ. ولمْ يَزالوا في هذا الكلامِ وأشْباهِهِ حتى وَقَعَ في الأسدِ ذلكَ، فأمَرَ بأبْنِ آوَى فَحضَرَ.

فقالَ لهُ: أيْنَ اللَّحْمُ الذي أمَرْتُكَ بالاحْتِفاظِ بهِ؟ قال: دَفَعْتُه إلى صاحبِ الطَّعامِ ليُقَرِّبهُ إلى الملِكِ، فدَعا الأسدُ بِصاحبِ الطَّعامِ وكانَ ممَّنْ شايَعَ وبَايعَ[3] معَ القوْمِ على ابْنِ آوى فقالَ: ما دَفَعَ إليَّ شيئاً. فأرْسَلَ الأسدُ أمِيناً إلي بيْتِ ابْنِ آوى لِيُفتّشَهُ فوَجَدَ فيهِ ذلكَ اللَّحْمِ فأتَى به إلى الأسدِ، فدَنا منَ الأسدِ ذئْبٌ لمْ يكُنْ يَتكلَّمُ في شيءٍ منْ ذلكَ وكانَ يُظْهِرُ أنهُ منَ العُدُولِ[4] الذينَ لا يَتكلَّمُونَ فيما لا يَعْلَمُونَ حتى يَتبيَّنَ لهمُ الحَقُّ. فقالَ: بعْدَ أنِ اطَّلَعَ الملِكُ على خِيانةِ ابْنِ آوى فلا يَعْفُوَنَّ عنهُ فإنهُ إنْ عَفا عنهُ لمْ يَطَّلِعِ الملِكُ بعْدَها على خِيانَةِ خائنٍ ولا ذَنْبَ مُذْنِبٍ. فأمَرَ الملِكُ بأبْنِ آوَى أنْ يُخْرَجَ ويُحْتَفَظَ بهِ. فقال بعْضُ جُلَساءِ الملِكِ: إنِي لأعجَبُ منْ رأيِ الملِكِ ومعْرِفَتهِ بالأمُورِ كيْفَ يَخْفَى عليهِ أمْرُ هذا ولمْ يَعْرِفْ خِبَّهُ ومُخادَعتَهُ، وأعْجَبُ منْ هذا أني أرَاهُ سيَصْفَحُ عنهُ بعْدَ الذي ظَهَرَ منهُ.

فأرْسَلَ الأسدُ بَعْضَهمْ رَسُولاً إلى ابْنِ آوى يَلْتمِسُ منهُ العُذْرَ، فَرَجَعَ إليهِ الرَّسولِ برِسالةٍ كاذِبةٍ اختَلَقَها[5]، فغَضِبَ الأسدُ منْ ذلكَ وأَمَرَ بابْنِ آوى أنْ يُقتَلَ، فعَلِمَتْ أمُّ الأسدِ أنهُ قدْ عَجِلَ في أمرِهِ فأرْسَلَتْ إلى الذِينَ أمِرُوا

---

(١) العَيْن: الجاسوس.

(٢) مبثوثة: منتشرة.

(٣) شايع وبايع: تابع.

(٤) العُدُول ج عَدْل: بمعنى عادل.

(٥) اختلقها: ادَّعاها.

بقتْلهِ أنْ يُؤخِّرُوهُ، ودَخَلَتْ على ابْنِها فقالتْ: يا بُنيَّ بأيِّ ذنْبٍ أمَرْتَ بقتْلِ ابنِ آوى؟ فأخبرَها بالأمرِ فقالتْ: يا بُنيَّ عَجلْتَ وإنمَا يَسْلَمُ العاقلُ منَ النَّدامةِ بتَرْكِ العَجلَةِ وبالتثبُّتِ، والعَجلةُ لا يَزالُ صاحِبُها يَجْتني ثمرَةَ الندامةِ بِسبَبِ ضَعْفِ الرَّأيِ وليْسَ أحدٌ أحْوَجَ إلى التُّؤَدَةِ والتثبُّتِ منَ المُلوكِ فإنّ المرْأةَ بزَوْجِها والوَلَدَ بوَالِدَيْهِ والمُتعلّمَ بالمُعلّمِ والجُنْدَ بالقائدِ والناسِكَ بالدِّينِ والْعامّةَ بالمُلوكِ والمُلوكَ بالتَّقْوَى والتَّقْوَى بالعقْلِ والْعقْلَ بالتثبُّتِ والأناةِ، ورَأسُ الكلِّ الحَزْمُ، ورَأسُ الحزْمِ للملِكِ معرِفةُ أصْحابهِ وإنْزَالُهمْ مَنازِلَهمْ على طَبَقَاتِهِمْ واتّهامُهُ بَعْضَهمْ على بَعْضٍ فإنهُ لوْ وَجَدَ بعضُهمْ إلى هَلاَكِ بعْضٍ سَبيلاً لَفَعَلَ.

وقدْ جَرَّبْتَ ابنَ آوى وبَلَوْتَ رأيَهُ وأمانتَهُ ومُروءَتَهُ ثمَّ لمْ تَزَلْ مادِحاً لهُ راضِياً عنهُ، وليْسَ ينبغي للملِكِ أنْ يُخَوِّنَه بعدَ ارْتِضائهِ إيَّاهُ وائْتِمانِهِ لهُ ومُنْذُ مَجيئهِ إلى الآنَ لمْ يَطَّلعْ لهُ على خِيانةٍ إلاّ على العِفَّةِ والنَّصِيحةِ، وما كانَ منْ رأيِ الملكِ أنْ يُعَجّلَ عليهِ لأجْلِ طابِقٍ[1] لَحم، وأنتَ أيُّها الملِكُ حَقِيقٌ أنْ تَنْظُرَ في حالِ ابْنِ آوى، وتَعْلَمَ أنهُ لمْ يكنْ يَتَعَرَّضُ لِلَحْمِ ولا يَأكلُه فكيْفَ لِلَحْمِ استَوْدَعَتَهُ إيَّاهُ، ولعَلَّ الملِكَ إنْ فَحصَ عنْ ذلكَ ظَهَرَ لهُ أنَّ ابْنَ آوى لهُ خُصَماءُهُمْ الذينَ ائْتَمرُوا بهذا الأمرِ وهمُ الذينَ ذَهَبوا باللَّحْمِ إلي بيْتهِ فوَضَعُوهُ فيهِ، فإنّ الحِدَأةَ إذا كانَ في رِجْلِها قِطْعةُ لحم اجتَمَعَ علَيْها سائرُ الطَّيْرِ، والكلْبَ إذا كانَ معَهُ عظْمٌ اجْتَمَعتْ عليهِ الكلاَبُ، وابْنُ آوى مُنْذُ كانَ إلى اليَوْمِ نافعٌ وكانَ مُحتَمِلاً لكلِّ ضَرَرٍ في جَنْبِ منْفعَةٍ تَصِلُ إليْكَ ولكلِّ عَناءٍ يكونُ لكَ فيهِ راحةٌ ولمْ يكُنْ يَطْوِي دونَكَ سِرًّا.

فبينما أمُّ الأسدِ تَقُصُّ عليهِ هذهِ المَقالةَ إذْ دَخَلَ عليهِ بعْضُ ثِقاتهِ فأخبرَهُ ببراءَةِ ابْنِ آوى. فقالتْ أمُّ الأسدِ: إنَّ الملِكَ بعدَ أنِ اطَّلَعَ على بَراءَةِ

(١) طابق لحم: قطعة منه أو نصف الشاة ويقال للوعاء الذي يطبخ فيه طابق.

ابنِ آوى حَقِيقٌ ألاَّ يُرَخِّصَ لمنْ سَعَى بهِ[١] لئلاَّ يَتجرَّأوا على ما هوَ أعظَمُ منْ ذلكَ بلْ يُعاقِبُهمْ عليهِ لكيْ لا يَعُودُوا إلى مثْلِهِ، فإنهُ لا ينبغي للْعاقلِ أنْ يُراجِعَ في أمرِ الكَفُورِ للْحُسْنَى، الجَرِيءَ على الغَدْرِ الزَّاهِدَ في الخيْرِ الذي لا يُوقِنُ بالآخرَةِ، وينبغي أنْ يُجْزَى بعَمَلِهِ، وقدْ عَرَفْتَ سُرْعةَ الغضَبِ وفَرْطَ[٢] الهَفْوَةِ، ومَنْ سَخِطَ باليَسيرِ لمْ يَبْلُغْ رِضاهُ بالكثيرِ، والأوْلَى لكَ أنْ تُراجِعَ ابنَ آوى وتَعْطِفَ عليهِ ولا يُؤْنسنَّكَ منْ مُناصَحتهِ ما فَرَطَ منكَ إليْهِ منَ الإساءَةِ، فإنَّ منَ النّاسِ منْ لا يَنْبغي ترْكُهُ على حالَ منَ الأحوالِ وهوَ مَنْ عُرِفَ بالصَّلاَحِ والكَرَمِ وحُسْنِ العَهْدِ والشُّكْرِ والوَفاءِ والمحبَّةِ للنّاسِ والسَّلامةِ منَ الحسَدِ والبُعْدِ منَ الأذَى والاحتمالِ للإخْوانِ والأصْحابِ وإنْ ثَقُلَتْ عليهِ منهمُ المؤُونةُ[٣]. وأمَّا مَنْ ينبغي ترْكُهُ فهوَ مَنْ عُرِفَ بالشَّرَاسةِ ولؤْمِ العهْدِ وقلةِ الشُّكْرِ والوَفاءِ والبُعْدِ منَ الرَّحمةِ والوَرَعِ واتَّصَفَ بالجُحُودِ لثَوابِ الآخرَةِ وعِقابِها وقدْ عَرَفْتَ ابنَ آوى وجَرَّبتَهُ وأنتَ حَقِيقٌ بُمواصلَتهِ.

فدَعا الأسدُ ابْنِ آوى واعتَذَرَ إليهِ ممَّا كانَ منهُ ووَعَدَهُ خيْراً وقال: إني مُعْتَذِرٌ إليْكَ ورَادُّكَ إلى مَنزِلَتِكَ. فقال ابْنُ آوى: إنّ شَرَّ الأخِلاّءِ مَنِ التَمَسَ منفعةَ نفْسهِ بضَرٍّ أخيهِ ومنْ كانَ غيرَ ناظِرٍ لهُ كنظَرِه لنفْسهِ أو كانَ يُرِيدُ أن يُرْضِيَهُ بغيرِ الحقِّ لأجْلِ اتِّباعِ هَواهُ وكثيراً ما يقَعُ ذلكَ بينَ الأخِلاَّءِ، وقدْ كانَ منَ الملِكِ إليَّ ما علِمَ، فلا يَغْلُظَنَّ على نفْسهِ ما أخبرُهُ بهِ أني به غيرُ واثِقٍ، وأنهُ لا ينبغي لي أنْ أصْحَبَهُ فإنَّ المُلوكَ لا ينبغي لهمْ أنْ يَصحَبُوا مَنْ عاقَبُوهُ أشدَّ العِقابِ، ولا ينبغي لهمْ أنْ يَرْفُضُوهُ أصْلاً، فإنَّ ذا السُّلْطانِ إذا عُزِلَ كانَ مُسْتحِقًّا لِلْكرامةِ في حالِ إبْعادهِ والإقْصاءِ له، فلمْ يَلْتفِتِ الأسدُ إلى كلامهِ.

---

(١) سعى به: نمَّ ووشى.
(٢) الفرط: من الإفراط.
(٣) المؤونة: الثقل.

ثمَّ قالَ لهُ: إني قدْ بَلَوْتُ طِباعَكَ وأخلاقَكَ وجَرَّبْتُ أمانتَكَ وَوَفاءَكَ وصِدْقَكَ وعَرَفْتُ كَذِبَ مَنْ تَمحَّل(١) الحِيَلَ لِتَحْمِيلي عليكَ، وإني مُنزِلُكَ منْ نفْسِي منزِلةَ الأخيارِ الكُرَماءِ، والكريمُ تُنْسِيهِ الخَلَّةُ الواحدَةُ منَ الإحْسانِ الخِلالَ الكثيرَةَ منَ الإساءَةِ، وقدْ عُدْنا إلى الثّقةِ بكَ فعُدْ إلى الثّقةِ بِنا فإنَّ لنَا ولكَ بذلكَ غِبْطةً وسُرُوراً، فَعادَ ابْنُ آوى إلى ولايَةِ ما كانَ يَلي وضاعَفَ لهُ الملِكُ الكرَامةَ ولمْ تَزِدْهُ الأيامُ إلاّ تقَرُّباً منَ السلْطانِ.

(١) تمحل: تحايل.

باب اللَّبُؤَةِ والإسْوَارِ والشَّغْبَرِ(1)

قالَ دَبْشَليمُ المَلِكُ لِبَيْدَبا الفيْلَسوف: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ فاضرِبْ لي مثَلاً في شأنِ مَنْ يَدَعُ ضَرَّ غيرِهِ إذا قَدَرَ عليه بما يُصيبُهُ منَ الضرَر ويكونُ لهُ فيما يَنزِلُ بهِ واعِظٌ وزَاجِرٌ عنِ ارْتِكابِ الظلْمِ والعَداوَةِ لغيرِه.

قال الفَيْلَسُوفُ: إنهُ لاَ يُقْدِمُ على طلَبِ ما يَضُرُّ بالنَّاسِ وما يَسُوؤُهُمْ إلاَّ أهلُ الجَهالَةِ والسَّفَةِ وسوءِ النَّظَرِ في العواقبِ منْ أمورِ الدُّنْيا والآخرةِ، وقلةِ العِلمِ بما يَدْخُلُ عليهِمْ في ذلكَ منْ حُلولِ النِّقْمَةِ وبما يَلْزمُهمْ منْ تَبعَةِ ما اكتَسَبوا ممَّا لا تُحيطُ بِهِ العقُولُ، وإنْ سَلِمَ بعضُهمْ منْ ضرَرِ بعْضٍ بِمَنِيَّةٍ عَرَضتْ لهُ قبْلَ أنْ يَنْزِلَ بهِ وَبَالُ ما صَنَعَ، فإنّ مَنْ لمْ يُفكِّرْ في العَواقِبِ لمْ يأمَنِ المَصائبَ وحَقِيقٌ ألاَّ يَسْلَمَ منَ المَعاطِبِ، وربما اتَّعَظَ الجاهلُ واعتَبَرَ بما يُصيبُهُ منَ المَضَرَّةِ منَ الغيرِ فارْتَدَعَ عَنْ أنْ يَغْشَى(2) أحداً بِمثلِ ذلكَ منَ الظُّلْمِ والعُدْوانِ وحصَلَ نَفْعُ ما كَفَّ عنهُ منْ ضرَرِه لغيرِه في العاقبةِ. فنَظيرُ ذلكَ حديثُ اللَّبُؤَةِ والإسْوارِ والشَّغْبَرِ. قال الملكُ: وكيْفَ كانَ ذلك؟

قال الفيلسُوفُ: زَعموا أنَّ لَبُؤَةً كانتْ في غَيْضَةٍ(3) ولها شبْلاَنِ وأنها خَرَجَتْ في طلَبِ الصَّيْدِ وخَلَّفَتْهُما في كَهْفِهما، فَمرَّ بهما إسْوَارٌ فَحمَلَ

---

(1) اللبؤة بضم الباء: الأنثى من الأسود. والأسوار بالكسر والضم: الجيد الرمي بالسهام.. والشغبر كما في القاموس: ابن آوى.

(2) غشي: أتى.

(3) غيضة: غابة ذات شجرة كثيف.

عليهِما ورَماهُما فقَتلَهُما وسَلَخَ جِلْدَيْهِما فاْحتَقَبَهُما(١) وانصرَفَ بهما إلى منزِله، ثمَّ إنها رجَعَتْ فلمَّا رأتْ ما حَلَّ بهما منَ الأمرِ الفَظيعِ اضطَرَبَتْ ظَهْراً لبَطْنٍ وصاحَتْ، وكان إلى جَنْبِها شَغْبَرٌ فلمَّا سَمِعَ ذلكَ منْ صِياحِها قالَ لها: ما هذا الذي تصْنَعينَ وما نزَلَ بكِ فأخبريني بهِ. قالتِ اللَّبُؤَةُ: شِبْلايَ مَرَّ بهما إسْوَارٌ فقتلَهُما وسَلَخَ جِلْدَيهِما فاحْتَقَبَهُما ونَبَذَهُما بالعَرَاءِ(٢) قالَ لها الشَّغْبَرُ: لا تَضِجِّي وأنْصِفي منْ نفْسِكِ، واْعلَمي أنَّ هذا الإِسْوَارَ لمْ يأتِ إليْكَ شيئاً إلاَّ وقدْ كنْتِ تَفْعَلينَ بغيرِكِ مثلَهُ وتأتِينَ إلى غيرِ واحدٍ مثْلَ ذلكَ ممَّنْ كانَ يَجِدُ بِحَميمِهِ(٣) ومَنْ يَعِزُّ عليهِ مثلُ ما تَجِدينَ بِشِبْلَيْكِ فاْصبِري على فِعْلِ غيرِكِ كما صَبَرَ غيرُكِ عليهِ منْكِ، فإنهُ قَدْ قيلَ كما تَدِينِ تُدَانُ ولكلِّ عمَلٍ ثمرَةٌ منَ الثوابِ والعِقابِ وهُما على قَدَرِهِ في الكثرَةِ والقِلَّةِ كالزَّرْعِ إذا حضَرَ الحَصَادُ أعْطَى على حسَبِ بِذْرِهِ.

قالتِ اللَّبُؤَةُ: بيِّنْ لي ما تقُولُ وأفْصِحْ لي عنْ إشارَتهِ، قال الشَّغْبَرُ: كمْ أتى لكِ منَ العُمْرِ؟ قالتِ اللَّبُؤَةُ: مائةُ سنةٍ. قال الشّغبرُ: ما كانَ قُوتُكِ؟ قالتِ اللبؤةُ: لحمُ الوَحْشِ. قال الشَّغبرُ: مَنْ كانَ يُطْعِمُكِ إيَّاهُ؟ قالتِ اللَّبُؤَةُ: كنْتُ أصِيدُ الوَحْشَ وآكُلُه. قال الشّغْبرُ: أرأيْتِ الوُحوشَ التي كنتِ تأكُلينَ أمَا كانَ لها آباءُ وأمَّاتٌ؟ قالتْ: بَلى. قال الشّغْبَرُ: فَما بالِي لا أرَى ولا أسْمَعُ لتلْكَ الآباءِ والأُمَّاتِ من الجَزَعِ والضّجيجِ ما أرَى وأسْمَعُ لك؟ أمَا إنهُ لمْ يَنزِلْ بكِ ما نَزَلَ إلاْ لسُوءِ نظَرِكِ في العواقبِ وقلةِ تَفكُّرِكِ فيها وجَهالتِكِ بما يَرْجعُ عليْكِ منْ ضَرِّها.

فلمَّا سَمِعَتِ اللَّبُؤَةُ ذلكَ منْ كلامِ الشَّغْبَر عَرَفَتْ أنَّ ذلكَ ممَّا جنَتْ على نفْسها وأنّ عملها كانَ جَوْراً وظُلْماً، فتَرَكَتِ الصَّيْدَ وانصرَفَتْ عنْ أكلِ

(١) احتقبهما: حملهما.
(٢) نبذهما بالعراء: ألقاهما في الفضاء.
(٣) الحميم: القريب.

اللحْمِ إِلى أكْلِ الثِّمارِ والنُّسُكِ والعِبادةِ. فلمَّا رَأى ذلكَ الوَرَشَانُ[١] وكانَ صاحبَ تلْك الغَيْضَةِ وكانَ عيْشُهُ منَ الثِّمارِ قالَ لها: قدْ كنْتُ أظُنُّ أنَّ الشَّجَرَ عامَنا هذا لَمْ يَحْمِلْ لِقلَّةِ الماءِ، فلمَّا أبْصَرْتُكِ تأكُلِينَها وأنتِ آكِلَةُ اللَّحْمِ فتَرَكْتِ رِزْقَكِ وطِعامَكِ وما قَسَمَ الله لكِ وتَحَوَّلْتِ إلى رِزْقِ غيرِكِ فانْتَقَصْتِهِ ودَخَلْتِ عليهِ فيه، عَلِمْتُ أنّ الشجَر الْعامَ أثْمَرَتْ كما كانتْ تُثْمِرُ قبْلَ اليوْمِ وإِنَّما أتَتْ قِلةُ الثَّمَرِ منْ جهَتِكِ، فوَيْلٌ للشجَرِ ووَيْل للثِّمارِ ووَيْلٌ لمنْ عيْشُهمْ منها ما أسرَعَ هلاكَهُمْ إذا دَخَلَ عليهِمْ في أرْزاقِهِمْ وغلَبَهُمْ عليْها مَنْ ليْسَ لهُ فيها حظ ولَمْ يكُنْ مُعْتاداً لأكلِها! فلمَّا سَمِعَتِ اللَّبؤةُ ذلكَ منْ كلامِ الوَرَشانِ تَرَكتْ أكْلَ الثَّمارِ وأقْبلَتْ على أكْلِ الحشيشِ والعِبادَةِ.

وإِنما ضَرَبْتُ لكَ هذا المثلَ لِتَعْلَمَ أنّ الجاهلَ ربُما انصَرَفَ بضَرٌ يُصيبُهُ عن ضَرِّ النّاسِ كاللّبؤةِ التي انْصَرفتْ لِما لَقِيَتْ في شَبْلَيْها عنْ أكْل اللحْمِ ثمّ عنْ أكل الثِّمارِ بقوْلِ الوَرَشانِ وأقْبلَتْ على النُّسُكِ والعِبادَةِ.

والنَّاسُ أحَقُّ بحُسْنِ النظرِ في ذلكَ فإنهُ قدْ قيلَ: مالاَ ترْضاهُ لنفْسِكَ لا تَصْنَعْهُ لغيرِكَ... فإنّ في ذلكَ العَدْلَ وفي العدْلِ رِضا الله تعالى ورِضا النّاسِ.

(١) الوَرَشَان: طائر وجمعه: وِرْشان: بتغيير حركتي الواو والراء.

باب إيلاَذ وبَلاَذ وإيرَاخْت

قالَ دبْشَليمَ الملِكُ لبَيْدَبَا الفيْلَسُوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ، فاضْرِبْ لي مثَلاً في الأشياءِ التي يجبُ على الملِكِ أنْ يُلْزِمَ بها نفسَهُ ويَحْفَظَ مُلْكَهُ ويُثَبِّتَ بها سُلْطانَه ويكونُ ذلكَ رأسَ أمرِه ومِلاَكَهُ[1] بالْحِلْمِ أمْ بالمُروءَةِ أمْ بالشَّجاعةِ أمْ بالجُودِ. قال بيْدَبا: إنَّ أحَقَّ ما يَحْفَظُ به الملِكُ مُلْكهُ الحِلمُ وبه تَثْبُتُ السَّلْطَنةُ، والحِلمُ رأسُ الأمورِ ومِلاَكُها وأجْوَد مَا كانَ في المُلوكِ.

كالذِي زعَمُوا أنهُ كانَ ملِكٌ يُدْعَى بَلاَذَ وكانَ لهُ وزيرٌ يُدْعَى إيلاَذَ وكانَ مُتعبِّداً ناسكاً، فنامَ الملِكُ ذاتَ ليْلةٍ فرَأى في مَنامهِ ثمانيةَ أحْلامٍ أفْزَعتْهُ فاستَيْقَظَ مَرْعوباً، فدَعا بالبَراهِمَةِ وهمُ النُّسَّاكُ ليُعبِّرُوا رُؤْياهُ، فلمَّا حضَرُوا بينَ يديْه قَصَّ عليْهِمْ ما رَأى فقالوا بأجْمعهِمْ: لقدْ رَأى الملِكُ عَجَباً، فإنْ أمهَلَنا سَبْعَةَ أيَّامٍ جئْنا بِتأويلِهِ. قال الملكُ: قدْ أمهلْتُكُمْ فخرَجوا منْ عندِه ثمَّ اجتَمَعُوا في مَنزِلِ أحدِهمْ وائْتَمَرُوا بينهمْ، وقالوا: قدْ وَجدْتُمْ عِلْماً واسِعاً تُدْرِكُونَ بهِ ثَأرَكُمْ وتَنْتَقِمُونَ منْ عدُوِّكُم وقدْ عَلِمتُمْ أنهُ قَتلَ منَّا بالأمْسِ اْثْنَي عشرَ ألفاً.

وها هوَ قدْ أطْلَعَنا على سِرِّهِ وسألَنا تَفْسيرَ رُؤْياهُ، فهَلُمَّ نُغْلِظْ لهُ القوْلَ ونَخوِّفْهُ حتى يَحْمِلَهُ الفَرَقُ والجَزَعُ على أنْ يفْعَلَ الذي نرِيدُ، ونأمُرُهُ فنقُولُ ادْفَعْ إلَيْنا أحِبّاءَكَ ومنْ يَكْرُمُ عليْكَ حتى نَقْتُلَهمْ، فإنا قدْ نَظَرْنا في كتُبِنا فلمْ نَرَ أنْ يُدْفعَ عنْكَ ما رأيتَ لنفْسِكَ وما وَقَعْتَ فيهِ منْ هذا الشرِّ إلاَّ بقتلِ منْ

---

(١) مِلاك الأمر بفتح الميم وكسرها: ما يقوم به هذا الأمر.

نُسَمِّي لكَ، فإنْ قال الملِكُ: ومَنْ تُرِيدُونَ أنْ تَقْتُلوا سَمُّوهمْ لي، قُلْنا: نرِيدُ الملِكَةَ إيرَاخْتَ أمَّ جُوبَرَ المَحْمودَةَ أكرَمَ نِسائكَ عليْكَ، ونُريدُ جُوبَرَ أحْبَّ بَنيكَ إليكَ وأفْضَلهمْ عندَكَ، ونُريدُ ابنَ أخيكَ الكريمَ وإيلاذَ خَليلَكَ وصاحبَ أمْرِكَ، ونُريدُ كَالَ الكاتِبَ صاحِبَ سِرِّك، وسيْفَكَ الذي لا يُوجَدُ مثْلُهُ والفيلَ الأبْيَضَ الذي لا تَلْحقُهُ الخيْلُ، والفَرَسَ الذي هوَ مَرْكَبُكَ في القِتالِ، نُريدُ الفِيلَيْنِ العظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ يكونانِ معَ الفيلِ الذَّكر ونُريدُ البُخْتِيَّ[1] السَّريعَ القويَّ.

«ونُريدُ كَبَارِيُونَ الحكيمَ الفاضلَ العالِمَ بالأمورِ لِنَنتقمَ منهُ بما فعَلَ بنا، ثمَّ نقولُ لهُ: إنَّما ينبغي لكَ أيها الملكُ! أنْ تَقْتُلَ هؤُلاَءِ الذينَ سَمَّيْناهمْ لكَ ثمَّ تَجْعَلَ دِماءَهمْ في حَوْضٍ تملؤُهُ ثمَّ تَقْعُدُ فيهِ فإذا خَرَجْتَ منَ الحَوْضِ اجتَمَعْنا نحنُ مَعاشِرَ البَراهِمةِ منَ الآفاقِ الأرْبعةِ نَجُولُ حوْلَكَ فنَرْقِيكَ[2] ونَتْفِلُ عليكَ ونَمْسَحُ عنكَ الدَّم ونَغْسلُكَ بالماءِ والدُّهْنِ الطيِّبِ، ثمَّ تقُومُ إلى مَنزِلِكَ البَهِيِّ فيَدْفَعُ الله بذلكَ البَلاءَ الذي نَتَخوَّفُه عليكَ فإنْ صَبَرْتَ أيها الملكُ! وطابَتْ نفْسُكَ عنْ أحِبَّائِكَ الذينَ ذَكَرْنَا لكَ وجعَلْتَهمْ فِدَاكَ تخلَّصْتَ منَ البَلاءِ واستَقامَ لكَ مُلكُكَ وسُلطانُكَ واستَخلَفْتَ منْ بعْدِهمْ مَنْ أحْبَبْتَ، وإنْ أنتَ لمْ تَفْعَلْ تخوَّفْنا عليْكَ أنْ يُغْصَبَ مُلكُكَ أو تِهْلِكَ فإنْ هوَ أطاعَنا فيما نأمُرُه قتَلْناهُ أيَّ قِتْلةٍ شِئْنا».

فلمَّا أجمَعُوا أمرَهمْ على ما ائْتَمَرُوا بهِ رجَعُوا إليهِ في اليوْمِ السَّابعِ وقالوا لهُ أيها الملكُ: إنّا نَظَرْنا في كتُبِنا تفْسيرَ ما رأيْتَ وفَحَصْنا عنِ الرَّأيِ فيما بيْننا، فليكُنْ لك أيها الملِكُ الطّاهرُ الصَّالحُ الكَرامةُ، ولَسْنا نَقْدِرُ أنْ نُعْلِمَكَ بما رأيْنا إلاَّ أنْ تَخلُوَ بنا، فأخرَجَ الملكُ مَنْ كانَ عندَهُ وخَلاَبهمْ

(١) البخت: الإبل.

(٢) رقيته عوذته بالله.

فَحدَّثُوهُ بالذي ائتَمَرُوا بهِ فقالَ لهمُ: الموْتُ خيرٌ لي منَ الحَياةِ إنْ أنا قتَلْتُ هؤُلاءِ الذينَ همْ عَدِيلُ[1] نفْسِي، وأنا ميِّتٌ لا مَحالةَ والحياةُ قَصيرةٌ ولسْتُ كلَّ الدَّهْرِ مَلِكاً، وإنّ الموْتَ عندِي وفِراقَ الأحْبابِ سَواءٌ. قال لهُ البرْهَمِيُّونَ: إنْ أنتَ لمْ تَغْضَبْ أخبرْناكَ فأذِنَ لهمْ فقالوا: أيها الملكُ! إنكَ لمْ تقُلْ صَواباً حينَ تَجْعَلُ نفْسَ غيرِكَ أعزَّ عندَكَ منْ نفْسِكَ، فاحتَفِظْ بنفْسكَ ومُلكِكَ واعمَلْ هذا الذي فيهِ لكَ الرَّجاءُ العظيمُ على ثِقةٍ ويقينٍ.

وقَرَّ عَيْناً بمُلْككَ في وُجُوهِ أهْلِ ممْلكَتِكَ الذينَ شَرُفْتَ وكَرُمتَ بهمْ ولا تَدَعِ الأمرَ العظيمَ وتأخُذْ بالضَّعيفِ فتُهلِكَ نفْسَكَ إيثَاراً لمنْ تُحِبُّ. واعلمْ أيها الملكُ! أن الإنْسانَ إنَّما يُحِبُّ الحَياةَ محبَّةً لنفْسهِ وأنهُ لا يُحِبُّ مَنْ أحَبَّ منَ الأحْبابِ إلاَّ ليَتمتَّعَ بهمْ في حَياتهِ، وإنما قِوَامُ نفْسِكَ بعدَ الله تعالى بمُلْككَ، وإنكَ لمْ تَنَلْ مُلْككَ إلاّ بالمشَقَّةِ والعَناءِ الكثيرِ في الشهُورِ والسِّنينِ، وليسَ ينبغي أنْ تَرْفُضَهُ ويَهونَ عليكَ، فاستَمِعْ كلامَنا وانظُرْ لنفسِكَ مُناهَا ودَعْ ما سِواها فإنهُ لا خَطَرَ لهُ، فلمَّا رأى الملكُ أنَّ البرْهَمِيِّينَ قدْ أغلَظُوا لهُ في القوْلِ واستَجْرَأوا عليهِ في الكلامِ اشْتدَّ غمُّهُ وحُزْنُه وقامَ منْ بينِ ظَهْرَانَيْهِمْ ودَخَلَ إلى حُجْرَتهِ فَخرَّ على وجْههِ يَبكي ويَتقلَّبُ كما تَتَقَلَّبُ السَّمكةُ إذا خَرَجَتْ منَ الماءِ.

وجعَلَ يقولُ في نفسهِ: ما أدْرِي أيُّ الأمرَيْنِ أعظَمُ في نفْسي الهلَكَةُ أمْ قتْلُ أحِبَّائي، ولنْ أنالَ الفَرَحَ ما عِشْتُ وليسَ مُلْكي بِباقٍ عليَّ إلى الأبدِ ولسْتُ بالمُصِيبِ سُؤْلي في مُلْكي وإني لزَاهِدٌ في الحَياةِ إذا لمْ أرَ إيرَاخْتَ، وكيْفَ أقدِرُ على القيامِ بمُلْكي إذا هَلَكَ فِيلي الأبيضُ وفرَسي الجوادُ، وكيْفَ أُدْعَى مَلِكاً وقدْ قتَلْتُ منْ أشارَ البرَاهِمَةُ بقتْلهِ وما أصنَعُ بالدُّنْيا بعْدَهم.

ثُمَّ إنّ الحديثَ فَشَا في الأرْضِ بحُزْنِ الملِكِ وهَمِّه، فلمَّا رَأى إيلاذُ

---

(١) عديل: نظير.

ما نالَ الملكَ منَ الهمِّ والحُزْنِ فكَّرَ في حِكْمتِهِ ونظَرَ وقالَ: ما ينبغي لي أَنْ أستَقْبِلَ الملكَ فأسألَهُ عنْ هذا الأمرِ الذِي قدْ نالَهُ منْ غيرِ أنْ يَدْعُوَنِي، ثمَّ انْطلَقَ إلى إيراخْتَ فقالَ: إني مُنْذُ خَدَمْتُ الملكَ إلى الانَ لمْ يَعْمَلْ عمَلاً إلاّ بمشُورَتي ورَأيي، وأرَاهُ يكْتُمُ عنِّي أمراً لا أعلمُ ما هوَ ولا أراهُ يُظْهِرُ منهُ شيئاً، وإني رأيتُهُ خالِياً معَ جماعةِ البرْهَميِّينَ مُنذُ لَيالٍ، وقدِ احتَجَبَ عنَّا فيها، وأنا خائِفٌ أن يكونَ قدْ أطلَعَهمْ على شيءٍ منْ أسرارِهِ فلسْتُ آمَنُهمْ أنْ يُشيرُواعليهِ بما يَضُرُّهُ ويَدْخُلُ عليهِ منهُ السُّوءُ، فقُومي وادْخُلي عليهِ فاسأليهِ عنْ أمرِهِ وشأنِه وأخبرِيني بما هوَ عليهِ وأعلِميني فإني لسْتُ أقدِرُ على الدُّخولِ عليهِ فلعلَّ البرْهَمِيِّينَ قدْ زيَّنُوا لهُ أمراً وحَمَلُوهُ على خُطَّةٍ قَبيحةٍ.

وقدْ عَلِمْتُ أنَّ منْ خُلُقِ الملِكِ أنهُ إذا غَضِبَ لا يَسألُ أحداً وسوَاءٌ عندَهُ صَغيرُ الأمورِ وكبيرُها. فقالتْ إيرَاخْتُ: إنهُ كانَ بَيني وبينَ الملِكِ بعْضُ العِتابِ فلسْتُ بدَاخلةٍ عليهِ في هذهِ الحالِ. فقالَ لها إيلاذُ: لا تَحمِلي عليهِ الحِقْدَ في مثلِ هذا ولا يَخطُرَنَّ ذلكَ على بالكَ فليسَ يَقدِرُ على الدُّخولِ عليهِ أحدٌ سِوَاكِ، وقد سَمِعتُهُ كثيراً يقولُ ما اشتَدَّ غَمِّي ودَخَلَتْ عليَّ إيرَاخْتُ إلاّ سُرِّيَ[1] ذلِكَ عنِّي، فقُومي إليهِ واصفَحِي عنهُ وكلِّميهِ بما تَعْلَمينَ أنهُ تَطِيب بهِ نفْسهُ ويَذْهَبُ الذِي يَجِدُهُ وأعْلِميني بما يكُونُ جوابُهُ فإنَّ بذلكْ لنا ولأهلِ الممْلكةِ أعظَمَ الرَّاحةِ.

فانْطلَقتْ إيرَاخْتُ فدَخلَتْ على المِلكِ فَجلَسَتْ عندَ رأسهِ فقالتْ: ما الذي بكَ أيها الملِكُ المحمودُ؟ وما الذِي سَمِعْتَ منَ البَراهِمَةِ؟ فإني أراكَ مَحْزُوناً فأعْلِمْني ما بكَ فقدْ ينبغي لنا أنْ نَحْزَنَ معكَ ونُؤاسيَكَ بأنْفُسِنا. فقالَ الملكُ: أيَّتُها المرْأةُ لا تَسأَليني عنْ أمرِي فتَزيدِيني غمًّا وحُزناً فإنهُ أمرٌ لا ينبغي أنْ تَسأليني عنهُ، قالتْ: أوَ قدْ نزَلْتُ عندَكَ مَنزِلةَ منْ يَسْتَحِقُ هذا،

(١) سُرِّيَ عني: انكشف.

إنما أحْمَدُ النَّاسِ عقْلاً مَنْ إذا نَزَلَتْ بهِ النَّازِلاتُ كانَ لنفْسهِ أشدَّ ضَبْطاً وأكثرَهُمْ ٱسْتماعاً منْ أهلِ النُّصْحِ حتى يَنْجُوَ منْ تلكَ النازلةِ بالحِيلةِ والعقْلِ والبَحْثِ والمُشاوَرَةِ، فعَظيمُ الذَّنْبِ لا يَقْنَطُ منَ الرَّحمةِ، ولا تُدْخِلَنَّ عليكَ شيئاً منَ الهَمِّ والحُزْنِ فانهما لا يَرُدَّانِ شيئاً مَقْضِياً إلاَّ أنهُما يُنْحِلانِ الجسْمِ ويَشْفِيانِ العدُوَّ. قال لها الملكُ: لا تَسأليني عنْ شيءٍ فقدْ شَقَقْتِ عليَّ والذي تَسألِيني عنهُ لا خَيرَ فيهِ لأنَّ عاقِبتُهُ هَلاكِي وهَلاَكُكِ وهَلاكُ كثيرٍ منْ أهْلِ مَمْلكَتي ومنْ هوَ عَدِيلُ نفْسِي، وذكَر أنَّ البرَاهِمَةِ زعَمُوا أنهُ لا بدَّ منْ قتْلِكِ وقتْلِ كثيرٍ منْ أهلِ مَودَّتي ولا خَيرَ في العَيْشِ بعْدَكُمْ وهلْ أحدٌ يَسمَعُ بهذا إلاَّ اعترَاهُ الحُزْنُ؟.

فلمَّا سَمِعَتْ ذلكَ إِيرَاخْتُ جَزِعَتْ ومنَعَها عقْلُها أنْ تُظْهِرَ للملِكِ جَزَعاً فقالتْ: أيها الملكُ! لا تَجْزَعْ فنحْنُ لكَ الفِدَاءُ ولكَ في سِوَايَ ومِثْلي منَ الجَوَارِي ما تَقَرُّ بهِ عينُكَ، ولَكني أطلُبُ منكَ أيُّها الملِكُ حاجةً يَحْمِلُني على طلَبِها حُبِّي لكَ وإيثارِي إيَّاكَ وهيَ نَصيحتي لكَ. قال الملِكُ: وما هيَ؟ قالتْ: أطلُبُ منْكَ ألاَّ تَثِقَ بعْدَها بأحدٍ منَ البَراهمةِ ولا تُشاوِرَهمْ في أمْرٍ حتى تَتَثبَّتَ في أمركَ ثمَّ تُشاوِرَ فيهِ ثِقاتِكَ مِرَاراً فإنَّ القتْلَ أمْرٌ عظيمٌ ولسْتَ تَقْدِرُ على أنْ تُحْييَ منْ قَتَلْتَ، وقد قيلَ في الحدِيثِ: إذا لَقِيت جَوْهراً لا خَيرَ فيهِ فلا تُلْقِه منْ يدِكَ حتى تُرِيَهُ منْ يَعْرِفُه، وأنتَ أيها الملكُ! لا تَعْرِفُ أعداءَكَ، واعلَمْ أنّ البَراهمةَ لا يُحِبُّونَكَ، وقدْ قَتَلْتَ منهمْ بالأمْسِ ٱثني عشَرَ ألْفاً، ولا تَظُنَّ أن هؤُلاءِ ليْسُوا منْ أولئكَ.

«ولَعَمْرِي ما كنْتَ جَدِيراً أنْ تُخْبِرَهُمْ برُؤْياكَ ولا أنْ تُطْلِعَهمْ عليْها، وإنما قالوا لكَ ما قالُوا لأجْلِ الحِقْدِ الذي بينَكَ وبينهمْ لعلَّهمْ يُهْلِكُونَكَ ويُهْلِكُونَ أحِبَّاءَكَ ووَزِيرَكَ فيَبْلُغونَ قصْدَهمْ منكَ، وأظُنُّكَ لوْ قَبِلْتَ منهمْ فقَتَلْتَ مَنْ أشارُوا بقتْلهِ ظَفِرُوا بكَ وغَلَبُوكَ على مُلككَ فيَعُودُ المُلْكُ إليهمْ كما كانَ،

فانْطَلِقْ إلى كَبارِيُونَ الحكيمَ فهوَ عالِمٌ فَطِنٌ فأخبِرْهُ عمَّا رأيْتَ في رُؤْياكَ، واسألْهُ عنْ وَجْهِها وتأويلِها . . . فلمَّا سَمِعَ الملِكُ ذلكَ سُرِّيَ عنهُ ما كانَ يجِدُهُ منَ الغمِّ، فأمَرَ بفرَسهِ فأُسْرِجَ فركِبَهُ ثمَّ انطلَقَ إلى كَبارِيونَ الحكيم. فلمَّا انتهى إليهِ نزَلَ عنْ فرَسِهِ وسجَدَ لهُ وقامَ مُطأطِىءَ الرَّأسِ بينَ يدَيْهِ فقالَ لهُ الحكيمُ: ما بالُكَ؟ أيها الملِكُ! ومالي أراكَ مُتغيِّرَ اللَّوْنِ. فقالَ لهُ الملكُ: إني رأيْتُ في المَنامِ ثمانيةَ أحْلاَمٍ قَصَصْتُها على البراهمةِ وأنا خائفٌ أن يُصِيبَني منْ ذلكَ عظيمُ أمْرٍ ممَّا سَمِعْتُ منْ تَعْبيرِهِمْ لرُؤْيايَ وأخشَى أنْ يُغْصَبَ منِّي مُلكي أو أنْ أُغلَبَ عليهِ.

فقال لهُ الحكيمُ: إنْ شئْتَ قَصَصْتَ عليَّ أحْلاَمَكَ وإنْ شئْتَ قصصْتُها عليْكَ وأخبرْتُكَ بما رأيْتَ جميعَهُ. قال الملكُ: بلْ منْ فِيكَ أحْسَنُ. قال الحكيمُ: لا يُحْزِنْكَ أيها الملكُ هذا الأمْرُ ولا تَخفْ منهُ، أمَّا السَّمكَتانِ الحَمْرَاوانِ اللَّتان رأيْتَهُما قائمتَيْنِ على ذَنَبَيْهِما فإنهُ يأتِيكَ رسولٌ منْ مَلكِ نَهاوَنْدَ بِعُلْبةٍ فيها عِقْدَانِ منَ الدُّرِّ والياقُوتِ الأحمَرِ قِيمتُهُما أرْبعةُ آلافِ رِطْلٍ منْ ذَهبٍ فيقومُ بيْنَ يدَيْكَ، وأمَّا الوَزَّتانِ اللَّتانِ رأيتَهُما طارَتَا منْ وَراءِ ظَهْرِكَ فوَقَعَتا بينَ يدَيْكَ فإنهُ يأتِيكَ منْ مَلِكِ بَلْخَ فرَسانِ ليْسَ على الأرْضِ مِثْلُهُما فيقُومانِ بينَ يديْكَ. وأمَّا الحيَّةُ التي رأيتَها تَدِبُّ على رِجلِكَ اليُسْرَى فإنهُ يأتِيكَ منْ مَلكِ صِنْجينَ منْ يقُومُ بينَ يدَيكَ بِسيفٍ خالِصِ الحدِيدِ لا يُوجَدُ مثْلُهُ.

«وأمَّا الدَّمُ الذي رأيْتَ كأنهُ خُضِبَ بهِ جسَدُكَ فإنهُ يأتِيكَ منْ ملكِ كازَرُونَ منْ يقُومُ بينَ يدَيْكَ بلِباسٍ مُعْجِبٍ يُسَمَّى حُلَّةَ أُرْجُوانٍ يُضِيءُ في الظُّلْمةِ. وأمَّا ما رأيْتَ منْ غَسلِكَ بالماءِ فإنهُ يأتِيكَ منْ مِلكِ رِهْزِينَ منْ يقُومُ بينَ يدَيْكَ بثِيابِ كَتانٍ منْ لِباسِ المُلوكِ، وأما ما رأيْتَ مِنْ أنكَ على جبَلٍ أبيَضَ فإنهُ يأتيكَ منْ ملِكِ كيْدُورَ منْ يقُومَ بينَ يدَيْكَ بفِيلٍ أبيضَ لا تَلْحَقُهُ

الخيْلُ. وأمَّا ما رأيْتَ على رأسِكَ شَبيهاً بالنارِ فإنهُ يأتيكَ منْ ملكِ أرْزَنَ منْ يقَومُ بينَ يدَيكَ بإكليلٍ منْ ذهَبٍ مُكلَّلٍ بالدُّرِّ والياقوتِ، وأما الطيرُ الذي رأيتَهُ ضَرَبَ رَأسكَ بمِنْقارِه فلسْتُ مُفسِّراً ذلكَ اليوْمَ وليْسَ بِضارِّكَ فلاَ تَوْجَلَنَّ(١) منهُ ولكنَّ فيهِ بعْضَ السُّخْطِ والإعْرَاضِ عمَّا تُحِبُّهُ. فهذَا تَفْسيرُ رؤْياكَ أيها الملكُ؟ وأمَّا هذهِ البُرُدُ والرُّسُلُ فإنها تأتيكَ بعْدَ سبْعةِ أيَّامٍ جميعاً فتقومُ بينَ يدَيْكَ، فلمَّا سَمعَ الملكُ ذلكَ سجَدَ لِكَبارِيُونَ ورجَعَ إلى مَنْزِله.

فلمَّا كانَ بعدَ سبْعةِ أيَّام جاءَتِ البَشائِرُ بقُدُومِ الرُّسُلِ فخرَجَ الملكُ فجلَسَ على التخْتِ وأذِنَ للأشْرَافِ وجاءَتْهُ الهدايا كما أخبَرَهُ كَبارِيُونَ الحكيمَ. فلَّما رَأى الملكُ ذلكَ ٱشتَدَّ عجَبُهُ وفرَحُهُ منْ علْم كبارِيُونَ وقال: ما وُفِّقْتُ حين قصصت رُؤْيايَ على البرَاهِمةِ فأمَرُوني بما أمَرُوني بهِ. ولوْلا أنَّ الله تعالى تَدارَكَني برَحمتهِ لكُنْتُ هَلَكْتُ وأهْلَكْتُ.... وكذلكَ لا يَنبغي لأحدٍ أنْ يَسْمَعَ إلاّ منَ الأخِلاَّءِ ذوِي العقُولِ، وإنَّ إيرَاخْتَ أشارَتْ بالخَيرِ فقَبِلتهُ ورأيْتُ بهِ النَّجاحَ فضَعُوا الهَدِية بينَ يدَيْها لِتأخُذَ منها ما ٱختارَتْ. ثمَّ قال لإيلاذَ: خُذِ الإكليلَ والثّيابَ وٱحْمِلْها واتْبَعْني بها إلى مجلِسِ النّساءِ، ودَعا الملكُ إيرَاختَ وحُورَقْناهُ أكْرَمَ نِسائهِ بينَ يدَيْهِ، فقالَ لإيلاذَ: دَعِ الكُسْوَةَ والإكليلَ بيْنَ يدَيْ إيرَاخت لِتأخُذَ أيها شاءَتْ، فوُضِعتِ الهدَايا بينَ يدَيْ إيرَاختَ فأخَذَتْ منها الإكليلَ وأخَذْتْ حُورَقْناهُ كُسْوَةً منْ أفْخَرِ الثِّيابِ وأحْسَنِها، وكانَ منْ عادةِ الملِكِ أنْ يكونَ ليْلةً عندَ إيرَاختَ وليْلةً عندَ حُورَقْناهُ.

وكانَ منْ سُنَّةِ الملِكِ أنْ تُهيىءَ لهُ المرْأةُ التي يكونُ عندَها في ليْلتِها أرُزًّا فتُطْعِمهُ، فأتى الملكُ إيراختَ في نَوْبَتِها وقدْ صَنَعتْ لهُ أرُزًّا فدَخَلتْ عليْهِ بالصَّحْفةِ والإكْلِيلُ على رأسِها فَعَلِمتْ حُورَقْناهُ بذلك فَغارَتْ منْ

(١) توجلن: تخفن.

إيرَاخْتَ فَلبستْ تلْكَ الكُسْوَة ومَرَّتْ بينَ يَدَي المِلكِ وتلْكَ الثِّيابُ تُضِيءُ عليْها مع نورِ وجْهِها كما تُضيءُ الشَّمْسُ فلمَّا رآها الملِكُ أعجَبتْهُ ثمَّ التفتَ إلى إيراخْتَ فقالَ: إنكِ جاهِلةٌ حينَ أخَذْتِ الإكْليلَ وتَرَكْتِ الكُسْوَةَ التي ليْسَ في خَزائِننا مِثلُها. فلمَّا سَمِعَتْ إيراختُ مدْحَ الملكِ لحُورَقْناهَ وثَناءَهُ وتَجْهِيلَها هيَ وذَمَّ رأيِها أخذَها مِنْ ذلكَ الغَيْرَةُ والغيْظُ فضَرَبتْ بالصَّحْفةِ رأسَ الملِكِ فسَالَ الأُرُزُّ على وجهِهِ وكان ذلكَ تَمامَ تَعْبير الرؤْيا التي عَبَّرَها كَبارِيونَ فقامَ الملكُ منْ مكانهِ ودَعا بإيلاذَ وقالَ: ألاَ تَرَى وأنا ملكُ العالَم، وكيْفَ حَقَّرَتْني هذهِ الجاهلةُ وفَعَلتْ بي ما تَرَى فانْطَلِقْ بها فاقتُلْها ولا تَرْحَمْها.

فخرَجَ إيلاذُ منْ عندِ المِلكِ وقال: لا أقتُلُها حتى يَسكُنَ عنهُ الغضبُ فالمرْأةُ عاقلةٌ شديدَةُ الرَّأيِ منَ المَلِكاتِ التي ليْسَ لها عدِيلٌ في النِّساءِ وليْسَ الملكُ بِصابِرٍ عنها، وقدْ خلَّصَتْهُ منَ الموتِ وعَمِلتْ أعْمالاً صالحةً ورَجاؤُنا فِيها عظيمٌ، ولَستُ آمَنُهُ أنْ يقولَ: لِمَ لمْ تُؤَخِّرْ قتْلَها حتى تُراجِعَني، فَلَستُ قاتِلَها حتى أنظُرَ رأيَ الملكِ فِيها ثانيةً فإنْ رأيتهُ نادِماً حزيناً على ما صَنَعَ جِئتُ بها حيَّةً، وكنتُ قدْ عَمِلتُ عمَلاً عَظيماً وأنجَيتُ إيَراختَ منَ القتْلِ وحَفِظتُ قلْبَ الملكِ واتَّخذْت عندَ عامَّةِ النَّاسِ بذلكَ يَداً وإنْ رأيتُهُ فرِحاً مُستريحاً مُصوِّباً رأيَه في الذي فعَلَهُ وأمَرَ بهِ فقَتْلُها لا يَفُوتُ. ثمَّ انْطَلَقَ بها إلى مَنزِلِهِ ووَكَّلَ بها خادِماً منْ أُمَنائهِ وأمَرَهُ بخِدْمتِها وحِراستِها حتى يَنظُرَ ما يكُونُ منْ أمْرِها وأمْرِ الملكِ، ثمَّ خَضَبَ سيْفَهُ بالدَّم ودَخلَ على الملكِ كالكَئِيبِ الحَزينِ فقال: أيها المَلِكُ إني قدْ أمْضَيتُ أمرَكَ في إيرَاختَ فلمْ يَلْبَثِ الملكُ أنْ سَكَنَ عنهُ الغضَبُ وذكَرَ جَمالَ إيراختَ واشْتَدَّ أسفُهُ عليْها وجعَلَ يُعَزِّي نفْسَهُ عنها ويَتَجلَّدُ، وهو معَ ذلكَ يَسْتحي أنْ يَسألَ إيلاذَ أحَقًّا أمْضَى أمرَهُ فيها أمْ لاَ، ورَجا لِمَا عَرَفَ منْ عقْلِ إيلاذَ ألاَّ يكونَ قدْ فَعل ذلكَ، ونَظَرَ إليْهِ إيلاذُ بفضْلِ عَقلهِ فَعَلِمَ الذِي بهِ، فقال له: لا تَهتَمَّ

ولا تَحْزَنْ أيها الملكُ! فإنهُ ليْسَ في الهَمِّ والحُزْنِ مَنْفعةٌ ولكنْهُما يُنْحِلاَنِ الجِسْمَ ويُفْسِدانِه، فاْصْبِرْ أيها الملكُ! على ما لَستَ بِقادِرٍ عليْهِ أبداً. وإنْ أَحَبَّ الملكُ حدَّثْتُهُ بحدِيثٍ يُسلِّيهِ. قال: حَدِّثْني.

[الحمامتان والحَبّ]

قال إيلاذُ: زعَمُوا أنَّ حَمامَتيْنِ ذَكراً وأنثَى مَلاَ عُشَّهُما منَ الحِنْطةِ والشَّعيرِ. فقال الذَّكَرُ للأُنثى: إنَّا إذا وَجَدْنا في الصَّحَارَى ما نَعيشُ بِهِ فلسْنا نأكُلُ ممَّا هٰهُنا شيئاً، فإذا جاءَ الشِّتاءُ ولمْ يكُنْ في الصَّحَارَى شيءٌ رَجَعْنا إلى مَا في عُشِّنا فأكلْناهُ، فَرَضِيَتِ الأنثى بذلكَ وقالتْ لهُ: نِعِمَّا رَأيتَ، وكانَ ذلكَ الحَبُّ نَدِيًّا حينَ وَضَعاهُ في عُشِّهِما، فانْطَلَقَ الذَّكَرُ فَغابَ. فلمَّا جاءَ الصَّيْفُ يَبِسَ الحَبُّ وانْضمَرَ فلمَّا رَجَعَ الذَّكَرُ رأى الحَبَّ ناقِصاً فقال لَها: ألَيْسَ كُنَّا جَمَعْنا رأيَنا على ألاَّ نَأكُلَ منْهُ شيئاً فَلِمَ أكَلْتِهِ؟ فَجعَلتْ تَحْلِفُ أنها ما أكَلَتْ منهُ شيء وجَعَلتْ تَعْتذِرُ إليهِ فلمْ يُصَدِّقْها وجعَلَ يَنْقُرُها حتى ماتتْ.

فلمَّا جاءَتِ الأمْطارُ ودَخلَ الشِّتاءُ تَندَّى الحَبُّ وامْتلأَ العُشُّ كما كانَ، فلمَّا رأى الذَّكَرُ ذلكَ نَدِمَ، ثمَّ اضْطَجَعَ إلى جانبِ حَمامتهِ وقال: ما يَنْفَعُني الحَبُّ والعيْشُ بَعْدَكِ إذا طَلَبْتُكِ فلمْ أجدْكِ ولمْ أقْدِرْ عليْكِ. وإذا فَكَّرْتُ في أمرِكِ وعَلْمتُ أني قدْ ظَلَمْتُكِ ولا أقْدِرُ على تَدارُكِ[1] ما فاتَ، ثمَّ استَمَرَّ على حُزْنهِ فلمْ يَطْعَمْ طَعاماً ولا شَراباً حتى ماتَ إلى جانِبِها.

والعاقِلُ لا يَعْجَلُ في الْعذابِ والعُقوبةِ، ولا سِيَّما مَنْ يَخافُ النَّدامةَ كما نَدِمَ الحَمامُ الذَّكَرُ. وقدْ سَمِعْتُ أيضاً أنّ رجُلاً دَخَلَ الجبَلَ وعلى رأسهِ كارَةٌ[2] منَ العَدَسِ فوَضَعَ الْكارَةَ على الأرْضِ ليَستريحَ فنزلَ قِرْدٌ منْ شَجرَةٍ فأخَذَ مِلْءَ كَفِّهِ منَ العَدَسِ وصَعِدَ إلى الشجرَةِ فسَقَطَتْ منْ يدِه حَبَّةٌ فنزَلَ في

(١) تدارك: تلافى.

(٢) الكارة: صُرَّة للثياب.

طلَبِها فلمْ يَجِدْها وٱنْتَثَر ما كانَ في يدِه منَ العدَسِ أجْمَعُ، وأنتَ أيضاً أيها الملِكُ عندَكَ كثيرٌ ممَّنْ تُحِبُّ تَدَعُهمْ وتَطْلُبُ ما لا تَجِدُ، فلَّما سَمِعَ الملكُ ذلكَ خَشِيَ أنْ تكونَ إيرَاختُ قدْ هَلكتْ فقال: إيهاً[1] إيلاذُ أمنْ كلمَةٍ واحدَةٍ فَعَلْتَ ما أمَرْتُكَ بهِ منْ ساعتِكَ وتَعلَّقْتَ بحَرْفٍ واحدٍ كانَ منِّي ولمْ تَتثَبَّتْ في الأمْرِ؟.

قال إيلاذُ: إنّ الذي قوْلُهُ واحدٌ لا يَخْتَلِفُ هوَ الله الذي لا تَبْديلَ لكلِماتهِ ولا ٱخْتِلافَ لقوْلهِ. قال الملكُ: لقدْ أفْسَدْتَ أمرِي وشَدَّدْتَ حُزْني بقتْلِ إيراختَ. قال إيلاذُ: اثْنانِ ينبغي لهُما أنْ يَحْزَنا: الذي يَعْمَلُ الإثْمَ في كلِّ يوْمٍ والذي لا يَعْمَلُ خيراً قَطُّ، لأنَّ فرَحَهما في الدُّنْيا ونعِيمَهما قليلٌ ونَدَامَتَهُما إذْ يُعاينانِ الجزاءَ طَويلةٌ لا يُسْتطاعُ إحْصاؤُها. قال الملكُ: لئنْ رأيتُ إيراختَ حيَّةً لا أحْزَنُ على شيءٍ أبداً. قال إيلاذُ: ٱثْنانِ لا ينبغي لَهما أنْ يَحْزَنا: المُجْتهِدُ في البِرِّ كلَّ يوْمٍ، والذي لمْ يَأثَمْ قَطُّ. قال الملكُ: ما أنا بناظِرٍ إلى إيراخْتُ أكثرَ ممَّا نظَرْتُ. قال إيلاذُ: اثْنانِ لا يَنْظُرَانِ: الأعمَى والذي لاَ عَقْلَ لهُ، وكما أنَّ الأعمَى لا يَنظُرُ السَّماءَ ونُجُومَها وأرْضَها ولا يَنظُرُ البُعْدَ والقُرْبَ كذلكَ الذي لا عَقْلَ لهُ لا يَعْرِفُ الحَسَنَ من القَبيحِ ولا المُحْسِنَ منَ المُسِيءِ. قال الملكُ: لوْ رأيتُ إيراخْتَ لاشْتَدَّ فرَحي. قالَ إيلاذُ اثْنانِ هُما الفَرِحانِ: البَصيرُ والعالِمُ، فكما أنَّ البَصِيرَ يُبْصِرُ أمُورَ الْعالَمِ وهو فيهِ من الزِّيادةِ والنُّقْصانِ والبَعِيدِ والقرِيبِ.

«فكذلكَ الْعالِمُ يُبْصِرُ البِرَّ والإثْمَ ويَعْرِفُ عمَلَ الآخرةِ ويَتبيَّنُ لهُ نَجاتُهُ ويُهْدَى إلى صِراطٍ مُسْتقيم. قال الملِكُ: ينبغي لنا أنْ نَتَباعَدَ منكَ يا إيلاذُ ونأخُذَ الحَذَرَ ونَلْزَمَ الاتّقاءَ، قال إيلاَذُ: اثْنانِ ينبغي أنْ يُتَباعَدَ منهما الذِي يقُولُ لا بِرَّ ولا إثْمَ ولا عِقابَ ولا ثَوابَ ولاشيءَ عليَّ ممَّا أنا فيهِ، والذي

(١) إيه: اسم فعل بمعنى زدني.

لا يَصْرِفُ بصَرَهُ عنِ المُحَرَّمِ ولا أُذُنَهُ عنِ ٱستماعِ السُّوءِ ولا نفْسَهُ عنْ خاصَّةِ غيرِه ولا قلْبَهُ عمَّا تَهُمُّ بهِ نفْسُهُ منَ الإثمِ والحِرْصِ. قال الملكُ: صارَتْ يدِي منْ إيراخْتَ صِفراً[1] قال إيلاذُ: ثلاثَةُ أشْياءَ أصْفارٌ: النَّهْرُ الذي ليْسَ فيهِ ماءٌ، والأرْضُ التي ليْسَ فيها مَلكٌ، والمرْأةُ التي ليْسَ لها بَعْلٌ. قال الملِك: إنكَ يا إيلاذُ لَتُلَقَّى الجوابَ قال إيلاذُ: ثلاثةٌ يُلَقَّوْنَ الجَوابَ: الملِكُ الذي يُعْطِي ويَقْسِمُ خزائنه، والمرْأةُ المُهْدَاةُ إلى مَنْ تَوَدُّ منْ ذَوِي الحَسَبِ، والرَّجُلُ العالِمُ المُوَفَّقُ للْخيرِ.

ثمَّ إنَّ إيلاذَ لمَّا رأى الملكَ قدِ اشتَدَّ بهِ الأمْرُ قال: أيها الملكُ! إنَّ إيراخْتَ على قيْدِ الحَياةِ، فلمَّا سَمِعَ الملكُ ذلكَ اشتَدَّ فرَحهُ وقالَ: يا إيلاذُ إنما مَنَعني منَ الغضَبِ ما أعْرِفُ منْ نَصيحَتِكَ وصِدْقِ حَديثِكَ وكنتُ أرْجُو لمَعْرِفَتي بعِلْمِكَ ألاَّ تكُونَ قدْ قَتَلتَ إيراخت، فإنها وإنْ كانتْ أتَتْ عَظيماً وأغلظتْ في القوْلِ فلمْ تأتهِ عدَاوَةً ولا طَلَبَ مضَرَّةٍ ولكنَّها فَعلتْ ذلكَ لِلْغَيْرَةِ، وقدْ كانَ ينبغي لي أنْ أُعْرِضَ عنْ ذلكَ وأحْتمِلَهُ، ولكنكَ يا إيلاذُ أرَدْتَ أنْ تَخْبُرَني وتَترُكَني في شكٍّ منْ أمْرِها، وقدِ اتَّخَذْتَ عنْدِي أفضَلَ الأيادِي[2] وأنا لكَ شاكِرٌ فأنْطَلِقْ فأتِني بها. فخرَجَ منَ عنْدِ الملِكِ فأتى إيراختَ وأمَرَها أنْ تتزَيَّنَ ففعلَتْ ذلكَ وانطلَقَ بها إلى الملِكِ فلمَّا دَخلتْ سَجدَتْ لهُ ثمَّ قامتْ بينَ يدَيْهِ وقالتْ: أحْمَدُ الله تعالى ثمَّ أحْمَدُ الملكَ الذي أحْسَنَ إليَّ، قدْ أذْنَبتُ الذَّنْبَ العظيمَ الذي لمْ أكُنْ للْبَقاءِ أهْلاً بعدَهُ فوَسِعَهُ حِلْمُهُ وكَرَمُ طَبْعهِ ورأفتُهُ، ثمَّ أحْمَدُ إيلاذَ الذي أخَّرَ أمْرِي وأنجانِي منَ الهَلكةِ لِعِلْمِه برَأفةِ الملكِ وسَعَةِ حِلْمِهِ وجُودِهِ وكَرَمِ جَوْجَرِه ووَفاءِ عَهْدِهِ.

وقال الملكُ لإيلاَذَ: ما أعظَمَ يدَكَ عنْدِي وعنْدَ إيراخْتَ وعندَ العامّةِ

(١) الصِّفْرُ: الخالي.

(٢) الأيادي: النِّعَمُ، جمع يد.

إِذْ قدْ أَحْيَيْتَها بعدَ ما أَمَرْتُ بِقَتْلِها، فأنتَ الذي وهَبَها لي اليوْمَ فإِني لمْ أَزَلْ واثِقاً بِنَصِيحتِكَ وتَدْبيرِكَ وقدِ ازْدَدْتَ اليوْمَ عندِي كَرامةً وتَعْظيماً وأنتَ مُحَكَّمٌ في مُلْكي تَعْمَلُ فيهِ بما تَرَى وتَحْكُم عليهِ بما تُرِيدُ، فقدْ جَعَلتُ ذلكَ إِليْكَ ووَثِقتُ بكَ. قال إِيلاذُ: أدامَ الله لكَ أيها الملكُ المُلْكَ والسرُورَ، فَلَستُ بمحمُودٍ على ذلكَ فإِنما أنا عبْدُكَ لَكِنَّ حَاجتي أَلاَّ يَعْجَلَ المَلْكُ في الأمْرِ الْجَسيمِ الذي يَنْدَمُ على فِعْلهِ، وتكونُ عاقبتُهُ الغَمَّ والحُزْنَ ولا سِيَّما في مِثْلِ هذهِ المرْأة النّاصِحَةِ المُشْفِقَةِ التي لا يُوجَدُ في الأرضِ مِثْلُها. فقال الملكُ: بحقٍّ قلتَ يا إِيلاذُ، وقدْ قَبِلْتُ قوْلَكَ ولسْتُ عامِلاً بعدَها عمَلاً صَغيراً ولا كبيراً فضْلاً عنْ مثْلِ هذا الأمْرِ العَظيمِ الذي ما سَلِمْتُ منهُ إلاَّ بعدَ المُؤَامرَةِ[1] والنظَر والتردُّدِ إِلى ذَوِي العقُولِ ومُشاوَرَةِ أهْلِ المَوَدَّةِ والرَّأي.

ثمَّ أحْسَنَ الملكُ جائزَةَ إِيلاذَ ومكَّنَهُ منْ أولئكَ البرَاهِمةِ الذين أشَارُوا بقَتْلِ أحْبابِه فأطلَقَ فيهِم السَّيْفَ، وقَرَّتْ عيْنُ الملكِ وعُيونُ عظَماءِ أهلِ مَمْلكتهِ وحَمِدُوا الله وأثْنَوْا على كَبارِيُونَ لسَعَةِ عِلْمِهِ وفضْلِ حكمتهِ لأنّ بعِلْمِهِ خَلَّصَ الملِكَ ووَزِيرَهُ الصَّالحَ وامْرَأتَه الصَّالحَةَ.

(١) المؤامرة من آمره في كذا مؤامرة: شاوره.

باب الناسِكِ والضيفِ

قالَ دَبْشيلمُ الملكُ لبَيْدَبا الفَيْلَسُوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المَثَلَ فاضْرِبْ لي مثَلَ الذي يَدَعُ صُنْعَهُ الذي يَليقُ بهِ ويُشاكِلُهُ[1] ويَطْلُبُ غيرَهُ فلا يُدْرِكُهُ فيَبْقَى حَيْرَانَ مُتَرَدِّداً.

قال الفَيْلَسُوفُ: زعَمُوا أنهُ كانَ بأرْضِ الكَرْخ ناسِكٌ عابِدٌ مُجْتَهِدٌ، فنزَلَ بهِ ضَيْفٌ ذاتَ يوْمٍ فدَعا النّاسِكُ لضَيْفهِ بِتمْرٍ لَيُطْرِفَهُ به[2] فأكَلاَ منهُ جميعاً، ثمَّ قالَ الضيْفُ: ما أحْلى هذا التمْرَ وأطيبَهُ! فليْسَ هوَ في بِلادِي التي أسكُنُها ولَيْتَهُ كانَ فيها، ثمَّ قال أرَي أن تُساعِدَني على أنْ آخُذَ منهُ ما أغْرِسهُ في أرْضِنا فإني لَستُ عارِفاً بِثمارِ أرْضِكُمْ هذهِ ولا بمَوَاضعِها. قال لهُ النّاسكُ: ليْسَ لكَ في ذلك راحةٌ فإنهُ يَثْقلُ عليكَ ولعَلَّ ذلك لا يُوافِقُ أرْضَكُمْ معَ أنّ بلاَدَكُمْ كثيرةُ الأثمَارِ فَما حاجتُها معَ كثرَةِ ثِمَارِها إلى التمْرِ معَ وَخامتهِ وقلَّةِ مُوافقَتهِ للجَسَدِ. ثمَّ قال لهُ النّاسكُ: إنهُ لا يُعدُّ حليماً مَنْ طَلَبَ ما لا يَجِدُ، وإنكَ سَعِيدُ الجَدِّ إذا قَنعتَ بالذي تجِدُ وزَهِدْت فيما لا تجِدُ، وكان هذا النّاسكُ يَتكلَّمُ بالعِبرانِيَّةِ فأسْتَحْسَنَ الضَّيْفُ كلامَهُ وأعجبَهُ فتَكلَّفَ أنْ يَتعلّمَهُ وعالَجَ في ذلكَ نفْسَهُ أيَّاماً، فقال النَّاسكُ لضيْفهِ: ما أخلَقَكَ أنْ تَقعَ ممَّا تَركتَ منْ كلامِكَ وتكلَّفتَ منْ كلاَمِ العِبرانِيَّةِ في مِثْلِ ما وقَعَ فيهِ الغُرابُ. قال الضَّيْفُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟.

---

(١) يشاكله: يلائمه.

(٢) يطرفه به: يتحفه.

قال النّاسكُ: زعَمُوا أنَّ غُراباً رأى حَجَلةً تَدْرُجُ وتَمْشِي فأعجَبَتْهُ مِشْيَتُها، وطَمِعَ أنْ يتَعَلَّمها، فَراضَ(١) على ذلكَ نفْسَهُ فلمْ يقْدِرْ على إحْكامِها وأيِسَ منها وأرادَ أنْ يَعُودَ إلى مِشْيَتهِ التي كان عليْها فإذا هُوَ قَدِ اْختلَطَ مَشْيُه وانْخلَع فيهِ(٢) وصارَ أَقْبَحَ الطَّيْرِ مشْياً.

وإنما ضَرَبْتُ لكَ هذا المَثَلَ لِمَا رأيْتُ مِنْ أنكَ تَرَكْتَ لِسانَكَ الذي طُبِعَتَ عليْهِ وأقبَلْتَ على لِسانِ العِبرانِيَّةِ وهوَ لا يُشاكِلُكَ، وأخافُ ألاَّ تُدْرِكَهُ وتَنْسَى لِسانَكَ وتَرْجِعَ إلى أهْلِكَ وأنتَ شرُّهُمْ لِساناً. فإنهُ قدْ قِيلَ: إنهُ يُعَدُّ جاهِلاً مَنْ تَكلَّفَ منَ الأُمُورِ ما لاَ يُشاكِلُهُ وليْسَ منْ عمَلهِ ولمْ يُؤَدِّبْهُ عليْهِ آباؤُهُ وأجْدادُهُ منْ قبْلُ.

---

(١) راض: مرَّن.

(٢) انخلع في سيره: تفكك.

الباب الرابع عشر

بابُ السائحِ والصائغِ

قالَ دَبشَليمُ الملِكِ لبيْدَبا الفيْلسوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المَثَلَ فاْضرِبْ لي مثَلَ الذي يَضَعُ المعرُوفَ في غيرِ موْضِعهِ ويَرْجُو الشُّكْرَ عليْهِ.

قال الفَيْلسُوفُ: أيها الملِكُ! إنّ طَبائعَ الخَلْقِ مُخْتلِفةٌ وليْسَ ممَّا خلَقهُ اللهُ في الدُّنْيا ممَّا يَمْشي على أرْبعٍ أوْ على رِجْليْنِ أوْ يَطيرُ بجَناحَيْنِ شيءٌ هوَ أفضَلُ منَ الإنْسانِ، ولكِنْ منَ النَّاسِ البَرُّ والْفاجِرُ، وقدْ يكونُ في بعْضِ البَهائمِ والسِّباعِ والطَّيْرِ ما هوَ أوْفَى منهُ ذِمّةً وأشدُّ مُحاماةً على حَرَمِهِ وأشْكَرُ لِلْمعرُوفِ وأقْوَمُ بهِ، وحينئذٍ يجِبُ على ذَوِي العقْلِ منَ المُلوكِ وغيرِهمْ أنْ يَضَعُوا مَعْرُوفَهُمْ مَواضِعَهُ ولا يُضَيِّعُوهُ عندَ منْ لا يَحْتَمِلُهُ ولا يقُومُ بِشُكْرِهِ، ولا يَصْطَنِعُونَ أحداً إلاّ بعدَ الخِبْرَةِ بطَرائقهِ والمعرِفةِ بوَفائهِ وموَدَّتهِ وشُكْرِه، ولا يَنبغي أنْ يَختَصُّوا بذلكَ قرِيباً لقَرابَتهِ إذا كانَ غيرَ مُحْتمِلٍ للصَّنِيعَةِ، ولا أن يَمْنَعُوا مَعْرُوفَهمْ ورِفْدَهُمْ[1] للْبَعيدِ إذا كانَ يَقِيهِمْ بنفْسهِ وما يَقْدِرُ عليهِ لأنهُ يكونُ حينئذٍ عارِفاً بحَقِّ ما اصْطُنِعَ إليهِ مُؤَدِّياً لِشُكرِ ما أُنْعِمَ عليهِ مَحْمُوداً بالنُّصْحِ مَعْرُوفاً بالخَيرِ، صَدُوقاً عارِفاً مُؤْثِراً لحَمِيدِ الفِعالِ والقَوْلِ، وكذلكَ كلُّ مَنْ عُرِفَ بالخِصالِ المَحْمُودَةِ ووُثِقَ منهُ بها كانَ لِلمعْرُوفِ موْضِعاً ولتَقْرِيبهِ واصْطِناعهِ أهْلاً.

«فإنَّ الطَّبيبَ الرَّفيقَ الْعاقِلَ لا يَقْدِرُ على مُداواةِ المرِيضِ إلاّ بعْدَ النَّظَرِ

---

(١) الرِّفْد: العطاء.

إِلَيْه والجَسّ لعُرُوقِهِ ومَعْرِفَةِ طَبِيعتهِ وسبَبِ علَّتِهِ، فإذا عَرَفَ ذلكَ كلَّهُ حقَّ معْرِفَتِهِ أقْدَمَ على مُداواتهِ. فكذلكَ الْعاقلُ لا ينْبَغي لهُ أنْ يَصْطَفي أحداً ولا يَسْتخلِصَهُ إلاّ بعدَ الخِبْرَةِ، فإنّ مَنْ أقدَمَ على مشْهُورِ العَدالةِ منْ غيرِ اخْتِيارِ كانَ مُخاطِراً في ذلكَ ومُشْرِفاً منهُ على هَلاكٍ وفَسادٍ، ومعَ ذلكَ رُبَّما صَنَعَ الإِنْسانُ المعرُوفَ معَ الضَّعيفِ الذي لمْ يُجرِّبْ شُكْرَهُ ولمْ يَعرِفْ حالَهُ في طَبائعهِ فيقُومُ بشُكْرِ ذلكَ ويُكافِئُ عليهِ أحْسَنَ المكافأة، ورُبما تَحذَّرَ العاقلُ منَ النّاسِ ولمْ يأمَنْ على نفْسهِ أحداً منهمْ، وقدْ يأخُذُ آبْنَ عِرْسٍ فيُدْخِلُهُ في كُمِّه ويُخْرِجُه منَ الآخَرِ كالذي يَحْمِلُ الطَّائرَ على يدهِ فإذا صادَ شيئاً انتَفَعَ بهِ وأطعَمَهُ منهُ، وقدْ قيلَ لا ينبغي لِذي العقْلِ أنْ يَحْتقِرَ صَغيراً ولا كبيراً منَ النّاسِ ولا منَ البَهائم، ولكنّهُ جَدِير بأنْ يَبلُوَهُمْ ويكونَ ما يَصْنَعُ إليهِمْ على قَدَرِ ما يَرَى منهمْ وقدْ مضَى في ذلكَ مثلٌ ضرَبهُ بعْضُ الحُكماءِ.

قال الملِكُ: وكيفَ كانَ ذلك؟

قال الفيْلَسُوفُ: زعَموا أنّ جَماعةً احتَفَرُوا رَكِيّةً[1] فوَقَعَ فيها رجُلٌ صائغٌ وحيَّةٌ وقِرْدٌ وبَبْرٌ[2] ومَرَّ بهمْ رُجلٌ سائحٌ فأشْرَفَ على الرَّكِيّةِ فبَصُرَ بالرَّجُلِ والحيَّةِ والقِرْدِ والبَبْرِ ففَكَّرَ في نفْسهِ وقال: لسْتُ أعمَلُ لآخرَتي عمَلاً أفضَلَ مِنْ أنْ أُخلصَ هذا الرَّجُلَ منْ بينِ هؤُلاءِ الأعداءِ. فأخذَ حَبْلاً وأدْلاهُ إلى البئرِ فتَعلَّقَ بهِ القِرْدُ لِخفَّتهِ فخرجَ، ثمَّ أدْلاهُ ثانية فالْتَفَّت بهِ الحيّة فخرَجَتْ، ثمَّ أدْلاهُ الثّالثةَ فتَعلّقَ به البَبْرُ فأخرَجَهُ، فشَكَرْنَ لهُ صَنِيعَهُ وقُلْنَ لهُ: لا تُخْرِجْ هذا الرَّجُلَ منَ الرَّكِيّةِ فإنهُ ليسَ شيءٌ أقلَّ شُكْراً منَ الإنسانِ ثمَّ هذا الرَّجُلَ خاصةً، ثمَّ قالَ لهُ القِرْدُ: إنّ مَنزِلي في جبَلٍ قريبٍ منْ مدِينةٍ يُقال لها نِوَادَرَخْتُ فقالَ لهُ البَبْرُ: أنا أيضاً في أجَمَةٍ إلى جانبِ تلكَ

(١) ركية: بئراً.

(٢) البَبْر: سَبُع.

المدِينةِ، قالتِ الحيّةُ: وأنا أيضاً في سُورِ تلْكَ المدينةِ فإنْ أنتَ مَرَرْتَ بِنا يوْماً منَ الدَّهْرِ واحْتَجْتَ إلِيْنا فَصَوِّتْ علينْا حتى نأتِيَكَ فنَجْزِيكَ بما أسْدَيْتَ إلِيْنا منَ المعْرُوفِ.

فلمْ يَلْتفِتِ السَّائحُ إلى ما ذَكَرُوا لهُ منْ قِلّةِ شُكْرِ الإنْسانِ وأدْلى الحبْلَ فأخرَجَ الصَّائغَ فسجَدَ لهُ وقال: لقدْ أوْلَيْتَني معْرُوفاً فإن مَرَرْتَ يوْماً منَ الدَّهْرِ بمدينةِ نِوَادَرَخْتَ فأسألْ عنْ مَنزِلي فأنا رجُلٌ صائغٌ وآسْمِي فُلانٌ لَعلّي أكافِئُكَ بما صَنَعْتَ إلِيَّ منَ المعرُوفِ، فانْطلَقَ الصائغ إلى مدِينتهِ وانْطَلَقَ السَّائحُ إلى وِجْهتهِ فعَرَضَ بعدَ ذلكَ أنّ السائحَ آتّفَقتْ لهُ حاجةٌ إلى تلْكَ المدينةِ فانْطلقَ فآستَقبَلَهُ القِرْدُ فسَجَدَ لهُ وقَبَّلَ رِجْلَيْهِ واعتَذَرَ إليهِ وقالَ: إنَّ القُرُودَ لا يَمْلِكُونَ شيئاً ولكنِ آقعُدَ حتى آتِيَكَ... وانْطلَقَ القِرْدُ وأتاهُ بِفاكهةٍ طيِّبةٍ فوَضَعَها بينَ يديْهِ فأكَلَ منها حاجتَهُ.

ثمَّ إنَّ السَّائحَ انْطلَقَ حتى دَنا منْ بابِ المدينةِ فاسْتقبلَهُ البَبْرُ فخرَّ لهُ ساجِداً وقالَ لهُ: إنكَ قدْ أوْلَيْتَني مَعْروفاً فاطْمئنَّ ساعةً حتى آتِيَكَ، فانْطلَقَ البَبْرُ فدَخَلَ في بعضِ الحِيطانِ إلى بنْتِ الملكِ فقتلَها وأخَذَ حُلِيَّها فأتاهُ بهِ منْ غيرِ أنْ يَعْلَمَ السَّائحُ مِنْ أيْنَ هيَ. فقال في نفْسهِ: هذهِ البَهائمُ قدْ أوْلَتْني هذا الجَزاءَ فكيْفَ لَوْ أتَيْتُ إلى الصَّائغِ فإنهُ إنْ كانَ مُعسِراً لا يَمْلِكُ شيئاً فسَيبيعُ هذا الحُليَّ فيَسْتَوْفِي ثمنَهُ فيُعْطيني بعْضَهُ ويأخُذُ بعْضَهُ وهوَ أعرَفُ بثمَنهِ، فانْطلَقَ السَّائحُ فأتى إلى الصَّائغِ فلمَّا رآهُ رَحَّب بهِ وأدْخَلَهُ إلى بيْتهِ، فلمَّا بَصُرَ بالحُليِّ معهُ عرَفَهُ وكانَ هوَ الذي صاغَهُ لابْنةِ الملِكِ. فقالَ الصَّائغَ: اطْمئِنَّ حتى آتيَكَ بِطَعامٍ فلسْتُ أرْضَى لكَ ما في البيْتِ.

ثمَّ خرَجَ وهوَ يقُولُ: قدْ أصَبْتُ فُرْصَتي، أريدُ أنْ أنْطلِقَ إلى الملكِ وأدُلَّهُ على ذلكَ فتَحسُنَ مَنزِلَتي عندَهُ، فانطلَقَ إلى بابِ الملكِ فأرْسَلَ إليْهِ أنَّ الذي قَتَلَ ابْنتَكَ وأخَذَ حُلِيَّها عنْدِي، فأرْسَلَ الملِكُ وأتى بالسَّائحِ، فلمَّا نَظَرَ

الحُليَّ معهُ لَمْ يُمْهِلْهُ وأَمَرَ بهِ أَنْ يُعذَّبَ ويُطاف بهِ في المدِينةِ ويُصْلَبَ، فلمَّا فعَلُوا به ذلكَ جعَلَ السَّائحُ يَبكي ويقُولُ بأعْلى صَوْتهِ: لوْ أني أطَعْتُ القِرْدَ والحيَّةَ والبَبْرَ فِيما أمَرْتَني بهِ وأخبَرْتَني منْ قِلَّةِ شُكْرِ الإنسانِ لمْ يَصِرْ أمرِي إلى هذا البَلاءِ وجعَلَ يُكرِّرُ هذا القوْلَ، فسمِعَتْ مَقالتَهُ تلْكَ الحيَّةُ فخرَجَتْ منْ جُحْرِها فعرَفتْهُ فاشتَدَّ عليْها أمرُهُ فَجعَلتْ تَحْتالُ في خَلاصِه، فانْطلَقت حتى لَدَغَتِ ابْنَ الملكِ فدَعا الملكُ أهْلَ العِلْمِ فرَقَوْهُ لِيَشْفُوهُ فلمْ يُغْنُوا عنهُ شيئاً.

ثمَّ مضَتِ الحيَّةُ إلى أختٍ لها منَ الجنِّ فأخبرَتْها بما صَنَعَ السَّائحُ إلَيْها منَ المعْرُوفِ وما وَقَعَ فيهِ فرَقَّتْ لهُ وانْطلَقتْ إلى ابْنِ الملكِ وتَخايَلَتْ لهُ[1] وقالتْ: ابنكَ لا تَبرأُ حتى يَرْقِيَكَ هذا الرَّجلُ الذي قدْ عاقَبْتُمُوهُ ظُلْماً، وانْطلقَتِ الحَيَّةُ إلى السَّائحِ فدَخَلتْ إليْهِ السِّجْنَ وقالتْ لهُ: هذا الذي كنتُ نهَيْتُكَ عنهُ منِ اصْطِناعِ المعْرُوفِ إلى هذا الإِنْسانِ ولمْ تُطِعْني، وأتتْه بوَرَقٍ يَنْفَعُ منْ سُمِّها وقالتْ لهُ: إذا جاؤُوا بكَ لتَرْقِيَ ابْنَ الملكِ فاسْقهِ منْ ماءِ هذا الوَرَقِ فإنهُ يَبرأُ، وإذا سألكَ الملِكُ عنْ حالِكَ فاصْدُقْهُ فإنكَ تَنْجُو إنْ شاءَ الله تعالى، وإنّ ابْنَ الملكِ أخبَرَ أباهُ أنهُ سَمِعَ قائلاً يقُولُ: إنكَ لنْ تَبرَأَ حتى يَرْقِيَكَ هذا السَّائحُ الذِي حُبِسَ ظُلْماً، فدَعا الملكُ بالسَّائحِ وأمَرَهُ أنْ يَرْقِيَ ولَدَهُ فقالَ: لا أحْسِنُ الرَّقْيَ ولكنِ اسْقهِ منْ ماءِ هذهِ الشَّجرَةِ فيَبْرَأَ بإذْنِ الله تعالى، فسَقاهُ فَبرِىءَ الغُلامُ فَفرِحَ الملكُ بذلكَ وسألَهُ عنْ قِصَّتهِ فأخْبرَهُ، فشكَرَهُ الملكُ وأعْطاهُ عَطِيَّةً حسَنةً وأمَرَ بالصَّائغِ أنْ يُصْلَبَ فَصلَبُوهُ لِكَذبِهِ وانْحِرافِه عنِ الشُّكْرِ ومُجازاتِه الفِعْلَ الجَميلَ بالقَبيحِ.

ثمَّ قال الفيلَسُوفُ للْملِكِ: فَفي صَنيعِ الصَّائغِ بالسَّائحِ وكُفْرِه[2] لهُ بعْدَ

---

(١) تخايلت: تشبهت.

(٢) الكفر: جحود النعمة.

اسْتِنْقاذِهِ إِيَّاهُ وشُكْرِ البَهائمِ لهُ وتَخْلِيصِ بعضِها إِيَّاهُ عِبرَةٌ لمنِ اعْتَبَرَ، وفكْرَةٌ لمنِ افتَكَرَ، وأَدَبٌ في وَضْعِ المَعْرُوفِ والإحْسانِ عنْدَ أهلِ الوَفاءِ والكَرَمِ، قَرُبُوا أوْ بَعُدُوا لِمَا في ذلكَ منْ صَوابِ الرَّأْيِ وجلْبِ الخَيرِ وصَرْفِ المَكْرُوهِ.

الباب الخامس عشر

باب ابن الملكِ وأصحابهِ

قالَ دَبْشَليمُ الملِكُ لبَيْدَبا الفيْلَسُوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ، فإنْ كانَ الرَّجُلُ لا يُصِيبُ الخَيرَ إلاّ بعقْلهِ ورأيهِ وتَثبُّتِهِ في الأمُورِ كما يَزْعُمونَ فما بالُ الرَّجُلِ الجَاهلِ يُصيبُ الرِّفْعةَ والخَيرَ، والرَّجُلِ الحكيمِ الْعاقلِ قدْ يُصِيبُ البَلاءَ والضَّرَّ. قال بيْدَبا: كما أنَّ الإنْسانَ لا يُبْصِرُ إلاّ بعَيْنهِ ولا يَسْمَعُ إلاَّ بأُذُنِهِ كذلكَ العمَلَ إنما هُوَ بالحِلْمِ والعَقْلِ والتثَبُّتِ، غيرَ أنَّ القَضاءَ والقدَرَ يَغْلِبُ على ذلكَ. ومثَلُ ذلكَ مثَلُ ابْنِ الملكِ وأصْحابهِ. قال الملكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

قال الفَيْلسُوفُ: زَعَمُوا أنَّ أرْبعةَ نَفَرٍ اصْطَحَبُوا في طَريق واحدَةٍ... أحدُهُمْ ابْنُ مَلِكٍ، والثَّاني ابْنُ تاجرٍ، والثّالِثُ ابْنُ شَرِيفٍ ذُو جَمالٍ، والرَّابعُ ابْنُ أكَّارٍ وكانوا جمِيعاً مُحْتاجين وقدْ أصابَهُمْ ضَرٌّ وَجهْدٌ شديدٌ في مَوْضِعِ غُرْبةٍ لا يَمْلِكُونَ إلاّ ما عليْهِمْ منَ الثِّيابِ فَبينماهُمْ يَمْشُونَ إذ فَكَّرُوا في أمْرِهِمْ، وكانَ كلُّ إنسَانٍ رَاجِعاً إلى طِباعهِ وما كانَ يأتِيهِ منْهُ الخَيرُ. فقالَ ابْنُ الملِكِ: إنَّ أمْرَ الدُّنْيا كلَّهُ بالقَضاءِ والقَدَرِ، الذِي قُدِّرَ على الإنسَانِ يأتِيهِ على كلِّ حالٍ والصَّبْرُ للقَضاءِ والقدَرِ وانْتِظارُهُما أفضَلُ الأمورِ.

وقالَ ابْنُ التاجرِ: العقْلُ أفضَلُ منْ كلِّ شيءٍ. وقال ابْنُ الشّرِيفِ: الجَمالُ أفضَلُ ممَّا ذُكِرَ. ثمَّ قال ابْنُ الأكّار: ليْسَ في الدُّنْيا أفْضَلُ منَ الاجْتِهادِ في العمَلِ. فلمَّا قَرُبُوا منْ مدِينَةٍ يُقالُ لها مِطْرُونُ جلَسُوا في ناحيَةٍ منْها يَتَشاوَرُونَ. فقالوا لابْنِ الأكَّارِ: انْطلِقْ فاكْتسِبْ لنَا باجْتِهادِكَ طَعاماً

لِيَوْمِنا هذا. فانْطلَقَ ابْنُ الأكّارِ وسأَلَ عنْ عمَلٍ إذا عَمِلَهُ الإنسَانُ يَكْتسِبُ فيهِ طَعامَ أرْبعَةِ نفَرٍ، فعَرَّفُوهُ أنْ ليْسَ في تلْكَ المدِينَةِ شيءٌ أعَزَّ منَ الحَطَبِ وكانَ الحطَبُ منْها على فَرْسَخٍ[1]. فانْطلَقَ ابْنُ الأكّارِ فاحتَطَبَ طِنًّا[2] منَ الحطَب وأتى بهِ المدينةَ فَباعَهُ بِدِرْهَمٍ واشتَرى بهِ طَعاماً وكتَبَ على بابِ المدينةِ: عَمَلُ يوْمٍ واحدٍ إذا أجهَدَ فيهِ الرَّجُلُ بدَنَهُ قيمتُهُ دِرْهَمٌ، ثمَّ انْطلَقَ إلى أصْحابهِ بالطَّعامِ فأكلوا.

فلمَّا كانَ من الغَدِ قالوا ينبغي للَّذِي قالَ إنهُ ليْسَ شيءٌ أعَزَّ منَ الجَمالِ أنْ تكونَ نَوْبتُهُ[3] فانْطلَقَ ابْنُ الشَّريفِ ليأتيَ المدينةَ ففكَّرَ في نفْسهِ وقالَ: أنا لسْتُ أُحْسِنُ عمِلاً فَما يُدْخِلُني المدينةَ، ثمَّ استحَى أنْ يَرْجِعَ إلى أصْحابهِ بغيرِ طَعامٍ وهُمَّ بمُفارَقتِهِمْ فانْطلَقَ حتى أسْنَدَ ظهْرَهُ إلى شجَرَةٍ عظيمةٍ فَغَلَبَهُ النّوْمُ فَنامَ، فَمرَّتْ بهِ امْرَأَةُ رجُلٍ منْ عُظَماءِ المدينةِ فبَصُرَتْ بهِ فأعْجبَها حُسْنُهُ، فأرْسلَتْ خادِمَتَها وأمرَتْها أنْ تأتِيَها به، فانْطلَقَتِ الجارِيةُ إلى الغُلام وأمرَتْهُ أنْ يَتْبَعَها إلى مَوْلاتِها، فظَلَّ نهارَهُ عنْدَها في أرْغَدِ عيْشٍ، فلمَّا كانَ المَساءُ أجازَتْهُ بخَمْسِمائةِ دِرْهَمٍ، فخرَجَ وكتَبَ على بابِ المدينةِ جَمالُ يوْمٍ واحدٍ يُساوِي خَمْسَمائةِ دِرْهَمٍ، وأتى بالدَّرَاهم إلى أصْحابهِ، فلمَّا أصْبَحْوا في اليوْم الثَّالثِ قالوا لابْنِ التّاجرِ: انْطلِقْ أنتَ فاطْلُبْ لنا بعَقْلِكَ وتجارَتِكَ لِيَوْمِنا هذا شيْئاً، فانْطلَقَ ابْنُ التّاجرِ فلمْ يزَلْ حتى بَصُرَ بِسفينَةٍ منْ سُفُنِ البَحْرِ كثيرَةِ المَتاعِ قدْ قَدِمَتْ إلى السَّاحلِ فخرَجَ إليْها جَماعةٌ منَ التُّجّارِ يُريدُونَ أنْ يَبْتاعوا ممَّا فيها منَ المَتاعِ، فجلَسُوا يتَشاوَرون في ناحِيةٍ منَ المَرْكَبِ. وقال بعضُهمْ لبَعْضٍ: ارْجِعُوا يوْمَنا هذا لا نَشترِي منهُمْ شيئاً حتى يَكسُدَ المَتاعُ عليْهِمْ فيُرَخِّصُوهُ علينا معَ أنّنا مُحْتاجُونَ إليْهِ وسيَرْخُصُ.

(١) الفرسخ: ثلاثة أميال.

(٢) الطن: حزمة القصب ونحوه الواحدة طنة.

(٣) نوبته: دَوْرُه.

فخالفَ ابْنُ التّاجِرِ الطّريقَ وجاءَ إلى أصْحابِ المَرْكَبِ فابتاعَ منهمْ ما فيهِ بمائةِ دِينارٍ نَسِيئةً[١] وأظْهَرَ أنهُ يُريدُ أنْ يَنْقُلَ مَتاعَهُ إلى مَدينةٍ أخرَى. فلمَّا سَمِعَ التُّجّارُ ذلكَ خافُوا أن يَذْهَبَ ذلكَ المَتاعُ منْ أيْدِيهِمْ فأرْبَحُوهُ على ما اشْتَرَاهُ ألْفَ دِرْهَمٍ وأحالَ عليهِمْ أصْحابَ المَرْكَبِ بالْباقِي وحَمَلَ رِبْحَهُ إلى أصْحابِهِ وكتبَ على بابِ المدينةِ عَقْلُ يوْمٍ واحدٍ ثمنُهُ ألْفُ دِرْهمٍ. فلمَّا كانَ اليوْمُ الرَّابعُ قالوا لابنِ الملكِ: انْطلِقْ أنتَ واكْتسِبْ لنا بقَضائكَ وقَدَرِكَ، فانْطلَقَ ابْنُ الملكِ حتى أتَى بابَ المدينةِ فجلَسَ على دَكَّةٍ[٢] في بابِ المدينةِ.

واتَّفَقَ أنَّ مِلِكَ تلْكَ النّاحيةِ ماتَ ولمْ يُخلِّفْ ولَداً ولا أحَداً ذا قَرَابةٍ. فَمرُّوا عليهِ بجِنارَةِ الملكِ ولمْ يُحْزِنْهُ وكلهمْ يَحْزَنُونَ، فأنكَرُوا حالَهُ وشتَمهُ البَوَّابُ وقال لهُ: مَنْ أنتَ يا لئِيمُ؟ وما يُجْلِسُكَ على بابِ المدينةِ، ولا نَراكَ تَحْزَنُ لموْتِ الملكِ؟ وطرَدَهُ البوَّابُ عنِ الْبابِ، فلمَّا ذَهَبُوا عادَ الغُلامُ فجلَسَ مكانَهُ، فلمَّا دَفَنُوا الملكَ ورَجَعُوا بَصُرَ بِهِ البوَّابُ فغَضِبَ وقال لهُ: ألَمْ أنْهَكَ عنِ الجُلوسِ في هذا الموْضِعِ وأخَذَهُ فحبَسَهُ، فلمَّا كانَ منَ الغَدِ وقدِ اجْتمعَ أهْلُ تلكَ المدينةِ يتَشاوَرُونَ في مَنْ يُملِّكونهُ عليْهِمْ، وكلٌّ منْهُمْ يَتطاوَلُ أنْ يكونَ صاحبَ الأمْرِ ويَخْتَلِفُونَ فِيما بينهمْ.

فقالَ لهمُ البوَّابُ: إني رأيْتُ أمْسِ غُلاماً جالساً على الْبابِ ولمْ أرَهُ يَحْزَنُ لحُزْنِنا، فكلَّمْتُهُ فلمْ يُجِبْني فطَرَدْتُهُ عنِ الباب فلمَّا عُدْتُ رأيتُهُ جالِساً فأدْخَلْتُه السِّجْنَ مَخافةَ أنْ يكونَ عيْناً. فبَعَثَتْ أشْرافُ المدينةِ إلى الغُلامِ فجاؤُوا بهِ وسألُوهُ عنْ حالهِ وما أقْدَمَهُ إلى مَدينتِهِمْ. فقالَ: أنا ابْنُ ملكِ فُوبرانَ، وإنهُ لمَّا ماتَ والدِي غلَبَني أخِي على المُلْكِ فهَرَبْتُ منْ يدِهِ حَذَراً

(١) النسيئة: البيع لأجل: أي تسليم المبيع حالاً وتأجيل دفع الثمن.

(٢) الدَّكَّة: المصطبة.

على نفْسِي حتى انتَهَيْتُ إلى هذهِ الغابةِ، فلمَّا ذكَرَ الغُلامُ ما ذَكَرَ منْ أمرِه عرَفَهُ مَنْ كانَ يَغْشَى(١) أرْضَ أبيهِ منهُمْ وأثنَوْا على أبيهِ خَيْراً، ثمَّ إنَّ الأشْرَافَ اختارُوا الغُلامَ أنْ يُملِّكوهُ عليهِمْ ورَضُوا بهِ، وكانَ لأهلِ تلْكَ المدينةِ سُنَّةٌ إذا مَلَّكُوا عليهِمْ ملِكاً حَمَلُوهُ على فيلٍ أبْيَضَ وطافُوا بهِ حَوَالَي المدينةِ، فلمَّا فعَلُوا بهِ ذلكَ مَرَّ ببابِ المدينةِ فرَأَى الكتابةَ على الْبابِ فأمَرَ أنْ يُكتَبَ: إنّ الاجْتِهادَ والجَمالَ والعقْلَ وما أصابَ الإنسانَ في الدُّنْيا منْ خيْرٍ أوْ شرٍّ إنما هوَ بقَضاءٍ وقَدَرٍ منَ الله عزَّ وجلَّ، وقد اعتُبِرَ ذلكَ بما ساقَ الله إليَّ منَ الكَرامةِ والخيْرِ، ثمَّ انْطلَقَ إلى مَجْلِسهِ على سَرِيرِ مُلْكهِ وأرْسَلَ إلى أصْحابهِ الذين كانَ معَهمْ فأحضَرَهمْ فأشْركَ صاحبَ العقْلِ معَ الوُزراءِ. وضمَّ صاحبَ الاجْتهادِ إلى أصْحابِ الزرْعِ وأمَرَ لصاحبِ الجَمالِ بمالٍ كثيرٍ ثمَّ نَفاهُ كَيْلاَ يَفْتِنَ النّساءَ.

ثمَّ جَمَعَ عُلماءَ أرْضهِ وذَوِي الرَّأْيِ منهمْ وقالَ لهمْ: أمَّا أصْحابي فقدْ تَيقَّنُوا أنَّ الذي رَزَقَهُمْ الله سُبْحانهُ وتعالى منَ الخَيرِ إنّما هوَ بقضاءٍ وقَدَرٍ، وإنّما أُحِبُّ أنْ تَعْلَمُوا ذلكَ وتَسْتَيْقِنُوهُ فإنَّ الذي منَحَني الله وهيَّأهُ لي إنّما كانَ بقَدَرٍ ولمْ يكنْ بجَمالٍ ولا عَقْلٍ ولا اجْتِهادٍ، وما كنْتُ أرْجُو إذْ طرَدَني أخي أنْ يُصِيبَني ما يُعيِّشُني من القُوتِ فضْلاً عنْ أنْ أُصيبَ هذهِ المنزِلةَ، وما كنتُ أُؤَمِّلُ أنْ أكونَ بها لأني قدْ رأيتُ في هذهِ الأرْضِ مَنْ هوَ أفضَلُ منِّي حُسْناً وجَمالاً وأشدُّ اجْتِهاداً وأحْزَمُ رأياً فساقَني القَضاءُ إلى أنِ اعتزَزْتُ بقدَرٍ منَ الله، وكانَ في ذلكَ الجَمْعِ شيْخٌ فنَهَضَ حتى اسْتَوَى قائماً وقالَ: إنّكَ قدْ تَكلَّمْتَ بكلامِ عقْلٍ وحكْمةٍ، ولكنَّ الذي بَلَغَ بكَ ذلكَ وُفُورُ عقْلِكَ وحُسْنُ ظنِّكَ، وقدْ حَقَّقْتَ ظنَّناً بكَ ورَجاءَنا لكَ وقدْ عرَفْنا ما ذَكَرْتَ وصدَّقْناكَ فيما وَصَفْتَ، والذي ساقَ الله إليْكَ منَ المُلْكِ والكرامةِ كنْتَ

(١) يغشى: يأتي.

أهْلاً لهُ لِمَا قَسَمَ الله تعالى لكَ منَ العقْلِ والرَّأيِ.

[حكاية السائح والهدهدين وما كافاه به]

«وإنّ أسْعَدَ النَّاسِ في الدُّنْيا والآخرَةِ مَنْ رَزَقَهُ الله رأياً وعقْلاً، وقدْ أحسَنَ الله إليْنا إذْ وفَّقَكَ لنا عنْدَ موْتِ ملِكِنا وكَرَّمَنا بكَ، ثمَّ قامَ شيخٌ آخَرُ سائحٌ فحمِدَ الله عزَّ وجلَّ وأثْنى عليه وقالَ: إني كنْتُ أخْدُمُ وأنا غُلامٌ قبْلَ أنْ أكونَ سائحاً رجُلاً منْ أشْرَافِ النَّاسِ، فلمَّا بدَا لي رَفْضُ الدُّنْيا فارَقْتُ ذلكَ الرَّجلَ وقدْ كانَ أعْطاني من أجْرَتي دِينارَيْنِ فأردْتُ أنْ أتصدَّقَ بأحدِهما وأستَبْقيَ الآخرَ فأتيْتُ السُّوقَ فوَجدْتُ معَ رجُلٍ منَ الصَّيَّادِينَ زوْجَ هُدْهُدٍ فساوَمْتُ فيهما فأبَى الصَّيادُ أنْ يَبيعَهُما إلاّ بدِينارَيْنِ فاجتَهَدْتُ أنْ يَبيعَنِيهما بدِينارٍ واحدٍ فأبَى. فقلْتُ في نفسِي: أشتَرِي أحدَهُما واترُكُ الآخرَ، ثمَّ فَكَّرْتُ وقلْتُ لعلَّهُما يكونانِ زوْجَيْنِ ذَكَراً وأنْثَى فأفرِّقَ بينهُما، فأدْرَكَتني لهُما رحمة فتوَكَّلْتُ على الله وابْتعتُهُما بدِينارَيْنِ وأشفَقْتُ[1] إنْ أرْسَلْتُهُما في أرْضٍ عامِرَةٍ أنْ يُصادَا ولا يَسْتَطِيعَا أنْ يَطيرَا ممَّا لَقَيَا منَ الجُوعِ والهُزالِ ولمْ آمَنْ عليْهِما الآفاتِ فانْطلَقْتُ بهما إلى مكانٍ كثيرِ المَرْعَى والأشْجَارِ بَعيدٍ عنِ النَّاسِ والعُمْرانِ فأرْسلْتُهُما فَطارَا ووَقَعا على شجَرَةٍ مُثْمِرَة، فلمَّا صارَا في أعْلاها شَكَرا إلَيَّ وسَمِعْتُ أحدَهُما يقُولُ للآخَرِ: لقدْ خلَّصَنا هذا السَّائحُ منَ البَلاءِ الذي كنَّا فيهِ واسْتَنْقذَنا ونجَّانا منَ الهلَكةِ وإنّنا لَخَلِيقانِ[2] أنْ نُكافِئَهُ بفِعْلهِ، وإنَّ في أصْلِ هذهِ الشَّجرَةِ جَرَّةً مَمْلوءَةً دَنانيرَ أفلاَ نَدُلُّهُ عليْها فيأخُذَها.

فقلْتُ لهما: كيْفَ تَدُلاَّنِني على كَنْزٍ لمْ تَرَهُ العُيونُ وأنتُما لمْ تُبْصِرَا الشَّبكَةَ؟ فقالاَ: إنَّ القَضاءَ إذا نزَلَ صَرَفَ العُيونَ عن مَوْضِعِ الشيءِ وغَشَّى

(١) أشفقت: خشيت.

(٢) لخليقان: لجديران.

على البَصَرِ، وإنما صَرَفَ القَضَاءُ أعْيُنَنا عنِ الشَّرَكِ ولمْ يَصْرِفْها عنْ هذا الكَنْزِ لتَنْتفِعَ أنتَ بهِ، فاحتَفَرْتُ واستَخْرَجْتُ البَرْنِيّة[1] وهيَ مَمْلُوءَةٌ دَنانيرَ فدَعَوْتُ لهُما بالْعافيةِ وقلتُ لهما: الحَمدُ لله الذي عَلّمكُما ممَّا رَأى وأنْتُما تَطيرَانِ في السَّماءِ وأخبَرْتُماني بما تحْتَ الأرْضِ. فقالاَ لي: أيُّها الْعاقلُ! أمَا تَعْلَمُ أنَّ القَدَرَ غالبٌ على كلِّ شيءٍ لاَ يَسْتَطِيعُ أحدٌ أنْ يَتَجاوزَهُ. وأنا أُخْبِرُ الملِكَ بذلكَ الذي رَأيتُهُ، فإنْ أمَرَ الملِكُ أتيتُهُ بالمالِ فأوْدَعْتُهُ خَزَائنَهُ... فقالَ الملِكُ: ذلكَ لكَ ومُوَفَّرٌ عليكَ.

(١) البرنية: فخارة ضخمة خضراء.

باب الحمامةِ والثعلبِ ومالكِ الحزينِ[1]

قالَ دَبْشَليمُ المَلِكُ لِبَيْدَبا الفيْلسوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ فاضرِبْ لي مثَلاً في شأنِ الرَّجُلِ الذي يَرَى الرَّأيَ لغيرِهِ ولا يَراهُ لنفْسهِ.

قالَ الفيْلَسُوفُ: إنَّ مثَلَ ذلكَ مثَلُ الحَمامةِ والثعْلبِ ومالكِ الحَزينِ.

قال الملِكُ: وما مَثَلُهُنَّ؟

قال الفيْلَسُوفُ: زعَمُوا أنَّ حَمامةً كانتْ تُفْرِخُ في رَأسِ نَخْلةٍ طوِيلةٍ ذاهِبَةٍ في السَّماءِ، فكانتِ الحَمامةُ تَشْرَعُ في نقْلِ العُشِّ إلى رأسِ تلْكَ النَّخْلةِ فلا يُمكِنُها أنْ تنقُلَ ما تَنْقُلَ منَ العُشِّ وتجْعلَهُ تحتَ البَيْضِ إلاَّ بعْدَ شِدَّةٍ وتَعَبٍ ومشَقَّةٍ لطُولِ النَّخْلةِ وسُحْقِها[2] فإذا فرَغَتْ منَ النَّقْلِ باضتْ ثمَّ حَضَنتْ بيْضَها فإذا فَقَّسَتْ وأدْرَكَ فِراخُها جاءَها ثعْلَبٌ قد تَعَهَّدَ[3] ذلكَ منها لوقْتٍ قدْ عَلِمَهُ بقدَرِ ما يَنْهَضُ فِراخُها فيَقِفُ بأصلِ النَّخْلةِ فيَصيحُ بها ويَتوَعَّدُها[4] أنْ يَرْقَى إليْها أو تَلْقيَ إليهِ فِراخَها فتُلْقِيها إليهِ، فبينما هوَ ذاتَ يوْمٍ وقدْ أدرَكَ لها فَرْخانِ إذْ أقبَلَ مالكُ الحزِينُ فوَقَعَ على النَّخْلةِ، فلمَّا رأى الحَمامةَ كئيبةً حَزينةً شدِيدَةَ الهمِّ قال لها: يا حَمامةُ! ما لِي أراكِ كاسِفةَ البالِ، سَيئةَ الحالِ؟

فقالتْ لهُ: يا مالِكُ الحزِينُ إنَّ ثعلَباً دُهِيتُ بهِ[5]، كلَّما كانَ لي فرْخانِ جاءَني يَتَهدَّدُني ويَصيحُ في أصلِ النَّخْلةِ فأفرَقُ[6] منهُ فأَطرَحُ إليهِ فَرْخَيَّ. قال

(١) مالك الحزين: طائر مائي.
(٢) سُحْقها: ارتفاعها.
(٣) تعهد: عرف.
(٤) توعد: هدد.
(٥) دهيتُ به: منيت.
(٦) أفرق: أفزع.

لها مالكُ الحَزينُ: إذا أتاكِ لِيَفْعَلَ ما تقُولينَ فقُولي لهُ: لا أُلْقي إِلَيْكَ فرْخَيّ فأَرْقَ إِلَيَّ وغَرِّرْ بنفْسِكَ[1] فإذا فعَلْتَ ذلَكَ وأكلْتَ فَرْخَيَّ طِرْتُ عنكَ ونجَوتُ بنفْسي. فلما علمها مالكُ الحزينُ هذه الحيلة، طار فوقع على شاطئ نهر، فأقبَلَ الثعْلَبُ في الوقْتِ الذي عَرَفَ إدراك فرخيها فوقَفَ تحتَ النخْلَةِ، ثُمَّ صاحَ كما كانَ يَفْعَلُ فأجابتْهُ الحَمامةُ: بما علمَها مالكُ الحزينُ فقالَ لها: أخبِريني مَنْ عَلّمَكِ هذا؟ قالتْ: عَلّمَني مالكُ الحزِينُ فتوَّجهَ الثّعْلبُ حتى أتَى مالكاً الحزينَ على شاطىءِ النّهْرِ فوَجدَهُ واقِفاً.

فقالَ لهُ الثّعلبُ: يا مالكُ الحزِينُ إذا أتتْكَ الرِّيحُ عنْ يَمينِكَ فأيْنَ تَجْعلُ رأسَكَ؟ قالَ: عنْ شِمالي. قالَ: فإذا أتتْكَ عنْ شِمالكَ أينَ تجْعَلُ رأسَكَ؟ قالَ: أجْعلُهُ عنْ يَمِيني أوْ خَلْفي، قال: فإذا أتتْكَ الرِّيْحُ منْ كلِّ مكانٍ وكلِّ ناحيةٍ أينَ تَجْعلُهُ؟ قالَ: أجعلُهُ تحت جَناحَيَّ. قال: وكيف تَسْتطيعُ أنْ تجْعلَهُ تحتَ جناحَيْكَ؟ ما أراهُ يَتهَيَّأُ لكَ. قالَ: بَلى. قال: فأرني كيْفَ تَصْنَعُ فلَعَمْرِي يا معْشَرَ الطيرِ لقدْ فضَّلَكُنَّ الله عليْنا إنّكُنَّ تَدْرِينَ في ساعةٍ واحدةٍ مثْلَ ما نَدْرِي في سَنَةٍ، وتَبْلُغْنَ ما لا نَبْلُغُ وتُدْخلْنَ رُؤُوسَكُنَّ تحتَ أجْنِحَتِكُنَّ منَ البَرْدِ والرِّيحِ فهنِيئاً لكُنَّ فأرِني كيْفَ تَصْنَعُ؟ فأدْخَلَ الطّائِرُ رأسَهُ تحتَ جَناحَيْهِ فوَثَبَ عليهِ الثّعلبُ مكانَهُ فأخذَهُ فهَمَزهُ[2] هَمْزةً دَقَّ عُنُقَهُ[3] ثمَّ قالَ: يا عدُوَّ نفْسهِ ترَى الرَّأيَ للْحَمامةِ وتُعَلِّمُها الحِيلةَ لنفْسِها وتَعْجِزُ عنْ ذلكَ لِنَفْسِكَ حتى يَتمكَّنَ منْكَ عدُوّكَ ثمّ قتَلهُ وأكَلهُ.

(١) غَرِّرْ بنفسك: عرضها للهلاك.

(٢) هَمَزَ: ضرب.

(٣) ودَقَّ: كسر.

الخاتمة

فلمَّا انتهَى المَنْطِقُ بالفيْلَسُوفِ والملكِ إلى هذا الموْضِعِ سكَتَ الملِكُ. فقالَ لهُ الفيْلسُوفُ: أيها الملِكُ عِشْتَ ألفَ سنَةٍ ومُلِّكْت الأقاليمَ السَّبْعَةَ وأُعطِيتَ منْ كلِّ شيءٍ سبَباً معَ وُفُورِ سرُورِكَ وقُرَّةِ عينِ رَعِيَّتِكَ بكَ ومُساعدَةِ القَضاءِ والقدَرِ لكَ فإنهُ قدْ كَمُلَ فيكَ الحِلْمُ والعِلْمُ، وذَكَا منكَ العقْلُ والقوْلُ والنِّيةُ، فلا يُوجَدُ في رأيِكَ نَقْصٌ ولا في قوْلِكَ سَقْطٌ ولا عَيْبٌ ولقدْ جَمَعْتَ النَّجْدَةَ[1] واللِّينَ فلا تُوجَدُ جَباناً عندَ اللِّقاء، ولا ضَيِّقَ الصدر عندَما يَنُوبُكَ[2] منَ الأشْياءِ.

وقدْ جَمَعْتُ لكَ في هذا الكتابِ شَمْلَ بَيان الأمورِ وشَرَحْتُ لكَ جوابَ ما سَألْتَني عنْهُ منها فأبلَغْتُكَ في ذلكَ غايةَ نُصْحي، واجتَهَدْتُ فيهِ برَأيي ونَظَري ومَبلَغَ فِطْنتي، الْتِماساً لقضاءِ حَقِّكَ وحُسْنِ النِّيةِ منكَ بإعمالِ الفِكْرَةِ والعقْلِ فجاءَ كما وَصَفْتُ لكَ من النّصيحةِ والموْعِظَة معَ أنهُ ليسَ الآمِرُ بالخيْرِ بأسْعَدَ من المُطيعِ لهُ فيهِ ولا النَّاصِحُ أوْلَى بالنَّصيحةِ منَ المَنْصُوحِ، ولا المُعلِّمُ للْخيْرِ بأسْعَدَ منْ مُتعلِّمهِ منهُ. فأفْهَمْ ذلك أيُّها الملكُ! ولا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيم.

تم الكتاب والحمد لله أولاً وآخراً.

---

(١) النجدة: الشجاعة.

(٢) ينوبك: ينزل بك.

الفهرست

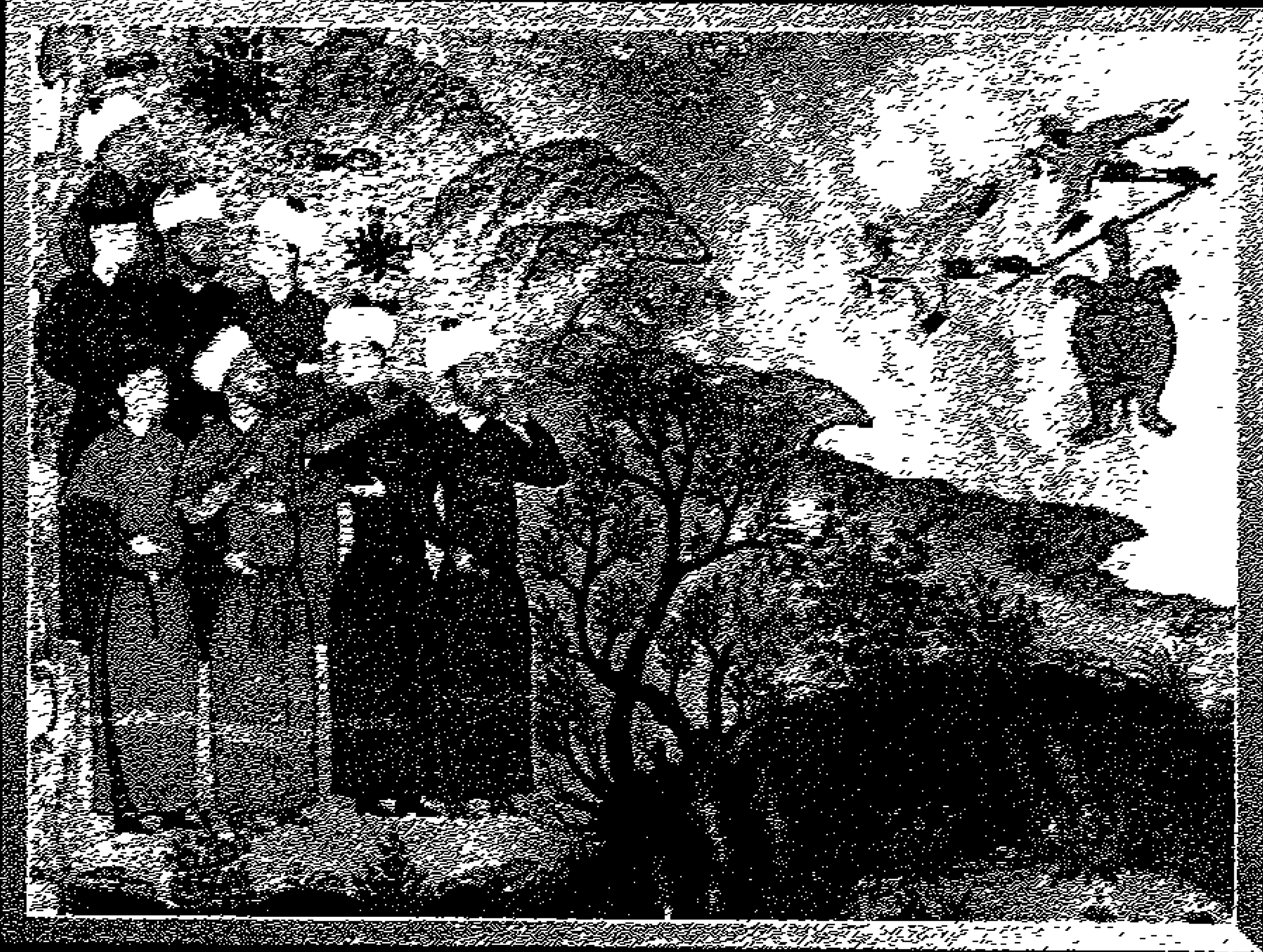
كليلة ودمنة ٥
عبد الله ابن المقفع ٥
مقدمة الكتاب ٧
[الباعث على تأليف الكتاب] ٨
[مشاورة الفيلسوف بيدبا لتلاميذه:] ١١
[حكاية القُبَّرة والفيل] ١٣
[رأي تلاميذ بيدبا:] ١٤
[الملك دبشليم والفيلسوف بيديا:] ١٥
[الملك دبشليم يسخط على الفيلسوف بيدبا ويسجنه] ٢٠
[بيدبا يجتمع بتلاميذه] ٢٢
[تكليف بيديا بوضع كتاب في الحكمة] ٢٤
[استشارة بيدبا لتلاميذه بشأن كتاب الحكمة] ٢٥
قرار إرسال برزويه إلى الهند للحصول على الكتاب ٢٨
[تحديد موعد سَفَر برزويه إلى الهند] ٣٣
[اتخاذ برزويه صديقاً هندياً] ٣٤
[الهندي يخشى الفضيحة] ٣٧
[التعاهد على كتمان الاتفاق بين بيدبا والهندي] ٣٨
[برزويه يسأل كسرى أن يُخصَّص له أول أبواب الكتاب] ٤٠
[غرض الكتاب كما حدَّده عبد الله ابن المقفع] ٤٥
[صاحب الكنز الذي لم ينعم به] ٤٦
[الجوز والصحيفة] ٤٧

[الرجل الصابر على اللص] ٤٧
[مَثَلُ البصير والأعمى] ٤٨
[حكاية اللص والفقير] ٤٩
[قصة الشريك الخائن] ٥١
[حكاية اللص والتاجر] ٥٣
[ميراث الأخوة الثلاثة] ٥٣
[الصياد والصدفة] ٥٤
[أغراض الكتاب وأبوابه:] ٥٦
الباب الأول: بَرْزَوَيْهِ ترجمة بُزُرْجُمَهْرَ بنِ البَخْتَكَانِ ٥٧
[حكاية المصَدِّقُ المخدوع] ٥٩
[قصة التاجرُ الخاسر] ٦٣
[قصة الكلب المخدوع] ٦٤
[الرجل الذي صار فريسة للتنين] ٦٨
الباب الثاني: باب الأسد والثور ٧١
[التاجِرُ وبَنُوه] ٧١
[ومن يهرب من الموت لا بد أن يدركه] ٧٢
[من تدخّل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه] ٧٤
[ابن آوى ونصحه للغراب] ٨٦
[ماذا دار بين العلجوم والسرطان؟] ٨٦
[كيف استطاعت الأرنب أن تقتل الأسد بدهائها؟] ٨٨
[ما جرى للسمكات الثلاث] ٩١
[كيف قضت القملة على نفسها؟] ٩٣
[ومن الغباء ماقتل] ٩٩
[قصة وكيل البحر والطَّيْطَوَى] ١٠٢
[السُّلَحْفاة الحمقاء] ١٠٣
[حوار القِرَدة واليراعَة] ١٠٥
[قصة الخَبُّ والمغفَل] ١٠٦
[جحود الأمانة] ١٠٨

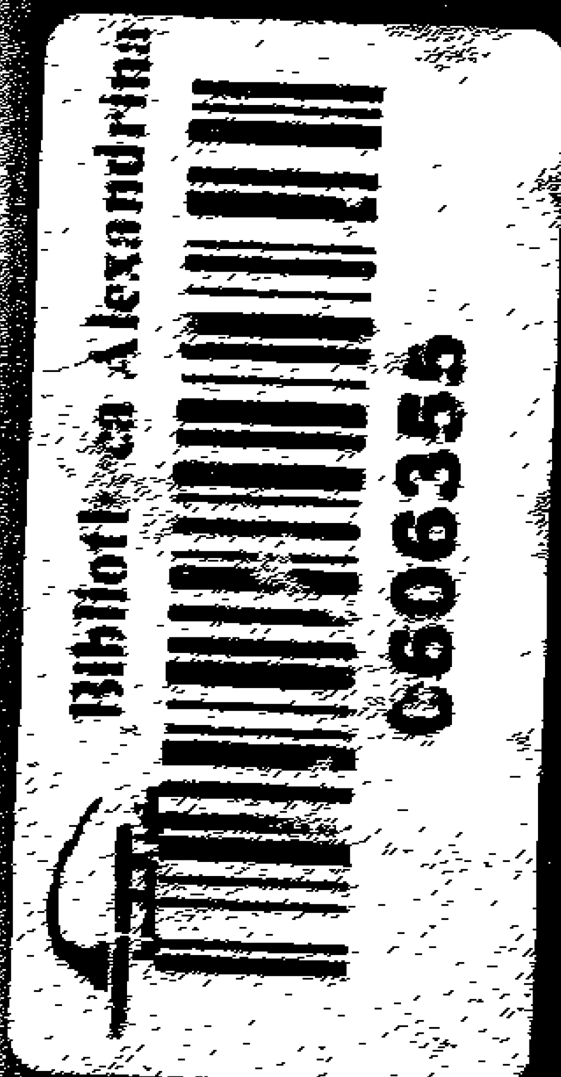
الباب الثالث: باب الفحص عن أمر دمنة ١١١
[المرأة الخائنة] ١١٣
[الجهل يؤدي إلى التهلكة] ١١٨
[حكاية البازيار والببغاءَيْن] ١٢٤
الباب الرابع: باب الحمامة المُطَوَّقة ١٢٩
الباب الخامس: باب البُومِ والغِرْبَانِ ١٤٣
[نصح الغراب للكراكي] ١٤٦
[الأرنب تنقذ جماعتها من ملك الفيلة] ١٤٧
[حكاية الأرنب والصفرد والناسك الكذاب] ١٤٨
[أمر اللصوص والناسك] ١٥١
[قصة اللص الذي أصلح بين التاجر وزوجته] ١٥٤
[الناسك والفأرة] ١٥٦
[محاورة بين ملك الضفادع والثعبان الأسود] ١٥٨
الباب السادس: باب القرد والغَيْلَم ١٦٣
[حكاية الأسد والحمار وابن آوى المكّار] ١٦٦
الباب السابع: باب النّاسكِ وابنِ عِرْسٍ ١٦٩
[أحكام الناسك] ١٦٩
الباب الثامن: باب الجُرَذِ والسِّنَّوْرِ ١٧٣
الباب التاسع: باب الملك والطائر فَنْزَةَ ١٧٩
الباب العاشر: باب الأسد وابن آوى ١٨٥
[الأسد وابن آوى] ١٨٥
الباب الحادي عشر: باب اللَّبُؤَةِ والإِسْوَارِ والشَّغْبَر ١٩٣
الباب الثاني عشر: باب إيلاَذَ وبَلاَذَ وإيرَاخْتَ ١٩٧
[الحمامتان والحَبّ] ٢٠٥
الباب الثالث عشر: باب الناسِكِ والضيفِ ٢٠٩
الباب الرابع عشر: باب السائحِ والصائغ ٢١١
الباب الخامس عشر: باب ابن الملكِ وأصحابهِ ٢١٧

[حكاية السائح والهدهدين وما كافأه به] ٣١٧
الباب السادس عشر: باب الحمامةِ والثعلبِ ومالكِ الحزينِ ٢٢٣
الخاتمة ٢٢٥

التنفيذ الطباعي: دار القماطي للطباعة
٠١/٤٥٠٤٥٤-٠١/٤٥٠٤٦٧ بيروت.لبنان







هاتف: 834301 - 834332 - 858830(01) فاكس: 835614(01)
ص.ب: 7876/11 بيروت - لبنان - البريد الإلكتروني e.mail: info@marefah.com
http://www.marefah.com

